الأعمال الكاملة

فؤاد قنديل

- عقدة النساء
- كلام الليل
- العجز
- عسل الشمس
- شدو البلابل والكبرياء
- الغندورة
- زهرة البستان




منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

الأعمال الكاملة

فؤاد قنديل

(١) عقدة النساء
(٢) كلام الليل
(٣) العجز
(٤) عسل الشمس
(٥) شدو البلابل والكبرياء
(٦) الغندورة
(٧) زهرة البستان



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٢

الإخراج الفنى:

ميرفت عنتر النحاس

تنفيذ كمبيوتر طباعى:

إدارة الجمع التصويرى

عقدة النساء

أمنـا الغـولة

الساعة الثانية عشرة، مازال باقيا على موعد انصرافنا من العمل ساعتان ، عيناى تطلان فى الأوراق.. اشتبكت سطور الكلمات، كجنود انصرفوا من الطابور.. بدأ القلم فى يدى يتوقف، حين افتقد المدد من الذهن الغائب المشغول .. تأكدت أن رأسى فوق كتفى موجودة، طرقت أبواب رأسى ، لم أجد لى بالداخل مخا، ترك بيته وذهب أو لعله هنا، لكنه آثر أن يعتزل العالم .. انكمش حتى تلاشى ، فربما كان هذا أهون عليه وأيسر من الخوض فى متناقضات .

تقطعت خيوط أفكارى انصرفت عن الأوراق ، لا أريد أن أعود إلى المنزل فى تمام الساعة الثانية والنصف ككل يوم ، وكما تريد أمى التى تصلى الظهر ... وتنتظر نحو ساعتين ، تتحرك فيهما هنا أو هناك .. ثم تستعد لى .

تبدأ بالسؤال عن الساعة ، وعندما تجدها حوالى الثانية والنصف، تجلس فى انتظارى فى ردهة شقتنا المستطيلة كممرات الفنادق ، عالية السقف كالمستشفيات .

تثبت أمى عينيها على الباب ، وحين أدق ، تهب من مجلسها لتفتح لى .. تنشب نظراتها فى وجهى .. هل فيه أى تغير؟ ... هل نظراتى ثابتة أم وجلة؟.. هل فى وجهى أثر للزينة؟.. هل خدودى حمراء؟ .. وإذا كانت حمراء فلا شك أنى خجلى من سلوك مشين لا يرضيها.. هل أزرار الجاكت أو البلوزة أو أى شيء أرتديه مغلقة حتى رقبتى ، هل

أظافرى عليها طلاء؟ . هل فى أذنى حلق؟ . هل خصلات من شعرى أمام أذنى أم خلفهما؟. هل هناك خصلة مدلاة على جبهتى؟. هل الجونلة مرتفعة وتبدى ركبتى؟ وقبل ذلك تنظر بعين رجل الشرطة المتأكد من جريمة المجرم ولكنه يبحث عن وسيلة يوقعه بها .

تنظر إلى شفتى ، هل هما حمراوان؟.. وإذا كانتا حمراوين فمن الزينة أم من العبث بهما بصورة أو بأخرى .. أقصد أن يكون قد اقترب منهما أحد غيرى.

أكون قد قلت لها : مساء الخير ياماما ، فإذا اطمأنت إلى سلامة سلوكى ، كما يبدو فى شكلى ، فإنها ترد : مساء الخير ، وإذا شكت فى شىء .. ولا مجال أبدا للشك فى ـ فإنها تستدير وتعطينى ظهرها وتتقدمنى إلى الداخل ، تتمايل من ضخامة جسدها ولا ترد التحية ... لكنها تقول كأنها لا تعرفنى ولم يسبق لها أن رأتنى :

لماذا تأخرت ياست هانم؟

عندما اسمع هذه الكلمات ، أحس أن اليوم لن يفوت على خير ، وأشك فى سلامتى ومع إنى أعرف أن سؤالها لى على هذا النحو مقدمة لعلقة ساخنة ، أقصد دامية ، لكنى أرد من قبيل سد الخانة :

ـ أبداً ياماما .. إنها المواصلات .

ـ مواصلات .!

ـ المواصلات والله .

ـ تعالى هنا .

وتقتادنى حتى المكان المخصص للضرب ، وهو حجرة النوم الداخلية ، البعيدة عن الشارع . هذا فى حالة العلقة المنظمة ، لكن فى حالة الانقضاض المباشر ، الذى لا تترك شحنة الغيظ فيه أية فرصة للتنظيم ، فإن ذلك يحدث على أى أرض . عند الباب أو فى المطبخ ، فى الحمام أو فى حجرة الصالون ، تحت السرير أو فى مسقط النور ، فوق درجات السلم أو تحت السلم .. أينما تكونوا يدرككم الموت .

وهكذا تكون الفريسة محاصرة تمام ، لا تملك سبيلا للفرار، وحتى لو تيسر السبيل للفرار فماذا يجدى؟ سوف تتقدم الفريسة ، كما تقدم من قبل سقراط وجان دارك وغيرهما. طائعة ، خاضعة ، مسلمة بقضاء الله وقدره ومؤمنة بقضاء أمى وقدرها .

ـ بعض الأقارب كانوا ومازالوا يقولون عن أمى :

ـ كثيرون هم الشباب الذين حفيت أقدامهم من أجلها ، لكنها حطمت قلوبهم بدلا لها وحدة نظراتها وقوة شخصيتها ، وكان أبوكم بينهم، ولكنه استمر يناضل حتى النهاية .

نعم هى جميلة وجلدها طرى ولحمها بض، ولونها أبيض ناصع وسيمنة وعيونها سوداء وملامحها دقيقة جذابة ، وفجأة يختفى هذا كله ويتحول فى غمضة عين إلى شىء آخر ، ليس فيه أى مسحة من جمال ، لا أرى ولا يرى غيرى إلا نظرات نارية. أسنان بارزة حادة تعودت أن تأكل من لحمى إذا لزم الأمر ، والأمر يلزم دائما ـ لا يقلل من ذلك عمرى الذى يزيد يوما بعد يوم حتى بلغ الثالثة والعشرين ، ولو تزوجت من سنين لأنجبت ثلاثة أو أربعة .

.. هذه هى الظروف . فلا بأس . هى لاتعير ذلك كله أدنى التفات.. قد يكون صغر حجمى هو الذى يغريها بضربى لأتفه الأسباب.. فأنا كلى على بعضى ، أساوى بالضبط فخذ واحد من فخذيها الذين تضع أحدهما فوق صدرى حين أقع على الأرض ، وأنا أقع وحدى من فرط خوفى فيكتم الفخذ الثقيل أنفاسى ، واستعد لاستقبال الموت بين لحظة وأخرى . تشد شعرى :

ـ يا مجرمة .. يا سايبة.

لا يكون هناك ما يدل على أنى مجرمة أو على أنى سايبة فأنا ـ وهى تعلم ذلك ـ مربوطة ربطة ـ لا يعلم غير الله ـ كم هى عنيفة وقاسية ، أقوى من تلك الربطة التى ربطها رجال بولاق الحاوى الذى جمع الناس حوله ، وقال إنى أفك القيود .. فأوثقونى بالسلاسل وثاقا أبديا ، يجرى الدم فى عروق الثلج .

تتناوب الدق على صدرى ورأسى بيديها ، وبفخذها الثانى المتحرك وإذا حاول أبى أو أختى ـ وكلاهما مثلى ضئيل الحجم ـ أن يتدخلا فإنها تدفعهما معا دفعة واحدة بذراعيها ، ويدوى فى الأرجاء صوتها الأجش المفعم بالغيظ حتى ليكاد يهدم الشقة .

ـ ابتعدا ، ابتعدا تريدان أن تفسداها ، لكننى سأربيها ، بنت الكلب المجرمة .

ولا يكون قد حدث شيء يستدعى ذلك كله . أنها مجرد لحظة شك وأحاول انقاذ نفسى ، مادام لا يستطيع انتقادى ؛ كما وأنه من غير المعقول أن أتوقع الرحمة من أمى فى هذا الوقت المبكر .. فمازال فى جعبتها الكثير ، وهى ما تذر من شيء عليه إلا جعلته كالرميم . أحاول الزحف تحت السرير أو الكنبة ، أو تحت الدولاب إذا أمكننى ، لكنى لا أستطيع لأن فخذها مغروس فى أحشائى ويظل لها قاعدة حربية ، يربطنى بها .

حين تتعب ، وتنقطع أنفاسها ، تحاول أن تتركنى ، لكنها لا تراه مشرفا لها أن ترحم فريستها بهذه السرعة ، يجب أن تمتد العلقة ويطول أمدها ، كى تكون مؤثرة ورادعة لما قد حدث، ومانعة لما يمكن أن يحدث .. إن فى ذلك لذكرى لمن له قلب، أو القى السمع وهو شهيد .

كما أنه لا يجب أن ترحمنى بناء على رغبة غيرها .. كرامتها لا تسمح بذلك .. الواجب أن يحدث ذلك بناء على رغبتها هى .. وحسب مزاجها هى ، ما تراه تفعله ولا راد لها .. وحتى لو اجتمع مَنْ فى الأرض من أنس وجن ، ليبعدوها عن ضحيتها لما استطاعوا ...

ولو استطاعوا ـ وهذا ما اتفقنا على استبعاده تمام ـ فإن جسدها يضطرب تحت ضبط أعصابها المندفعة ، وقوتها المتأججة بالوحشية تتصلب أعضاؤها ، ويصفر وجهها ، ويسيل منها العرق سيلا متصلا كأنه من السماء ماء منهمر .. ثم تتمدد على الأرض .

لا نلبث أن نهب جميعا ، نحن أولادها التسعة حتى الشخص المضروب .. نبكى ونقول : ماما .. مالك ياماما وننظر إلى المضروب أو المسحوق ، نظرات غضب وذراية .. أليس هو السبب فيما حدث لأمنا؟.. ويبتلع المجنى عليه النظرات والاتهامات فى مضض كدواء مر لكنه يضمن له الشفاء .. أما نحن فلا نستطيع أن نفعل شيئا غير أن جدتى تخرج أخيرا من مكمنها وتنحنى فوق أمى وتهمس فى أذنيها: الله أكبر .. الله أكبر . وينكفيء عليها أبى ويقول لها : أفقى ياست الستات .. وينادى : الكولونيا يابنت ... الماء يا ولد .. بصلة يابنت.. الوسادة ياولد .

فى اليوم الواحد تحدث حالتين أو ثلاثة من هذا القبيل .. ومع ذلك فهى ضخمة الجثة، متينة البنيان ، قوية الأعصاب ، متوردة الوجه ، دانقة الدم ، تهتز لكل شيء ، وتنفعل لكل صغيرة ، ذلك كله مجرد سهام لا تؤثر فى الحصن المنيع .

طعامها قليل وشرابها نادر ، بكاؤها سريع وأمده قصير ، لكن ضحكها كثير ، حية تسب وتلعن طول النهار ، وبعد دقائق تبتسم، وتتحرك فى كل مكان بالشقة الكبيرة ، تخدم أولادها وأمها وزوجها فى إخلاص وأمانة جديرين بالدهشة .

أما نحن أولادها التسعة ، فلولا بعض التغذية التى تهتم هى شخصيا بإعدادها ، وتكلفها الكثير لمات بعضنا من الهزال والضرب والسب، ودعواتها لله طول النهار أن تأكلنا القطارات والسيارات ، وتلف حول رقابنا العقارب والثعابين .. وتشق بطوننا السكاكين ، ويأتيها خبرنا عن قريب .

أجسامنا مثل أبى نحيلة مقددة ، ملابسنا لا تغطى غير عظام وعروق نافرة .. لكن شكلنا ـ ولا أمدح نفسى ـ وسيم وملامحنا دقيقة والعيون سوداء ليلية السواد ، والبشرة بيضاء ناصعة البياض، والأنف صغير كفص الخاتم ، والشفاه حمراء والأذن صغيرة بخفيها الشعر الأسود الغزير ، الذى يمتد خلف ظهرى بطول ذراعى ـ ولا أمدح نفسى ـ إذ أقول برغم التحول الظاهرى بالفعل على الأطراف والوجه والذراعين والساقين والخصر والرقبة إلا أن الركبتين والصدر والردفين فممتلئة ومتناسقة ، ويسعدنى أن ألحظ أثر الإعجاب بهم واضحا فى عيون من ينظرون إلىّ..

وأخشى أن يعتبرنى البعض إننى أمدح نفسى إذا أضفت إلى ما سبق ، ما أنا عليه من خفة الدم وحلاوة الروح وعزة النفس والطموح والنصاحة والكرم .. أنا لا أمدح نفسى ، ليس فينا جميعاً عيب يذكر غير بعض النحول كما قلت وهو والحمد لله لدى الأولاد أكثر مما لدى البنات .، لكن لابأس ، فهو الموضة هذه الأيام .. ألا تلاحظون ملابس النساء المستوردة من إيطاليا وفرنسا واليابان كلها للحجم الرفيع والعود الممشوق كالغزال .. نعود إلى أمنا .

بعد أن تهدأ أمنا الحنون ، تأمر على الفور بأن يقدم الطعام الشهى المتعدد الأصناف للشخص المضروب ، وخاصة إذا كان أنا .. ومن الطبيعى ألا تكون لدى الشخص

المضروب، رغبة فى تناول الطعام، لكنه يعلم فى الوقت ذاته أنه إذا لم يأكل فسوف تعود إلى ضربه بغيظ وطيش شديدين وبطش وثورة ضاربين .. تتقدم من الفريسة مرة أخرى ، وصوتها يجلجل فى كل فضاء الكون ، كأن الله قد خلق منها أعصاراً.

ـ أتبغون موتى ؟

الساعة الثانية عشرة والنصف وتزيد.. عيناى ساقطة على الأوراق.. عن بين السطور أرى بجلاء صورة الشاب الوسيم الذى يجلس على مكتبه أمامى.. أرفع رأسى قليلا.. استرق النظرات إليه.. أفرح .. لشد مايعجبنى هذا الشاب.. حركاته منسقة، نظراته بحساب، كلامه لطيف، ابتسامته ألطف، عوده فارع رشيق.

أنظر إلى الفتاة التى تجلس على مكتبها إلى جوارى،. لاير لها على الكرسى قرار، لأكثر من نصف ساعة، تذهب إلى سمير كثيرا وتحدثه فى أى شىء.. عينى لاترى غير أوراقى وأمى، أما أذنى فهى دائماً مع الفتى والفتاة.. ويدوى طبعاً معهما كالموسيقى التصويرية صراخ أمى.. وهو بالنسبة لحياتى كخلفية الصورة..

الفتيات يأتين من الحجرات الأخرى ليتحدثن مع سمير.. قد يذهب إلى حجراتهن .. من أجل العمل يتحدث إليهن ويعود إلى حجرتنا، لكن بقايا الابتسام معلق بشفتيه، تطل من خلالهما اسنان بيضاء كعقد لولى.، لست أدرى لماذا لاينظر إلى!.. كلامه معى قليل، ربما لأن كلامى معه قليل.. أو ربما لأنه حاول أن يطيل الحديث معى مرة منذ أكثر من عام، لكننى رددته خائبا بكلمة عنيفة وسخيفة لم يبن لها داع بالمرة.. أنا، أنا السبب.. ومن يومها وهو لايسألنى ولايحدثنى إلا فى العمل وعن العمل.

يتحدث إلى الجميع.. فتيات وشبا ب. وشيوخ، وأنا لا أتحدث إلى الشباب ولا الفتيات.. كنت أتبادل بعض الكلمات مع كبار السن، ثم امتنعت لأن أمى قالت لى أمام أبى:

ـ كل الرجال كذابون، مجرمون، طامعون ولصوص حتى كبار السن، خلق الله فى الرجال كل العيوب.

سمير شخص لطيف، وأريد أن أتحدث معه عن موضوعات لم أحددها بعد، لكنها لاتخص العمل،. إذا سألته سؤالا أو طلبت منه طلبا أو قصدته فى شىء فلن يردنى، يعرف

كيف يتحدث إلى الفتيات بلباقة وأدب، لسانه يقطر بالسحر فى كلمات وابتسامات، ماذا لو قلت له: أريد أن أدخل السينما حفلة الثالثة.

خاطر يتردد فى رأسى ويدور فى فضائه، وكحجر هشم زجاجا تبعثرت كلمات السؤال فى رأسى، وتطايرت الشظايا أمام عينى.. معقول أم غير معقول وبالطبع غير معقول.. أول ماشطح نطح.. لا، يكفى أن أقول له كيف الحال يا أستاذ سمير لا.. يكفى أن أبتسم له.

نظرت إليه مباشرة، وجدته يسند القلم إلى شفتيه، وينظر جهتى ابتسمت له.. لم يتحرك.. سحبت ابتسامتى كالفأر حين يدخل حجرة.. كان شاردا ولم يكن ينظر إلى كما اعتقدت.. كان يطل وهو ذاهب الفكر فى نتيجة الحائط التى تعلو رأسى.

أريد أن أدخل السينما، أريد أن أتحدث إلى سمير، لدى رغبة أن أعصى أمى مرة.، أكاد أختنق شوقاً إلى هذه الرغبات الثلاث.. كنت صادقة بلاشك حين نويت أن أطلب من سمير دعوتى للسينما، وسوف يكون ذلك تحقيقاً لرغباتى الثلاث مجتمعة، بعد ذلك تهدأ أعصابى ولا أعود أبداً إلى السينما ولا إلى سمير ولا لعصيان أمى.. أو ربما أعود يوما ما.. ولكن طبعاً بعد مدة..

منعتنى أمى عن الرجال وعن السينما، قالت لى أنها من صنع الرجال ومادامت من صنعهم فهى سيئة مثلهم.. لكننى أحبها وأصحب أخواتى إليها فى العيد، كل عيد، وبعد خروجنا أنسى ما رأيته تماماً كأنى لم أكن فى السينما، وأتأكد من ذكاء أخوتى، فأسألهم: اذا سألتكم أين كنتم، فماذا ستقولون! فيردون كالريفى حافظ القرآن عن ظهر قلب: دخلنا حديقة الحيوانات ولعبنا الكرة وأكلنا الترمس وشاهدنا القرود والفيلة.. شطار.

أحب السينما، لكننى لا أستطيع أن أدخلها وحدى، لأنى لا أحمل نقوداً أكثر من ثمن فطورى والمواصلات.

قلبت فى رأسى فكرة دخولى السينما مع سمير: ماذا سيحدث؟ سأتأخر، سوف أقول لأمى كان عندنا عمل إضافى.. لكنها سوف تطلب منى أجرى عن هذا العمل، وسوف آخذ علقه مع ذلك لأنى لم أبلغها بتأخيرى قبل أن أتأخر.

كان يجب أن تتصلى عن طريق التليفون بأبيك فى الدكان؛ ويبعث إلينا ولد من صبيانه ليبلغنا. لكنها لا تسلم بهذه البساطة، فلا تكتفى بهذا المرسال، وإنما تبعث هى

بولد من صبيانها ليتصل بتليفون خارجى، ليتأكد من وجودى فى عملى، ربنا يستر ولا تتصل اليوم، لأن علقة الأمس لم تبرد بعد، ونهش ذراعى ما زال دامياً ويصعد منه الألم ساخناً إلى رأسى، سأقول له: خذنى إلى السينما يا سمير ولا أظنه سوف يمانع. فجأة اقتحم كيانى صوته يقول فى وقار يفتعله خصيصاً لأجلى.

ـ آنسة سامية.. هل أنهيت كشوف العمال؟

بدا لى من المناسب أن أنتهز الفرصة المتاحة لى.. القادمة إلىّ وحدها قلت بدلال تصاحبه ابتسامة.. مستعجل قوى.. قال مندهشاً: نعم!

قلت: مستعجل قوى؟

ضحك فى سعادة واضحة وما زالت الدهشة تلتف حول لسانه:

ـ لا أبداً.. ولكن.. يعنى

فتجرأت أنا حين تلعثم وتعثر لسانه:

ـ إذا كنت تريد أنت أن أنتهى منه الآن، أنهيته الآن.. لك ما تريد يا أستاذ سمير.

لمحت بطرف عينى رأسى زميلتى يدور ويتجه ناحيتى، أحسست أن المسألة زادت عن حدها المعروف عنى.. سحبت ابتسامتى، أخفيتها فى درج شوقى.. تراجعت أفكارى.. وعدت أقول: الباقى أمامى قليل.

أحس أنى سأرجع فى كلامى، وسأغير طريقتى التى سعد بها، أراد أن يحدد الحديث.. يدفع فيه النار: كم من الوقت يلزمك يا آنسة.

ـ ليس كثيراً.. قام من مكتبه، وعلى شفتيه مشروع ابتسامة لا تريد أن تتم.. وكلماته تسبقه إلىّ: ممكن أعرف كم كشفاً أنهيت؟! وليبرر قيامه:

ـ لأن المدير سألنى عنها عدة مرات.

انحنى فوقى، حتى ليكاد يعطينى تماماً.. ارتعدت أطرافى.. انكمشت كقطنة مبتلة.. لم أعد أكتب شيئاً.. لم أعد أسمع ولا أفهم شيئاً.. قلبى يزرع صدرى جيئة وذهاباً، وعيناى المضيئتان تدوران فى محجريهما، خائفة خوفا لذيذا أكاد من هولة ابتسم.. سمير

ولد عفريت.. ميزته أنه يتقدم في الوقت المناسب، ويتقهقر في الوقت المناسب وأنا اليوم لا أريده أن يتقهقر، إنما أريده أن يتقدم، أتمنى أن يتقدم.. آه.. لا.. يجب ألا يكون ذلك على حساب كرامتي أو مظهرى المعروف لدى الناس.. كل شيء له حدود.

أحسست أني فى أحضانه، أنفاسه قريبة أتابع مسيرها بأذنى ونبض قلبى.. رائحته عبقه مثيرة.. هل يا ترى كل الرجال مثله؟.. لا أعتقد.. أحس بنظراته تقلب قفايا وتنقب فيه.. تدخل إلى ما تحت ثوبى حتى صدرى، ربما كان صدرى عاريا وأنا لا أدرى.. نظرت إلى الصدر.. الأزرار حسب الأوامر مغلقة حتى رقبتي ـ لا بأس.. أحسنت أمي صنعاً. ربما كانت ركبتاى عريانتين.. نظرت إليهما بتلصص.. لا.. ليستا عريانتين. قال:

ـ أرنى.

ـ ها هى الكشوف.

ـ أين؟

سيغشى على.. لن أستطيع الاستمرار فى هذه اللعبة.. كبيرة على.

ـ أمامك.

وجه زميلتى مازال موجها إلينا.. قال وهو يبتعد.

ـ الباقى كثير يا آنسة سامية، أرجوك تخلصيه، المدير سألنى عنها كثيرا.. لابد من إنهائه اليوم وقبل نزولك.. لو سمحت.

ـ سمعاً وطاعة يا أستاذ سمير.. عنينا لك ولسعادة المدير.

ابتسم فى أعماقه.. هكذا قالت عيناه واستدار تجاه مكتبه قائلا: شكرا يا آنسة سامية.

جلس إلى مكتبه ونظرت إلى أوراقى.. ثم إلى زميلتى، عاد وجهها إلى مكانه.. سمير ينظر فى أوراقه، لكنه لا يعمل، يحرك القلم فى أى شيء، يفتح الأدراج.. عقله ليس فى رأسه.. أحسست بالراحة والفرح يلفان قلبى ويتعلقان بأنفاسى.. لقد أثرته.. أنا جميلة إذن، دمى خفيف بلا ريب وأمى جميلة.. أمى.. أمى شديدة.. تذكرت منزلنا، الباب والردهة المستطيلة، تتابعت الصور أمامى، ضرب وصراخ وسب، وقيود.. لا تفعلى هذا.. لا .. لا..

عقلى مقيد وقلبى مخنوق، أرتعد لأتفه الكلمات، اتلعثم لأقل الأمور شأناً، أخاف من كل شيء، من أمي.. من أخوتى لأنهم رسل أمي، من الرجال ومن النساء ومن السينما ومن الحب ومن الطريق.. نسيت ومن الله طبعاً.. أريد أن أبكي.

أحس أني كائن صغير جداً.. لا أستطيع أن أتأمل الأشياء، لأنى لا أملك شيئاً.. أريد أن أمتلك شيئاً.. أى شيء.. أنا فرحة إذ أثرت أخيرا فى شخص، فى سمير بالذات.. قد كان ذلك ممكناً منذ زمن لولا أنى لم أحاول.

لا يكتب، أنا متأكدة أنه يفكر فى.. يفتح الأدراج ويقفلها.. خرج وعاد.. نظر إلى زميلتى.. وجدها تعمل.. نظر إلى وابتسم.. أكل ما تحت شفته السفلى، لمحته ينظر إلى، ابتعدت نظراته.. انشغلت بالأوراق لمحاولة أرضائه.. صورة أمى تعربد فى الورق، تحفزنى أكثر للعمل كى لا أتأخر.

الجو الآن مهيأ له فى نفسي، يمكنه أن يطلب السير معى فى الطريق بضع خطوات، بل يمكنه دعوتى إلى شراب وسأقبل، سوف يقول لى سأوصلك سوف أقول له آسفة لأنى سأدخل السينما، سيقول لى: وحدك؟ فأقول: نعم.. سيقول لى: هل يمكننى أن أصحبك؟ سوف أقول له بعد فترة وبدلال.. لا مانع، سيسرع بقطع التذاكر وندخل معاً فيلم «مصير العشاق».. يقولون إنه رائع.. يجلس إلى جانبى ويلمس يدى ويشترى لى ما أحب.. الشيكولاته والكوكاكولا واللب.. ستكون السينما مكيفة.. إنها درجة أولى لكنه.. لكنه إذا قبلنى أو حاول ذلك فلن أكلمه بعد ذلك أبداً.. سوف يحدث هذا بالفعل.. هذا إذا خرجنا معاً.

انتهيت من عملى، نزلت زميلتى ولم ينزل سمير.. الساعة الآن الثالثة.. ياه.. يمكننا بالكاد أن نلحق بالسينما ـ غير بعيدة من هنا، أخذت أتحرك بصورة تجعله يحس باستعدادى للنزول.. أحس، جمع فى ثانية أوراقه.. احتوتها جميعا قبضته دسها فى أدراج المكتب، أخذ من المكتب نظارة شمسية أنيقة وأغلقه عند الباب، اتفضلى يا آنسة سامية.. خفيف الحركة، يتصرف برشاقة. تغرى باستغلالها.

خرجنا من باب العمارة.. أصبحنا فى الشارع.. الشارع واسع جداً، مملوء بالناس جداً.. ما كل هذه الجموع؟ عدد كبير كأنهم مظاهرة.. ينظرون إلى كأنى عريانة..

يحلقون فى، سيدة سمينة تلبس الأسود، تتقدم نحونا بغيظ فى عينيها وعنف فى خطواتها.. لا .. ليست هى.. كنت أحسبها أمى.. هناك أخرى قادمة تلبس الأسود.. هى أمى بالطبع.. إنها تعلم كل شيء.. عرفت بإحساسها أنى سأخرج مع سمير.. أو جاءت تبحث عنى لأنى تأخرت.. لا.. ليست هى.. ربما كانت التى عند الناصية تقف.. لا..

ـ ستركبى الترام.

ـ لا

ـ ذاهبة إلى مكان قريب؟

ـ نعم

ـ ممكن أعرفه

ـ سينما راديو

ـ وحدك؟

ـ نعم

ـ هل يمكننى أن أصحبك؟

ـ ...

ـ أقول.. هل يمكننى أن..

ـ ماذا تقول؟

ـ هل يمكن أن أصحبك إلى السينما.. ليس عندى ما يشغلنى الآن حتى المساء.

بالضبط كما رسمت.. أننى خبيرة بمثل هذه الأمور.. رغم أن صديقتى الوحيدة سمرا.. تقول عنى ساذجة..

ـ ماذا قلت..؟

حاول أن يتماسك رغم ما بدا عليه من التلعثم:

ـ أصحبك إلى السينما.

ـ من أول مرة

ـ أنا أعرفك منذ ثلاث سنوات..

لا أنظر إليه وإنما أنظر إلى الناس الذين يحلقون فى ويتلفتون على

ـ لم تكن بيننا أية علاقة.

ـ بل كانت هناك علاقة لكنك لم تلتفتى إلى ولم تحسى بى
ـ هذه الكلمات تقولها لغيرى.. لا لى أنا
ـ أقسم لك أنها لك وحدك
ـ صحيح يا أستاذ سمير
يا خبر.. هل سمعنى أحد؟ أمى سمعتنى بالتأكيد
ـ صحيح يا آنسة سامية
ـ طيب عن إذنك
ـ إلى أين
ـ قلت لك ذاهبة إلى السينما

قال متوسلا ـ أصحبك.. هل تودين أن أظل سائراً فى الشوارع طول النهار.. أصحبك يا سامية.

قلت له بعد فترة صمت ودلال كما اتفقنا من قبل:
ـ لا مانع.. اتفضل
ـ فيها فيلم «مصير العشاق» أليس كذلك؟
ـ نعم
ـ ولماذا تريدين أن تدخلى هذا الفيلم بالذات؟
ـ يقولون رائع
ـ أم تريدين معرفة «مصير العشاق»
ـ ربما
ـ ماذا تتوقعين أن يكون مصيرهم؟
ـ جهنم وبئس القرار

ضحك ـ يعوذ بالله.. فكرتك عن الحب غريبة جدا
ـ هى الحقيقة للأسف
ـ إذن فقد جربته

آه، سوف ندخل فى فرعيات لم أكن قد أعددت لها شيئا ويستحيل على الخوض فيها وهى الوحل بعينه..أمسك بيدى.. سحبتها منه بشدة قلت له ـ أرجوك يا أستاذ سمير .. يكفى هذا .

تعثرت قدماى .. حاولت عبور الطريق المتسع كالبحر الهادر، سرنا، الناس ينظرون إلى نظرات لم أتعود رؤيتها.. ليست نظراتهم خالصة أو نقية.. فيها شيء غريب بل أشياء... عبرنا الطريق.. وصلنا إلى الميدان، تسمرت قدماى فى الأرض بالقرب من محطة الترام الذى أركبه كل يوم إلى منزلى.. نظرت إلى مقدمة ترام يقف فى المحطة.. السائق ينظر إلى.. بجواره سيدة تشبه تماماً أمى.. بل هى أمى.. لا .. إنها تشبهها فقط، لها نفس نظراتها المدببة، تحتقرنى وتتوعدنى.. دق قلبى بعنف.. نظرت إلى الميدان المتسع؛ وجدت فيه أمى، رفعت رأسى إلى السماء، وجدت أمى تطل منها كسحابة ضخمة تخفى السماء والشمس والضياء.. تحتقرنى وتتوعدنى لو سحقنى الترام فى هذه اللحظة لما حزنت ولا فزعت، شيء لا غرابة فيه، معقول تماما ومناسب جداً.

صنع الخوف فى أعماقى طاقة كهربية دفعتنى إلى الترام وهو يعدو بسرعة. قفزت فيه، كما يفعل الصبية والفتيان، لم أفكر ولم أسمع ولن أفهم.. أغلقت فى نفسى كل أبواب الحس. لوحت لسمير سعيدة يا سمير..

نظر إلى مندهشاً كان نسراً خطف منه أنفه أو أذنه بدا حائرا مذهولا.

تقدمت إلى أعماق الترام، ادفع الناس وانفذ فى الزحام، أخفى وجودى عن العيون التى تنظر إلى كأنها تود أن أخلع ملابسى إذا كانت لا تزال فوق جسدى.. يريدون أن يلتهمونى أو يضربونى.. قلبى يدق وأطرافى ترتجف.

طرقت باب الشقة، لم يكتمل الدق.. فتح الباب بشدة.. أمى أمامى.. عملاقة.. لعلها سألتنى سؤالا.. أعتقد أنها سألت، لكنى لم أسمع وبالطبع لم أرد، ولم أفهم شيئاً، منذ أن قبضت علىّ بمخالبها وأظافرها، دستهم فى داخل لحمى وعظمى. دفعتنى أمامها إلى آخر حجرة فى المنزل.. القت بى على الأرض فى هدوء.. استعدادها واضح.. ونيتها فى الحرب الطويلة لردعى جلية..

انقضت علي.. ومن حسن حظي رحت في غيبوبة.. لم أحس خلالها بشيء.. فشكراً لك يا من تعطينا البلاء والوسيلة لتخفيفه.

حين استيقظت... ووجدت الجميع حولي يبكون ويحيطونني بكل نظرات العطف والاشفاق.. بحثت فيهم عن سمير، لم أجده.. قدمت أمي بنفسها الطعام لي... وأصرت علي أن أذهب في المساء إلى السينما مع أختي.

أسوان في ديسمبر ١٩٧١

كان وهما

الشارع ممتد أمامي، عريض يمتلىء بالحركة والناس، كأنه طابور نمل في عز الصيف. كل شيء يتحرك في آلية دائمة، حتى البشر يتحركون دون أن يحملوا في رؤسهم أى فكرة عن هذه الحركة كل منهم أسير لها ويسير بها، كذلك يدور كل شيء في المدينة، معصوب العينين كبهيمة تدور في الساقية، لا تعى من أمر حركتها شيء، تدور. فقط تدور ولا تعلم أنها تدور، لأنها لو علمت فربما كرهت ذلك وضاقت به، فالعلم بالحقيقة والإحساس بالظلم والقهر يدفعان إلى الثورة حتى عند البهائم، وكل ما تحس به البهيمة، أنها في مشوار، يصاحبه أنين الساقية وسقوط الماء... لا تعرف هل سيقصر هذا المشوار فينتهي عندما تلسع جلدها شمس قوية في الظهيرة... أم تراه يطول حتى إصفرار الشمس، حتى لا يكاد يبدو لها أثر في العين المعصوبة.

قدماى تتسابقان على أسفلت الطريق المفعم بالنمل ـ لا أحس بهما منشغل عنهما بلا شيء.

كثيراً ما يحاول الإنسان أن يبدو مشغولا وقد لا يكون في الحقيقة كذلك، لكنه يحب أن يكون كذلك.. كل الناس تحب أن تبدو في نظر غيرهم مفكرين، وهي عادة عندى.. لا احس بقدميا حين أسير، لا أفكر في حركتهما... وهل أنا وغيرى قادر على التفكير في

الأمور الهامة والخطوب الملمة الثقيلة حتى تتاح من فكره بقية ليشغل نفسه بحركة قدمية أثناء السير... أو حركة فمه عند الشرب أو عند الأكل أو الكلام.

فجأة.. أحسست بقدميا.. وتأكدت أنهما كانا يحملانى، بل أحسست بأصابعهما تبرز من الحذاء وتنشب أظافرها فى الأرض، حتى يرسخان فيها كى لا أتحرك شعرة.. ولم أتحكم فى لسانى وأنا أشهق:

ـ من ؟.. وداد..

ـ غير معقول.. رشدى؟

تلقيت يدها فى يدى، الشارع مزدحم... لعنة الله عليه، والأكتاف تصطدم.. كنت أود أن أتلقاها بين أحضانى.. قلت لها بحنان وقد ذابت فى لسانى أشواق السنين الماضية:

ـ أهلا يا وداد.. وبنفس حالتى أخذت ترد على جواب كلماتى:

ـ أهلا يا رشدى.

أين أنت؟

ـ فى الدنيا.

ـ أنلتقى فى القاهرة بعد أربع سنوات.

ـ أنا فيها من سنة.

ـ وقبل ذلك؟

ـ كنت فى بورسعيد كما تعلم.

ـ فى القاهرة وحدك؟

ـ مع زوجى المهندس رمزى.. وأظنك تعرف أنه ابن عمى

ـ وكيف الحال؟

ـ الحمدلله.

ـ سعيدة؟

ـ يعنى..

ـ وحشتينى جدا

ـ بجد؟

ـ وحياتك

ـ أعرف أنك بتجدد عواطفك، كجلدك

ـ أغير كل شيء إلا أنت

ـ كان زمان

ـ ومازال.. أنت وحدك مازال مقامك محفوظا، واسمك محفورا.. لم يطرق باب قلبي أحد بعدك.

ـ هذا معناه أنه كان من الممكن أن تفتح بابك إذا طرقه طارق.

بل طرقه كثيرون. لكنهم لم يكونوا مثلك.. لذلك فلم أفتح وهل قلبي وكالة من غير بواب .. أو سبيل ..لا

قالت بدلال وبطء كأنها تخشى الزلل.. وإن كانت أيامنا الأولى قبل زواجها لم تختف تماماً.. فما تزال بعض السطور لم تطمس، تبدو على محياها، ويمكن قراءتها في عينيها البراقتين وفي دفء يديها اللتين خطفتهما من يديا:

ـ لا أخفي عليك أني سعيدة بسماعي هذه الكلمات.. وخاصة بعد هذه المدة.. هذا إن كنت صادقا.

ـ أقسم بسلسلتك هذه المعلقة في صدري دائما، تطالعني في صحوي ونومي، أني ما قلت غير الصدق، وتنبهت إلى حالنا فقلت:

ـ عندك وقت نقعد في أي مكان. ردت على الفور بعبارة لا تدل على ثقتها في صدق رغبتي:

ـ هل تعتقد في قرارة نفسكأأنك تريد حقاً الجلوس معي .

ـ مستنكرا. وداد.. أنا لم أتغير يا وداد، من الممكن أن تكوني أنت التي تغيرت، على على الأقل بزواجك.. هيا..

ـ مرة ثانية.

ـ بل الآن.

ـ صدقني.. مرة ثانية.

ـ إذن فأنت لا تريدين لقائى

ـ ولماذا لا أريده

ـ قد يكون لأنك متزوجة

ـ وهل ستأخذنى من زوجى، أو ستفعل ما يغضبه

ـ بالطبع لا.. بل سأفعل كلما يرضيك

ـ وهو الذى يرضينى؟

ـ حاليا لا أعرف.. خاصة لأنك ارتبطت بشخص آخر، ولمرور هذه المدة الطويلة...

ـ إلى اللقاء إذن

ـ لا بل ستأتى معى الآن، لنجلس قليلا.. نفسى أسألك عن أحوالك، أريد أن أطمئن عليك، وفوق هذا... فقد اشتقت إليك جدا.. ولقد حدثت أشياء كثيرة، يسعدنى أن تسمعيها.

ـ مرة ثانية.

ـ وإذا قلت لك أنى محتاج لك هذه الأيام.

تنهدت بهدوء وهزت رأسها، عضت جانب شفتها السفلى وقالت:

ـ وأنا أيضاً يا رشدى.

ـ ماذا تقولين؟

شردت نظراتها بعيداً، كأنها تريد أن تسلم نفسها لحلم، لكن الفضاء محدود، لا أفاق له ولا أماد... الشارع رغم اتساعه يصدم أى محاولة منك للتأمل أو التفكير المنساب.. قالت:

ـ صحيح.. تاقت نفسى لرؤية بيتنا القديم، أقر باؤنا.. وأنت نعم أنت وكراساتي القديمة أيام المدرسة والشخبطة التى تملأ صفحاتها ولعبى التى كنت ألهو بها أيام زمان والحارة، تتأرجح فى صدرى رغبات ملحة للعودة مرة ثانية إلى الماضى، لأطل على حقيقة ذكرياتى، فكلها بما فيها أنت، لها طعم جميل.. ولذيذ.. كل شىء قديم يا رشدى حلو ومحبب إلى النفس، يهفو إليه القلب، وترتاح لصوته الآذان وتسعد برؤياه العيون... كل شىء فى الماضى كالتحف، غالى الثمن جدا... لكنه لا يباع.

ـ يعنى أنا تحفة

ـ لم تفهمنى

ـ فاهم يا سيدتى فاهم.. تحفة أو لعبة من لعبك القديمة أو كراستك المشخبطة.. أنا راضى.. المهم نتقابل.

ـ حسب الظروف.

ـ أنت تعرفين أنى أكره الظروف.

ـ الظروف هى التى اتاحت لك فرصة لقائى اليوم

ـ لم يكن ذلك بإرادتنا وأنا أحب ما تصنعه إرادتى

ـ لا تنتظر أن تصنع شيئاً كثيرا بإرادتك، معظم ما يحدث فى هذه الدنيا لا إرادة لنا فيه

ـ لقد اشتقت إليك وأريدك

ـ لا تنسى أنى لست ملكك

أغرقنى الصمت.. سلمت نفسى له قليلا.. أحسست أنها تحاول ان تردنى لحقيقة هامة وأساسية بدا على أنى نسيتها.. قلت كالمستسلم:

ـ ماذا تريدين اذن؟

ـ ارجئها لفرصة أخرى

ـ فى الغد إذن

ـ لا... اليوم هو الاثنين. إذن يوم الخميس فى الخامسة مساءاً بكازينو قصر النيل مناسب؟

ـ وإن كان بعيداً جداً.. لكنى لا أريد أن اضغط عليك أكثر، فقط إنى محتاج إليك.

ـ إن شاء الله

ـ أين أنت ذاهبة الآن؟

ـ إلى طبيب الأسنان.

ـ هل يمكنني الذهاب معك؟

ـ الطبيب يعرف زوجي

ـ هل سنفترق من هنا ومدت إلى يدها قائلة:

ـ مع السلامة يا رشدى

ـ مع ألف سلامة يا وداد

لكنى لم أتركها تغادر مكان اللقاء هكذا ببساطة، أردت أن أحمل منها شيئًا يمد أريج ذكراها ويؤججه في روحي حتى نلتقي، فحين مدت إلى يمناها احتضنتها بيمناى.. وربت عليها بيسراى في ود، ثم رفعتها فى الشارع المزدحم بالعيون الطليقة والمعصوبة. وضعتها تحت شفتى، بلعت ريقي وكأنى استعد لتذوق صنف عظيم من الأطعمه، جففت شفتى بلساني.. رسمتهما.. كأنى في استديو لتصوير، قبلت يدها البيضاء البضة الطرية، ذابت روحي مع رائحتها الطبيعية الأخاذة التى طالما همت خلفها، وتركتها تحملنى كالطيف.

دارت لتبتعد.. درت معها.. حملتها فى عينى، لففتها بغلالة من أشواقى التى دامت سنينا أربع.. ها هو القلب ينبيء بنبضاته المتلاحقة أنه لم يزل يتذكرها وتؤثر فيه كلماتها. وتهزه نظراتها الوديعة، نظرات الحب والهيام.

عدت إلى بيتى.. وفى المساء تمددت فى الشرفة وحدى، أرنو إلى الفضاء الرمادى، وقد زينت سماؤه ببريق فضى من سنا بدر صغير يحبو فى أيامه الأولى... تفتحت أبواب الذكريات في رأسي، وخرجت المواقف القديمة فرحة بإطلاق سراحها، ترفل فى ثياب ملونة جميلة كالأطفال في يوم عيد، كالرياض حين يهمس فى آذانها الربيع، فتطل الورود، زاهية بهية من مكامنها الخفية، ويمتلأ المكان بالحب والضياء...

هامت أفكارى وتململت جوانحى، وتلونت نظراتى حين خفق بقلبى شعور بالسعادة والرضا، لكن أيامى فى السنين الأربع الماضية تغلبت على ذكرياتى فيما قبلها بعض الوقت، إذا بدا لى أنى طوال هذه السنين الأربع قد ارتبطت بعملى كثيراً عشت معه ودفنت نفسى فيه.. شغلت به نهاراً وليلا.. سافرت أكثر من خمس مرات، جربت هنا

وهناك فى المهام التى كلفتنى بها الشركة.. كسبت كثيراً، لكن لا أدرى أين ذهبت هذه المكاسب.

أذكر تماماً أنى لم أكن أنام إلا متأخرا.. وقبل أن تغفو عينى، أكون قد أعددت برنامج الغد.. سأعمل كيت وكيت، وأعد أحصائية بكذا وكذا.. يجب أن أنتهى من تقريرى عن هذه النقطة، وتلك.. علىَّ أن أقابل المدير الفلانى لتوقيع عقود البيع المتفق عليها مع إيران وأسبانيا، وأبلغ الشخصية الفلانية بما جرى فى الاجتماع الأخير باللجنة الاستشارية.. إلى غير ذلك..

السنين مرت دون أن أردى كيف.. كأنى كنت فى منجم أو فى بقعة أثرية بالصحراء... الأيام معقودة كالسلسلة، الواحد فيها متعلق تعلق الحياة بما قبله وما بعده.. كدرجات السلم.. لا أعرف غير عملى شىء.. زياراتى للأهل قليلة ومتباعدة.. لا أذكر أنى ذهبت إلى السينما فى هذه المدة غير عدة مرات، ومعظمها كان نهاريا بسبب الانتظار لبعض المواعيد بعد العصر.

أما متابعتى لجوانب الحياة المختلفة.. فلم تعد كما كانت من قبل، اللهم بعض أمور السياسة الشائكة وخاصة ما يخص مصرنا الحبيبة، التى لا ينساها بنوها فضلا عن غيرهم، فالوردة التى تتفتح على صدرها حتى لو كانت وردة برسيم ـ تثلج صدورنا وترفع رءوسنا وتبهجنا بشكل لا يوصف.. أما شكة الدبوس فى ذراعها ـ حتى ولو كانت بلا ألم ـ ولا شكة بدون ألم ـ فكأنها نصل سكين حاد يغور فى لحمنا الحى ـ وكله من خيرها ـ فيصل إلى أبعد الجذور ويثير فينا الألم القاتل دهراً طويلاً.

فرحت غاية الفرح عندما قابلت اليوم وداد، هذه الفتاة.. أقصد هذه السيدة التى احببتها يوما وما أزال على عهدها ـ إن كان هناك عهداً.. لم نلتق منذ أن غادرت القاهرة مع أهلها إلى بورسعيد، وقطعت الصلات رويدا، رويدا مع الأيام التى تقرض الأعمار كما يقرض الفأر أو العتة ملابسنا.. لم تستطع أن تحضر إلى القاهرة ولم تتح لى أى فرصة للذهاب إلى بورسعيد.. حتى الرسائل أخذت تتناقص يوماً بعد يوم.. تذكرت آخر رسالة جاءتنى منها وتقول فيها أننى لن أنفع.

قمت أبحث عن الخطاب.. هل احتفظ به يا ترى أم ضيعه أهمالى؟ والنعكشة المشهورة عنى.. تذكرت أنى عثرت به مرة فوضعته فى ديوان شعر.. أى ديوان؟..

كانت تقول لي: إذا كان إهمالك يدفعك أن تلقى برسائلى فى مكتبك مع رسائل أصدقائك الصماء. فإنى لن أكتب لك رسالة بعد ذلك.. فإما أن تحفظها فى صندوق خاص كما أفعل برسائلك، أو تضعها فى ديوان شعر ـ كانت تحب أن تنام بين الكلمات الحلوة التى يختارها العشاق بحذق، وفى قلوبهم تتأرجح المشاعر الفياضة.

كانت أيضاً تطلب منى إذا التقينا في حديقة، تحت شجرة أو بين أحضان خميلة، ان أحضر لها فى كل مرة شعرا مما أكتبه، أو ديوان مطبوع؛ اقرأ لها منه بعض القصائد، وهى مستلقية على صدرى.. متعلقة بصوتي، تسمعني، هائمة تتحسس المعانى..

أخيرا وجدت الخطاب، قرأته عدة مرات، عيبا فى نظرى أن أنقله هنا كله.. ففيه ما لا يجب أن أذكره.. لكنى سأنقل بعض ما جاء فيه.. قالت: صحيح أنت حبيبى وروحى، لكنى لا أستطيع أن أعتمد عليك.. خذها منى نصيحة صريحة.. أنت لن تنفع أبداً.. أبداً ويبدو أن الأيام تقف فى صفى، ولن تجمعنا، لأننى سأتزوج من ابن عمى المهندس رمزى، بناء على رأى جميع الأهل.. وهو شخص مؤدب وغنى ويحبنى، وهذا هو المهم.. لا كبعض الناس.. ومع ذلك أسمح لى أن أقبلك قبلتين.. لأنك لن تستطيع بعد ذلك أن ترانى، وسأشتاق إليك.. أقول لك خليهم ألف قبلة.. أنها على الورق ولن أخسر شيئاً.

لذيذة.. وكلماتها مثلها لذيذة طيبة ناعمة دافئة.. الحروف منطوية على بعضها كالوردة، لكنها جميلة، بين الكلمة والكلمة مسافة، تكتب باللغة العربية، لكن حين تريد أن تسبنى أو تداعبنى فإنها تكتب باللهجة العامية، فى ظرف لا مثيل له.. ولا أملك من حلاوته، إلا أن أفعل كما تفعل البنات المراهقات.. أن أقبل الحروف، وأذوق طعمها الشهى. وأشم رائحتها التى أميزها من بين آلاف الروائح، عطرية طبيعية وأنثوية، جذابة وعامرة الحنان.

صراحة الكلمات فى شفتيها؛ صدق النجوى فى عينيها.. فضية ضحكاتها الرنانة توحى لك باللامسئولية كطفلة، لا تحمل للحياة هم ولا للعمر أعتبار.. وجهها السمح المضىء بالحنان، يشدنى إليها.

كنت قد قررت قراراً، لست أدرى من أين جاء، أو ما هى الظروف التى لابست أصداره، بألا أتزوج.. لأن الزواج خسارة ومسئولية وأعباء ومشاكل وقيود وقلب دماغ.. وأنا

حين أقرر شيئاً، أتمسك به تمسكا عجيباً.. لا أتخلى عن المبدأ أبدا مهما كان ما ألاقيه فى سبيله.. مثل أهل الصعيد.. حسنة أم سيئة هذ العادة. لا أرى.

خرب الله بيت المبادىء، لماذا لم أتزوجها؟.. هل التمسك بفكرة عشوائية ليست رأسى فى حالة من الحالات يصل إلى هذا الحد..

ها أنا وحتى الآن لم أصادف مثلها.. حمامة بيضاء، وجهها مضىء كالنهار وقلبها وديع كالأمان فى قلب العادل الرحيم، وكالأحلام فى رؤى النائم، إذا أحبت تحب بكل قلبها، بمنتهى الوفاء تعطى، لا تنسى شيئا أبدا.. ولا تلوم أحداً لعذره أو لعيوبه، أقصى ما تفعله أن تتلاشاه وتنساه.. تعرض عن ذكره بالخير أو بالشر. إذا سألها سائل فى الطريق عن شيء، تجيبه حتى لو كان عما فى قلبها.. رقيقة إلى أقصى حد.. رقة جسد ورقة طبع... لا أظنها نسيت مرة واحدة أن تحضر لى ـ وكان من المفروض أن أحضر أنا قطعة كبيرة من الشيكولاتة، وتصر على أن تقتسمها معى وأقضم من نصيبها وتقضم من نصيبى.

قلت لنفسى.. هل تغيرت؟.. نعم سمنت قليلا، لا.. أقصد مشاعرها... طبعا.. بعدت عنى قليلا.. لا يبدو عليها أنها سعيدة.. ربما غير سعيدة بلقائى.. لا .. بل يبدو عليها الشرود والبحث عن شيء جديد أو قديم.. ما الذى جعلك تعتقد ذلك؟

هى قالت ذلك بنفسها.. تهفو إلى القديم الغالى.. وإلى.. وإلى.. لعبها وكراساتها، سألتها.. هل أنت سعيدة؟.. قالت: يعنى.. وهذه الكلمة تدل على قلة السعادة.. وقد تعنى قلة الراحة.. وماذا أيضاً؟.. قلت لها أنا محتاج لك، قالت: وأنا أيضاً.. ترى ما السبب فى قولها هذه الكلمات؟ كلماتها لها دلالاتها ولا شك، والمرأة مهما بلغت بساطتها وتساهلها وصدقها وصراحتها فهى دقيقة فى اختيار كلماتها عن الرجل.. أو بخيلة فى ذلك.. قد تكون مندفعة من الداخل تمور أعماقها بصخب المشاعر وعنف الرغبات.. لكنها من الخارج.. من حيث الألفاظ وصفحة الوجه متماسكة تبدى توازنا وتعقلا، يضاف إلى ذلك دلال وحياء هما النار بعينها، ولا يدمر الرجال غيرها.

وما دلالة ذلك كله؟ أنها قادمة يوم الخميس ـ نعم قادمة.. هل هى حقا ستأتى.. إذا فعلت ـ وأظنها فاعلة ـ فستنبع المياه مرة أخرى من حشا الصخر، وتنساب فتروى الفيافى

المقفرة وهل ستأتى؟ أم أنه وهم وخيال، ومجرد حركة نسائية أنثوية تلهب مشاعرى، لكن ما الغاية من هذا كله؟

ربما لتنتقم.. لا .. ليس من طبعها الإنتقام.. ومما تنتقم.. ربما تريد أن تلهو، أو ترضى فكرة فى رأسها بالكذب... لكنى عهدتها صادقة لا تكذب.

يتجول الأمل فى صدرى مشرقا كالفجر الجديد حين يطل من بين أسداف الظلام.. كالطفل ينزغ من قبر الرحم، وكان فى الغيب الخفى سرا.. وتنير سراديب روحى مصابيح الشوق من جديد.. قد كان فى صدرى هشيما خامداً.. بقايا نار ورماد، ها هو يحيا وتتماسك أطرافه، وتشتد أعواده.. تقوى وتلفحها رياح الذكريات الساخنة فيشتعل ويغدو نارا مضرمة، وجمرا يتأرجح.. يئز فى روحى، ويتصارع الموج الزابد فى جنون وثورة، ويعود قلبى من جديد يضج بالنبضات.. ويسهر الليل فى العيون، ولا يقر للجسد قرار فى فراشى، حتى تهدأ الرغبة بلقيا الحبيب.

عواصف الرياح تثير كامن الموج، وتصرخ الأغصان من زحفها العاتى.. كنت فى الماضى أخصب الصفحات بأغنياتى.. شوقا وعشقا، خضراء كنبضات القلب الواجف... كلون نظراتى.

لم أعد أكتب شعرا، وحان الوقت كى أعود فأكتب الشعر وأسهر الليل. أنشب فيه عيونى،. وأتلقى وحى إلهامه، وأصيخ السمع لصوت السكون.. سوف يعود كل شىء وتخفق الروح بحب عزيز قديم، كما قالت وداد.. سوف أعود لك يا وداد.. آه لكنك متزوجة.. ما العمل؟..

ربما لا تكون راغبة فى زوجها، غير مرتاحة معه، وتفكر فى الانفصال لولا أنها لا تجد سند.. سوف أكون رجلا معها.. سحقا لهذا المبدأ.. أننى أحبها وهى بنت تستاهل كل خير.. لن أتخلى عنها أبدا.. لو طلبت أى مساعدة فلن أبخل، كل ما تريده سوف أقدمه.. فلكم قدمت.. سأتزوجها إذا طلبت ذلك.. وسأنفق كل ما أملك عليها وعلى أولادها.. إذا كان لديها أولاد.

من الساعة الرابعة بعد ظهر الخميس جلست فى مكاننا القديم.. فى كازينو قصر النيل، أرنو إلى ما حولى.. الخضرة والمياه.. والعمارات الشاهقة.. تحصى عيونى الكراسى

الشاغرة والموائد العامرة.. ورغم متابعتى لكل ذلك فلقد كان مدخل الكازينو كله فى عينى.. فى نن عينى.. لا يدخل منه رجل أو امرأة.. إلا وأدقق فيهما النظر أبحث فيهما عن بغيتى.. وداد.

الساعة تجاوزت الخامسة وعشر دقائق.. الوقت يمضى مقدر له أن يمضى دون أن يأبه ولا بغيرتى ولا بما يجرى للناس.. رغم أنهم يعيشون عليه وكل حياتهم بدونه، لا تساوى شيئا يذكر، يفكر فيه الإنسان أو يجب أن يفكر فيه الإنسان أكثر مما يفكر فى طعامه وشرابه.. فهو لن ينتظر لمجرد أنى هنا أنتظر أو أن سواى هناك ينتظر، لن يتوقف لأن شخصا مات، أو لأن آخر غارق فى النوم، ولن يتلكأ لأن شخصا على فراش المرض..

ليس فى إمكانى أن أفعل شيئا من أجل نفسى الظامئة التائهة، المعلقة فقط بحبل موعدها.. والأمل فى لقائها.. كأنى أريد أن اطفأ لهبا، لكن الجمر يتوهج محمراً ويشتعل كنار الحداد ينفخها بكيرة.

أطلق سحابات الدخان من فمى عنيفة حارة، كأنها بخار قدر يغلى، فتح غطاؤه فجأة.. يدى تحمل ذقنى، وعينى فى وجهى، كل أعصابى مثبتة على مدخل الكازينو الذى يشبه مدخل الكهف.. تحيط به الخضرة من جامبيه وسقفه من غير تنسيق، تتهدل الأغصان الطفيلية كشعر امرأة قامت من نومها.

لا يتسع المدخل إلا لمرور اثنين، لكي لا يكون هناك ثالث، وإذا كان هناك ثالث فليتقدم أو يتأخر، أو يبتعد عنهما، أو لا يجيء بالمرة وهذا أفضل.

ستجيء.. لن تجيء.. ستجيء.. لن تجيء إلى مالا نهاية.

أحرك سلسلة المفاتيح فى الهواء حركات دائرية، أكتب بالقلم الرصاص على المفرش أرسم أشكالا.. لكن عينى على الباب، تعبث يدى بالمنفضة، بباقة الورد، وأطقطق أطرافى.. أنظر إلى أظافرى.. إلى شعر يدى، عروقى، لكن عينى مركبة فى صدر مدخل الكازينو، لاتبرحه.

ها هى قادمة.. أين؟.. تلك السيدة هناك.. أين؟.. التى ترتدى ثوبا أبيض قصير لا.. ليست هى.. هذه طويلة بعض الشئ، وإن كانت مشيتها هى ذاتها مشية وداد.

أخيراً.. جاءت.. هي.. حركاتها ولفته وجهها، حتى النظارةالتى أهديتها لها، جاءت بها، لقد قصرت شعرها قليلا.. توقفت عند كتفيها.. كانت تقول انها سوف تقصره لأنه يضايقها أثناء نومها ويدور حول رقبتها.. انها تلبس بنطلونا.. كم هو لين جسدها وبالذات خصرها.. له حركات تجنن، أنيقة جدا، لماذا وقفت هناك؟ تبحث عنى.. خلعت النظارة.. رفعت لها يدى كى تراني.. مالها؟

لاتبدو.. ماذا جرى؟ تقدمت من أحد الموائد تجلس.. عليها فتاة صغيرة.. جلست معها، حددت نظراتى فيها.. ليست هى.. إنها.. آسف.. شاب أطال شعره على الموضة.. غريبة شكلها تمام.

أعدت على نفسى حديث نفسى.. أقدم الأسباب التى تؤيد حضورها، وأبعث فيها القوة، وأدعمها بالدلائل.. لكنها لم تحضر، عقربا الساعة عبر السادسة والنصف.. تنهدت.. إذن فهى لن تأتى.. مضى الوقت ولم تأت لكنها قالت أنها ستأتى، وطول عمرها صادقة، لاتعرف الكذب.. لعله قد جد فى الأمور جديد.. لا بأس.. كيف لابأس؟.. وكيف أعثر عليها بعد ذلك.. حركة سخيفة منها حقا.. أنا واثق أنه لو لم يكن هناك مانع قوى لجاءت.. لم تبد أى رفض أو ممانعة فى لقائى.. صحيح أن رغبتها لم تكن بحماس كاف.. لكنها صادقة بلا شك.. الله أعلم بالظروف..

تضايقت لأنى لم أقابلها.. تفجر الماضى كله فى صدرى فجأة.. أريدها ولا أستطيع أن أفكر فى غيرها.. أريدها على الأقل لأعرف أحوالها ومشاعرها.. أصبح يهمنى جداً أن أعرف مؤشر عواطفها.. آمالها.. يجب أن أطمئن إلى سلامتها وسعادتها.

هى متزوجة من ابن عمها المهندس رمزى.. اسمها وداد أحمد فوزى يبقى زوجها اسمه رمزى.. فوزى.. المهندس رمزى فوزى، مؤكد عنده تليفون.. وجدت فى الدليل اسمه وعنوانه وتليفونه قمت على الفور وطلبت الرقم.. كنت أفكر.. ماذا أقول له إذا رد على؟.. أدعى أن النمرة خطأ.. وإذا كانت هى.. أسألها لماذا لم تحضر.. مضبوط..

دق التليفون فى الطرف الآخر ثم رفعت السماعة فسكت وانتهى إلى سمعى صوت يسأل:

- نعم
- منزل الباشمهندس رمزى فوزى
- أى خدمة
- حضرتك الست حرمه؟
- لا.. أنا الشغالة
- أهلا كيف حالك يا سنية؟
- أنى سكينة.
- نعم سكينة تذكرت.. كيف حالك؟
- الله يخليك يا سيدى
- أين الباشمهندس؟
- غير موجود.
- ممكن أكلم الست حرمه؟
- خرجت معه .
- أين ذهبا؟.. كنت أريده فى أمر هام
- ذهبا إلى السينما.
- أى سينما؟
- لا أعرف.

لم أجد ما يدعونى للاستطراد فى الحديث، فلم أحس بارتياح لمسألة السينما هذه.. وضعت السماعة وكانت تسألنى من حضرتك؟

قلت فى نفسى.. تلاقيه أصر يروح السينما معها، فلم ترفض.. واليوم الخميس ميعادنا.. حظ سيئ.. وما الداعى للسينما فى هذا اليوم؟

هل السينما أهم من عمله؟.. غريبة.. كان عليه أن يختار يوما آخر.. الأسبوع طويل عريض..

مرت الأيام وأنا مشغول بها إلى حد كبير.. توقعت أن أسمع صوتها فى التليفون، تطلبنى فى عملى وتقول إلحقنى.. وطبعا كنت مستعدا أن ألحقها فوراً..

أصبحت أسير كثيراً فى الشارع.. فى الشارع الذى التقينا فيه بالذات.. ومن سذاجتى البالغة، كنت أقف فى نفس المكان ـ فربما أقابلها ذاهبة إلى طبيب الأسنان وأنا لا أعرف طبيب الأسنان.. فى نفسى تحوم الرغبات والنوايا، بعضها سيئ وبعضها طيب.. كنت فى حالة غريبة..

قبل أن أراها كنت لاهياً عن النساء وعن الدنيا وعن كل شيء.. حتى رأيتها فأفقت، كأنى كنت فاقد الذاكرة ثم استعدتها.. أحسست برغباتى.. بأن لى عينان تريدان البحلقة والاستمتاع بالجمال.. بأن لى حياة يجب أن أتذوق طعمها فى ظلال الحب وفى الهمس الناعم والإئتناس فى الليل بذكرى الحبيب.

لا قيمة للمال فى هذه الدنيا.. القيمة فقط للصحة والحب.. يجب أن نستغل أجسادنا وقلوبنا ونجرى ـ نجرى ونملأ بالطبيعة عيوننا.. نحشوها بالألوان الزاهية، لا ألوان المكاتب والحجرات والقطارات وأسفلت الطريق والوجوه العابسة وملامح المديرين المدببة.

آه لو قابلتها فى الشارع أو الأتوبيس أو المطعم أو أى مكان.. لن أتركها أبدا.. لن أمهلها حتى الخميس ولا حتى الغد.. آه.. لكنها ليست من حقى.. بل هى من حقى.. حبيبتى وأنا بلا شك حبيبها.. لم نفترق يوما ولم نختلف يوما.. فتاة كالقشدة.. كالذبدة الطازجة قلبا وقالبا.

لم أهدأ.. عرفت عنوانها من الدليل.. مررت كثيرا أمام منزلها.. جميل.. أنا متأكد أنه خال من الحب.. وقضيت كثيراً أرقبه، لعلها تنظر أو تخرج.. وأخيرا وبعد أيام طويلة، وجدتها تخرج مع رجل.. هو زوجها، يرتديان ثيابا فخمة جدا، وفى أبهى زينة.. تبدو عليها الأناقة، تكاد تقفز وهى تسير معه والابتسامة تزغرد على شفتيها وبصحبتها طفل صغير لطيف.. استقلوا سيارتهم الحمراء الفارهة..

بعثروا ضحكاتهم فى الفضاء.. البواب الأسود يحييهم بيده.. تابعت السيارة بنظراتى المشدوهة حتى غدت كنقطة فى نهاية الطريق.

رفعت حاجبى، مددت شفتى السفلى، ورأسى يفكر.. لا .. لا يفكر، سرت مسافة طويلة على قدمى خلف السيارة كأنى أسلك طريقا مثل طريقها.. هل هى حقا سعيدة؟.. أم تراها غير سعيدة، وإذا كانت سعيدة فهل أنا سعيد !..

لعانى الآن أفكر فى أشيـاء أخرى تمـامـا.. وعندمـا وصلت إلى النقطة التى اختـفت عندها سيارتهم الحمراء السعيدة.. أحسست أن تفكيرى المبعثر أوشك ان يتجمع فى نقطة محددة.. استرخت أعصابى قليلا.. تمددت فى أماكنها، رطبت أعماقى بعض نسمات من الرضا والهدوء.

بنها فى يونيو ١٩٦٩

«طعم اللحم»

ـ ١ ـ

ضاني، كندوز أو بتلو، لا يهم.. دجاج أو حمام، بط أو أوز أو رومي، أيضا لا يهم.. المهم أن تكون محمرة، بل لا يمنع أن تكون غير محمرة، يكفي أن تكون مسلوقة كطعام المرضى، المهم أن تكون موجودة.. في كل حالة هي مقبولة عندي وعلى الرحب والسعة.

يشدني إليها دائما شوق بالغ وحب عظيم.. إذا إلتقيت بها فإن فمي يتسع لها بشكل غير عادي، كأنه يستقبل عزيزاً بالأحضان ولا أذكر أني أكلت قطعة من اللحم على مرتين.. فلم تصادفني بعد قطعة تستحق أن أبقيها أمامي أكثر من لحظات. نصيبي في كل مرة لا يتعدى حجم قبضتي وأنت ترى كم هي صغيرة قبضة يدي.

ولا يعجز فمي عن ابتلاع كل نصيبي ببساطة ودفعة واحدة.

وأخال نفسي قادراً على أن أبتلع كمية كبيرة.. أقول أخال لأنه لم يحدث أن أتيح لي مثل هذا الشرف.. فأنا يمكنني ببساطة ودون أن يتعطل حلقي، أن أخفي في جوفي رطلين من اللحم في الطاقة الواحدة... رغم أني لم أتجاوز الثامنة.. بل أعتقد أكثر من ذلك أعتقد أني أستطيع ابتلاع وزة مثلا.. ولماذا لا أكل خروفا مشويا بأكمله..؟ هل فمي صغير؟.. هو بالفعل صغير في الحالات العادية كالكلام والابتسام؛ لكنه عند اللزوم ـ ولا لزوم إلا

استقبال اللحم ـ فإنه واسع كحلق الفرن الذى تحشوه أمى بكيزان الذرة لتحميصها، فيسع أردبا أو يزيد.. ولا تستعجل أو تتعجب فسوف ترى أنه يقوم عند اللزوم بالواجب وزيادة.

ولا يصح أن أنكر حقيقة هامة، يجب على الجميع أن يدركوها، لأن إنكارها قد يضرنى فيما بعد. هذه الحقيقة هى أننى لم يسبق لى أن تناولت قطعة كبيرة من اللحم، لأن عيشتنا على قد الحال، تكفى فى أحسن الأحوال كى نأكل اللحم مرة كل أسبوعين أو ثلاثة.

ويكون نصيبى دائما نسيرة صغيرة.. أحاول جاهدا أن أبقيها أمامى أطول مدة ممكنة. لكن يدى تستجيب لرغبتى فيها، فتحملها على عجل وتدسها فى فمى، وألحق بها فى فمى، وأحاول مرة أخرى أن أبقيها حية بعض الوقت.. فألوكها فى شدقى عدة مرات لأتذوقها وأوزع طعمها فى الفم كله.. لكنها سرعان ما تنزلق مع لعابى إلى بطنى وينتهى كل شيء. وقد أكل بعد ذلك من الطبخ لقمتين ثم أنهض خشية أن تذهب من فمى حلاوة طعم اللحم وذكراه التى أظل ألوكها وأجترها فى رأسى بين الحين والحين.

وأخرج إلى الحارة فأنا بل الأولاد الكثيرين الذين لا تضمهم بيوتهم قبل صلاة العشاء .. هم فى الخارج دائما وما أن تطل برأسك من نافذة أو باب.. أو من فوق سطح، حتى ترتد إليك نظراتك.. محملة بالعشرات منهم يتقافزون كديدان المش؛ كلهم حركة وحيوية لا تهدأ.. أخرج إليهم وأنا أعبث بأسنانى، وأحاول أن أدس بينها أظافرى، مدعيا أن بقايا اللحم والظفر ما تزال عالقة بها.

لاشك أن ذكرى لهذه الحقيقة سوف يفيدنى، فربما أتيح لأحدكم أن يقيم ليلة لإهل الله كما يفعل الحاج ذكرى شيخ البلد، فيملأها بما لذ وطاب، ويدعو لها جميع الأهل والأحباب وبالذات الفقراء، وممن لا يملكون أرضا ولا عقاراً.. وليس لديهم من البنين، من يغلون دخلا.. يغلق الأبواب فى وجه الحاجة والحرمان.. ويملأ لهم الأطباق بالفت واللحم.

ولأن الحاج ذكرى يستعين بأبى فى بعض أعماله، يسأله عن فلان الفلانى أو يرسله يبحث عن علان العلانى.. يصحبه معه ليشهد فى محكمة المركز على شيء لا يدرى عنه شيئاً.. إلى غير ذلك.

بسبب ذلك فإنه يناديه إلى داخل المنزل، بعيدا عن الجموع المنتظرة تستمع إلى آيات القرآن الكريم طبقاً للتقاليد.. وترى هذه الجموع تهتز وتتمايل بعضها من الطرب

البالغ بإعجاز القرآن وروعة معانيه. ويعضها من الملل وطول الانتظار حتى تلوح الصوانى والأطباق والدخان يعلو موكبها ويباركه وينادى الحاج ذكرى أبى: يا واد يا إبراهيم.

أبى بجلالة قدره ولد، ومع ذلك يرد أبى كأقل ولد: أيوة يا حاج.. فيقول له الحاج:

أدخل لخالتك الحاجة.. قولها الحاج باعتنى.. ويرد أبى: طيب حاضر.

يدخل أبى حسب أوامر الحاج ذكرى إلى خالته الحاجة خضرة. فتلاقيه بابتسامة المنعمة المفضلة، وتقول له فى صوت يجمع بين الحنان والعزة: تعال يا إبراهيم..

يتقدم منها فى حياء، خطواته المتقدمة أكثر من المتأخرة.. مسددة كالسهام إلى الأوانى التى أمامها: نعم يا خالة.

ـ أنت جيت لوحدك واللا الحاج بعتك.

كأنهما متفقان على شفرة بينهما ويتبادلانها فى الزحام. ويميل رأس أبى إلى اليمين مرة وإلى اليسار أخرى. وابتسامة فقيرة تدل على ما يعانيه من العدم تطل من شفتيه المالحتين، ومن عينيه الجائعتين.. يرد أبى وهو يحس كأنه المعزز لديهم والمقرب.

ـ لا.. الحاج هو اللى باعتنى، وتدس تحت أبطه لفافة وتقول له.

ـ طيب خد دول، وروح كل أنت وولادك.

ويستدير إلى الخارج وشفتاه لا تتحكمان فيما يطلقه من الدعوات:

ـ ربنا يكتر خيركم.. ربنا يجعله عامر.. ربنا.. ربنا ..

ويشق طريقه بصعوبة بين الجموع المنقضة على الطعام، تأكله كأنها تنتقم منه، زاهدة فى كل ما عداه، لاتسمع ولا تبصر، تصطدم بأحدهم وينكفأ على الموائد، فلا يغضب، ويصفع آذانك بلعناته الساخطة، تنادى على أحدهم فلا يجيبك إلا إذا كنت تدعوه إلى الداخل.

وهكذا.. كنت أتناول اللحم فى ذلك اليوم مرتين.. مرة فى دار الحاج ذكرى ومرة عندنا وربما دخلت للحاجة خضرة، فتربت على ظهرى وتعطينى من اللحم وغرفة من المرق الدسم ذو اللون الأحمر البراق الذى أحبه رفيقاً للحم وسنداً.

أطلت، لكن اللحم عزيز، ربما لا تحسون بما أحس، لأنكم فى حالة غير حالتى ولا يعرف الشوق إلا من يكابده. فلا شك أنكم تأكلون منه الكثير، فلا يحرقكم الشوق إليه أما أنا فلا أخجل إذا قلت أن شوقى إليه متجدد، مهما امتلأت منه بطنى.. وما أن تراه عينى حتى تفجر على لسانى ألف رغبة ورغبة لاحتواء المزيد منه. وبإذن الله وبدون مقاطعة فأنى حين أكبر، أنوى أن أشتغل خفيرا مثل سليمان الذى أجده فى كل مكان، ويحصل على كل شيء من كل شيء.. ويعرف كل شيء عن كل شيء.. حين أصبح خفيراً سوف أشترى بكل الماهية التى سأقبضها لحما. مهما بلغت، حتى تنفر عروقى، وأكبر وأصبح عريض المنكبين، لى صوت جهورى، إذا ناديت يسمعنى من كان فى آخر الدنيا، أو حتى واقف على الطريق السريع.. وسوف أستطيع أن أتغلب على كل رجال البلد. وهكذا ترون أن ظمئى للحم لا يطفأ.. وغلتى إليه لا تشفى، ذلك الطعام اللذيذ الذى تسرى الحرارة ـ إثر تذوقه ـ فى كل كيانى، ويجرى الدم نقيا ساخنا فى كل عروقى كما تجرى المياه فى الترعة، وتغمر الأرض الشراقى بعد طول انقطاع، فيفور منها دخان الارتواء بعد الظمأ.

لا أحس له بديلا يملأ بطنى ولا أعتقد أن هناك بديلا له يملأ أى بطن، أو يخمد أنفاس أى جوع أو يعدل أى دماغ، كما يقول أبى حين يطالب أمى أن تشعل له بعض القوالح أو عيدان الشجر ليضعها فوق المعسل فى فم الجوزة الفخار، ويشد منها أنفاسا تقهقه فى الإناء الزجاجى أسفل الغابة، وتكركر كالقدر الذى يغلى.

أهمية اللحم عندى أكثر بكثير من أهمية الجوزة عند أبى. وأدهش جداً إذ أجده لا يهتم باللحم قدر اهتمامه بالجوزة.. وطبعا أنا لم أهتم بهذه الجوزة اللعينة ولن أهتم لأن دخانها يخنق الصدر.. نعم يخنق الصدر، وأنا أعرف ذلك، لأنى فى مرة بعد ان خرج أبى، وكانت ما تزال ساخنة.. دفعنى الفضول، وهو يدفعنى إلى أشياء كثيرة لا يحدها حد، تصل خطورتها فى بعض الأحيان إلى ماهو أكثر من الجوزة.. أمسكت الغابة فى يدى ووضعت طرفها فى فمى، وأنا أنظر إليها فى خشية كأنها ستنفجر فى .. ضممت شفتى عليها وسحبت ببطء نفساً كما يفعل أبى فلم يحدث شيء، فأيقنت أنى صغيرة ويجب أن أسحب النفس بأقصى قوتى، لأنى أرى أبى وأصحابه يبذلون جهدا يتجلى عندما تنضم عليها أفواههم، فتشتد عروق الرقبة ويغور ما تحت الخدين..

فعلت مثلهم بقوة وبسرعة، فاندفع إلى صدرى شيء غريب، وأحسست أنى مجوف من الداخل وكأننى أبتلعت بنزينا مشتعلا.. فألقيت بها بعيدا وأخذت أكح وأسعل، ووصلت الحال بى أن أفرغت كل ما فى جوفى، وحمدت الله أنه لم يكن لحما.. ولما أفقت لعنت شاربيها..

أما حبيبتى فإن أكبر كمية أكلتها منها فى مرة واحدة كانت عند جدتى لأمى، عندما ذهبت إليها فى العيد الكبير وهو عيداللحم، استقبلتنى بطريقتها الطيبة الحنون، وحنانها حاضر دائما.. تمنحه للجميع بسخاء وبلا تفرقة.. كأنها تمنحه لله أو لنفسها.. لا لهؤلاء الخلق الشياطين .. قالت: أهلا يا ضناى.. تعالى.

ودعتنى إلى الجلوس معها فى احب مكان.. وهو إلى جوار الأوانى والنيران والدخان والروائح العبقة وأصوات التقلية ونغم النحاس حين يلامس أخيه النحاس وحين يحاول الابتعاد عنه. قدمت لى طبقا من الأرز الغارق فى السمن، تتوجه قطعتان كبيرتان من اللحم؛ الواحدة فى حجم كتكوت كبير فى حجم قبضة أبى. بل آكاد أقول لها فى حجم رأس اخى الوليد الجديد.. اتذكر الآن والضحك يغالب كلماتى، ويسبقها على شفتى، فتتعثر على لسانى الحروف، يوم ولد هذا العفريت الصغير.. قالت أمى وهى على فراشها الممتلئ بالخرق والهلاهيل. لأبى المطل عليها كالمظلة، وكانت واهنة خائرة القوى وإن كانت والحق يقال ويجب دائما أن يقال أنها لم تبق فى الفراش أكثر من ساعتين.. إذ قامت وأغلقت الباب الخارجى حتى لا تراها إحدى نساء البلد. وهى تعمل.. فتهفا عين والعين فى بلدنا تقصف الحجر.. نظفت المنزل وأعدت الطعام لأن كل أخوتى يعملون فى أطيان ومنزل الحاج ذكرى أو هنا أو هناك.. قالت لأبى: نسميه إيه؟.. وعلى الفور أسرعت لرأسى الفارغة فكرة عن اسمه. وراحت تتمرغ على عتبات شفتى تريد أن تخرج، ولكنها تريد أن تلقى منهم ما يليق بها.. كنت إلى جوار أمى، أستند بصفى العلوى على فراشها، وأطل فى وجه منافسنا الجديد فى قلب أبى وعلى حجر أمى، رغم كبرسنى إلى حد ما، وضحكت للفكرة التى تراودنى عن اسم أخى.

فقال أبى: بتضحك ليه يا عكروت؟ قلت وأنا أجهز جرأتى وأمهد الطريق كى أقول ما أريد أن أقول، وأنا دائما أحب أن أقول ما أريد أن أقول، لأنى أحس بضيق شديد إذا لم أقل ما أريد حتى لتصل بى الدرجة إذا لم أجد من يسمعنى أو إذا لم أجد من يقدر كلماتى،

أضطر أن أقولها للقطة الشقية التى تجوب الدار طيلة الليل والنهار بحثا عن شيء، لا نجده عندنا.. قلت لأبى وكأنى أستأذنه: أصل أنا عارف نسميه إيه. قال باسما: طب نسميه إيه يا أبا التفانين وانطلقت الكلمات من لسانى كأنها طائر مسجون معذب وأطلق سراحه:

ـ نسميه لحمة..

وضحكت أمى من أعماقها، أقصد من أحشائها الدافئة التى كانت فى حالة طوارئ، حتى أنها كانت كلما فتحت فمها لتعبر عن سعادتها بالضحك؛ تحس بالألم فتكن على أسنانها وتغمض عينيها، وتضغط على أحد جنبيها فتغور يدها فى جسدها، كأنها تريد أن تسكت رماحا لها أسنة مدببة حادة تقفز فى أحشائها الفزعة مع حركة صدرها الراقص بالضحك.

أما أبى فقد دوى صوته، جهورا خشنا بدوائره العريضة تملأ المكان وهو يقول: لا.. أحسن بعيدن نأكله، وتابع الضحك عاليا فرحا بفكرتى وبقفشته. وفى أثناء ذلك يهز رأسه وجسده بحركات لا إرادية كما يفعل حين يجلس مع أصحابه السهارى بعد تعميره تمام.

وضع كفه على رأسى فاحتواها بين أصابعه.. وأدارها فى راحته عابثا بشعرى الناعم استمراراً فى مداعبته، وهو يستجب ذيل ضحكته على شفتيه، لتبقى الابتسامة فقط مطلة من عينيه، تضيء وجهه وتشيع فيه حمرة السعادة.

ـ ٢ ـ

نزلت أمى إلى السوق بعد الظهر. واشترت رطلين من اللحم لأول مرة وهكذا قالت لأبى حين عادت، وكان بيننا وبين آخر مرة تناولنا فيها اللحم أكثر من ثلاثة أسابيع.. عمر طويل ودهر مديد تولد فيه أجيال. عندما سمعت سيرة اللحم، لم أتحكم فى حواشى.. اتجهت بكاملها تصيخ السمع لهذا الحديث المعتق، الذى يحمل لى الأنباء السارة، فتراقص على محياى دلائل النصر والابتهاج.

دار لسانى فى حلقى على أثر ذلك، وبلعت ريقى الذى انزلق إلى جوفى، كأنه يبلغ رسالة مقدسة إلى معدتى، المدد قادم فلا تيأسى، لأنه لا يأس مع الحياة طالما هناك أمل.. أمل فى اللحم.

نهضت لألعب فى الشارع، لأنى أشفق على نفسى من لوعة الانتظار، أشغلها باللعب والحركة والعدو هنا وهناك. حتى يتم كل شيء، كما يفعل الصائمون فى رمضان، إلى أن يحين مدفع الإفطار..

كنت ألعب، لكنى لم أكن كعادتى مخلصا للعب، ولا ملتفتا لما يدور أمامى... بل كنت كثيرا ما أترك الأولاد، أسرق نفسى منهم.. وأقفز قفزتين لا تصدران إلا عن غزال يطارده أسد، فأكون فى الدار، وسرعان ما تستقبل إذنى وهى مستمتعة زئير موقد الجاز وأنا أسمعه هادىء يسحر... يريح القلب الولهان.. أتقدم بخطوات وئيدة، تشغلنى رغبة متلهفة إلى مزيد من التأكيد؛ وأجد أمى بجوار الموقد وأمامها الأوانى، وفوقها الدخان... ومن خلفها أخى الصغير يستند إلى ظهرها وينتقل عليه، تمتد يدها وعيناها إلى غطاء الإناء على النار، ترفعه؛ يختفى كل شيء فى الدخان الكثيف المتصاعد، يرتفع حتى يتلاشى عند السقف، اللحم مارد عملاق يطل من خلال الدخان، خارجا من القمقم، يقول: شبيك لبيك.. كل لحم الدنيا بين أيديك.

أدير عينى محملقا بملء ناظرى، أشحن نفسى كالبطارية قبل أن أذهب وحتى تتاح الفرصة مرة أخرى كى أعود.. أتنهد وأبلع ريقى ألوكه فى فمى.. وأندفع خارجاً محملا بالأمل.. متذرعاً بالصبر..

وعند المغرب دخلت وجلست فى الركن أنتظر العشاء، ولما أذنت والدتى بذلك ويلوح عليها ذلك دون أن تتكلم.. كالريح. كأن عصا سحرية تحركنى.. توجهنى يميناً ويساراً.. أحضرت الطبلية فى اهتمام بالغ.. أمى تنادى فأقول قبل أن تكمل اسمى: نعم.

ــ هات الشيء الفلانى فأرد: حاضر وقبل أن أنتهى من كلمتى أكون قد أحضرت ما تريد وإن كان من المخجل أن اقول: إننى فى غير هذا اليوم ومثل هذا اليوم.. لا أسمع شيئا ولا أرى.. ولا أتحرك بالمرة.. لا أرد، وتكرر ما طلبت.. وأخيراً وحين يؤثر فى ما تعانيه من الإعياء، أقول لها: هه.. مدعيا عدم السمع أو عدم وضوح كلامها.. فتضطر أن تعيد على كلامها للمرة الرابعة أو الخامسة، ولا اجد مفرا من القيام.. أنهض بتثاقل، أتمايل جهة اليسار وجهة اليمين فى تململ، كأنى أعمل عملا بلا أجر، واخال نفسى أريد ان أقول كما يقول الكبار.. استعنا على الشقا بالله.. ثم اقول لها فى بلادة والذباب يتبادل أماكنه على وجهى: هو فين؟ فترد فى وهن:

ـ يا بنى الكوز آهه قدامك على الزير.. أضطر أن أذهب إلى الزير.. أحضر الكوز.. اقدمه لها فى حركة آلية.. تنظر فيه: إيه ده يا بنى.. أنت جايبه فاضى؟ انفخ واتنهد.. أزيح عن صدرى هذا العذاب الذى أعانيه، أرتد إلى الزير فى كسل بين كأنى أريد ان أقول لو استطيع: علشان حتة اللقمة.. الواحد بيدوق الذل. لكنى لم أكن أقول فى نفسى كما كان يقول أبى: بكرة تفرج.. لأن بكرة لم أكن أعرفه، لا يمثل لى شيئاً واضحاً يمكننى أن أفكر فيه.

أصعد ببطنى وصدرى فوق الزير؛ أرفع الغطاء الخشبى؛ اغمس رأسى فى فراغ الزير المظلم، يطل وجهى امامى فى بقعة بيضاء، الماء فى القاع يعكس فتحة الزير.. وجهى فى وسطها ظل داكن بدون ملامح محددة.. قطعة من السواد تحيط به زوايا مستديرة: فضية لامعة تكمل دائرة.. هى البقعة البيضاء فى القاع. أتذكر أن ذراعى خارج الزير.. أخرج رأسى وأدس ذراعى وحده فى أحشاء الزير.. له بطن جوفاء.. دبر الكوز فى داخلها فيصطدم بالجدران ويلمس حافة الماء لكن الماء بعيد.. يمكننى أن الحق به وأملأ الكوز: لكنى لا أجد مبرراً لهذا الجهد.. ألتفت إلى أمى وأقول لها: مش طايل.. الزير فاضى... فيقول وهى تعالجنى بالصبر.

ـ يا بنى أنا حاطه فيه صفيحتين الصبح.. فأرد عليها بلغة تبدو للبعض أكبر من سنى.

ـ صفيحتين. وهما الصفيحتين يحروقوا فيه.. والصبح كمان، هو فيه حاجة بتستى..

لا تجد وسيلة إلا أن تلعن شكلى وكسلى وخيبتى وميلة بختها فى.. وتهم أن تقوم بنفسها لتملأ الكوز، لكنها تجد حلمة ثديها، بل ثديها كله فى فم الشقى الصغير... وهو الآخر تبدو عليه علامات الهم، رغبته دائمة فى الرضاعة.. أبناء الفقراء نهمون.. شوف الحظ.

تضطر أمى أن تخنق فى صدرها رغبتها فى القيام لتشرب. كى لا تمنع صغيرها من طعامه.. الذى لا يكفيه ان تمد له ثديها برضاها وإنما يتشبث فيه بيديه الصغيرتين المنقبضتين دائما ويزيد تشبث هذا المفجوع أن يدس أظافره أحياناً فى ثدى امه.

جلسنا إلى الطبلية، جدتى العجوز وأختى الكبيرة وأخى وأنا.. أمى تحضر الطعام طبقا فى أثر طبق.. وأنا أتباعها بنظراتى المترقبة فى أمل.. نظراتى تحمل لها الطبق وهى قادمة

وتنزله إلى الطبلية، رأسى مرتفعة ومنخفضة تحمل نظراتى الرشيقة كأن شخصا يعاكسنى بشيء، أريد أن اراه فيخفيه عنى بإبعاده، وأنا معه لا أكل.

طبق اللفت المخلل تحضره وتذهب، تعود بالخبز ثم تذهب، كوز الماء، ورقة فيها ملح وشطة وقرنين فلفل، عودين جرجير، طبق فيه جبن قديم فى العمر وقديم فى الطبق.. يتقافز منه الدود الأبيض الكبير، بعض أعواد السريس الذابلة.. وجاءت أمى أخيراً تحمل طبقا كبيراً، كنت أنتظره وها هو قد جاء، لكن ليس فيما سبقه ما يدل عليه، لم ألمح سحابات الدخان تجرى خلفه كما يجرى دخان القطار فى عكس اتجاهه.. لم أفقد الأمل.. صعدت نظراتى إلى الطبق وهو فى الطريق إلى. أغمدت نظراتى فيه قبل أن يصل إلى الطبلية.. المفاجأة.. لبن رائب.. مستحيل.. جلست أمى.. تتابع نظراتى كل حركاتها، كأنى أنتظر أن تخرج الطبق المنتظر من جنبها أو من صدرها أو من أى مكان خفى.. فالأمل مازال يتنفس ويتعلق بأهدابى، مستميتا لا يبرح مكانه.

أجلست أمى على رجلها الطفل الصغير، المتعلق فى كتفها، وعلى صدرها وفوق رأسها لا يعدم فيها شيئاً يتعلق به حتى لو سارت على رأسها، يتحرك على جسدها كالقرد.. كتمت أنفاسى.. سألت نفسى كأنها المسئولة: أمال فين اللحم.. بلعت ريقى وسرحت قليلا.. فين اللحم يا ترى.. نظرت إلى أمى... انتظرت قليلا، وجدت الجميع يأكلون فى نهم، فين اللحم... تطلعت أمى إلى شبه مندهشة وقالت. مبتكولش ليه، قلت لها فى نفسى معاتبا: أمال فين اللحم يامه؟ لكنى قلت لها بلسانى: أيوه.. ح أكل أهه.

وضعت يدى رغما عنى على الخبز أمامى.. ووضعت يدى الأخرى على الطبلية كأنى أسند نفسى.. لم تتحرك يداى كأنى أبوالهول، أو كلب الحارة الذى يرصد الأبواب، ينتظر العظم وها أنذا لا أجد حتى العظم أمصمصه... أكلت بضع لقيمات بصعوبة، كنت هائماً أبحث عن شيء.. أفكر فى عمل شيء، فلا يصح أن أترك الأمر يمر على هذا النحو.. أين اللحم يا ترى.. ربما ستقدمه عندما يحضر أبى، لأننا لم نتعود أن نأكل لحما وأبى غير موجود.

جاء أبى بعد العشاء وقدمت له ما قدمت لنا.. سمعتها تقول له:

ـ أنا شوحت اللحم وبكرة بإذن الله نطبخ.. رد عليها أبى:

ـ عملتى طيب.

قلت فى نفسى وكأنى أعرفها أنى لم أستسلم وأدافع عنها: كيف يكون طيبا هذا الذى صنعته أمى.

ـ نعمل إيه عليها يا إبراهيم.

ـ أعملى شوية ملوخية... أو كوسة.

ـ ولا أعمل محشى كرنب.. العيال كان نفسهم فيه.

ـ اللى تشوفيه، الصباح رباح..

قلت فى نفسى وهى ملأى بالغيظ حتى الحافة كأنها لا تعرف شعوراً غيره، احنا فى بكرة ولا فى النهاردة. أحسست أن مستقبلى سيضيع وأنى سأموت بعد قليل إذا لم أتذوق اللحم هذه الليلة، تململت فى جلستى.. أنا جائع يا خلق الله.. جائع إلى اللحم فقط.. ذلك الشىء الذى يكمن فى الحلة، هناك فى الركن.. الحلة فوق صينية العشاء النحاسية الكبيرة فوق الطبلية.. تقف فى رأسى كالبؤرة وأفكارى تحضنها فى وله.. ما العمل.. وبعد مناقشات طويلة، قررت أن أتقدم من الحلة بعد أن ينام الجميع، وأفتحها وألهم منها ما أشاء، لأملاء بطنى تماماً حتى لو لم يبق شىء وإذا بقى فلا بأس.. فربما يطبخون عليه أولا يطبخون، لا يعنينى هذا.. سيتهموني... سأقول أكلته القطة، المهم أنى لن أنام الليلة، إلا إذا انتقلت اللحمة من هذا الإناء البعيد إلى هذا الإناء القريب.. أحشائى.

سوف آكل منها حتى أملأ معدتى، وحلقى وفمى ويسد ما بين أسنانى.

قام الجميع وعم السكون، أبى وجدتى نومهما خفيف، وأحكاما للخطة ودراءا لكل فشل سوف أنتظر حتى ينضج الليل وتسترخى الأجساد تماماً ويستقر النوم فى العيون، يملكها حتى لا تملك منه فراراً مهما حدث.. قليلا، ثم تموت اليقظة فى كل مكان، وتصبح أبعد ما تكون عن كل عبيدة.

تقدمت من الحله فى وجل.. ما أقدم عليه الآن يتوقف عليه مصيرى، أنها مسئولية، سوف أقتل الوحش الذى يهدد نهار الناس ويؤرق ليلهم.. لو أفلت منى فسوف يبطش بى وبالجميع.. يجب أن أكون حكيما.. مددت يدى فى اتجاه غطاء الحلة.. يبدو ضخما شرس الملامح، نافر القسمات. له عيون كثيرة، يتفجر منها بريق هائل يحرق كل من يتقدم منه.

عندما ألمس الغطاء فلا تنفتح، وتتحجر قبضتها، كتمت أنفاسى وأمسكت الغطاء.

يدى.. لا لا ترتعشى الآن.. أنها اللحظة المصيرية الحرجة.. هممت يرفع الغطاء، إنه ثقيل جداً قبل أن أرفعه، فلأرفعه لأنتهى من هذه اللحظات التى تكتم أنفاسى بثقلها.. يا قوة الله.. دوى فى الصمت المقدس أنين الكنبة الخشبية التى تنام عليها جدتى.. تمزقت ثياب الليل، وحطم الذعر صدرى بأقدامه الثقيلة وهو يجرى مهرولا فى فراغ أعماقى.. تهشمت أمامى مرايا السكون، تأودت جدتى فى مضجعها هكذا تفعل جدتى طول الليل.. أكتشفت بعد ذلك أنى لم أبق فى مكانى بجوار الحلة وإنما إندفعت، لست أدرى كيف.. ولعلها قفزة من قفزاتى.. فصرت فى فراشى ممدداً إلى جوار أخى أصيخ سمعى بلهفة، أنشب فى الليل عيونى وأذنى، أراقب كل حركة تحدث، حتى الكرسى الخشبى الذى لا يجلس عليه أحد يطقطق.. دبيب على السطح، يبدو أنها القطة.. ربما وجدت بعض الفئران.. وهى دائماً مرزوقة.. أينما تسير، تجد رزقها وفيراً، نسمات خفيفة تهمس فى أذن النافذة.. أصوات خافتة واهنة لكنها تخيف الليل وتخيفنى، حرب نفسية ضدى تريد أن توقف زحفى وتلغى خطتى.. لكنى لن أتراجع وإن كان يجب على أن أتمهل.. أعد جفوتى للإغلاق إذا حامت عيون.. أو حدقت فى المكان تبحث عن مصدر الحركة، وعندما هدأت قليلا، حين انسحبت من جسدى بعض مخالب الفزع الضارية، وكنت أجلس كما يقولون على زبانى، مشرأب العنق، أحسست بيداى وقدماى ترتعش، وشعرى يقف وكل جسدى ينتفض.. لقد كان كيانى كله معلقا بهذا السلوك الغير عادى.. فلاشك أنه ينطوى على جرأة لم يسبق لها مثيل.. ثورة فى عالم الطفولة.. تحطيم للقيود.. تحرير للأيدى المغلولة، ملء للبطون المتسعة بلا حدود، والأفواه الممدودة لكل شيء.. أما العيون والآذان والأيدى التى تعمل فى خدمة البطون والأفواه.. فكلها جنود نشطة، تتقن الأقدام والانقضاض، ولن تفشل هجمة هذه الليلة.

انتظرت فى مكمنى كجندى فى خندقه. أعصابى ليست ملكى، المهمة ستفشل.. لا .. سحقا لكلمة الفشل. إن سماعها وحده كفيل بأن يحقق الفشل حتى فى أكثر اللحظات قدرة على النجاح والنصر.

توجعت الكنبة الخشبية مرة أخرى تحت جدتى.. تتقلب كثيراً وحركتها تصفع أفكارى واستقرارى وتقلل من طموحى. نومها خفيف، هى أقرب إلى اليقظة منها إلى

النوم، ألا يكفيها نومها طول النهار.. أكل ومرعى وقلة صنعة.. زفعت رأسها ودفنت رأسى فى الوسادة. أغلقت جفونى بشدة.. كأنى أخشى أن يحاول أحد فتحهما.. ساد الظلام حولى، أحسست أنى أريد أن أنظر من خلف جفونى لأكون على علم بما يجرى؛ لأنى لن أتخلى عن آمالى وحقوقى المشروعة.

نويت من جديد أن أنتظر بعض الوقت حتى يحكم النوم العميق غطائه على جدتى وتغوص فيه إلى شعر رأسها.

وخشية أن تطول يقظتها، فكرت أن أحاول اتمام مهمتى دون أن أتركها تستكمل نومها، على أساس أنها لن تحس، لكننى تذكرت للأسف أنها رغم سنها الذى فقدت معه الكثير من حواسها مازالت تملك قدرة كبيرة على السمع، فلم يقترب منها معول الزمن بعد، أنه فقط حظى النحس.

أخشى ما أخشاه أن أمسك متلبسا، ولا نكون قد حققنا شيئاً على الاطلاق. لا اللحم ولا حسن السمعة.. روضت نفسى وأعصابى على الانتظار الطويل، فلا بأس ولا ضير إذا كنت سأجنى ما تعذبت من أجله، وما أنا ساهر فى سبيله، بينما الجميع ينعمون بنوم هنيء... شغلت نفسى ببعض ما مر بى طيلة النهار.. ألقى بما فى ذاكرتى أمام عقلى ليعبث به كالقط حين يلعب بكرة الصوف ويتعثر فى خيوطها لاهيا.. الولد سليمان الذى يرتدى البنطلون ويركب عجلة.. العيال الذين عثروا على القطعة المعدنية ذات الخمسة قروش واشتروا بها حلوى وبمب، الشيخ موسى الكفيف، واعظ المسجد حين عثر بالعيال، وأخذ يسبنا جميعاً. وكنت أقرب إليه منهم فأمسك بجلبابى وجذبه حتى تمزق من جانبه وأخفيت ذلك عن أمى، طبعاً لأنها لو علمت لضربتنى وأنا لا أحب الضرب. أحب اللحم فقط.

دوى فى المكان صوت فرقعة عنيفة، لم يبق فى الدنيا بكاملها أحد مغمض العين، أو مضجع فى فراش، وناعما بأحلامه.. أنه صوت ارتطام النحاس بالنحاس، أعرفه، أردت أن أقفز من مكانى إلى موقع الصوت لكننى لم أستطع.. أقعدنى الخوف.. لا .. لعله السؤال الصارخ يدوى فى أذنى.. ماذا جرى فى الحلة؟ إذا كانت هى حلة اللحم؟.. استيقظت أمى على الصوت كأنها ترتبط مع الحلة برباط وثيق أسرعت إلى مكانها فى الظلام.. حيث يتمدد فى الحلة مصيرها ومصير الأولاد ومصيرى أنا بالذات.

تحسست الحلة بيدها فى الظلام. وبالأخرى ترفع اللمبة المشتعلة بلا نور، هرب الظلام وتيقنت أمى أخيراً وأنا بعدها أن القط قد هرب من النافذة، لم تجد فى الحلة غير قطعتين صغيرتين من اللحم. دقت صدرها بيديها، بكل ما تملك، كأنها تراه المسئول عن ذلك أو كأنها ترى ألا داعى لوجوده بعد أن ضاع اللحم. ضاع ما اشتقنا إليه أسابيع وانتظرناه أياماً كالدهور.. يا دهوتى يادى الليلة السودة، هب أبى من فراشه.. سألها كأنه يريد أن يسبها: جرى أيه يا ولية؟ إلحق يا خويا إلحق.. دق قلبه وقد أحس بالمصيبة.. لم يكن فى حاجة إلى أن تقول له بكل وضوح أن اللحمة أكلتها القطة، لكنه نظر مندهشاً إلى الحلة، كأنه يرى فيها بدل اللحم ثعباناً.. قال بغيظ وأطراف الكلمات تتمدد على شفتيه: بنت الكلب.. هيه مفيش غيرها والنبى لأجزر رقبتها بالفأس.. الصباح رباح، قلت فى نفسى هو الصباح حيعمل إيه ولا إيه.. كل حاجة تأجلوها لبكرة، انتوا اللى ضيعتوا اللحمة.. لوحد فينا طلب حاجة تقولوا اصبر هى الدنيا طارت.. اهى طارت.

جلس أبى وأمى إلى جوار الحلة أو القتيل، يضع كل منهما يد تحت ذقنه أما أنا فكنت أبذل جهداً مضنياً لأمنع نفسى من الانفجار باكيا.. لكننى فى النهاية بكيت بدموع ساخنة صامتة. وبعد إن استرخت الأجفان وغيضت منابع الدموع قررت أنتقم من القطة، التى أكلت اللحم، أخذت مالم أستطع أن آخذه.. خطفته خطفا، لم تدرس ولم تحسب.. أن كل شيء يغفل عنه الآخرون من حقها، وحقها يجب أن تقتنصه فى أقرب وقت.. أما أنا فسوف انتقم، سوف أنتقم.

بنها فى ١٩٧٠/٣/٢١

أرجو ألا يدوم الظلام

فجر الخميس ٩ يونيو.. كنت فى القطار القادم من أقصى الشرق يبتلع قضبان الحديد ويسبق الطريق.. والليل يتدفق.. بحراً من السواد الشامل، يسيطر على المكان ويسود كل الألوان.. يغرق فيه كل شيء والقطار ينطلق فى إصرار، كأنه يريد أن يعبر جسر الظلام، ويستريح بعد ذلك إلى النور.. حاولت أن أفكر فى شيء.. أى شيء، عقلى يتململ داخل رأسى، لا يستطيع أن يمسك أى فكرة.. ليس فى متناوله شيء محدد، رغم أن كل أبواق الواقع اللعينة الصوت، تدوى فى كل مكان وتحدد المسائل.

لقد تحدد كل شيء، وتهدم المنزل، والكأس التى كنت أشرب فيها شراب السعادة والاسترخاء، والأمل الناعس فى جفن الغيب، كسر فى يدى وتحطم.. سال الشراب، وأريق دمى.. لكن دموعى لا تسيل، لا دموع... هذا ما يحدث عادة حينما يكون التأثر شديداً، سيأتى يوم قريب أبكى فيه، وأقع على الأرض ألثم ترابها.. أمزج به دمى، وأخلط طينة الفشل لحظات.. أذوق مرارته ثم أهب واقفا؟ ولكن.. متى.. متى؟

الأفكار تدور فى ذهنى بغير انتظام.. الأفكار كثيرة... حصاد أيام، وإن كانت قليلة، لكنى أحصيتها بالثانية، بعيون مفتوحة بعروق يقفز فيها الدم.. ذراعى طويلة، الحديد فى يدى جزء من ذراعى، وأحس بأكتافى أعلى من رأسى، أراها بعينى ممتدة إلى جانبى، عريضة قوية صلدة..

كان قلبي حتى ركبت هذا القطار يسكن في أكتافي ثم عاد إلى ضلوعي.. سوف أمزق أنيابي وأنهش لحم وجهي ومصيري، حتى يعود قلبي إلى أكتافي. وتعود إلى بعض من كرامتي.

أيام قليلة. نهارها أسود وليلها أحمر، كل ثانية فيها بعمر طويل. ثقيل، انتظار ثم لا شيء.. الكأس تحطم، تجمعت في رأسي ألف فكرة متجاورة، لكنها كالماء والزيت.. لا يلتقيان، رأسي كورقة مملوءة بالكلمات، لكنها ممزقة، لا أستطيع أن أجمع حرفا إلى حرف.

القطار لم يقف منذ مدة طويلة.. بطنه حبلى بالركاب السكارى الصامتين.. الواعين.. التائهين.. لعبة سخيفة هذه الحياة.. أنا قشة في بطن القطار، أكاد لا أعثر فيه على وجودي لأني ضائع كغيري في الظلام.. النوافذ الزجاجية تشع بعض الضوء، من أين يا ترى هذا الضوء؟ والأفق بلا قمر، والأرض بلا مدن.. فلأنظر في صمت، حتى الضوء الذى جاء لنا بدون سبب.. أسأل نفسي من أين جاء؟ لاشك أنه من عند الله.. هناك أشياء كثيرة تحدث بلا سبب.. على الأقل من وجهة نظرنا نحن البشر الأقوياء العاجزين.

نظرت من خلال النوافذ الملونة بلمسات الأصابع والطين والرذاذ والضوء الخابي.. لاح لي المكان هناك في توتر، هادئا كإناء كان يغلي بما فيه، ثم سحب من تحته الموقد، غارقا في بقايا الطين والمطر وظل الشمس الغاربة والأفق الأسود المخنوق.. رجل يتعثر في الركن أنه نابليون يسبب المكان بنظرات حاقدة.. تلمع عيناه الحمراوتان والسواد يحيط بهما إحاطة تامة، وإمعاناً في قتل النفس وقهر الأعماق، لم يغط السواد عينيه، تركهما له ليرى بهما نفسه.. معلقاً على صليب الخزى والخيبة، عقله في رأسه يدور كحصان يحاول أن يخوض في غابة من أشجار الصنوبر.

أفاق نابليون من غيبته التي سببها الهلع، ورغم المطر والبرد، فالعرق يطفر من جبهته، والدمع الجاف يتدحرج بطيئا على وجنتيه، مترددا ثقيل الخطوات فيزداد تلوث وجه العاهل الامبراطورى.. يحملق في المكان من حوله.. السماء قاتمة عكرة، الأرض تغطيها جثث جنوده، أشلاء ممزقة مبعثرة تفتحت عروقها عن كل ما فيها من الدماء الحارة، لم تبق شيئاً، فغدت كبراميل النبيذ المهدرة..

نابليون يرنو إلى المكان من أقصاه إلى أقصاه.. يزنه ويحسبه، رأسه يدور في التاريخ.. منذ عشرين سنة، ها هو يجرى يمينا وشمالا، يرفع رأس فرنسا عاليا.. الضوء دب في المكان، تصاعدت بالونات النصر إلى السماء، بحت الأصوات من النداء.. الجماهير تهلل مرفوعة الرأس وتضحك، الضحك دائما يكون إلى أعلى.. أما البكاء فيكون دائما إلى أسفل.. تنهدت .. أحسست أن نابليون يحاول أن يختبيء في صدرى من مرارة الأفق المقهور.. أشار لابنه الصغير قبل أن تتلاشى صورته، حاول أن يشرح له ما حدث، ويملأ نفس الطفل بالأحداث فيستعد لها.. الطفل الصغير يعبث بسلسلة ويبدو أنه لم يع شيئاً،

أضيء النور فجأة داخل العربة. فاضطربت له حواسي.. النظرات في عيني لم تتحرك.. لم تختلط بالضوء.. ظلت كما هي موجهة إلى لا شيء، الأجساد أمامي فرضت نفسها على.. كالمواقف التعسة التي تفتح بابك دون استئذان وتخطف من مائدتك الشهية اللحظات الهنية.. كالضيف المرفوض من الأعماق.

النور حرك في بعض اليقظة، انتقلت من حال إلى حال، أحسست بالقطار.. يهتز كبطن رجل بدين يحملها أمامه عبئاً ثقيلا ويحاول أن يجرى به.. الركاب يتناثرون داخل العربة، كلهم متشابهون.. خليط من الطين والرمل والدخان الأسود يطلى جميع الوجوه، لا يترك غير دائرتين حول العينين في كل وجه.. كأنهم كانوا يضعون نظارات على عيونهم حين غرقوا في الوحل، أو حين نزلوا إلى المناجم.. أو طوال الثلاثمائة عام وتسع التي قضوها في الكهف بعيداً عن الوجود وشمس الحياة، معظمهم خلع الخوذة النحاسية، وألقوا بها فوق رفوف البضائع.. بعضهم معه مدفع صغير، وكمامة بيضاء مما يستعمله الجنود في الحرب الحديثة، ضد الهجوم بالغازات.. أمتعتهم مبعثرة هنا وهناك.. العين ثابتة كعيون التماثيل الشمعية، رغم ذلك كله فهي تحمل الكثير من معاني السخط والحقد، وعيونهم تشعل المكان بالغضب الصامت، والأسى المقهور.. أنا واحد منهم، مثلهم أحمل ما يحملون وأكثر.

إننا جميعا قادمون من هناك.. لم يك النسر، لكنه رأى مكان عبث بعثه، وبعثر المصير للصغار، فثار، وجرى بعيدا يرنو للمكان، ويجمع الشتات للصراع والحياة.. فطالما هناك صراع.. توجد الحياة...

أطفيء النور فجأة وعاد الظلام دامساً.. تذكرت قول أحد الفلاسفة الماديين، حتى كان يصف فلسفة المثاليين، بأنها بحث عن قبعة سوداء في حجرة مظلمة.. ها هي نادية خطيبتي، كم هي جميلة ورشيقة.

عيناها جميلتان.. شعرها الطويل الأسود سيغمرني يوما ما.. خفيفة الدم بشكل يمنعني من أن أنساها.. أجمل اللحظات حين أعاشر طيفها العابر، كالحلم أمام عيني وخيالي عدة ساعات وأنا في نوبة حراسة، أو في الخندق.. وخطابها الدافيء يؤنس وحدة الليل.. ويبقى صفاته ويجلي نجومه، ما أحلى لحظات الهوى بالليل، حتى ولو كانت مجرد ذكريات... يغيظني منها حدتها وكبريائها.. كل شيء فيها بسيط، ولذيذ... لكنها متشددة وبالذات معي، تثور لملابسي لأسناني.. ليس عندها في هذه المسائل حل وسط، أو مهادنة، لابد أن أكون في نظرها أحسن الرجال، ويعجبني فيها ذلك الذكاء الفطري والإحساس الداخلي بالحقائق مهما كان غموضها.. صادقة إلى أقصى حد..

بعد قليل أطل علينا الفجر بأندائه الحنون، يتسلل إلى الوجود.. يحبو في سكون، كالطفل الصغير، وبراعم النور في إثره تنبت في المكان، لكن نظراته إلى البشر ملؤها الاحتقار، نظراته تطل علينا من النافذة. كأنها تعطينا مالا يحق لنا.

وصل القطار أخيراً الى بلدتي بنها... وجدتها فجأة أمامي.. كل شيء يحدث فجأة، الضوء والظلام، الفشل والنجاح، والوصول الى بنها.. كيف تقتل الضفدعة الثعبان؟.. هذا ما حدث مامي وكنت مبهوراً ضائعاً في تيه الدهشة هذا ما حدث وضاع الثعبان أمامي في لحظات، انقضت الضفدعة فجأة على رأس الثعبان وأحكمت التشبث بها، وضعت مصيرها كله في فمها وأسنانها، لأنها تعلم تمام العلم بأن الثعبان إذا أفلت، فقدت حياتها دون أدنى خاطرة من وهم، وبصرف النظر عن كل وكالات الغوث التي تبدأ العمل بعد أن تتم المصيبة..

خطفت بندقيتي وأسرعت بالنزول .. عيني تدور في المدينة... يتقلب في نفسي حبي لها ولأهلها، آمنة مدينتي، الحمدلله أنها آمنة، المدينة خالية تماماً.. هجرها ساكنوها.. قامت عيني قليلا.. وشرد فكري بعيدا. غاص إلى ركبتيه في بئر التاريخ السحيق..

مدينة حماد المصرية في سنة ١٨٠٧م خالية تماماً قد هجرها ساكنوها دقائق.. جيش فريزر الإنجليزي يزحف من مداخل البلد الشمالية... طلقات معدودة من الرصاص تدوي

فى المكان، ويئز صداها فى الفضاء المجهول.. تتحسس الطريق، تبحث فى الشقوق عن أهل المدينة تدق لهم الأبواب، العيون تمسح المكان، تحدق فى الأركان.. الخطوات بطيئة متوجسة، الأيدى بأقصى قوتها تضم السلاح إلى الصدر.. توجهه إلى الفضاء المفتوح، إلى السماء.. أنهكهم المسير والشمس والخوف. ارتاحت فى صدورهم القلوب الثائرة الفزعة.. أغراهم هدوء المدينة ومياه الصمت الراكدة فيها.. خيوط العنكبوت على غار حراء وبيض الحمام.. لاشر هناك.. ألقوا بالأسلحة وخلدوا إلى الراحة.. تمددت الأجساد.. استندوا إلى الجدران.. يلعنون الحروب ومدبريها كل إنسان يلعن الحرب، ولا يلعنها مدبروها إلا بسد الهزيمة.

تمدد الجنود لعنوا فريزر.. لكنها دقائق فقط لا تزيد.. وسرعان ما انهال اللهب يحمل الموت على رءوس الانجليز من كل جانب.. لا تعرف من أين؟ لكنها الخرب دبت فجأة، والعدو فى بطن المديمة وفى حلق الأسد.. كيف يتسنى له أن يرد على الرصاص والطوب، والنبال والحديد وكل شيء.

أغمضت عينى.. المكان يعود إلى الهدوء .. أحسست بنفسى وبوجهى الذى يشبه الغراب.. لا .. بل البومة.. ذات العينين الواسعتين، هذا هو بيت نادية، لقد انتهى خيالى عند بيتها، نظرت إليه.. إلى النوافذ شيش حجرتها مفتوح والزجاج مغلق.. الزجاج سليم لم يضار بيتها من صد هجوم «فريزر» الإنجليزى، لم تكن مهمة صد الهجوم سهلة، لكنها كانت موفقة إلى حد كبير، كان أهلها رجال، جميعهم رجال .. حتى الأطفال.. سلاحهم لم يزد عن اليقظة والإصرار، عدة كل صراع وكل حرب.. تنهدت محاولاً أن أخفف عن روحى عبء الأحداث الثقيل.

طرقت باب أمى.. فتحت.. عانقتنى.. حمدا لله على سلامتك يا بنى.. أخذت تتلمس جسدى، كأنها تريد أن تطمئن بيدها على سلامتى فعلا.. كل شيء سليم والحمد لله، على أى الأحوال ليست هذه هى القضية.. ضغطت على أنيابى بشدة.

ـ مالك يا بنى.

ـ أبداً

ـ أسخن لك بعض الماء وتستحم ثم تأكل

ـ ثم أنام

ـ ٢ ـ

فتحت عينى بعد نوم يبدو أنه كان طويلا، حاولت أن أتعرف على الوجود الخارجي.. بقايا نهار.. لقد غربت الشمس إلتفت ناحية الباب.. شد أذنى صوت حبيب.. أنها نادية، صوتها شمسى تضىء جوانحى، يحمل إلى قلبى شخصيتها وحنانها.. بقيت فى الحجرة حتى تدخل على، فأتلقاها بين ذراعى، أضمها إلى صدرى الثائر، المشتعل شوقا إلى المرسى، والاسترخاء على وسادة الحنان.. أريد أن أضمها أكثر وأكثر.. أهشم عظامها وعظامى.. أحتوى جسدها البض.. سوف أقبلها فى كل مكان .. أشبع منها عينى وصدرى اللذين لا يشبعان.. وأشبعها بأنفاسى ولهفتى وحرارة قلبى الظامىء.. إشتقت إليها جدا واشتعل الشوق أكثر عندما رن صوتها فى بدنى، لذيذا كالمخدر.. لصوتها نبرات خاصة، ليست فى أى، صوت آخر مهما كان جميلا.. لعله الحب، سوف يكون لقاؤها بالتأكيد مسكنا لآلامى، مهدئاً لتلك الثورة التى تنهش روحى.. الثورة التى تعبث بكيانى.. تعذبنى، وتمرغ الرأس فى تراب الضيق واليأس.. الهزيمة.. ما أتعس هذا .. أنها الحلم الأسود الذى يتابع النائم حتى بعد أن يصحو.. أعهد فى نفسى كراهيتها لعدة مواقف، تقتات من شخصية الإنسان وكيانه، فى هذا الوجود وكلها تحمل تقريباً مضمونا واحدا.. الإحراج والرفض والهزيمة والفشل.

نادية تسأل أمى: ألم يستيقظ بعد؟ إذن فهى قد عرفت أنى جئت وكنت نائما.. الحمدلله أننى نمت، ولم يكن هناك حل غير هذا.. مازالت الصورة ماثلة أمامى، لا تفارقنى.. إنها ظلى الأول، الكابوس، وأشباح لا شكل لها.. المناظر القبيحة والأنفاس العفنة.. الأجساد المشوهة.. الدنيا كلها تحبنا، ورغم ما حدث، سوف يبصق الناس فى كل مكان عند ذكر اسمنا، سوف يضحكون فى مرارة واستهزاء.

يعترض تنهداتى، سيل الأفكار الغضبى، سوف أنسى كل شىء مع نادية، ها هى قادمة.. قبقابها الخشبى يدق الأرض فى ثقة.. صوته لذيذ.. أشتاق إليه مهما بعد الزمان ونأى المكان.. يا حبيبتى، لن أمنع نفسى من تقبيلك مهما قاومت.. أهلا بك

وبخطواتك، يا من تمشين على الصدر وتدقين فى بلاط القلب الفسيح.. عينى على مقبض الباب الفضى.. دار المقبض ونظراتى معلقة به وتدور معه.. دق قلبى وأرهفت شفتاى بالابتسام، عينى تريد أن تنظر إلى الصورة بكاملها، وتتلقى بين جفونها الجسد كله من الرأس إلى القدم، لكن قلبى لا يريد إلا أن يطل فى عينيها ويسكن إليهما، فيهما عشه الجميل.. يعرف فى نظراتها معنى الأحلام.. ولذة الفرح واللقاء بعد الغياب الخطر..

فتحت الباب.. دخلت بخطوات منتظمة غير مضطربة ولا متلهفة، كأنها القائد يسير فى طابور عسكرى.. جمعت شتاتى لأقفز وألقاها فى أحضانى ولكنها فجأة وقفت قبل أن تصل إلى.. مدت إلى يدها كأنها تعزينى، قالت: حمدا لله على سلامتك.. فوجئت بهذا اللقاء.. لا يمكن أن أقول عنه أنه بارد فقط، أنكرته نفسى تماماً، حتى حسبت أننى مازلت فى نفس الحلم السخيف.. حملقت فيها وقلت بصوت غير صوتى: الله يسلمك.

اضطربت يدى واهتز جسدى كله كأن أحد أهالى الماء البارد فوق بدنى الساخن العريان.. أحسست أنى تلميذ، كان يحسب نفسه أول الناجحين فلم يجد اسمه بالمرة.. حاولت أن أرد أعضائى وأعصابى إلى أماكنها.. أغمدت سيفى فى جرابه، اعتدلت فى بطء قائلا:

ـ ما هذا اللقاء البارد.. يا نادية؟

ـ هل انتهت الحرب؟

ـ نعم

قطبت وجهها وفتحت فمها وقالت فى دهشة:

ـ نعم.. تقول نعم!

ـ أقول نعم.. انتهت الحرب يا نادية.

ـ ثلاثة أيام!

ـ نعم.

ـ وما النتيجة؟

ـ أى نتيجة.. هل هى مباراة؟

ـ نعم .. هى كذلك.

ـ نادية.. !

ـ ماذا ؟

ـ أنا لست مستعدا لهذه الأسئلة.. كفانى ما أنا فيه.. أنا جئت فقط لأراك.. واطمئنك على واستريح إلى جوارك من متاعبى.. هل فهمت؟

ـ وهل انتهت متاعبك حتى تفكر فى الراحة.. نحن جميعا فى غاية القلق.. الأنباء متضاربة.. ألم تسألك أمك؟

ـ نعم سألتنى، قالت لى: كيف حالك يا بنى وحال الحرب، قلت لها: الحمدلله قالت أما زالت الحرب مستمرة قلت: نعم. قالت: ربنا ينصركم على الظالمين.

طافت بعينها رغبة فى الابتسام، لكنها سألت: هل أكلْت؟ تنهدت.. وقد تسربت بعض الراحة إلى صدرى.. كأن عقوبة الجلد التى حكم على بها الحجاج قد انتهت.. قلت لها بحنان: اجلسى.

جلست على السرير إلى جوارى..

ـ إنك مجهد جدا لكنى أريد أن أعرف الحكاية بالضبط..

ـ لقد لقيت أنا وزملائى من المتاعب الكثير.. وسوف أقصها عليك فى فرصة أخرى..

ـ ما هى هذه المتاعب؟.. أحك لى الآن.. ألست خطيبتك؟

ـ هى من القسوة بحيث أريد أن أنساها بأى وسيلة، على الأقل الآن..

ـ لماذا جئت إذن؟

قلت بيأس وضيق، وأنا أتذكر القنبلة التى ألقيتها على موقع مدفعية الأعداء فلزم الصمت على الفور.. قلت لها.

لقد هزمنا وعاد الجيش كله.

ـ غير معقول.. جيش مصر يهزم.. جيش عبدالناصر يهزم غير معقول بالمرة، أنت تكذب.. أقصد أنه مازال فى الجعبة شيء، من غير المعقول أن تنتهى المسائل بهذه البساطة.

ـ هذا ما حدث للأسف

ـ من المسئول؟

قلت فى ثورة، غير موجهه فى الحقيقة إليها: نحن مسئولون.. وهو مسئول، والعدو مسئول.. والصديق مسئول.. والخير مسئول والشر مسئول.. ولست أنا وحدى.. أرجوك أن تصمتى أو تذهبى.

ـ ولا.. لن أصمت ولن أذهب أريد أن أعرف الحقيقة.. التى أعتقد أنك تخفيها.. أو تجهلها.

ضقت ذرعا بها وغلا الدم فى العروق، عندما أنشبت نصال أسئلتها المصقولة فى جروحى فمزقت روحى، وأشعلت جمر الغضب فجأة بعد حديث كأنه المبارزة بالسيف.. تذكرت ذلك الضابط الذى أرهقنى بالأسئلة عن السبب فى أنى لم أقدم له التحية العسكرية اللازمة حينما قابلته بعد بدء المعارك بدقائق، صرخت وكنت أريد أن أصرخ فيه..

ـ إنك لا تحسين بى.. لقد سرت مع زملائى الجنود كل سيناء على الأقدام.. فى هذه الأيام القاسية من يونية.. الشمس فوقنا طول النهار.. سرت أكثر من مائة كيلومترا، الأرض رمال ملتهبة، وأشواك وعقارب وثعابين وتلال وصخور.. وجوع وعطش، وطيران العدو يغطى السماء بالأزيز ويغطى الأرض بالنبالم المحرق.. يصطاد الجنود بالمدافع والدبدبات والسيارات بالقنابل.. كنا كمن طلع عليهم النحل من الخلايا هاتجاً.. يمطرنا بالحقد والكراهية فيموت المئات فى لحظات.

استمر انطلاقى العنيف فى الحديث الأليم كالمدفع الرشاش.

ـ لقد أختبأت فى الرمال من هجوم الطائرات، وتمزقت ثيابى، لكن مدفعى ملتصق برقبتى وبين فخذى، بعد أن أيقنت أنه لا سبيل إلى فعل شىء.. هيا إذهبى.. لا أريدك.. أذهبى..

ودفعتها بعنف خارج الباب وأغلقته خلفها.. أحسست بجسدى يتهاوى كالجدار المنهدم، صوت الكلب المطعون يئن فى فراغ أعماقى.. وتنهداتى تفرغ من صدرى بقايا الضيق، وتلعن الأرحام التى حملت العاجزين، أنا لم أحارب، ترآى لى منظر الجنود وكنت معهم حين إلتقينا هناك بفرقة من جنود العدو، فاضطررنا لاستخدام الخناجر.. مزقناهم وأسرنا منهم الكثير.. ابتسمت.. لكننا لم نحارب.. الكلب المجروح يعبث فى صدرى،

يشوى كبدى بأنينه الحزين.. إننا لم نحارب، ولو حاربنا، لكان الموقف.. نادية .. جاءت أمى حملتنى إلى السرير، قلت لها فى وهن.. أرجو ألا يدوم الظلام.

بنها نوفمبر ١٩٦٧

ليلة فوق السطوح

(صورة رومانسية)

ألقى الليل على المدينة ردائه الكثيف... صب النعاس فى كل العيون..

ذكر وأنثى عاريان يتحاوران فى السكون.. يسبحان فى المياه الدافئة.. الذكر متغطرس.

* * *

قالت الأنثى:

ـ ما أحلى الليل وهو هادىء ساكن وديع.. كقلب المؤمن.. ألا ترى أنه يدعونا للأحلام، للحب، للتفاؤل.. للابتسام.

أغمض المتغطرس عينيه، بما يعنى الموافقة.. استرسلت الأنثى.

ـ إذن ابتسم بإسم هدوء الليل ولا داعى لهذا العبوس.. ابتسم وإلا تخليت عن صحبتك النكدة، وذهبت إلى شقة صاحبنا.. ساكن الدور الثانى.

يبتسم المتغطرس فى كبرياء تشى بأنه لم يتعود المجاملة.. تسترسل الأنثى.

ـ لا.. هذه البسمة المفتعلة لا تكفى.. نواجذك تلفظها بصعوبة، كبسمتك لضيف ثقيل.. دع عنك تقاليد الخشونة والشموخ. طامن من خيلاتك التى عفى عليها الزمان فليس الأوان أوانها.. ولا هدوء الليل مجالها.. أنظر إلى وأسبح فى عينى.. إبحث فيهما عن شىء تحتاج إليه.. ترتاح إليه.. يهب حياتك معناها.

يرد المتغطرس فى إيجاز قاتل.. يرد الجنين إلى بطن أمه.

ـ لغو

تتنهد الأنثى وتتابع حديثها الذى يملأ جوانحها.

ـ أغمس عينيك في عيني.. أملأ نظراتك مني.. أنعشنى ببحلقتك يبدو لى أنك لا تعرف سحر عيونى.. دوما أسأل نفسى لماذا لا تنظر إليها طويلا وتغوص فى بحارها كما يفعل صديقى ساكن الدور الثانى.

حينما كنت عنده بالأمس.. أخذ يغمس نظراته فى عيونى طويلا ويفكر ثم يهيم ويشرد ثم يعود فينظر ويدقق.. أخجل منه.. أغمض عيناى.. تنثنى رقبتى رغما عنى دلالا وحياء.. أراقبه من بين ستائر أهدابى المسدلة.. ألمحه يتأمل وجهى وينتظر بفارغ الصبر أن أفتح عينى.. يراقبنى كأنى كائن غريب مع أنه يرانى كل يوم.. وفى كل مرة ينظر لى على أنى غريبة.. وجديدة.. ولست من رآها بالأمس..

ـ كفى.. كفى

ـ هل يضايقك كلامى.. لما هربت بسمتك من شفتيك؟ فبددت كسماء أخفت شمسها كتل السحاب.. هل تغار؟ أعرف أنك تغار.. وأنك بركان على وشك الانفجار.. ربما الآن وفى كل آن.. إنى لا أحاول إثارتك.. كل ما هنالك أنى أذكر لك رأى الأخرين فى، ولا أريدك أن تكشر عن أنيابك وتقضم ضروسك بعضها.. نحن فى الليل.. والليل هدوء وابتسام.. إلتقاء وديع تحت خميلة الحب.. لا أذكر أنك منذ عرفتك.. كنت ودودا يوماً واحداً.. لا تعرف غير التقطيب وإصدار الأوامر.. لا تنظر لى إلا بنصف عين.. حتى لو حاولت أن تداعبنى فإنك تعاملنى بشدة وعنف.. تدفعنى بذراعك الثقيلة الخشنة وهذا ما دعانى بالأمس لمبارحتك.. وآثرت النوم فى شقة صاحبنا ساكن الدور الثانى.

أنا لا تخيفنى قسوتك.. لكنها تبعدنى عنك وتنزع من قلبى كل إحساس بالأمان معك وأنت لا تريد أن تخفف من غلواء نفسك المتزايد.

منذ أول يوم عرفتك فيه وأنت قاسى.. بل إن سبب تعارفنا كان يشهد بأنك فظ غليظ القلب.. هل تذكر؟

ـ لا أذكر

ـ أنا واثقة أنك تذكر ولكنك تأبى الاعتراف.. أنا أذكرك.

كان ذلك يوم كنت ترقد أمام المنزل المجاور، ورأيتنى أخرج من البيت القديم، متجهة لمخزن الخشب ومعى طعامى المفضل.. انقضضت على كأنك النسر فأخذت الفأر من فمى .. إلتهمته أمام عينى.. تصور أمام عينى هل نسيت.. الآن تضحك وكلما اقتربت منك.. يدفعنى تجاهلك غيظ جامح.. وصدرى كالبركان الملتهب ينفث لظى من عيونى.. دفعتنى بعيداً وفى فمك تتمزق أشلاء فأرى الحبيب.. وملء عينيك تهديدات صامتة لى بعدم الاقتراب.. وإلا نلت مالا أحتمل.. هل هذا من الذوق فى شىء؟ تخطف طعاماً من أنثى جاهدت فى سبيله.. وأنت تعرف كم يرهقنى الفأر.. كان الأولى بك.. أن تقتنص الطعام وتقدمه لى.. لا أقول قرباناً لجمالى ولكن لكونى أنثى لا أستطيع الصراع ولا يجب أن يستدرجنى الصراع. لم تحاول أن ترتفع عما فيك من الحيوانية. ما أقربك إلى الإنسان.. ومع ذلك فلقد تحسنت كثيرا بعد تعارفنا.

آه.. لا أستطيع أن أنسى.. يا لقسوتك.. لقد أخذت فأرى وأنت تعرف كم أحب الفئران.. ولا أمل طعامها ولا أشبع منها ليل نهار.. حتى أنهم كانوا يقولون عنى أننى آكل الفئران كما يأكل الصينيون الأرز وكما يأكل المصريون الفول والعدس وكما يأكل البدو البارزين والعصيدة.. وكما يأكل الفلسطينيون المقلوبة وكما يأكل الإيطاليون الميكرونة.. وكما يأكل الساحليون الأسماك.

كنت أكرهك لشراستك، وزادت كراهيتى لك لأنك كنت ضعيفا أمام شهواتك. وبقيت أكرهك وأكره سيرتك.. وأبصق الأرض كلما رأيتك..

حتى مرت شهور إلى أن كان ذلك اليوم الذى أنقذتنى فيه من الكلب الجهنمى الذى تعرض لى تحت السلم فى العمارة.. وأنا محاصرة من جميع الجوانب، وهو أمامى فاتحا فمه. وصوته إلى السماء. ويزعج الموتى والأحياء. فى الحقيقة كنت نبيلا مقداما.. لم يكن هذا دلالة منك على أنك تحبنى.. لا فما زال الحب يجهل الطريق إلى قلبك.. إن كان لك قلب. لكنه كان دفاعاً عن بنى جنسك.

بدأت كراهيتى لك تحتضر رويداً.. رويداً كما تحتضر الشمس وراء الأفق.. أو كأنها صوت سيارة تبتعد.. أصبحت أختلق الأسباب لغضبك.. أبرزه بكافة السبل. أصبحت أمضغ لك الظلط بعد أن كنت أتمنى لك الغلط.

اعتقدت مع الأيام أنك طيب مقدام تساعد الضعيف، وتحمي الأعزل.. ورغم عبوسك الدائم.. فكثيراً ما كنت ألمح من بين ظلام عنفك نور الحنان يطل كشمعة بعيدة.. كأنه مصباح في كوخ على مرمى العين.. عرفت ذلك أكثر بعد تعارفنا واستمرار لقائنا وتعددت المرات التى تأتى فيها إلى بيتنا.. وتصعد إلى السطوح.. حيث تجدنى فى الركن الذى تعودت أن ترانى فيه.. وإذا لم تجدنى سعيت للبحث عنى هنا أو هناك ـ لا يهدأ لك بال حتى تعثر على.. ثم تقترب منى وتنظر إلى.. ثم تدير ظهرك لى.. وأسأل نفسى. لماذا جاء اذن؟ أحياناً كنت تجيئنى بأسباب تافهة.. لكن بحاستى الأنثوية أدرك أنه الحب.

على كل حال أصبحت أدرك مع الأيام إنه من الممكن الاعتماد عليك وأيقنت أنك كالأب الحنون.. ساكن الدور الأول.. على الرغم من أنه جاد الملامح، مقطب الجبين لكنه مفعم القلب طيب المشاعر ينهار عند بكاء طفلة. وهكذا أصبحنا فى محبة بعد العداوة.. يمكنك أن تتحسن أكثر على كل حال.. إسألنى كيف؟

ـ كيف؟

ـ عليك بالطبيعة.. إن لها على النفس تأثير كبير.. ألا ترانى أترك البيوت والجدران لأتمشى بين المزارع أو أتمدد فى الحديقة.. سأظل محبة للطبيعة وفيه لها أزورها كل يوم. أرطب فيها فؤادى وأنعش بها روحى.. ولتكون عونا لى عليك وعلى أمثالك.

ـ تركنا الفئران ودخلنا فى الطبيعة

ـ حين تكون رقيقا ودودا. لا أحتاج إلى الطبيعة.. أجدها بين أحضانك وألمحها هادئة فى عينيك.

ـ أصبحت أرتاح إليك بعض الشيء

ـ بعض الشيء.. يا لبخلك.. ولماذا لا تسلم لى روحك كاملة.. أتخاف؟

ـ نعم

ـ مم؟

ـ من كونك أنثى

ـ الأنثى ضعيفة

ـ هذا هو سبب خوفى.. الخوف من الضعيف لا من القوى والحذر يكون من الضئيل لا من الضخم.

ـ أنت غريب.. لا .. لست كصديقى الآخر.. ألم أحدثك عنه؟

ـ لا .. لم تحدثينى

ـ حدثتك.

ـ قلت لك لم تحدثينى عنه... فتحدثى أو أصمتى، لقد قلبت رأسى بخرافاتك.

ـ أنا.. أحكى لك.

ـ لا أريدك أن تحكى لى شيئاً.

ـ أعترف لك.

ـ لا أريد أن أستمع إلى اعترافاتك.

ـ سأعترف.

ـ اعترفى إذن، وخلصينا .. قارب الفجر على البزوغ، وأريد أن أراقب السكون وأتأمله، وبعدها أقوم بجولة فى الحى.

ـ إذن لنتحدث. فالليل ليلنا.. ليلنا وحدنا.. أليس كذلك؟

ـ كذلك... تحدثى

ـ أنت ترغب فى وفى حديثى ولا تبين.

ـ أنا لا أرغب فيك ولا فى حديثك.

ـ خذنى فى صدرك إذن.. رد على ولا تنظر إلىّ بنصف عين.. قلت لك خذنى فى صدرك.

ـ لا .. ليس هنا.. فى عش الدجاج أنسب.

ـ لا يا عزيزى.. إن هذا المكان يحمل لى ذكرى سيئة فقد قتلت ثعبانا بيدى فى هذا المكان.. وقد أفزعنى جداً.. لكنى أكتشفته قبل أن يقبض على عنقى ولو استطاع.. لضعت.. وما كنت بجوارك الآن.. وتنطلق أنت.. تسير فى الشوارع كالمجنون.. تبكى حبك.. أليس كذلك؟

ـ قل لى مثل قيس.. أحقاً أنت بجانبى كل شىء إذن حضر ـ إصمتى قليلا يا زيزتى.. ودعينى أتحسسك فى نشوة، وأفكر فيك وفى الدنيا.. هذا ما أحبه.

ـ أحقاً يا بسبوسى؟

ـ حقاً يا عزيزتى.

بنها فى مارس ١٩٦٧

العَلَم

ما كاد يتقدم خطوة واحدة داخل غرفة المصاب، ويرنو من خلف الستار، القائم بين الباب والسرير حتى توقف.. لم يعد يرى شيئاً .. للحظة.

إرتدت إليه رأسه.. سحب خطوته عائداً.. أغلق الباب وهو يزفر جمرا من أنفه.. إستدار الحائط وضربه بقبضته القوية ضربة شديدة، كاد يحطم بها الجدار.

هو بالفعل أراد أن يحطم الجدار.. يحطم المستشفى كلها.. كيف تفعل أخته هذا.. المجرمة.. أخته هو من دون كل الزائرات تفعل هذا.. مستحيل.

زفر زفرات حارة وهو يلتفت يمنة ويسرة فى حيرة.. كأنه طفل صغير يبحث عن حجر.. المجرمة تقبله.. مستحيل.

سار فى الممر.. هبط الدرج.. هربت من شفتيه الكلمات.. التقطها.

ـ لابد أن أعود للكلاب.. ليس هناك أى سبب يدعوها لذلك.

عاد فصعد الدرج.. تثاقلت خطواته.. هرش رأسه.. ضرب قبضته اليمنى فى راحة اليسرى.. كعادته حين تغلبه الحيرة..

ـ ماذا أفعل لهم!.

لم تثب إلى رأسه أى فكرة عما يجب عمله.. وكيف تثب إليه الأفكار وهو على هذه الحال من الاضطراب والقلق.

هبط الدرج.. أسنانه تقضم شفته العليا.. توقف.. أعاد السؤال على نفسه دهشاً:

ـ المجرمة تقبله!..لا .. لا يجب أن أذهب.. سأعود إليها.. أصفعها أمامه وأصفعه.. أبصق فى وجهه، بل وأحطم وجهه بلكمة.

تململ فى حيرة.. ثم هبط إلى سيارته.. فتحها.. إنقض عليها بوحشية.. صرخ المحرك متألما تحت ضغط أقدامه.. مضت السيارة تولول.. اتجه ناحية الطريق السريع خارج المدينة.. يلزمه طريق ممتد واسع.. يندفع فيه بعصبيته وهياجه ويتنفس فيه كما يشاء.. كل هواء الدنيا لا يملأ رئتيه المتعطشتين.

المجرمة تقبله.. أريد أن أفهم .. على أى أساس تقبله؟ لم يصبح زوجها بعد.. إنه مجرد كلام.. صحيح أن الأسرتين إتفقتا على ذلك لكن لم يتم شيء رسمي.. ومازالت الحدود قائمة بينهما.. حدود يفرضها المجتمع وتحتمها التقاليد.. بل ويقرها المنطق.

وحتى لو تم شيء.. هل يقبلها فى المستشفى؟.. هذا لا يكون إلا فى البيوت.. بين الجدران.. بعيدا عن العيون.. سر من أسرار الزوجين.. قبلتهما لهما وحدهما.. حلاوتها لهما وحدهما.. تأثيرها فى نفسيهما لا فى نفوس الأخرين.

عيب والله كبير.. المجرمة تقبله.

استرسل يبحث عن إجابة شافية تريح صدره من طعنة ما رأى.

ـ ربما كانا متحابين.. لنفرض أن الأمر كذلك.. فهل برح بهما الشوق إلى هذا الحد.. وهل غاب عنها غير أسبوعين.. المستشفى مكان عام يختلط فيه الحابل بالنابل.. وتطئه قدم العالى والسافل.. الراضى والساخط.. المتحضر والمتأخر.. الفتى والشيخ.. المجرمة تقبله وهو يحيط ظهرها بذراعه الملفوف بالشاش.. يضمها إليه.

كلنا نقول عنها إنها فى غاية الخجل.. تذوب حياء إذا رأت رجلا.. بل لمجرد سماعها سيرة رجل.. يا للعجب!! ماذا حدث إذن؟ هل كان قناعاً.. هل كان إدعاءاً؟.. اليوم أراها لا تكتفى بالخجل.. بل لا تكتفى بالأحضان.. وإنما أيضاً ضاعت فى جحيم من القبل.. رائع.. عندما تعودين للبيت سيكون الحساب رادعاً.

وأنت أيضاً. فى كل مناسبة وبدون مناسبة تقول عنك الأسرة إنك مثال الشاب الممتاز.. الطيب المؤدب .. أين ذهبت كل هذه الصفات الحميدة.. وأين .. فى المستشفى..!!

.. الحرب، مازالت قائمة.. والجبهة مشتعلة.. وربما شفى وعاد إليها.. ومات فيها.. ما العمل عندئذ؟.. ألم ترهما ممرضة؟.. ألم يرهما زائر.. ألم يلمحهما إنسان.. ولو من النافذة.. أو من بعيد.. وبعد أن انتهيا من قلة أدبهما هذه .. ألم تتجل فى وجهيهما الآثار.. آثار الوقاحة.. بعدها يتقول الناس.. وتنتقل الأخبار.. أخبار السيرة بالذات.. تنتقل كالنار فى الهشيم.. تسرى بين العائلات.. تشوه الصورة ويضيع مستقبل البنت.

ما العمل الآن.. يقولون أننى عصبى.. لقد كظمت غيظى.. ومنكت جماح نفسى الغضبى.. وما كان يجب أن أفعل ذلك.. إن الجنون والتهور كثيرا ما يكوناعما العلاج الشافى.. أين اختبأت عصبتى؟.. كان يجب أن أطلق لعصبيتى العنان.. فأقضى عليها وعليه.

لقد إتفقت معها بالأمس، على أن أمر عليها فى عملها.. أقلها بسيارتى لزيارته بعد أن عرفنا بإصابته فى المعارك.. لكنى ذهبت اليوم إليها فى العمل فلم أجدها.. غادرت مكتبها قبل حضورى وجاءت إليه وحدها.. جاءت لترتكب جريمتها التى أعدت لها.. تذكرت.. لقد حاولت التهرب أمس، مدعية أنها لا تضمن ظروفها .. وطلبت أن تذهب وحدها، ودون أن أصحبها.. المجرمة تريد أن تفلت من الرقابة.. قالت أمى إن البنت لو بلغت الستين فهى بنت.. تحتاج إلى الرقابة والرعاية.. وآه منهن البنات.. أسوأ المخلوقات.

يجب أن يعينوا لكل بنت، أخ شديد يتبع سيرها وسلوكها.. حتى نضمن مستقبلها وسمعة العائلة.

أختى أعرفها.. أكبر من هذه التصرفات الناقصة التافهة.. تراها أسرعت إليه لتعبر له عن شعورها.. أى شعور.. شعور الحب وقلة الأدب.. طبعا لو سألتها وهى محاصرة فى ركن جريمتها الضيق.. ستقول إنها فرحة بانتصاره.. سعيدة ككل المصريين بعمله المجيد.

إننا جميعاً فرحين بما حققه أخوتنا الجنود الأبطال.. لكن ليس معنى هذا أن تقبلينه يا ست هانم.. لم يكن هذا متوقعاً منك أبداً.

أوقف السيارة على النيل.. هبط منها.. وقف على الشاطىء يرنو للماء الهادر.

على البعد لمح قاربا يتهادى فوق الماء.. الموجة فى أثر الموجة.. تدور حولها يتعابثان.. يفتر ثغر الموج عن ضحكات نزقة.. القارب يتراقص فوق صفحة المياه.. القارب سعيد.. يعتقد أن المياه تداعبه.. يهتز فى دلال.

علم مصرى صغير فوق القارب.. يصمد لعصف الرياح التى تصارعه.. علم مصر يرفرف.. كما يرفرف الآن فوق سيناء.. خطيب أخته أصيب وهو يرفع العلم فوق سيناء الحبيبة.. تلك الطفلة التى سلبت من حضن أمها الحنون.. مصر.. غابت عنا ست سنوات وأربعة شهور.. العلم المصرى فوق القارب يكبر ويكبر.. يعلو ويعلو.. لا يتحمل القلب اهتزازاته العملاقة.. خطيب أخته يرفع العلم.. العلم ضخم وثقيل.. يميل القارب.. خطيب أخته مازال يرفع العلم يسقط فى الماء، ومازال يرفع العلم.. رأسه وحدها هى الباقية.. العلم يشق السماء.. يصل قارب آخر.. ينزل من فيه.. ينقذون رافع العلم، ويرتفع العلم أكثر.. يعتدل القارب .. خطيب أخته يقف عملاقا فى القارب.

القارب يضحك.. تحول إلى ابتسامة.. .. تحول القارب إلى شفتى حسناء.. تختلج اختلاجة الحب والسعادة.

الماء حوله أزرق .. أحمر.. أخضر.. فضى.. ذهبى.. هائل عنيف رائق عميق.

ما هذه الدنيا الملونة.. الزهور تزين جانبى النيل.. استدار بهدوء.. هرش رأسه.. ما هذه الخيالات التى تتراءى له؟ حمل النسيم الهفهاف إلى وجهه قطرات من الماء.. ارتعشت شفتيه وسأل نفسه:

ـ ما أصابته.. رأيت ذراعه ملفوفا بالشاش الأبيض.. ليت ذراعه فقط هى المصابة.. لهفى عليه.. أنا قلق من أجله.. أخشى أن تكون هناك أصابة أخرى.. خسارة الجدع، شباب وتعليم وشجاعة وبذل.. وانسان له مواقف كثيرة نبيلة.. خسارة صحيح.

مضى إلى محل الزهور واشترى باقة كبيرة.. حملها إليه.. بسمته على وجهه فسيحة كالميدان.. كريمة كالأرض الخضراء، حنون كأنها تطل من وجه أم، دخل عليه.

ـ أهلا بالبطل.

ارتمى فوقه.. قبله قبلة طويلة.. دس فيها عصارة قلبه ورغبة شبابه فى عطاء لم يتح له.

بنها فى ديسمبر ١٩٧٣

عقدة النساء

أنا من بعيد.. من بورسعيد.. شاب مثل كل الشباب.. طول بعرض.. صحة وشوارب.. كلى حيوية.. تعلمت الكثير فى الحياة إلا أننى لا أفهم فى صنف النساء.

لأنى قاربت على الثلاثين والسن له أحكام. والعمر يجرى من بين أيدينا بسرعة خاطفة وخاصة سنوات الشباب.. لذلك لمحت من بعيد لأبى وأمى برغبتي في أكمال دينى.. يعنى بالعربى أريد الزواج.

هب الأهل من قريب وبعيد فى إهتمام أحسد عليه. دوت فى كل مكان طلقات الفرحة، وزغاريد الرضا والسعادة.. قالت أمى:

- يا بنى.. إنه يوم المنى.

عائلتنا كبيرة.. أصلها قبيلة آل عثمان من العريش.. الرعى ثم التجارة وأعمال البحر كان لها دخل كبير فى زحفنا إلى بورسعيد.. وامتلأت جعبتنا بالأموال.. أصبحت بيوتنا كبيرة رحبة تكتظ بالخيرات.. بنى آدمين وخيول ومواشى وطيور.. والمخازن لا تسع ما يدخلها من حبوب وأخشاب. أمسكوا الخشب.. من عند ربك وكله بالحلال.. المهم.

غمرت العائلة بكافة فروعها أفكارا ملونة.. وطغت على أحاديثهم فكرة البحث عن عروسة لكريم ولد الجرجاوى عثمان.. أنا أسمى كريم.

كان كل نسائهم لي أمهات وكل رجالهم لى أباء... كلهم فى نفس واحد قالوا:

ـ أشر علينا بطرف إصبعك وتسأل البعض معبرا عن علو شأني وعظيم قدرى:

ـ أين هى التى تناسبك؟ ورد عليه البعض الآخر على الفور:

ـ لم تولد بعد.

وانتهوا فى كلام أول جلسة إلى:

ـ مَنْ يبحث يجد.. عروستك تكون عندك خلال اسبوع وأسبوع فى ذيل أسبوع، والبحث جارى.. لم توقفه الليالى المظلمة ولا مشاغل الأسواق.. ولا حتى مرض شيخ كبير في العائلة.

عمي من هنا.. وأبى من هناك.. أمي من هنا وخالتى من هناك أمى تردد بينها وبين نفسها:

ـ إبنى طلب الزواج.. ونصيبه فى حضن الغيب.

مساكين.. أهلى طيبون .. يطلبون لى عروسة من السماء.. ملاك لا يعرفون بالتحديد وصفها.. لكنها من وجهة نظرهم لم توجد بعد.

وأقول لهم عن نفسي في نفسى : يعنى العريس أبوزيد الهلالى.. هو مهما طلع أو نزل عبد من عباد الله.

وهم في مناسبات كثيرة يقولون.. كأنهم يردون على:

ـ لا.. لا كريم حاجة ثانية.. فوق.. فوق الوصف وعروسته مهما كان جمالها وأصلها وعملها وطبعها.. تحت رجليه.

مساكين.. حب الأهل أعمى مثل أى حب.. والقرد فى عين أمه غزال.

عندنا فى وسط أهالينا بنات وبنات لكن الأهل لم يتصوروا أن تناسبنى واحدة منهن.. حتى أباء هؤلاء البنات تصوروا ذلك أيضا.

بعد البحث في عدة اتجاهات من بورسعيد.. كلفت العائلة بعض من رجالها البارزين.. ذوى الهيبة والرأى السديد، ليتجهوا كوفود تضرب نواحى دمياط ورشيد، ووفود أخرى «تجبل» نواحى الإسماعيلية والشرقية.

حملة كبيرة للتنقيب.. كأنهم فجأة إلتحقوا بتفتيش مصلحة الآثار يبحثون عن عملات العصر الرومانى أو الفرعونى، أو كنز خلفه لنا جدنا خوفو أو مينا.

وبدون إطالة.. نفيدكم بأن البحث العجيب وذلك التنقيب، إنتهيا إلى قريبة لنا استقرت مع أهلها منذ زمن فى شبرا القاهرة.. فتاة فى الحسن آية.. نالت رضا الجميع.. أعجبتنى طبعا لأنى لم أكن أصبو لمثلها، فأنا لا أتفق مع نظرة أهلى لى.. لأنى لو اتفقت معهم فهذا معناه أنى مغرور بشكل مرضى.. أنا أحب أن أتزوج من فتاة جميلة محترمة إنسانة مناسبة والسلام. ولهذا شكرت رب الكون على حسن اختياره.

لا تعجب إذا إتلم شمل الشامى على المغربى.. وأهلنا يقولون: لا تستغرب فمصيرها له ومصيره لها منذ أن كانوا فى البطون.

اتفقنا مع أهلها على كل شيء ومن ضمن ما اتفقنا عليه، أن أقوم بزيارتهم مرة كل أسبوعين.. أحضر من بورسعيد يوم الخميس وأعود عصر الجمعة.

فى أول خميس كنت أسرع الخطا إلى الخطيبة الحسناء.. يحملنى الهواء.. تشدنى شبرا وتدفعنى لهفتى.

طرقت الباب على استحياء.. فتحت لى البنت الصغيرة:

ـ أهلا يا أبيه.. اتفضل.

جلست فى حجرة الصالون. رأسى منكسة على صدرى.. أنظر إلى ركبتى.. لا أستطيع أن أرفع رأسى فى المكان.. فربما تكشف نظراتى عملاً يصح أن أعرفه.. طال إنتظارى وبدأت أتململ فى مكان رفعت رأسى، ومسحت المكان بنظراتى.. حاولت التعرف على الصور المعلقة.. الثريات ولون الصالون.. السجادة وستائر النافذة.. أذنى وحواسى جميعا تنتظر أن يفد وافد.. أو أن تمزق الصمت خطوات آمال.. خطيبتى آمال. ولكن ذلك لم يحدث.. ومضى الوقت وساد الصمت حتى شقه أخيرا صوت الأم تقول وهى تقترب من الحجرة:

ـ أيقظي أختك يا نجوى.

أي أخت ستوقظها نجوى.. إن لها ثلاث أخوات. هل يا ترى آمال هي المقصودة.. وهل لا تزال نائمة.. ألم يبلغوها بحضوري منذ نصف ساعة.. منذ نصف ساعة وأنا ملطوع هنا.

ـ أهلا وسهلا يا كريم.

ـ أهلا بك.

ـ كيف حال الجماعة.

ـ الحمد لله.

ـ وكيف حال بورسعيد كلها.

ـ في خير حال.

ـ أرهقتك المواصلات.

ـ لا.

ـ عن إذنك.

ـ تفضلي.

خرجت.. رغم سنها الذى يزيد تقريبا على الخمسين فهى مازالت تتمسك بملامحها الجميلة، ولم تفرط فيها.. ويبدو آن الزمن يجد صعوبة فى مسحها.. وجهها لم يتجعد بعد.. مازالت صبية.. أين آمال.. أريد أن أملأ عيونى بجمالها وعودها الممشوق وقدها المعتدل ونظرات عينيها.. عيناها واسعتان جدا، وسوداوتان والحاجبان ثقيلان.. أنا أحضر من بورسعيد خصيصاً كى أنظر إلى عينيها وأسبح فيهما لأنسى كل شيء.. كل شيء.

سمعت صوتها فى الخارج تتأوه فى كسل المستيقظ من نوم مبكر فتحت على الباب نصف فتحه، وأطلت بسرعة قائلة أهلا.. أخذت روحى معها. دق قلبى بشدة.. ياه.. أخذت أستعيد فى ذهنى حلاوة اللحظة الخاطفة.. جميلة ولذيذة رغم غشاء النوم.. كيف كان شعرها الأسود الطويل.. منكوش ويرتمى على صدرها فى رغبة وحنين.. لحمها الأبيض يطل من قميص النوم الضيق الشفاف.

هل ستغيب فى الحمام.. ليتها لا تغيب.. دخلت البنت الصغيرة واختطفت من رأسى الأفكار، لست أنت التى أريدك.. أريد آمال.

وضعت الصينية. أشرت إليها أن تقترب.. سألتها. أين بابا.

ـ خرج.. ماما قالت له إذهب إلى القهوة.

خرجت البنت، وجاءت أمها.. سألتها عن عمى أبو آمال..

قالت وهي تداوى ابتسامة راضية:

ـ بكل صراحة عمك ذهب إلى القهوة ليتيح لكما الفرصة كي تتفاهما.. ويتعرف كل منكما على الآخر.

قلت في نفسي: أين هى الفرصة.. هذه ثالث مرة أحضر فيها ولا نبقى معا منفردين غير لحظات، لا تشفي غلة ولا تروى ظمأ.. إننا لا نكمل جملة واحدة.

قلت لها: شكراً لا أدرى كيف أرد لكم هذا الجميل ـ تضع آمال فى عينيك

ـ في عينيه وفي قلبي.. اطمئنوا (سمعت ابنها يتشاجر مع أخته الصغرى).

ـ ربنا يطمئنك.. عن إذنك.

خرجت.. فتح بابا الحمام.. بابا السعد والهنا.. حمام الهنا يا حبة قلب كريم، فتحت آمال الباب نصف فتحة وهي عائدة من الحمام مبلولة.. أطلت برأسها مسرعة قالت: سأرتدى ملابسى.. دقائق.

حاولت أن أقول لها على راحتك.. على مهلك.. لسانى لم يترك مكانه.. شرقت بريقي.. البنت خارجة من الحمام تلمع.. تضاعفت حلاوتها.. إزداد إحمرار خديها ووجنتيها.. تهدل شعرها وكشف عن وجهها كاملا.. دخل أخوها الصغير صاحب الجلبة الدائمة وزعيم المشاغبات فى ا لمنزل.. جاء وقضى على أحلامى.. سلم على وخرج.

سمعت صوتها تسأل عن المشط.. لم يجبها أحد من الأولاد.. بعد قليل فتحت الباب على وانطلقت داخل الحجرة كالغزال، ملفوفة فى روب لفة تظهر مفاتنها وسحبت حقيبة يدها الملقاه على الأريكة.

أنا فى المنزل منذ ساعة دون نتيجة، كأنى جالس خلف الكواليس والمسرحية والجمهور هناك خارج الصالون.. أنا خرجت من بورسعيد منذ الصباح.. وها هو المساء

يوشك أن يتم سيطرته كاملة على الكون ولم نجلس معا.. وأبوها سيأتى بعد قليل.. انتظرت وانتظرت.. حضرت آمال أخيرا.. جلست إلى جانبى.. تأوهنا قليلا وتبادلنا بعض كلمات الترحيب.

جاءت أمها.. نادتها.. كلمى أختك يا آمال.. جلست الأم.. أهلا.. أهلا بك.. نورت البيت.. منور بأصحابه.. ثم خرجت. ، ثم جاءت أمال.. آسفة يا كريم.. ولا يهمك، تبادلنا من جديد بعض عبارات الترحيب وكلمات عامة لا تخص قلوب الشباب.. وهتاف أورورحهم. كلما حاولت أن أسأل سؤالا، حولت الحديث إلى موضوع عام، أو تافه.. لا يؤجج الشوق المستعر وإنما يطفئه لا يقرب ما بيننا بل يباعد.. ويناديها طفل، وتناديها أمها ثم تعود.. وأقول لها.. كنت أحب أن نخرج معاً.. وتقول وأنا أيضا يا كريم، ولكن لى صديقة وعدتنى أن تحضر لى اليوم.. عندها تفصيلة هايلة لفستان جديد.. ما رأيك! حين تحضر سأعرفها بك.. فرصة ثانية إنشاء االله. تحدثنا عن فستانها وعن بدلتى.. عن شقاوة أخيها، دق الجرس وحضر أبوها.. خرجت آمال.. وخرج قلبى وفى إثره عقلى يتبعاها فى كل مكان وأنا زائغ البصر.

جلس الأب معى وتناولنا عشائنا.. شربنا الشاى والقهوة والكركديه.. وقزقزنا اللب والترمس وشاهدنا التليفزيون.. حان وقت النوم ثم طلع الصباح.. صباح الجمعة.. ولا يصحو المصريون عموما يوم الجمعة قبل العاشرة. ثم غسيل وفطور وقراءة الجرائد ثم يؤذن للصلاة، فلابد من صلاة الجمعة لأنها درة الأسبوع يأتى بعد ذلك الغذاء ويحين موعد رحيلى فنتبادل سلاماً حاراً.

وأحس بدفء يديها.. ونظرات عينيها الحنون. وأوه لو أعانقها وأضمها إلى صدرى وأعيش الدنيا وأستمتع بها،، وأذوق طعم الهناء ولو مرة.. أهفو إليها ولا أمل.

تمسك آمال بيدى فى إهتمام.. لازم نشوفك عن قريب.. أشياء كثيرة أريد أن أحدثك عنها يا كريم.. وأنت موجود معنا، الساعات تمر كالثوانى.. لكن إنشاء الله فى الأسبوع القادم سنقضى الوقت كله مع بعض.

منذ أول مرة رأيتها فيها، أحسست أننى لا عمل لى إلاها، ولن يشغلنى غيرها.. كان الإتفاق على زيارتهم كل أسبوعين، لكنى طلبت من أمى التوسط لدى ابى.. حتى يجعل

الزيارة أسبوعية وقد أبدى فى البداية رفضا شديدا بحجة أن هذه الزيارات المطردة ستخلق المشاكل وتسبب المتاعب.. لكن أمى قالت له. كريم لا يسبب المشاكل لأحد.. يعرف حدوده مع الناس.. إطمئن، أخيراً وافق.

تصوروا.. طيفها دائما يداعب خيالى.. عيناها فى عيناى طيلة النهار.. جسدها يتراقص ويتكسر أمامى فى كل لحظة.. الحرارة النابعة من صدرها تلسع وجهى.. صهدها لذيذ.. لقد سقطت فى بئر النساء وانتهى الأمر.. آمال حلم جميل زارنى أخيرا وكنت لا أعرف شيئا.. كنت لا أفهم معنى الحياة.. الآن أصبحت أحس بأن الحياة جديرة بأن أحياها وأتشبث بها، حتى نفسى كانت نائمة، هائمة فى التفاهات، غافلة عن الحقيقة الكامنة فى جمال الحريم.. أفق يا عم كريم.. آمال.. إقترب يوم الخميس موعدنا الذى أنتظره من يوم الجمعة الذى قبله والذى بعده.

توالت الأسابيع.. الخميس فى أثر الخميس وأنا أحضر من بورسعيد إلى القاهرة أحمل قلبا ملهوفا وأعود به أكثر لهفة، أحمل روحا تواقة وأعود بها مجنونة.

تبين لى أخيرا بعد تأمل طويل.. طويل، أن شوقى هذا ليس شوقا بقدر ما هو عذاب، وليس لهفة بقدر ما هو قلق وضياع، فأنا ألقاها ولا ألقاها، أجالسها كأنى أجالس الأحلام.. أكلمها كأنى أكلم نفسى.. أمسكها فإذا أنا قابض على الهواء.. أراها فإذا هى.. هى.. دائما أراها فى الحقيقة والخيال.. فى الصحو والنوم فى الليل والنهار، فى القاهرة وبورسعيد وآتى و أذهب.. ضمت يا سيد كريم ولا تجد من تبوح له.. ماذا تقول؟.. سيضحك الجميع من خيالك وغفلتك بل لن يفهمك أحد.

لا أعرف رأسى من قدمى معهن.. آه منهن.. أحبها جداً جداً.. ولكن الذى يحدث غريب كل الغرابة.. هل أقص على أمى الحاجة حكايتها.. ماذا تقول عنى؟ أقول لزوجة أخى.. ستضحك.. أقول لأبى.. مستحيل.. لمن إذن؟.. أتوجه بأوجاعى إلى الله.. الله لا يأبه بلعب العيال هذا.. أعود إليها إذن، ربما كان هناك جديد فى هذا العالم الذى أجهله.

وأعود فى الخميس التالى، أحمل الهدايا لأنها تحرك قلوبهن.. هكذا قالوا لى، ويحدث ما يحدث.. وأعود فى الخميس الذى بعده، فيحدث ما يحدث.. إذن المسألة عندهن أكثر من طبع إنها عقدة النساء.. تولدت مع العصر الحديث بعد أن تخلصوا من

سيطرة الرجال.. حكى لى الكثيرون من الرجال نفس الحكاية فى فترة الخطوبة.. إنها خطة موضوعة حتى يتعود الرجال منذ الآن الخضوع وطلب الرضا والتعب وطلوع العين حتى تتعطف وتتفضل ست الحسن وتلقى له نظرة.. ومتى يكون ذلك إلا فى فترة الخطوبة حيث يكون الرجل فى أضعف حالاته.. طالباً للقرب.. متمنياً الرضا.. آملا فى مجرد الصمت دليلا على القبول.. يجب أن يتعود الخضوع والموافقة وسماع الكلام منذ الخطوبة وبعدها سيكون التطبع قد صار طبعا.. والتعود أصبح عادة.

أحسست بالملل.. قررت أن أذهب.. أنا كرة فى أيديهن.

يلعبون بها بما فيهن أصغر البنات.. والأب يبدو مثلى.. قالت له أخرج إلى القهوة خرج إليها، أقعد.. يقعد.. أنا الكرة وهم الذين يلعبون.. أنا لا أتمتع بلذة اللعبة.. إنها لعبة من طرف واحد.. أين طعم الحب؟ طعم النساء.. طعم اللذة وحلاوة العلاقة.. طعم الحنان والأمل الدافىء الذى حدثونى عنه بوله فى البيت والقهوة والأفلام وفى التليفزيون والإذاعة..

أسافر عشر ساعات ذهابا وعودة وأتجشم الجهد الجسمى والنفسى وأتكلف الكثير كى.. لن أذهب.

هجرت شبرا لمدة ثلاثة أسابيع.. حضر أهل شبرا لزيارتنا فى بورسعيد.. وسؤال ملح لماذا لم تحضر.. لم تسأل.. ألسنا أهلك أليست بلد زوجتك هى بلدك.. طبعا.. طبعا.. سوف أحضر إنشاء الله عندما تحددون موعداً لعقد القران والزفاف.. مازال الوقت مبكراً يا كريم.. على مهلكم.. وقت أن تكونوا مستعدين أبلغونى سأحضر..

اقتربت آمال منى منفردة.. وسألتنى عن هذا اللقاء الجاف.. أبداً لا جاف ولا حاجة.. سألتنى: ألا تعلم بأنى اشتقت إليك.. أعلم طبعا.. إذن تعالى.. أريد أن أتحدث إليك.. سأحضر عندما تتخلصين من عقدة النساء.. ماذا تقول؟. لا.. سأحضر إنشاء الله عندما نحدد موعد الزفاف وبعدها سنتحدث ونتحدث ونعيش أجمل أيامنا من غير عقد.

بنها فى أكتوبر ١٩٧١م

وداعًا للخوف

كانا جالسين على النيل يتناجيان.. يدها البضة تنام فى أحضان يديه.. الأرواح هائمة فى ملكوت شاعرى لذيذ.

قال لها فجأة بعد فترة صمت ظاهرية:

ـ أريد أن أعرف رأيك فى أمر يشغلنى

قال: أريد ان أبعث إلى الرئيس برأيى فى بعض أمور البلد..

قالت: هذا هو الذى ينقصنا يا إسماعيل .. هل هذا ما خلقته لك الكتب وكثرة القراءة

قال: إنها حياتنا يا رضا.

قالت: ما لنا والمشاكل.

قال: إنها مشاكلنا.

قالت: مشاكلنا البحث عن الشقة وتدبير المال.

قال: ليست هذه مشاكل.

قالت: ما هى المشاكل إذن؟

قال: المشاكل العامة أهم بكثير من المشاكل الخاصة

قالت: اللهم طولك يا روح.. وهل أنت المسئول؟

قال: كلنا مسئولون.

قالت: عن أى شيء؟

قال : عن موت الحرية.

قالت : إخفض صوتك يا إسماعيل.. أرجوك.. أرجوك.. إن موعد زفافنا يقترب.. وتصل بعده إلى شاطىء الآمان والإستقرار.. فلا داعى لهذه المزعجات.

قال: لا تخافى.. الحرية ليست الهتاف ضد الجمهورية.. بالعكس.. الحرية عادة تكون ضد نوم الشعوب وخور الشباب.. الحرية هى أن تتكلمى فى شتى الموضوعات.. مع الوزير والشرطى ورئيسك فى العمل.. تتكلمى بصراحة وموضوعية دون خوف من الفصل أو الارهاب.. الحرية أن تحترم كلمة الإنسان على كافة المستويات وتتمتع بالإستجابة لدى كل مسئول.. الحرية أن يكون لكل مواطن حصانة ولا تكون فقط لأعضاء مجلس الشعب.. حصانة النقاش.. لا للسباب.. أى ديمقراطية مسئولة واعية.

قالت: الحرية سائدة تماما.. وها هى الصحف تكتب وتهاجم قال: للصحف لا تمس كافة مشاكل الجماهير.. والجماهير لديها الكثير مما تريد قوله ولا تتسع لها صفحات الصحف.. بالإضافة إلى أن الصحف تستطيع أن تهاجم فقط الوزراء والموتى والمخلوعين.

قالت: لقد فعل الكثير

قال: نعم لقد فعل الكثير جداً.. ولكن الكرة لم تدخل الشباك.. ونأخذ القشور ونسرع بالإعلان عنها.. لنسجل على الورق أهدافا وهمية.

قالت: إسماعيل.. أنا لا أستطيع الاستمرار.. سنلتقى مرة أخرى، حينما تهدأ أعصابك، ويطيب لك الحديث عن حياتنا ومستقبلنا.. سلام.

لم يأبه بكلامها.. ذهب إلى بيته وكتب ما أراد فى رسالة.. دسها فى صندوق البريد.. تنفس بملء رئتيه كأنه أرضى ضميره.. وليحدث بعد ذلك ما يحدث.

(٢)

عصر اليوم التالى.. أبو إسماعيل يتمدد فى الزمن المتبقى بعد المعاش.. تذكر أخيه الذى يعمل مستشاراً فى دولة قطر.. منذ مدة لم يكتب له. نادى زوجته:

- هاتِ ورقاً وقلماً يا أم إسماعيل.

- صبراً يا أبو إسماعيل.. بنت بنتك عملتها على

ليحضر ما يشاء بنفسه، رغم أن الأطباء طلبوا منه ألا يبذل جهداً جسدياً أو عصبياً وإلا ساءت حالته.. يا سيدى الأعمار بيد الله وإسماعيل يقضى عصر كل يوم يبحث عن شقة، وابنته تعمل فى الشركة فترتين.. ليس له غيرهما.

نهض ليحضر من مكتب إسماعيل أوراقا وقلما.. فتح الدرج.. سحب بعض الأوراق يحسبها فارغة.. ألفاها مكتوبة من الوجه الأخر.. إنها نسخ بالكربون.. ما هذا.

والدى الحبيب..

تحية الابن البار بأبيه، وتحية من شاب ولد فى عام الثورة.. أما بعد .. لا تفزعك كلماتى.. وأبحث عما دفعنى إليها وسوف أوجز قدر إمكانى. أعلنت منذ مقدمك عن فتح صفحة ديمقراطية جديدة تنشر الحرية على جميع البقاع المصرية.. هلل لها الشعب ورحب.. وانطلقت الجماهير على حشيش الحرية الأخضر يرقصون ويهزجون وينشدون أغنية الحب والتقدير للرئيس الذى سلمهم أمانة طال افتقادها. بعد أن إستلبها منهم شياطين الحكم فى كل زمان.

وفجأة أسدلتم الستار.. وأوقفتم العرض الممتاز الذى مس أوتار القلوب وهز المشاعر (أدارت الدهشة رأس الأب.. بدأ يفهم.. أحس أن الجدران تنطبق على صدره.. والرؤية تكاد تنعدم لكنه يواصل القراءة من خلال الضباب الكثيف على عينيه وبالرغم من طرقات قلبه الواهن ليدرك حجم المصيبة التى سقط فى بئرها ابنه الوحيد).

ويمكنكم أن تدركوا معنى أن يمر البلدوزر على النبت الجديد فيسحقه.. كان يجب أن يكون صدرك أرحب.. حتى نعيد الهدوء إلى القاعة والأمان إلى القلوب.

والغريب أن الصحافة مازالت تقرع طبلها المدوى.. إنه عهد الحريات وإغلاق المعتقلات..

لقد قضى تماما على زوار الفجر.. صحيح أن المعتقلات أغلقت .. لأنها لم تجد من يستحق أن يدخلها.. لم يتكلم أحد.. وكيف يتكلم أو يرفع صوته أو يتظاهر والقرار واضح.

إن الحرية المتوفرة الآن هى نوع معين من الحرية.. أو جزء محدود صغير لا يروى الظمأى..

مازالت يا سيدى الألسنة معقودة والأفئدة قلقة والأرواح تضمر فى الصدور.

لن تجد فى مصر، بل فى العالم العربى كله خطيبا كمصطفى كامل أو سعد زغلول أو عبد الله النديم، ولن تجد مصلحين تأثيرين كالشيخ محمد عبده وقاسم أمين.. ولن تجد كتابا ومفكرين كعباس العقاد وطه حسين ولطفى السيد، والحق أنهم موجودون بالفعل ولكنهم فى الجحور.. وإبداعهم مخبأ فى الصدور.. مقهور.

إن الشعب اليوم كقدر يغلى.. تحته النار تؤججه وتصليه وفوقه الغطاء يكتمه ويبقى فى داخله دخانه وفورانه.. فهل يا ترى يمكن أن يستمر هذا الوضع؟.. لا أظن.

إن التقدم سيدى الوالد.. يجب أن يبدأ بعقول وقلوب الجماهير.. هكذا بدأت أوروبا.. بالإبداع الأدبى والفنى والفكرى ثم العلمى والعملى.

لقد أطلقت الحريات ثم ذهبت إلى حال سبيلك.. تمارس ما يشغلك من أمور الحكم الثقيل.. لكن مسألة الحريات تريد منك متابعة وإهتماما حتى ترسخ، ويومها تكون قد أقمت صرحا متينا وقلعة حصينة.

لو مكثت فى الحكم عشرين سنة.. لم تحقق فيها هدفا واحداً. غير الحرية من القاعدة إلى القمة.. حرية كحرية الأوربى فى آرائه، لكفاك هذا خلوداً.. فالحرية أهم بمراحل من الخبز.. وإذا فقدنا الحرية فسوف نفقد الخبز والشرف أيضا..

لقد اعتبرنا أنفسنا نبدأ معك من جديد.. من الصفر.. لكن النفاق يملأ كل ساحة.. ويتراءى فى كل العيون.

إن الكلمة العابرة والنصيحة الخاطفة لا يلتفت إليها الجمهور.. يجب أن تتحدث إلى الناس فى أدق التفاصيل.. وجه حديثك إلى الجندى والفلاح والموظف والعامل والسائق والبائع والمشترى والحرفى والمدرس والوزير والخفير.. تماماً كالمعلم.

ليس هذا بالطبع عمل الرئيس.. لكن ماذا نصنع لشعوب ارتكب السابقون فى حقها الفظائع، فتبدلت.. وغامت الرويا أمام عيونها.. واستمرت بدون إرادتها هذا الجو العفن.

لن يحمى المصانع من التخريب إلا أعماق الإنسان وضميره.. لا البوليس ولا التحقيقات ولا المطافىء ولا المال ولا الفصل.. لن يزيد الإنتاج استيراد عقولإاليكترونية، بل ضمير الإنسان الواعى.. ستقول بطريقتك المحببة وماذا تطلب منى أن أفعل!.. أجيبك:

تحدث إلى الناس عن الألف والباء وأمرك لله.. تحول إلى معلم ومن الآن سأسميك المعلم.. أمسك موضوع.. موضوع الأمية.. النظافة.. العمل، الأمانة.. لا تتحرج فى التحدث عن البيت المصرى.. البيئة الاجتماعية بكافة مشاكلها.. إن الأعمدة والجدران تقام أولا ثم يوضع بداخلها الأثاث.. فلا تهتم كثيرا بالأثاث المهم الأساس.

كل كلمة منك ستصبح قراراً.. وجه حديثك إلى الضمائر والنفوس.. وإبدأ صفحتك بإلغاء كل القوانين التى تحدد حريات الأفراد .. ثم انطلق رعاك الله.. وأنظر بعد ذلك.. وتأمل ما تصنعه يداك.. شكرا أيها المعلم.

قال توفيق الحكيم فى «شجرة الحكم» سنة ١٩٣٨ «فى عقيدتى أن كل مواطن يرى رأيا فيه صلاح لبلاده ويكتمه خوفا أو جبنا أو إيثاراً لراحة النفس والبدن إنما هو رجل مذنب فى حق بلاده وضميره، والسلام.

ولدكم المخلص

إسماعيل برهام

سقط الأب على الأرض.. حملوه إلى المستشفى.. فزع إسماعيل.. طار عقله.. أبوه.. صديقه.. حبيبه.. سنده الروحى.

لقد تخرج من الجامعة حقاً وتسلم عمله، وقبض النقود تلو النقود، لكن الأب.. الأب.. كلمة معناها كبير. وتأثيرها أكبر.. ووجوده أثمن من كل الدرر، بقاؤه ولو قعيد.. يبتسم ويتكلم.. يشخط وينظر، أغلى من كل الدنيا.. زاره فى المستشفى .. سأله الأب:

ـ لماذا فعلت ذلك يا إسماعيل، ما هذا التهور يا بنى؟

ـ لا تخشى شيئاً يا أبى، ولا تشغل بالك.. المهم سلامتك ـ ما عاد هناك أمل فى السلامة.. إنك فى غاية الجهل، قلبى يتمزق.. غبى.. غبى.

ـ إذهب إلى عمتك فى البلد.. لن تصل أيديهم إليك فى هذه القرية النائية.

ـ لا يا أبى الجبن بعينه.. ومادمت قد كتبت فيجب أن أتحمل النتيجة.

ـ إننا الذين نتحمل، ولست أنت.

ـ سوف يكون موقفهم منى شهادة لهم أو عليهم.

مر يومان تحسنت خلالهما صحة الأب. جاء إليهم فى المستشفى شاب طويل عريض.. سلم على إسماعيل وأبيه.. قال؟

ـ أنا قادم لك من الرياسة.. أحمل مزيد الإعجاب من الرئيس قفز إسماعيل طرباً:

ـ أهلا بك.. هل أعجب حقا بخطابى.

ـ قال بالحرف.. لقد أثمرت جهودى.. هذا هو الشباب الذى أريد.

توجه إسماعيل إلى أبيه وقال له مبشرا. والحماس يشعل كلماته:

ـ أرأيت.. لقد ولدت فى عهد الحرية الحقة.. لقد وجدت الآذان الصاغية.. سيكون هناك من ينبه ولن يوجد من يقول لا شأن لى.. لن يتعطل العمل.. لن يستغل أحداً جماهير الشعب الكادحة.. سيكون هناك من يسأل ويبحث ويهتم.. سيحرك الزميل زميله من أجل العمل لا من أجل الكسل. الرئيس قدوة .. الأخلاق تنشرها القمة على القاعدة بالسلوك.. إذا سرق الكبير سيسرق الصغير: وإذا كفر المسئول فإن الجميع سيكونون كفرة.. وإذا عبدالله فكلهم سيعبدونه.. وإذا عمل بإخلاص فسيعملون بإخلاص.

هب الضيف واقفا.. وقال معترضا سيل الكلمات المتدفقة، كالشلال:

ـ والآن هيا بنا يا إسماعيل. أشرأبت رأس الشيخ:

ـ إلى أين يا بنى؟

ـ إلى الرئاسة.. طلبه الرجل للحديث معه.

ـ ألم يقرأ رسالته! لا داعى لهذا الحديث.

ـ ولما الخوف؟

ـ أرجوك يا بنى.. إنه وحيدى.

ـ هل هذا كلام يا حاج.. إن الزمان غير الزمان

ـ إننى خائف عليه.. إنه ظهرى

ـ أقسم لك بشرفى

ـ لا يا بنى.. لا داعى أن تقسم بشرفك

ـ إذن إعتمد على الله .. هيا بنا يا إسماعيل.. قال إسماعيل وهو يقبل يد أبيه:

ـ عن إذنك يا أبى.. سأشرح له كل شىء.. سأل الأب الضيف فى توسل:

ـ هل سيغيب:

ـ مسألة ساعات.. لا تقلق.

مر يوم والثانى ولم يحضر إسماعيل.. ساءت صحة الأب.. انفعاله، مستمر، صدره يزداد ضيقاً وإنقباضاً.. وجهه يختنق وتعلوه الزرقة.. يموت فجأة.

(٣)

أربعة أيام دمها تصفى، وتسقط فى آبار الليل التى لا تعيد ضائعا يحضر إسماعيل فى خامس يوم لغيابه.. يسأل عن أبيه.. لا أحد يجيب إلا بالدمع والسواد.. يدخل حجرته.. يفكر .. ثم لا يفكر لأنه لا يستطيع.. لا يبكى لأنه لا يستطيع.. لا يتكلم لأنه لا يسنطيع.. لا ينتقم لأنه لا يستطيع.. من قتله؟ أنا الذى قتلته.. لا .. هم قتلوه.. لا بل خوفه قتله.. لا أنا.. لاهم.. هم .. هم.

سألته أمه أين كنت طوال هذه المدة؟.. مقيم فى القسم.. وكل يوم أسأل يقولون.. الرجل مشغول.. إذن دعونى أذهب حتى يفرغ من مشاغله.. لا.. إبق ربما يطلبك فجأة.. حين يطلبنى سأحضر فى الحال.. لا تتكلم.. يكفى.. إنتظر.. عليك بالصبر مادمت تريد صلاح بلادك .. إلى اليوم.

أحس إنه يريد أن يبلغ البوليس.. أو مجلس الأمن.. أو. ثم خرج ليتمشى.. مر بالمسجد، وقف أمامه.. أطل برأسه داخله.. مفتوح .. أناس يقومون ويعقدون ويبتهلون.. هدأت ثورته.. لكنه ذهب إلى أصدقاء يفهمونه .. قال لهم.

بقيت خمسة أيام فى انتظار.. لم يمسنى أحد بسوء.. ولكنى بقيت مسجيا فى الغرفة بلا كلمة حتى كدت أجن.. ياه.. إن السجن صعب صعب.. يحمل لك الطعام جنود لا يتكلمون ولا يتسمون ولا ينظرون كأنهم خشب مسندة.

أحسست أن العالم فجأة فقد النطق.. والنطق شهوة يجب عليك أن قلبى رغبتها.. دم فاسد يجب أن يخرج من عروقك لتهدأ وتشفى.. حلمت بأنى صعدت فى إحدى سفن الفضاء.. وكنت فى غاية السعادة والفخر.. الزهو يملأ أعطافى وفجأة ألقتنى السفينة خارجها فى الفضاء.. وها أنذا أدور وأدور.. الطنين فى أذنى. والفراغ بلا نهاية.. أحسست أن رأسى فى مؤخرتى. وقدمى فى بطنى.. ورقبتى مدلاة بين فخذى.. مقلوب أنا مقلوب.. خسارة .. كنت أحب الدنيا وزوجتى رضا وأبى وأمى والكتب. ذهب كل شيء.. هل أنا السبب؟

هل أنا أفكر.. لا .. مادمت قلت لا.. فأنا إذن أفكر.. سأظل أقول لا .. لا .. ذقنى طويلة.. الدم يملأ رأسى لأن رأسى إلى أسفل.. هل ماتت كل الورود؟

عدت إلى الدنيا فجأة.. لا أعلم شيئا عن سفينة الفضاء.. تنهدت .. حملقت فى الغرفة الرطبة.. أنا خائر ورخو وتافه.. بضعة أيام فى هذه الوحشة تقتلنى تهد بنائى وتزعزع كيانى.. حماسى.. حبى.. لا أريد شيئا.. أريد أن أخرج.. أخرجونى.. أخرجونى.

أنا واثق ألف فى المائة أن الرجل لم يقرأ شيئا.. ولم يسمع شيئا.. ولا يعرف عنى شيئا.. ولكنى.. لكنى لن أصمت.. سوف يعلو صوتى ويعلو حتى يصل إليه.. لأنى أطلب الحرية.. سأخلصها من قيودهم.. لقد استلب الخوف حياة أبى.. الخوف وحش يعربد فى البلاد ويهددنا.. يحصرنا فى قبو مظلم.. هل ستقولون معى أيها الأصدقاء وداعا للخوف.

كلنا سنقول لك.. نحن معك.. وداعًا للخوف.

نوفمبر ١٩٧٧

كــــلام الليل

الوادى المقدس

شد المدرس العجوز عوده، ونظر إلينا طويلا قبل أن يبدأ درس اليوم فى الجغرافيا بدت سحب الفلق واضحة على محياه، ومضى يرنو للنوافذ المطلة على الصحراء خلف ظهورنا وكأنه يسأل الفضاء عما ينوى قوله.

لم الحيرة؟.. ونحن نعرف أن درس اليوم فى الجغرافيا وبالتحديد عن نهر النيل هل الدهشان أفندى فى حرج لأنه كان يتمنى أن يراه يوما مثلما نتمنى نحن ذلك؟ أم أنه كان يفكر فى الرحيل عن صحرائنا فى سيناء كما فعل غيره، وذهبوا إلى نهر النيل.. إلى مصر الخضرة والعمارات الشاهقة والميادين الفسيحة والسيارات الفارهة والأطفال المترفين الذين نراهم فى البطاقات السياحية.

من المؤكد أن الدهشان رأى النيل يوما، فلم الحيرة ولم هذا الصمت الذى ران عليه وهو برغم أعوامه الستين قوى الذاكرة، فياض المعلومات، منطلق اللسان.. سواء فى دروس اللغة العربية أو التاريخ أو الجغرافيا.

مضيت أتسأل حتى بلع ريقه وقال:

ـ لستم صغاراً.. صحيح أن معظمكم فى نحو الثانية عشرة ومنكم من زاد عليها، إلا أننى أفكر فيكم دائما على أنكم رجال، وتدركون الأمور أنضج مما كنا ندركها ونحن فى مثل أعماركم. هب زميلى فى المقعد ليعلق كعادته وكأنه يثبت دائماً أنه موجود.

ـ أبى يقول غير ذلك.

ـ دعنى أكمل حديثى ياصالح.

ـ افضل ياأستاذ.

ـ أنتم كبار وتستطيعون أن تفهموا ما أريد قوله.

ـ نحن نفهم جيدا ياأستاذ.

كان بيننا رجال كبار، فاتهم قطار التعليم فى حينه، فجاءوا إلى المدرسة ينصتون فى اهتمام لشروح الدهشان أفندى، إعجاباً بطريقته المبسطة التى يعرض بها العلم كقصة أو مغامرة.

قال الكبار: ونحن نفهم أيضا يادهشان أفندى.

ـ أعلم ياإخوانى ولكننى أريد أن أسأل عن الذين يفكرون دوما فى الرحيل.

ـ إنهم يذهبون إلى الوادى.. إلى مصر.

ـ لماذا؟

ـ للبحث عن العمل.. للعيش وسط العمران.. للبحث عن الجديد.

ـ بل هربا من الصحراء.

ـ نعم يادهشان أفندى.. نعم.

ـ وأنتم تعلمون أنى طالبت المسئولين بأن يقوموا بتشجير المنطقة ولو على دفعات. حتى نشيع فيها ظلا وبهجة فلم يحفلوا.. لأنهم مشغلون بالأهم، نريدهم أن يخلعوا عن سيناء صفات الجدب والجفاف.

ـ ولكن مادخلنا نحن؟

ـ أود أن نعتمد على أنفسنا.. وليكن درس اليوم عن كيفية غرس الأشجار.

سأل جارى المشاكس: وهل هذا مقرر علينا بالمنهج؟

ـ لا ياصالح.

ـ وهل سنمتحن فيه آخر العام؟

ـ لا ياصالح؟

ـ إذن لماذا نتعلمه؟ وهل نحن نستطيع مذاكرة مالدينا حتى تضيف إلينا دروساً جديدة.

ـ ردك هذا قريب الشبه بما قاله لى المسئولون.

وفكر أحد التلاميذ أن يلهى المدرس عن الجغرافيا فقال له:

ـ استمر ياأستاذ.. حدثنا عن غرس الأشجار.

فقال الدهشان أفندى

ـ غرس الأشجار ياأخواني هام للغاية بالنسبة لمنطقة صحراوية كمنطقتنا، لأنه هو الخطوة الأولي تنقلها إلي عالم الاستقرار ثم عالم العمران والتقدم.

ومضى يشرح أنواع الأشجار وكيفية غرسها؛ ورعايتها وهندستها ومناظرها الخلابة، ونحن بما يقول في سعادة وإعجاب صادقين.. وقد ألح على إحساس بأن أخرج من المدرسة لأزرع شجرة أو عدة أشجار أمام دارنا الكبيرة.. تين أو زيتون أو أكاسيا وتخيلت دارنا والأشجار تحيط بها كشعر البنت يحتضن وجهها.

أخذت أرنو إلى المدرس وهو ماض بحماس يفسر لنا أهمية الأشجار فى المنطقة، وعلينا دائماً أن نفعل مالا يفعله أولو الأمر، لأن مستقبل الأرض هو مستقبلنا ومصيرها مصيرنا.. يجب أن نصنع هناءنا بأيدينا.

استمتعت بالحديث الذى طال وتشعب، وذابت نفسى معه وتألق الأستاذ وانتشى حتى انسجمت ملامحه؛ وانسحبت منها قتامة الأسى وكآبة اليأس وخاصة حين لمس التجاوب والتعاطف منا جميعا.. حتى الكبار الذين لايطيقون الجلوس طويلاً تسمروا فى المقاعد مشدودين إلى عينيه ولسانه؛ يتابعون أفكاره فى شوق. انشرح صدرى لحديثه كما انشرح يوم كان يحدثنا عن أرض سيناء المقدسة.. تلك الأرض التى تحدث فيها الله لأول مرة وأخر مرة مع بشر هو النبى موسى.. تلك الأرض التى مرت عليها أقدام عيسى وأمه البتول.

خاض يومها الأستاذ فى تاريخ بلادنا العزيزة وأمجادها فى كافة العصور؛ ومكانها وأهميتها العالمية، وخضنا معه دروبا كنا نجهلها، لكنها حببت إلى نفوسنا التاريخ وجذبتنا

إلى الجغرافيا وقربتنا من الدهشان أفندى، فأحببنا دروس النحو والصرف ولم نعد نغضب لسخطه، كلما أطل فى كراساتنا وأفزعته خطوطنا السيئة التى تشبه آثار جمال هائجه.

وبعد أن انتهى من حديثه الطريف عن الأشجار قال: هذا ماعندى فما رأيكم؟ فران الصمت على القاعة كأننا جميعا فقدنا النطق، نيحلق فيه كتماثيل الشمع.. لم نهض الكبار وتقدموا منه، فنهضنا وتبعناهم وسلموا عليه قائلين:

ـ نعم الرأى.. نحن معك.

أسرعت إلى الدار وزرعت شجرة وأحطتها بصفيحة حديدية ذات شكل أسطوانى مستطيل؛ لتمنع عنها هجوم الرمال الزاحفة.

غدوت أرنو للصحراء بفكر مختلف، أدقق فيما أرى وأتساءل فى قرف، ماهذا المنظر ما هذا القفر عجبت لنفسي، أما كنت أمرح وأجرى لاهيا راضيا.. الآن بدت لى الصحراء قاحلة، ليس فيها غير ألواح الصبار تحرس الخلاء وتتأمل العدم.. الشفاه الظمأى تبتلع الرمال التى تجتاح كل شئ وتنفذ إلى العيون.. رمال صفراء ممتده إلى نهاية العالم الغارق فى نزيف الشمس المحرقة والليل الأسود، والصمت الأسن يتعفن إلى أن يهزه نعيب الريح الضالة.

زارنى صالح فأطلعته على الشجرة لكنه هز كتفيه وأطلعنى هو على بطاقة معايدة، أرسلها عمه لأبيه منذ شهور ووصلته اليوم، ميدان فسيح حوله الأشجار الباسقة وخلفها العمارات الشاهقة، والنيل يتدفق بالحياة والسيارات تجرى على ضفتيه فى موكب رائع الألوان.. ألوان بهيجة ليس فيها لون أصفر.. الأصفر الأجرب مخصص لنا وحدنا.

قلت لصالح: لابأس فمن هنا مر عيسى.. ورغم أنى مسلم إلا أني أرتاح اذا تلقت مسامعى اسم عيسى، ففى الاسم قداسة وطهارة ونقاء وتضحية.. ولست أدرى لماذا أتخيله شبيها بالدهشان أفندى.. بلدى أجمل من كل البلدان.. ولكنى فى المساء سمعت أبى يقول لضيفه:

ـ أبلغونا أن الجيش المصرى قادم نتيجة الصراع السياسى الأخير، وستغدوا المنطقة ملعبا حربيا مرة أخرى، ستصبح أرضا للمعارك.. فراشاً للحديد والنار والشظايا والدم والجثث

والذئاب والألغام.. ستظل أرضنا مرتعا للموت؛ تعلق دائما شواهد القبور ومنبعاللظمأ؛ وملاذاً للضياع إلى أن تقوم الساعة.. لا أمل فى أن يبلغنا الأمن يوما.. قال الضيف: ـــ

ـ والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين.

أفقنا فى الصباح على جنازير الدبابات المصرية تقتحم التلال بأصواتها الغضبى، تعلن زحف المصريين عبر سيناء إلى حدودنا مع العدو الأبدى.

أخذت أتفرج وأنا غارق فى ذرات الرمال التى غطت قريتنا كلها.. ومضيت كالجميع ألوح للجنود وهم يلوحون لنا فى غير احتفال، كأنهم يلوحون لأشجار الصبار.

استمرت الضجة ليلا ونهارا ولكن الجنود كانوا يتساقطون أشلاء، والدبابات التى كانت ترعد أصبحت تتقافز شظايا تفرش الصحراء بنقوش قاتمة من الحديد والدم.

وتراجع الزاحفون.. منهم من يسرع بالعودة ومنهم من يسقط أمام الديار يلهث، تقدم له الماء فلا يشرب ولكنه يبصق، تسأله فلا يرد ولكنه يكاد يشتمك بنظراته المكلومة، ورحت أرنو للرمال التى أصبحت رمادا بعد أن أهال العار عليها كآبته السوداء.

لم ننم فى هذه الايام القليلة ونحن فى غاية الدهشة.. وأبى يضرب كفا بكف حين سمع أحد الجنود يقول فى مرارة: لقد انتهى كل شئ.. فقدنا سيناء والاسرائيليون قادمون.

صرخ الدهشان أفندى: أيها المجانين.. سيناء لانفقدها أبدا.. لعنة الله على الحرب.. سيناء لاتضيع.. إنها كتف مصر.. وذراعها الأيمن.. أنظروا إلى الخريطة اقرأوا التاريخ.. اقرأوا القرآن.

وأسرع إلى داره وعاد يحمل لوحة كبيرة عليها خريطة ملونة لمصر وقد تجلت سيناء فيها كشمس مشرقة.

قال أبى: لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم، ثم رددناه أسفل سافلين.

ورد الدهشان: ترابها ليس تراباً إنه ذهب.. اختلط برملها الدم المقدس.. دم الأنبياء وأثارهم ودماء المصريين وأثارهم.. تأملوا الخريطة.

وعرض الضباط على أبي أن يرحل إلى الدلتا فرفض، ولكنه قبل بعد إلحاح عمى وأصدقائه، فمضينا إلى بلبيس.. أما الدهشان.. فقد أبى بشدة أن ينتزع منها. أكملت تعليمى حتى حصلت على دبلوم المعلمين وعينت مدرسا.. وعشنا فى ثلاجة الهزيمة عدة سنوات، رابضين كالكلاب أمام كهف الزمن العقيم، وأمامنا تمتد دروب المحنة بلا نهاية.. تعملقت حولنا خيوط العنكبوت.

وجاء الأمر بالانقضاض وكنت فى أول عهدى بالجندية فزحفت مع الجيوش المصرية بإصرار الثائر وعزم المنتقم، تسابق روحى قدمى.

هأنذا قادم إليك.. دمى يدفعنى نحوك.. وكل شئ ينادينى ياسيناء. حياتى بعيدا عنك موت، وموتى بعيدا عنك جبن وانتحار.

عبرت القناة وتلمست رمال سيناء بدموعى، فأدركت أنها بالفعل ذهب ولكن قريتى الصغيرة التى تقع بالقرب من العريش لم أدخلها الا اليوم بعد اثنى عشر عاما كاملة.

مضيت من فورى إلى دارنا فلم ألق إلا أطلالا، لكننى وجدت فى استقبالى شجرتى العزيزة، شجرة عمرها اثنى عشر عاما بعمر غربتى.. نمت فى غيبتى وكان منظرها البديع هو الذى أثارنى حقا وأبكانى.. لقد نمت الشجرة فى إصرار، وكأنها تريد أن تثبت للأعداء أننا موجودون وأرواحنا موجودة وأعمالنا خالدة.

الشجرة خصرها نحيل جدا لأنه محصور بالصفيحة الحديدية، أما مافوقها فعريض يتفرع فى كل اتجاه، له أذرع طويلة يرحب بنا، وبدت الشجرة كالكأس.. إنها كأس السلام، كأس العمل ونهاية الصبر النابض، والكفاح الجاد لاستعادة أرض المعجزات.

أخيراً وجدنا الدهشان أفندى وقد نحل عوده، وشاب شعره ولكن بهجته لقدومنا أعادت إليه مافقده خلال إثنى عشر عاما.

قال: إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون فما يكذبك بعد بالدين، أليس الله بأحكم الحاكمين.

صدق الله العظيم.

ـ عدتم والعود أحمد.

ـ نحمد الله.. هل تعلم بأنى أصبحت مدرسا وأود أن نبدأ من الآن ولو فى الخلاء.

ـ نعم سنبدأ فى الخلاء.. سنبدأ من حيث انتهينا.

ـ سنعلم الأولاد تاريخ البلاد.

ـ بل سنعلمهم أولا كيف يغرسون الأشجار، لم تعد سيناء منطقة نزال ولهيب تنزله بنا الشمس من ناحية والحرب من ناحية أخرى، بل سنكون أمنا وعبادة وظلا حنونا. فيها نغرس الأشجار.

حكايتى مع الست فله *

عصر أمس رأيت أن أتمشى على شاطئ النيل قليلا، أخفف من وحدتى وانفرادى فلكم مسح هواء النيل جبينى، وملأ بالأمل صدرى وطرد جيوش اليأس التى تحتل نفسى بين الحين والحين.. فإليه تهدأ روحى، وعنده يسكن قلبى.

ألجأ إلى النيل كأنى الجأ إلى الله.. خالق الكون ومفرج الكرب، ألوذ به حين تجتاح النفس لوعة الحزن، وتظللها الوحدة بملاءة اليأس والغربة.

إلى النيل وعلى الحشيش الأخضر يمكن أن ارتمى بملابسى وصدرى إلى السماء مفتوح، وقلبى معرض للهواء الندى، تنعشه نسمات طرية عبرت فوق مياه النيل وتعطرت برائحته الربانيه.

بعد خطوات إذا بى أجد على السور المطل على شاطئ النيل سيدة تلبس السواد كنت أعرفها من زمن غير بعيد.. فى نحو الثامنة والعشرين لاتزيد.. عرفتها عندما طلقها زوجها الأول وأصبحت لشدة العوز والحاجة تعمل فى البيوت غسالة.

كانت تغسل ملابسنا فى الشقة التى أسكنها مع ثلاثة من الشباب، وكان ذلك نحو عام ١٩٦٢ وفى يوم من الأيام عند عودتى صفعتنى فى مدخل الباب قرقعة عاليه وجلبة..

* فازت بجائزة القصة القصيرة من نادى القصة بالإسكندرية.

فإذا الشباب يحاولون مضاجعتها قسرا.. ذبح صراخها أذنى.. كنت أريدها وطالما فكرت فيها.. وطاف جسدها بخيالى متأنقاً جذاباً.. لكنى ضربت الباب بقدمى ضربة هزتهم فى ساحة الرغبة.. وسلطت عليهم نظرات شرسة.. واندفعت إلى «نعمة» وهذا اسمها اجذبها من يدها.. هيا يابنتى هيا (وهى فى مثل سنى) لكن الموقف كان يفرض كلماته ـ هيا.. لم أكن أتوقع أن تصل سفالتكم إلى هذا المستوى.. مستوى أولاد الشوارع.. عيب هذا والله من أناس متعلمين.. اخص منعت هذه المهزلة الطائشة التى تتنافى مع كل الآداب.

فى اليوم الثانى دخلت نعمة على، بينما كنت منهمكا فى القراءة واقتربت منى قائلة:

ـ لقد جئت اليك لأرد لك جميلك.. فأنا الآن لك وحدك.. فافعل ماتشاء.

أفهمتها بأن هذا يمحى كل مافعلت من أجلها.. ومافعلته أقل من الواجب ولا يحتاج للشكر بهذه الطريقة.

وبقيت تغسل عندنا وتنظف الشقة دون أن يقربها أحد أو يمسها بكلمة، حتى غابت ولم تعد، وسمعنا من الجيران والبواب أنها تزوجت نجارا من طنطا، وسافرت معه إلى هناك بعد أن جهزها عمها خير جهاز رغم أنه لم يكن مرتاحا إليه.

وهأنذا التقى بها بعد هذه المدة فإذا هى لاتدرى ماذا تفعل مع زوجها اللعين، الذى لايعرف فى الدنيا شيئا غير مزاجه وكيفه، لايعمل بقدر مايشرب الخمر، ويسهر الليالى فى الأوكار العفنة والأماكن السريه.. يأخذ ذهبها ويبيعه أو يرهنه ليشرب ويشرب.. حتى جاءت يوم أمس فوجدت شقتها وأثاثها ينقل قطعة قطعة إلى عربة لورى تقف فى الخارج، وعندما سألت قيل لها لقد باعه زوجها.. استغاثت وصرخت فى أهل الحى.. يادهوتى.. ياميلة بختى.. بحثوا عنه فى كل مكان حتى وجدوه فى قهوة كالكهف داخل زقاق مظلم موحل، يشرب ويلعب الورق ويوزع النقود على الرجال فى الجلسة الساهرة.. لم يصلوا معه إلى نتيجة.

جاءت إلى القاهرة تشكو لعمها الذى زوجها له.. لهذا الصايع الضايع.

وجدتها هناك على ساطئ النيل تتأمل الحياة التعسه.. وتتساءل ماخطب هذه الأيام.. تقلبها على ظهرها ثم على وجهها.. ترميها على الجمر مرة وعلى الرمضاء مرة وعلى الثلج مرة وعلى الشوك مرات.

ورغم حزنها وسواد كآبتها فقد أطلت الفرحة فى عينيها عندما رأتنى.. جلسنا على الحشيش الأخضر، والدنيا بعد الغروب أقرب إلى الظلام منها إلى النور.

ذرفت عيناها فيضا من الدموع الحارة.. إحمرت مقلتاها من الأسى والمرارة.. تكلمنا.. هدهدتها وطيبت خاطرها.. كفكفت دمعها وقلت لها: أن الدنيا لازالت عامرة بالخير، وغدا يصلح ربك الأحوال.. نامى وارتاحى والصباح رباح.

ـ أخشى لقاء عمى لأنه كان ضد هذه الزيجة.

ـ إنه عمك على كل حال.. ولايرضى لك الضياع.

ـ سأذهب إليه غدا

ـ وأين تبيتين الليلة؟

ـ عندك.

قلت والدهشة تتداخل مع الفرحة وتتمازج:

ـ عندى!

ـ لاتخشى شيئا.. عشاؤنا موجود فى هذه الحقيبة ولن تتكلف شيئا.. ان كلى رغبة فى أن أبيت معك هذه الليلة بأى صورة ولو على الأرض.. أحسست من كلام الفتاة أنها فى غاية الخوف، وكأن هذا اليوم هو آخر أيامها وعليها أن تقضى وقتا طيبا بأية وسيلة، حتى لاتعتبر أن كل حياتها كانت بؤسا ويأساً ومرارة.

وبدأت أنظر إليها نظرة أخرى.. أصبحت عينى تتكلم بلغة أخرى غير اللغة الأولى كنت أنظر إليها وكلى إشفاق عليها.. أصبحت أنظر إليها باحثاً عن الجمال فى جسدها فى عينيها.. فى صدرها.. فى لون جلدها.. كنت أفكر فيها على أنها نتيجة حتمية لسوء التربية والإهمال والسيطرة الاجتماعية الغير واعية المدعمة بالشرع والقانون.. فأصبحت أفكر فى الليلة التى سأقضيها معها.. كيف أعد برنامجها؟.. إلى أى مدى ستكون ليلة تذكرها الليالى القادمة.. ترى.. هل سيكون لونها أحمر؟.. أم أخضر أم أسود؟

تذكرت الآن كل ماحدث يوم أنقذتها من أحضان الشباب فى الشقة القديمة.. ومرت الأيام وأنا أهفو لجسد امرأة.. أى امرأة.. جميلة أو قبيحه، بيضاء أم سمراء شحاذة أو أميرة.. احس أن الحياة بلا امرأة ليست حياة.. ما أجمل.. بل ما أروع الحياة مغموسة فى جسد امرأة تريدك.. ستكون ليلة جميلة.. لذيذه.. لأنها تريدنى وتهون من كل صعب فى سبيل أن تبيت معى.

لقد جاءت إلى ثانى يوم تقدم لى جسدها، لكنى رفضت لأنها كانت لحظة الشهامة والرجولة والمروءة النادرة.. لكنى الآن أعتقد أن الموقف مختلف.. أنا محتاج اليها وهى محتاجة إلى .. إلى المنزل إذن.. إلى السهر.. إلى الحب.. إلى الدنيا.. إلى الحياة إلى الحرية من قيود الضمير والعقل والكبت وبرودة الغرفة الموحشة، لتكن فى حياتنا جميعا الليلة الأخيرة.

سرت إلى المنزل هائما خفيفا، كأنى تحولت فجأة إلى طائر يمشى فى الهواء.. صعدت درجات السلم وكانت التاسعة.. صحوت من حلمى على صوت الكلب فلة.. يقول بلغته: من هناك؟

ارتعدت الفتاة فى يدى.. شجعتها.. امسكتها من يدها.. سحبتها كأنها لاتبصر.. علا نباح الكلب، ولمعت عيناه بإحمرار فى الظلام، وفتح فمه على أخره، وقام على أماميتيه.. تراجعت الفتاة.. قبضت على يدها.. قلت لها وأنا أحاول التماسك؟

- فلاتخافى منها. إنها كلبة طيبة واسمها فله.

توالى نباح الكلب. ارتجف قلبى فى ضلوعى. سينزعج السكان ويخرجون إلينا رأيت أن تذهب الآن بعيداً عنه حتى يهدأ ونعود فى منتصف الليل. فيكون تعب النهار قد ألح عليه ولانت عريكته. وهدأ حماسه. أو ربما أخذ غفوة نوم تسمح لنا بالصعود.

ذهبنا إلى السينما القريبة نضيع فيها هذا الوقت الثمين الذى لايجب أن يضيع. لكن ماذا نفعل؟.. إنها إرادة الكلب. وطوال العرض كنت أرى صورة الكلب ماثلة أمامى على الشاشة.. هذا الكلب يريد أن يعيدنى إلى الشارع بعد أن وصلت إلى غرفة السطوح هذه بشق الأنفس.. يريد هذا الكلب أن يردنى إلى التشريد والتسكع فى الشوارع بعد أن حمدت الله على أن الاستقرار والاطمئنان سيأخذان طريقهما إلى حياتى هذا الكلب. ليس كلباً إنه وحش كاسر، نمر مفترس، لديه الفك القوى الضخم ولديه الأنياب. طويلة مسنونة،

وعـيـونه لاتحـمل إلا الشـر وكل مـعـانى الفـتك، والتـمـزيق.. والأدهى من ذلك أن أهله لايجدون له اسماً.. إلا فله.. ومعنى هذا أنها أنثى.. وأنثى جميلة مادام اسمها فلة.. لكنى لاأستطيع إلا أن أراها ذكراً فحلا، أو ليس جنسها هو المهم.

مكانه بسطة السلم أمام شقة صاحبة البيت فى الدور الرابع وقبل سطوحى مباشرة. ورغم مرور نحو ثلاثة شهور إلا أن شراسته تغلو وعداوته تزيد. ياسيد فلة أن من عاشر قوما أربعين يوما صار منهم، يعنى فيه عشرة بيننا لكنك لاترع حق العشرة.. ألم تعرف شكلى. طولى وعرضى وروائحتى. ومع ذلك دع العشرة جانبا، وتذكر قطع السكر التى أحرم نفسى منهـا لأعطيك إياها، صبـاحـا عند خروجى، ومسـاء عند عـودتى.. لألهـيك عنى. لكن الكراهيةطبع متأصل فيك. مايأسرع ماتلتهم قطع السكر وتنبرى ناحيتى بالنباح وشتيمة أجدادى. بلغة الكلاب طبعا، ثم تسرع إلى فاغراً فمك؛ شارعا أنيابك، بدلا من أن تهز ذيلك شكراً، كما تفعل الكلاب الأخرى التى أحسنت تربيتها إن كلاب الشوارع أفضل منك. إنك صنف آخر غير كل الحيوانات وكل الكلاب ألم يبلغك أننا استأنسنا الأسود.

ذهبت مرة إلى عم إبراهيم صاحب البيت وهو ياحسرة عليه. مسكين مع عائلته لاحول له ولاقوة.. ذهبت إليه أشكو من كلبه.

ـ ياعم إبراهيم. انقذنى من كلبكم. يضايقنى فى طلوعى ونزولى.

ـ ماذا أفعل يابنى؟

ـ كلمه ربما يدعنى أمر بلا تهديد.

ـ أنه لايسمع كلامى.. أنظر.

واشار عم إبراهيم إليه فى ابتسامة مصطنعة.

ـ تعالى يافلة.

وكانت هذه الفلة المفترسة، تنبح تجاهى، وتدس فى لحمى نظراتها الشرسه، وكأنها تعلم إنى أشكوها.

وعندما ناداها عم إبراهيم، التفتت نحوه فى تحد وكأنها تقول له:

ـ ماذا تريد أنت أيضاً.

ـ لم يبق إلا أنت لتكلمنى.

وتقهقر عم إبراهيم وقال لى.

ـ أرأيت ياعم.

وفى هذه اللحظة ظهرت السيدة/ سكر زوجة عم إبراهيم بلحمها المكتنز. تجاهلتنى قائلة لعم إبراهيم فى نظرة تشبه كثيراً نظرة فلة، ومن الغريب أن فلة سكنت فى الحال إلى ركنها ولزمت الصمت:

ـ ماذا هناك ياإبراهيم؟

ـ السيد سامى يريدنا أن نبعد فلة. لأنها تضايقه

ـ وماذا نفعل له؟. ثم ما الداعى لهذه الاتهامات الباطلة. هاهى وديعة لاترفع عينها فى أحد. لماذا يملأ الحقد نفوسكم؟

ـ ياخبر أبيض.. أى حقد ياست هانم. أنا أحقد على الكلب

ـ نعم. أنا فهمتك من أول يوم. وعرفت قلبك الأسود

ـ قلبى الأسود. أحقد. على كلب. سبحانك يارب

وجدت نفسى غارقا فى مستنقع من الغباء والوقاحة.

هل هذه هى السيدة/ سكر. إذن أين السيدة/ مر. تركتها وانصرفت.

إنتهى الفيلم ونهضنا وأنا أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم والكلب المقيم. وللأسف الشديد طالعنا نباح الكلب أقوى وأشد من ذى قبل وكأنه كان يستعد لنا. بدأ الفأر يلعب فى صدرى. وأحسست أن الليلة سيفسدها هذا الكلب عديم الذوق والتربية.

كان معى بعض قطع السكر التى تعودت حملها له عند عودتى، رأيت أن أقذفها بعيداً فى نهاية البسطة، حتى اكسب وقتاً أصعد خلاله. أنا والبنت، وأفهمتها ذلك.

ـ عليك أن تسرعى بالصعود بعدما ألقى السكر. هه.

أمسكت يدها وجهزت رجلى اليمنى للبدء بها صعوداً. وفكرت ألا ألقى السكر كله. بل قطعة واحدة فقد تفشل الفكرة. وأكون قد خسرت الجلد والسقط.

ألقيت بالسكرة بعيداً، فلم يحرك ساكنا، بل نباحه وحدد نظراته فى عينى كأنه يقول: مهما تعمل. القيت السكرة بعد السكرة بلا أدنى إلتفاته منه. أمسكت الأخيرة فى راحتى

وعرضتها أمام عينيه ليراها ويتأكد. ثم ألقيتها قريبا منه، فلم يتحرك ولم يغير من موقفه المتصلب معى.

أشحت بيدى فى وجهه. نبحت فيه كالكلب. أخرجت له لسانى بلا نتيجة. أخرجت له منديلى الأبيض وبسطته فى الهواء دلالة السلم. ولا فائدة. ألقيته على وجهه حتى أعميه ويتعثر فيه، لكنه هز رأسه بسرعة البرق، فإذا المنديل تحت رجليه.

أخذت من حقيبتها بعض الملابس وألقيتها عليه. كل محاولاتى باءت بالفشل الذريع وتفصد جسدى كله بالعرق والخوف. وأنا مستمر فى محاولاتى. لا أريد لها إلا النجاح وهو لايريد لها إلا الفشل.

لم تلح لى بادرة أمل. فلملمت ذاتى المبعثرة، ووليت الأدبار مخلفا أسرى وجرحى وأمتعة وعتاد. نزلت وأنا فى غاية الأسى. أمشى كأن ساقى مبتورة. تفرقنا. كل منا فى طريق. وفى داخل نفسى تنشب معركة جديدة بين مشاعر متناقضة. الندم والغيظ. الثورة والهدوء، الصراخ والصمت.

قصدت حديقة عامة. جلست على الحشيش الأخضر الرطب، أقلب الأمر حتى غلبنى النوم دون أن استقر على قرار. قال لى زميلى وصديقى الحميم بعد أن رويت له القصة.

ـ عليك ألا تصبر بعد اليوم.

ـ ما الحل؟

ـ إجذب الكلب إلى السطح وادفعه من فوقه.

ـ إنك تخرف، كيف أجذبه وكيف أدفعه وأنا لا أجسر على الاقتراب منه ـــ إذن ضع للكلب سما فى الطعام. وبهذا ترتاح. وإلا فعليك أن تبحث عن مسكن آخر.

ـ دلنى عليه؟

ـ فى شارع المستحيل.

ـ إذن فهو السم.

قال صديقى: اشترى توكسافين. فهو مادة فى امكانها أن تقضى عليه. درت بعد الظهر أنقب عن الدواء الشافى. وجدته. أخذت الزجاجة فى أحضانى. سوف تسرى فى دمه

النجس فتصرعه. سيبتعد عن طريقى. سوف أقدم بمصرعه اليوم خدمة كبرى للإنسانية المعذبة. اقتربت من البيت. سننام الليلة ونطلع وننزل، نضحك ونلعب، دون أن يعكر علينا هذا النازى صفونا.

لم يبق بينك وبينى أيها الطاغية غير خطوات. وبعدها أستطيع أن أفعل مايحلو لى سأريق اليوم دمك فى سبيل حريتى. فلا حياة لى مادمت أنت على قيد الحياة ألفيت زحاما أمام الباب الكبير، تقدمت. فإذا هو كثيف لاأستطيع النفاذ فيه. ماهذا؟ ألست سكر تبكى وتولول. لمحتنى. صرخت ناحيتى: لقد جاء المجرم. أفسحوا له الطريق. ضربت صدرى بيديها الثقيلتين.

إرتعدت بشدة وكادت الزجاجة أن تسقط من يدى. تشبثت بها تشبثى بالحياه.

صرخت الست سكر بصوت يقترب من البكاء وإن كان مشوبا بالغيظ.

ـ ها هو المجرم. لقد قتل كلبنا العزيز، لقد كان يحقد عليه. يكرهه.. يتحين الفرصة لاغتياله. ولقد أتيحت له الفرصة اليوم. قلت لها وأنا فى غاية الدهشة ومشاعر الفرح تسبق الدهشة فى وجهى: أنا قتلت كلبك!

ـ نعم.. لقد مزقت قلبى. طعنتنى فى أعز مالدى.

كدت أجرى فى الشارع. أرقص وأقول مات الكلب. مات الكلب كدت أنسى نفسى وأنادى عم على الشربتلى كى يسقى الحى كله على حسابى. كدت أزغرد. لكنى امتلكت أعصابى وهدأت من إنفعال الفرح المتفجر فى كيانى. قالت:

ـ لقد رآك الناس تعود من العمل فى الثانية عشرة ورآك الناس وأنت تقف مع الكلب فوق السطوح وبعدها سقط الكلب. سقطت فلة. ياحبيبتى يافلة.

حرت وزاغت نظراتى بين الناس.. زوجها يبصق فى الأرض إهانة لى ودلالة على أنى شخص حقير.. ومدت أختها شفتها السفلى ممتعضة من هذا الإنسان الدنئ الذى قتل كلباً. قتل روحاً طاهرة.

كنت أود أن أقول:

ـ إن من فعل ذلك قد نال شرفاً عظيماً لايناله شهيد فى الحرب. ياست سكر إن موته شرف لاأدعيه وما كان أجدرنى به.

أخيراً فتح الله علىّ بكلمات هادئة ورزينة، كأنى رجل محترم ومن علية القوم: ياست سكر أنا لم أقتل كلبك، وفى رأيى أن من يفعل ذلك شخص حقير ولا يكلمه الله يوم القيامة. إنا لله وإنا إليه راجعون.. البقية فى حياتكم، ثم تركتهم وأنا فى غاية الدهشة من تدبير الله. إذ أننى كنت أشك فى موت هذا الكلب. حتى ولو بالرصاص فهو محصن تماما ضد كل ألوان الموت. جسده ضد الرصاص، معدته ضد كل سموم الأرض، أنيابه تصهر الحديد، عمره سيطول لو ألقى فى المحيط.. ولكن الله بصير بالعباد.

صعدت إلى حجرتى، وتمددت على سريرى، أتأمل الصدف العجيبة.. وفجأة فتح الباب بضربه قدم قوية كأنه باب جهنم.

وظهرت السيدة سكر تسده بشحمها، قالت بكل حدة:

ـ اليوم هو الثلاثاء. إن لم تترك الغرفة حتى يوم الخميس، ألقيت بهذه النفايات إلى الشارع، سامع أنت أم لا.

وسمعت طبعاً. سمعت وسمعت. لكنى لم أرد.

مارس ١٩٦٩

كلام الليل

ترك القرية ومن فيها، لعن نفسه ولعنهم جميعاً، تعثر فى جلبابه وهو يسرع بعيداً عن مبانيها، التى تغوص فى الأرض كلما بعد عنها.. كأنها تختفى من الوجود، إذ تغيب عن ناظريه.

عبر الحقول وقفز القنوات الصغيرة التى تجرى بينها. تبحث له قدماه عن «الريشة» أو المدق بين المزارع ليسير عليه.. يتحرك فى ملابسه حركة بلهاء... لايستطيع أن يفعل شيئا من أجل نفسه، ولا من أجل زوجته فوز، التى ذهبت وهى الزهرة اليانعة فى عز الربيع.

ولا يستطيع أن يفعل شيئا إلا أن يبصق الأرض والناس والعيال.. ويقضم أنيابه من المسئول عن ذلك؟.. لايدرى، قد يكون هو المسئول، وقد يكون الناس، وقد يكون العيال، وإذ يتذكر العيال، لايتوانى عن أن يقول، الله يخرب بيت العيال وسنين العيال.

وحين قفزت من شفتيه هذه الكلمات مرة قبل ذلك، والتصقت بوجه حماته ردت عليه على الفور:

ـ وهى العيال مالها ياجدع أنت.. أنت اتجننت.

ـ أمال أقول إيه بس.

ـ تقول.. إرادة ربنا.

بقى هي ارادة ربنا تموت فوز ياإخواتى.. بقى فوز تموت ياجدعان كده.. أمال لما هى تموت، مين راح يفضل.. الله يخرب بيت العيال وسنين العيال.

ويطلع فيه الحاضرون ساخطين: الراجل كفر ياجدعان.. الراجل كفر.

هو الآن بعيداً عنهم، يتركهم لكى لايقولوا عنه أن كفر أو جن.. هو متأكد أنه لم يكفر ولم يجن.. إن وفاة الغالية، طيبة القلب يكفر المؤمن، لكنه والله العظيم لم يكفر بعد.. هو مندهش، لماذا تموت وهى تتمنى السعادة لكل الناس، قريب أو غريب.

حين تعب من السير، كان قد وصل إلى مبتغاه.. الجميزة التى اعتادت أن تلقاه فى أحضانها الطرية، ويعرش عليه ظلها الواسع، الذى يكفى أن يظلل دنيا كاملة.

تعود سعداوى أن يجلس تحت هذه الشجرة، وأمام هذه الترعة، وفى أحضان هذا الظل الوارف وأمام عينيه أفكاره وأحلامه.. وكلما وقفت أمامهم فكرة كاللقمة فى الزور، يتسلى بالحصى الذى تجمعه يده من الأرض، ويلقيه فى الترعة، يحرك مياهها ويصنع الدوائر.. ويتابعها بعينيه، حتى تختفى كما يختفى الحلم الجميل.

يتذكر ضحكة فوز الفلاحى الحلوة الصافية، كما السماء صافية، تظهر الغمزتان فى منحدر خديها، ثمرتان ناضجتان، يزينا طبق الشهد فى شفتيها، وحين تطل عليه فوز ـــ امراته وحبيبته ـ من صفحة المياه الداكنة، يمد ذراعيه أمامه، فاتحاً كفيه، كأنه يعترض على حكم أو نصيحة من قريب.

ـ هيه حتى كملت تلاتين سنة.. يانهار أسود ياأخواتى.. ويتذكر قولهم: ده مقدر ومكتوب ياسعداوى فيرد عليهم فى وحدته:

ـ مقدر ماقلناش حاجه.. بس ليه.. دنا غلبان وهيه ظهرى، صحيح أنا الراجل، بس هى وكتاب الله ظهرى.. أنت متعرفهاش.. ويتذكر كلام أبيها له، عندما ذهب سعداوى مع أبيه ليخطبها:

ـ خذ بالك منها ياواد يا سعداوى، فوز كوم والأولاد كلهم كوم.

آه، إذا كنت باديها لك، باديها لك وعارف إنك راجل.. دى هديه.

ورد عليه سعداوى يومها:فى عنيه يابا الشيخ إبراهيم.

سعداوى صحيح يعلم أن كل قرد فى عين أمه غزال، وكل واحد فى نظر أهله كبير كبير جداً، لكن فوز فى الحقيقة أكثر من غزال، طيبه ونصاحة وحلاوة وخفة دم وطاعة.

قال له حماه بعد وفاة فوز: شد حيلك ياسعداوى وخذ بالك من الأولاد. اهتز فى وقفته، كأنه يحمل فوق رأسه ثقلا ضخما لايستطيع حمله. وفى نفسه تجولت عبارة شقية تعسة: عيال النيلة والسخام.. لكنه قال: فى عينيه يابا الشيخ إبراهيم.

تراقصت أمام مخيلته صورة أولاده الذين أصبحوا خمسة، أحس بالاشفاق عليهم يغلب كل مشاعره التى إشرأبت فى نفسه ضدهم.

ويعود ليكرر كلمته المشهورة التى تعبر عن سخطه من حماته ست الكل، وقد كانت تبذل قصارى جهدها لتعكير صفوهما.

- إنت يافوز اللى كان عدلهم يسموك ست الكل.. ويسموا أمك أى اسم تانى.. ست النكد.. قدم النحس، فقر الدار، قعر الحله.. أى حاجة تناسب مقامها وأفعالها.

طبعا كانت فوز تغضب ويصالحها

يده تحت ذقنه وعيناه على الماء، ورأسه هناك تجوس مفكرة فى أغوار الماضى.. كان سعيدا جداً يوم زفافه على فوز.. سعادة لايحس بها العائد بعد النصر من الحرب ولا تعادلها سعادة الناجح فى أعقد الامتحانات. عائلته وعائلتها وجميع أهل القرية يحيطون بهما، فرحون أصدق الفرح. كانوا يقولون، جدع طيب وابن حلال وهى أيضاً أصيلة وحلوة، ربنا يسعدهم.

طلقات الرصاص تدوى فى فضاء القرية الممتد، تتقافز على صوتها الطيور فوق الأشجار. زغاريد النساء تخرج من فوق الأبواب حيث يجلسن خلفها. يصعد إلى السماء كل شئ حتى رائحة اللحم والطبيخ ودخان المواقد والأفران، والطبول والمزامير تصل إلى أبعد الأذان. تنادى القريب والبعيد والغريب. الفتيات يتبادلن أدوار الرقص بلا استثناء، حتى عفاف بنت العمدة. ومن ترقص منهن على خفر وحياء، تنقض عليها الأيدى وتحزمها وتضغط على خجلها حتى يختنق ويخرج من ابتسامتها.. تتحزم بشال فتى أو طرحة فتاة. ربما تخشى أخاها، أخوها يوافق من أجل سعداوى. عندنا كام سعداوى، وكام فوز.. ليلة

العمر، والفرح قليل، العريس يملأ ناظريه من محيا العروس، كأنها آخر مرة وآخر ليلة.. ينظر إليها في عشق وهيام وشوق متأجج، لكنه محتشم وبسيط. لاتعبر عنه الكلمات المعسولة والخيال السارح والقصور الشاهقة والسيارات الفارهة وإنما تكفى كلمة حنان ونظرة شريفة وبسمة ريفية.

يكفى أن يقول لها فى وداعة وتساؤل ممدود: إزاى الحال يافوز. مش مبسوطة وبعد إنتظار خجول، تبحث من خلاله عن كلمات تدل على الإنبساط ترد:

ـ ربنا يخلينا لبعض ياسعداوى.

إنطلق فى ليلة الزفاف كل مادفنه الحياء وضوء النهار، ونظرات الناس فى صدورهم من الشوق واللهفة وفرحة الحبيب بلقاء الحبيب.

لكم اشتاق كل منهما أن يعيشا معا ليلة أخرى كليلة الزفاف. لكن الأمور لم تكن تسير كما يهوى الإنسان. هو لايعيش على أرض مستوية إنما يعيش فى منتصف طريق جبلى، فوق رأسه مسافة إلى القمة تقطع النفس وتحت قدميه مسافة رهيبة إلى الهوة، فإما يندفع صاعداً دون أن يتحكم فى نفسه حتى يصل إلى القمة أو يسقط فى الجهة الأخرى، وإما يهبط إلى القاع من البداية دون أن يستطيع أيضا أن يتحكم فى مكانه أو فى نفسه.

مرت الأيام وامتلأ الرحم، حملت فوز وتمنى سعداوى ولدا وتمنت فوز بنتا وجاءت بنت، وقالت فوز لزوجها: أنت زعلت؟

ـ إيه ح يزعلنى، كل اللى يجيبه ربنا كويس، المهم صحتك، بنت. بنت نسميها إيه.

ـ نسميها رسمية. والنبى ياسعداوى نسميها رسمية. على إسم أختى اللى ماتت.. أصلها كانت حنينة قوى.

ـ اللى تشوفيه ياستى.

كلفتهم المولودة كل مايملكون، ملابس، مرايل، غيارات، حتى اللبن لم يعد فى إمكانهم شربه ولابيعه سائلا ولاعمله جبنا أو زبدا. إنها البكرية، وفى نظر سعداوى هى بنت فوز الغالية. توافقها على كل ماتطلبه. كى ترضى ولاتغضب. إذا كحت، على البندر

جرى. وتتوالى المصاريف مابين دكتور وأدوية لأن أم فوز لاترضى أن يكشف على إبنتها الحشاش حلاق الصحة.

وبالنهار تقلق فوز من أجل رسمية وبالليل تصحو الأم وتبكى لمجرد أن الست رسمية هانم يقظانه تصرخ ولاتحتمل البزازة وتضيق بثدى الأم فتضطر للبقاء معها وتتعطل بها عن شغل البيت، أى بيت الآن والبنت تصرخ.. لابأس فهى إبنتها وبكريتها. ضناها، لحم حشاها، رائحة زوجها وعرقه ودمه، ورابطة الحب بينهما، إلهى يبعد عنها المرض وكبسة النزلة. مصاريف ومصاريف ربنا رزاق. مرت الأيام. قالت فوز لسعداوى: هى رسميه ح تفضل وحدها. ضرورى نجيب لها أخت.

أخت ولا أخ؟

ـ لا. أخت، يا سعداوى

ـ خلاص ياستى. اللى تشوفيه

إمتلات البطن حتى الحافة، كانت إذا طلعت الشمس تضع يدها على بطنها وهى فوق السطوح تنشر الغسيل، أو ترمى الحب للدجاج، أو تزغط الدكر البط أو حتى تنزل الحطب للخبيز. تقول: بنت والنبى يارب. البنات هم اللى فيهم الخير، وقريبين لأمهم؛ ويساعدونى فى شغل البيت، ويشيلونى لما أكبر، البنات حنينين.

ـ آه.. يامه الوجع هنا. البنت بتخبط ونازلة دق، وجرت الأم تنادى الداية وسعداوى يتعثر فى جلبابه، ويتلعثم لسانه فى الكلمات: فوز ياحبيبتى يافوز ـــ ربنا يقومك بالسلامة. قلبى معاك.

ويحصى على أصابعه مايلزم.. هل تكفى خمسة دجاجات وديك. لا. لن تكفى، سوف تصرخ حماته فيه: إنت عايز تموت بنتى ناقصة عمر. بتستخسر فيها القوت.

لكن الله يستر، وتقوم فوز بالسلامة. بعد أن تكون آذانهم قد سقطت فى قلوبهم. أو صعدت قلوبهم إلى آذانهم. وأنفاسهم تكون قد انسحبت إلى القاع. الأعصاب لاتترك للأجسام فرصة كى تستقر. تصطدم الأقدام، وينسى كل منهم الآخر. لكن ربنا يستر، وتطل المحروسة بالسلامة، وتشرأب على شفتى الوالده ابتسامة مجهدة، يتنهد الجميع

كأنهم هم الذين كانوا يلدون تلك المفعوصة. يستريحون من أعماقهم، لكنهم لايجلسون لأخذ أنفاسهم، بل يستعدون للعمل الشاق. ويعود سعداوى يحسب على أصابعه كل ماأنفق.

لقد اقترض من الشيخ فرج أكثر من ستة جنيهات، وجر طلبات شكك من دكان الحاج برهام بنحو سبعة جنيهات. جاب فراخ وسكر وليمون وحلبة وكراوية وسودانى وملبس وبلح وأشياء أخرى تستهلك كلها فى الأسبوع الأول وإذا.. إذا تبقى شئ فلا أكثر من يومين أو ثلاثة فوق الأسبوع. هذا غير أجرة الداية ومن الجائز أن تصر حماته على عمل كحك وقرص للغلابة، ومع ذلك فهذه هى البداية هذا هو الطبل البلدى الذى يرافق ظهور الموكب من بدء المسيرة. نحن مازلنا فى أول الطريق.

وتعود المصاريف تتوالى كل يوم. نفس المصاريف. ملابس ومرايل ولوازم مختلفة ودكتور وأدوية وهيصة بلا آخر وبلا حدود.

وتمر الأيام وتطلب فوز من زوجها لبنتها أختاً ثالثة. والنبى. والنبى

ـ والله اللى تشوفيه. ولو إنى عايز ولد.. لازم لنا ولد.

ـ لا.. الجاية ح تكون بنت وبعد كده ولد.

ـ هو لسه فيه بعد كده

ـ أيه المانع

ـ على الأقل صحتك يافوز

ـ ربنا يسترها ياسعداوى. انت ناسى أن الشيخ فرج واعظ الجامع..

كان دائما يقول أن المال والبنون زينة الحياة الدنيا.

ـ المال من غير بنون خسارة، والبنون من غير مال كارثة. لازم الاثنين مع بعض مثل واحد لواحدة.

ـ الخير كتير والحمد لله. الميه فى الكوز والعيش مخبوز، أنت ليه كاشش من الخلفة. ربنا بعتهم ورزقهم معاهم.

ـ طيب، إللى تشوفيه يافوز.

وتلد الأم بنتا ويضرب سعداوى كفا بكف.

ـ مش معقول.. هو أنت مكشوف عنك الحجاب، زى ماتكونى كنت عارفه. فى كل مرة قلت عايزة بنت. جاب لك بنت.

وتمر الأيام. الستة عشر قيراطا كما هى لاتزيد، كان يفكر فى أن يشترى الثلاثة قراريط المجاورة له، لكن ياللخسارة راحوا لما راحت فلوسهم.

كان قد أعدلهم أساور زوجته الذهبية، لكن المصاريف زادت والأساور خرجت من يد زوجته فردة فى أثر فرده. والعمل.؟ الأولاد عددهم يزيد يوم بعد يوم. وكذلك الأسعار والمصاريف والمطالب، وفى كل يوم اثنين، وهو يوم السوق يطلع البندر يبيع نتاج الأرض. مقطف بقدونس أو طماطم، باذنجان أو سبانخ. كيلة قمح؛ تقاوى برسيم. الموجود، لكن ذلك لم يعد يكفى وخاصة أن امرائه وحبيبته فوز كانت تريد لأولادها ألا يكونوا كعيال الحارة. ملابسهم متسخة، وجوههم مرقعة ببقع بيضاء من الجوع؛ نفسهم تروح لما فى أيدى غيرهم. أو يطلعوا جهلة، حفاة الأقدام.. لا.. بل تريد أن يكونوا فى أحسن الأحوال منظرهم يسر الخاطر ويرفع الرأس. يضرب بهم المثل.. لايصح أن يكونوا أقل من أولاد العمدة مهما تكلفت.. ولكن كيف؟ تقول له: إتصرف ياسعداوى.. العيال زرعتنا اللى ح تطرح خير.

طعامهم نفسه لم يعد كما كان فى السنة الأولى والثانية؛ كانوا يأكلون لحما مرة على الأقل كل أسبوع؛ اليوم للآسف.. يهز سعداوى رأسه: فوز بتقول الخير ح يزيد، بس ح يزيد منين. عد غنمك ياجحا. قال واحدة واقفة وواحدة نايمة.

وتمر الأيام. وفى قعدة انسجام، تجمع فوز وبناتها وزوجها سعداوى، تلقى فوز كلماتها. بذور رغبتها فى أرض رضاه، وسعادته الواقفة إلى جوارها:

ـ أظن آن الآوان ياسعداوى. نجيب لنا ولد

ـ أى والله صحيح. احنا يلزمنا ولد، حتى كمان أول امبارح كان واحد صاحبنا معدى عليه فى الغيط، آل بدل مايقول السلام عليكم ياسعداوى، أو يقول ياأبو جبل زى ماكل الناى بتقول. آل يقول سلام عليكم ياأبو البنات.

ـ ولايهمك.. الدو، اللى جاى ولد

ـ صحيح يافوز

ـ صحيح ياسعداوى

ـ أيوه. كل مرة تقولى عايزة بنت، بتجيبى على طول بنت.

تلات بنات، النوبة دى لازم يكون ولد. ولد يافوز، ولما يكبر ح يبقى طولى كده ويمكن أطول حليوه زى أمه، وراجل مجدع زى أبوه آخذه معايا الغيط ويشيل عنى مانا ساعتها ح أبقى عجوز.

ـ غيط إيه ياأبو غيط، ابنى ح يروح المدرسة

ـ المدرسة!

ـ أيوه المدرسة

ـ ياه.. ده ح يكلفنا كتير يافوز

ـ مايكلفنا.. إنشالله تشحت وتعلمه: علشان يطلع زى المهندس ابن الشيخ فرج وزى الدكتور إبن العمدة، هو احنا أقل منهم. وإلا يعنى احنا أقل منهم.

ـ طيب اللى تشوفيه يافوز. كلامك والله زين.

ـ ولما يكبرح يكبرنا معاه. ويشرف إخواته علشان متعلم، ونبقى عيله كبيره يشيلونا ويرفعوا راسنا وسط الخلق، وفوق كده وكده، تصحى كل يوم من النوم، ييجو يبوسوا إيدك. ونبقى لمة، محدش ياكلنا، الخلفه بتمد العمر وتطول الأجل، وذكرى حلوه.

ـ النبى صحيح يافوز

ـ أيوه أمال

ـ على خيرة الله. عايزين النوبة دى ولد. ولد بس لازم تكون آخر نوبة.

ـ باذن الله آخر نوبة

وتلد الأم وتقوم بالسلامة والمولود، رابعة. بنت، طبعا فرحوا بها، وكان كل مايجب أن يكون. لكن مولدها يدل على أن النهاية لن تكون هذه المرة وهذه ليست آخر نوبة، لأنهم طامعون فى ولد. ولد يملأ المنزل بالصياح والحركة ويجمع حوله الأهل والمعارف، ويكون فى الدار رجلان لا رجل واحد وخمس بنات.

مرت شهور وجاءت فوز لسعداوى وهى تحمل المصحف فى يدها، وضعت وجهها عليه، وقالت: أقسم بالمصحف الشريف، أن هذه المرة سوف تكون آخر مرة سواء كان ولداً أم بنت، هى طامعة فى ولد وسعداوى طامع فى ولد: وحملت فوز وجاء ولد.

لكنها قعيدة الفراش، لاتنهض منه. جسمها غارق فى العرق، مبلل دائماً وهى مخنوقة لاتكتمل على لسانها بضع كلمات. تنظر فى الوجوه المحيطة بها دون أن تتكلم.. قبل ذلك كانت تلد من هنا، وبعد ساعات قليلة تهب لتعجن وتخبز وتقرص الجلة وتسقى العجلة الصغيرة، وتنظف الدار ركن ركن، وتعد الطبيخ وتحمى العيال وتستحم ثم تجلس لترتاح. فى هذه المرة لم تقم ولم تتحرك.

مرت ثلاثة أيام، أشارت أمها بضرورة استدعاء الحشاش، وكان يعمل مزينا ثم حلاقا للصحة، ثم ممرضا عند أحد أطباء البندر. بالنسبة للبلد هو مرجعها الوحيد فى كل مسائل الطب والعلاج، وكافة الأمراض من الكحة والزكام إلى السكر وضغط الدم.

جاء الحشاش وجس بيده جسم فوز فى كل موضع ثم قال:

ـ كان مفروض تدونى خبر قبل كده. لكن ملحوقة. قالت له أم فوز:

ـ نعمل لها ياخويا حبة بخور وتعدى عليهم سبع مرات. رد على الفور وعلى وجهه علامات الاشمئزاز: إيه الجهل ده. الطب اتقدم. ممكن نعمل لها كمادات شاى ساخن.

ثم فتح حقيبته وأخرج منها برشامتين، بلعتهما فوز، وأعطاها حقنه، وأخذ يعد بصوته الخشن أشياء كثيرة منها. شربة فراخ، وتفتحوا النوافذ و. و. ثم أعطاها حبة منومة ونامت.

لم يأت المساء عليها إلا وقد تألمت ألماً بالغاً؛ وعلا صراخها. فأحضروا لها الأسعاف وفى المستشفى تقدم منها الطبيب، لكن السر الإلهى كان أسرع. قال الأطباء أنها ماتت بحمى النفاس. وقال سعداوى وهو يمرغ رأسه بالتراب: لاحمى النفاس ولاغيره: حشاش هو السبب.

وحاولوا إقناعه بعد جهد بأن كل ماحدث. هو من أثار الحمل؛ إجهاد أو بكتريا من الجو. ميكروبات يعنى.. قال:

ـ تبقى العيال هى السبب. الله يخرب بيت العيال وسنين العيال واللى طلب العيال. أيه العمل دلوقت بعد ماراح كل شئ.

تنهد سعداوى وبحلق في الترعة وقال:

ـــ كنا سعدا والقاشية معدن؛ كفاية البنت الثانية اللى اسمها.. اللى اسمها.. مش عارف سنية ولاهنية.. كانت بتقول ح تعمل زى أخويا سليمان. وتودى الأولاد الحضانة فى البندر والاتوديهم مدارس الامريكان. وزعلت لما قلت لها. سليمان عنده ولد واحد ومال كثير يقدر يجيب له اللى هو عايزه؛ ويصرف عليه ويعلمه ويوديه مصر كمان.. لكن احنا يدوبك اللقمه على اد الحنك. كانت فوز بتحب جوزها وأولادها وأهلها وجيرانها. كانت أمالها كبيرة لكن.. استغفر الله العظيم.

وألقى فى الترعة حجرا كبيرا بغيظ أكبر. كان هذا أقصى مايفعله. ونهض عائدا إلى القرية ليواجه قدره وأولاده.

وعبرت رأسه فكرة أفزعته؛ من سيربى الأولاد؟. جدتهم!. عجوز؛ أخته! مشغولة.. يتجوز؛ يانهار أبيض؛ والجديدة. تريد أن تنجب طبعا. يانهار اسود.. تنهد واستسلم لقدميه. ربنا يحلها. الله يرحمك يافوز.

الله يرحمك يافوز..

أكتوبر ١٩٧١

الظمأ

تواردت على ذهني الخواطر والأفكار بينما كنت معلقا بقدم واحدة على سلم السيارة إلى أن وصلت إلى البيت. أسرع الخطا. كأني أحاول الاختباء.

وحيد أنا. لا أعرف إلا الوحشة والأطياف المبعثرة كقطعة ثوب هالكة.

دلفت إلى الشقة. استقبلني هواؤها المختنق. كنت قد أغلقت جميع النوافذ حسب رغبة زوجتي. أقصد من ستصبح بعد أيام زوجتي. وهي الآن لم تزل خطيبة.

بعد أيام ستدخل هذه الشقة عروس. يعني واحدة ست. مال وجمال وكمال وبنت حلال. ربنا يوفق وتشرف. ساعتها تكون الدنيا أحلى والأيام أجمل.

تكفيني نظرة عينيها. ترضيني لمسات يديها. تلهيني عن الكل. هي. متى تجيء؟ أصبر. أيام قليلة ويحضر الأثاث وبعدها تأتي العروس. وتخلع عني الثياب الجافة وهذه الحياة المالحة. وتلك الأيام التي لاطعم لها.

فتحت النوافذ. أحسست دبيبا في بطني. أنا جوعان. إلى المطبخ. لم أجد فيه شيئا كالعادة. سمعت صوت العصافير يتناهى إلي. يلعبون في عش بنوه على ضلفة الشباك المهجور. مصائب قوم عند قوم فوائد. على أنقاض المطبخ المهجور يبني العصافير عش أحلامهم. ليتهم يقيمون أعشاشا في كل مكان بالشقة.

كل مافى الشقة ينطق بالضياع، مطلى باللون الأبيض. لون الخلاء. لون العدم.. الصمت فيها ثقيل كأطنان الرصاص. النور فيها باهت كالحسناء فى الكفن.

أحسست بأعصابى تتهاوى، ودون أن أخلع ملابسى. سقطت على السرير. أغمضت عينى. تثاءبت فى كسل وشهوة. تخدر جسدى.

دخلت على زوجتى فى ثياب بمبية اللون هفهافة. تكشف عما تحتها. لكن أقل درجات الذوق تقتضى منى ألا أحدثكم بشئ. أو أصف بعضا مما رأت عينى مهما طالبتمونى بالصدق والصراحة. حتى تنجلى للاسترسال حلاوته، وللحكاية مذاقها الجذاب. لايمكننى الا القول بأن جسدها الرشيق، المنسق تنسيقا ربانيا، كان فتانا أكثر مما تتخيلون وأتخيل. أحس صوت حلاوته يرن فى أذنى. وجمر حرارته يلدغ وجهى. وبديع منظره يوقف نظراتى عنده وحده، حتى لاترى ولن ترى فى الوجود غيره.

فى خفة كأنها تطير ولاتسير. تقدمت منى وقالت وفى عينيها إبتسامة متهللة.

ـ حمدا لله على سلامتك.

ـ الله يسلمك.

ـ نائم بهدومك. ربما تعبت اليوم فى العمل.

ـ كالعادة.

ـ دقائق ويكون غذاؤك بين يديك.

وتمضى عنى منسابة فى خطوات نسيمية.. أتلفت حولى. أتحسس المكان بعينى وأنفى ولسانى. الفراش وثير. وأمامى مرآه كبيرة مذهبة وعليها تمثالان لكيوبيد إله الحب. مرآة رائعة. ثريات فاخرة تتدلى. تتبادل التأثير فى ألوان الزبت على الجدران، ومع الثريات فى المرآه. باقى الأثاث ادهشنى. قلت لنفسى.

ـ ماهذا العز وهذه الأبهة. صبرت ونلت. نقل الهواء إلى أنفى أنباء رائحة تقترب سحبت من الفضاء أنفاساً قصيرة متلاحقة، متحسسة، فاحصة، رائحة حبيبة تفوح فى المكان. تفرض نفسها على كل ماتراه عيناك وتسمعه أذناك أو تلمسه يداك.

أقبلت زوجتى تحمل صينيه عامرة بأطباق اللحم والأرز والخضار والمخللات التى أحبها، والفاكهة الطازجة النظيفة تزين الصينية. أهلا ومرحباً. قفز لسانى لهفة:

ـ هل أنا مدعو لوليمة؟

ـ كله من خيرك

ـ جاء الخير معك

أستأذنتها فى غسل يدى. خرجت إلى الردهة. مزدانة كأنها عروس. مناظرها الخلابة تفتح النفس. فى الوسط منضدة للطعام بيضاوية الشكل، رشيقة التكوين خميلة فى وسط بستان. درت حولها. تلمستها بأطراف أصابعى كأنها من الزجاج.

حملتنى ساقاى إلى الحمام. غارق فى الجمال والأناقة الساحرة. بلاط صينى. تزينه بعض النقوش الملونة. نمنمات ركنية صغيرة.

تخيلت نفسى فى حمام من الحمامات التى نراها فى الأفلام الأجنبية. الأمريكية التى تستعرض وفرة الامكانيات وقدرة الأموال. والفرنسية التى تستعرض الأناقة والجمال. شئ رائع. هذه هى الحياة. حبيبان متفاهمان فى شقة جميلة والرزق من عند الله. يتدفق بالجهد والإخلاص.

طلبت منى أن أتناول طعامى على السرير، بحجة أن لونى مخطوف. رفضت. قد تصبح عادة وأنا لاأتحمل هذا الاغراق فى العطاء.

حملت الطعام إلى السفرة. تناولته فى شهية. داعبتنى وداعبتها فى رقة لامتناهية هل رضى عنى أخيراً قدرى الحبيب؟ نظرت فى عينيها. غبت فيهما عن نفسى. تأملتها طويلا فى انسجام.

تمددت إلى جوارى على السرير. إفتر ثغرها الأحمر عن بسمة بهيجة. نزعت عنى ردائى، خلعت عن جسدها الصبى غلالتها الرقيقة. بيضاء مثل الصباح. دبت فى ارتعادة لذيذة حين لمست جسدى العريان بيدها. أطبقت على وجهى خيوط شعرها الكثيف طاخ. طاخ. دوى هائل يفزع الموتى فى القبور. هل اشتعلت الحرب من جديد؟ آه ياظهرى.

قمت فزعاً من هذا السرير اللعين. لقد وقعت مرة أخرى إحدى حوامله الخشبية (الملة).. سرير حقير بالفعل. تلفت حولى. حلقى جافٌ. الظمأ.

تعثرت فى سلك المصباح الكهربائى. تمتمت بهمهمات الضيق والسخط. وزعت نظراتى فى المكان. فى الفراغ. فى برودة الوحدة. فى سكون القبر. القلة فارغة جافة كحلقى. تملحت وأبيض فمها، كأنها وضعت فى الشمس أسبوعا.

أين زوجتى، منذ قليل كانت معى وكان لبلاب ذراعيها يربطنى بالجنة. باللأسف كان حلماً فى الظهيرة. لماذا أيقظتنى أيها السرير اللعين. أورثتنى حسرة فى النفس ومرارة.

هل ستأتى زوجتى ونبدأ معا. حياة جديدة. حياة بلا ظمأ؟

مايو ١٩٦٩

الــدار عــمــــــار

بينما كان الليل يتمدد فى القرية، وكل مافيها ومن فيها يغرق فى بحيرة الصمت والضباب الكثيف كالصوف المنفوش يحيط بالقرية تماما. شرنقة تحيط بدودة القز.

صاح الديك صبحته الفجرية التى لايعرفها إلا أهل القرية.

تسرب صوت الديك إلى سمع الجارية زوجة سلامة. بدأت حواسها تعى ماحولها شرعت تستل نفسها من غمد النوم العميق. أعمق من بئر الموت السحيق. لكن العينين مازالتا مغمضتين. الدخان الأسود معقود فى القاعة والدفء فيها خانق.

الجارية وسلامة والأولاد الأربعة ينامون بعرض الفرن الطين. حتى يتسع لهم فى إمكانهم أن يناموا كما قال لهم أبو سلامة.

ـ نوم الجديان. يعنى ثلاث رؤوس هنا وثلاث رؤوس هناك. يعنى نصفين رجول نصف عند رؤوس النصف الثانى.

البحراية. ساحة فارغة أمام الفرن. يغسلون فيها الوجوه والأقدام. وتدور فيها الحركة. أما النوم والطعام والسهر فى الشتاء بالذات. فوق الفرن الدافئ.

تشعل الجارية فى بطنه النار. عند مساء كل ليلة. ليشع دفئا يحلو معه الرقاد.

لكن عندما قال المؤذن «الله أكبر» تفتحت عينا الجارية كزهرة القطن. نهضت في نشاط كأنها لم تكن في غيبوبة النوم. أفاقت لأنها لاتستطيع أن تستمر في غفلتها بعد أن قال المؤذن «الله أكبر» لأنه مادام قد كبر فسوف يشرق الصباح بعد قليل.

ولا يشرق الصباح عند الفلاح إلا وقد قارب الانتهاء من عمله. أو من معظمه على الأقل. اللهم بعض الحالات التى تحتاج إلى عمل نهارى طويل كيوم الحصاد عموما لايجب أن يدهمهم الصباح، أو يفاجأهم وهم رقود.

أول مايخطر على بالها أو على بال غيرها. البقرة والحمار والعجل الصغير والخروف فتحت باب الزريبة (سكنهم) ببطء، كأنها تخشى عليهم الفزع. لكن الباب الضخم المعلق إلى الجدار هو الذى فزع وامتلأ قلبه رعباً، فأن أنينا مزعجاً أيقظ النائمين فى كل مكان.

تحسستهم بحنان. إنهم أولادها وبعض أهلها. نظروا إليها بامتنان وترحيب وهزوا رؤوسهم كأنهم يقولون لها: نحن أيقاظ.

زفر الحمار ورنا إليها بعين كسيرة كالمظلوم فى قاعة المحكمة. كم هى مؤثرة نظرات الحمار. وكم هو رقيق: هذا المسكين أقل شئ يرضيه. حفنة تبن من يدى الجارية أو غيرها تضعها له فى فمه تؤثر فيه كثيراً. ويتمنى ساعتها أن يقبل تراب رجليها.

عليها أولا أن تنظف أرض الزريبة تحت البقرة. ترفع روثها. تخلطه مع بعض القش وعيدان الذرة الجافة. تصنع منها أقراصاً كبيرة فى حجم الفطائر. خير ربنا كثير حتى فى الروث. بلغت الأقراص سبعا فى ليلة واحدة. حملتها إلى السطح لتجف. بهذه الكمية الجديدة تكون قد جمعت كل الوقود المطلوب للخبير. هذا الأسبوع. ومايتبقى من هذه الأقراص ستحمله على رأسها لتبيعه فى المدينة.

أفضل ماتشعل به الفرن أو الكانون هو هذا الروث الجاف... فليس له أى مخلفات فى القاع.. يحترق كله.. يصبح كله قطعة من جمر أحمر.. ولايصدر عنه دخان أسود يهبب الخبز أو الوجوه، ولايشوه وجه صينية الرز المعمر.

هذا الروث لايعطينا غير نار زاهية لامعة متعددة الألوان.. وتنبهت الجارية من فرحتها بالروث على دمدمة الرياح تعصف فى الخارج.. ولصوتها خفق وأنين.. تمنحها أذنك مرة

فتحسبها عواء ذئب، وتظنها فى وقت آخر أجنحة طير عملاق ترف في الفضاء.. لكنك توقن فى مرات أخريات أنها لا هذا.. ولا ذاك، وإنما هى خفق قلاع مركب تفتح صدرها للريح.. تمتلأ به لتمخر عباب المياه بحملها الثقيل.. لكن النهر الكبير عن القرية بعيد.. إذن فهي الرياح تعبث بالأشجار، وتدق الأبواب وتهز الجدران.

يووه.. أخذها الفكر ونأى بها حتى نسيت سلامة.. يجب أن توقظه ليبكر برى الأرض الشرقية كلها قبل صعود الشمس.. حتى لاتسيطر الشمس على الدنيا وتحرقه والمنطقة خاوية من الصفصاف والكافور.

ابنها الكبير متولى ذو الاثنى عشر عاما.. عليه أن ينهض الآن هو الآخر.. كى يرفع تراب الحظيرة إلى الحقل على الحمار.. يتجمع هناك ويجف على جسر الترعة أسبوعان ويتحول بعدهما إلى أجود سماد للأرض.. ويحضر متولى بدلا منه تراب ردم نظيف وجاف.. تفرشه تحت البهائم.. يجب أن ننظف لهم كل يوم.. نعم كل يوم.. البهائم قيمتها أغلى من قيمة البنى آدم.. بدونها لاتعتبر الدار داراً.. هى العمار.. روحنا فى البهيمة وحياتنا فى البهيمة.

اندفعت إلى قاعة الفرن مرة أخرى لتوقظ النائمين.. الحجرة سوداء لايبصر الدالف فيها أى شئ.. كتلة مربعة من الفحم.. ليس لها فتحة غير الباب وثغرة صغيرة قرب السقف تسدها خرقة عند النوم.. يرفعونها فى الصباح.. لتحمل إليهم النور والهواء.

رفعت الجارية هذه الخرقة وهى تنادى ابنها. فهبت نسمات الفجر وأصوات العصافير ولم تتسرب قطرة واحدة من ضوء الصباح. مازال الليل يحاصر المكان.

ـ قوم يامتولى. قوم ياحبيبى. قوم شيل الزريبة يابنى.

ـ حاضر يامه.

ونهض فى عجلة إلى الفأس والمقطف، وهو مازال يهرش فى عينيه ليرغمها على اليقظة. ذهب يجرد الحظيرة ويحملها إلى الحقل من غير أدنى كلمة. فهو يعرف كل شئ:

ـ قوم ياسلامة. قوما ياخويا. الفجر أذن.. انتفض كمن عضه عقرب:

ـ ياخبر أبيض. مش تنبهينى من ساعتها.

ـ ملحوقة.

ـ فرض ربنا ياجارية. ملحوقة إيه وبتاع إيه.

وانطلق سلامة إلى الوضوء والصلاة والدعاء. ثم تذكر شيئا فأسرع ينادى زوجته:

ـ ياللا ياجارية. علشان تلحقي تروحي وترجعي بدري.

ـ حاضر ياسلامة.

ـ أنت فين.

ـ أنا بأحلب البقرة.

ـ إيه عندك للسوق.

ـ حمامتين وشوية جبن وبيض ورطلين زبدة.

ـ ماتخديش اللبن.

ـ لا.. بدل مانبيعه لبن.. ح نعمله جبنه وزبده. ينفعوا.

وإلى أن تنتهى زوجته من شد ضروع البقرة. تسحب خيوط الحليب فى وعاء الفخار.. نهض سلامة فى همة يجمع بعض عيدان حطب القطن، وفروع صغيرة من شجيرات التين.. وضعها فى الموقد.. أشعل فيها الكبريت.. تعالت النيران وعم المكان البارد دفء لذيذ.. وطقطقت عيدان القطن وتأوهت من لسع اللهب.

كوز ماء أسود له يد سلك مبروم، وضعه على النار.. شاى وسكر.. طعمها جميل لقمة على النار والدقة مع الشاى على الحطب.. الخبز يقلبه سلامة على النار ويدس اللقمة فى الشطة ويأكل.. ويمصمص شفتيه ويحمد الله على نعمته الجزيلة.

لفت جارية الخرق حول جسدها، ثم غطت هذا كله بجلبابها الأسمر الوحيد.. البرد شديد.. قبل أن تهم بالخروج.. مرت على ابنتها المريضة.. وضعت يدها على جبهتها البنت ساخنة نار.. اشفها يارب.

حملت المقطف على رأسها وفيه الحمامتين والزبدة والجبنه والبيض.. عليها أن تصل إلى سوق المركز قبل السادسة صباحا.. السكة طويلة حوالى خمسة كيلو مترات.

فتحت الباب الكبير.. هاجمها الهواء البارد.. الظلام يحتل الطرقات.. تؤازره طبقات الضباب الكثيفة فى وأد قطرات النور الصغيرة.

الهواء البارد.. قارس.. أدمع عينيها.. قرص أذنيها.. لسع أنفها.. أحمر خداها سارت بحذاء النهر الصغير فى الطريق المؤدى إلى المدينة.. هذا النهر يمكنه أن يأخذ بيدها طوالى إلى المدينة.. نظرت إليه.. المياه رغم بريقها تبدو سوداء.

النهر الذى تراه هادئاً وديعاً كأنه طفل يتيم.. تلقاه فى حين آخر ثورا هائجا يمور ويخور.. ضحكاته عالية.. تهز القرية فى عنف.. ينتزعها من النعاس الطويل.. وكثيراً مايقضى رجال القرية ليلتهم يجرون فى مياهه.. يغترفون منه للأرض العطشى.

القمر مازال هلالا يحبو.. صغيرا كشقة بطيخ مأكولة.. ترنو الجارية إليه يرنو إليها.. يسير خلفها.. تسألها فتجيبه.. وكم حكى القرويون للقمر الحكايات وكم شكى له الأباء أبنائهم وكم شكى له أهل الهوى.. الجميع همسوا له.. وهو ينصت لهم كأنه خلق خصيصا لكل منهم أنيسا ورفيقا.

أيها القمر سأبيع الحمامتين والزبده وأشترى جلبابا، ليس عندى جلباب. مرت حتى الأن سنتان دون أن أشترى لنفسى جلبابا. ملابسى كما ترى ممزقة مرقعة سأرتديه خارج الدار، وأنا ذاهبة إلى الحقل أحمل الطعام إلى سلامة والأولاد.. سأرتديه وأنا ذاهبة إلى النهر أملأ البلاص. أنا باسم الله شاطرة لاتبتل ملابسى بمياه البلاص. رأسى متزنة ورقبتى قوية. فلكم حملت.

سأرتديه ياقمر وأنا ذاهبة لزيارة أختى فى العزبة. وسأرتديه فى البيت عند العصر عندما تفرغ يداى من كل شئ. وأغسل رأسى بالماء الساخن وأسلك شعرى جيداً بالمشط الخشبى وقليل من الجاز. سيلمع شعرى الطويل ياقمر. أشد عليه التربيعة ساعتها يقول سلامة:

ـ والله صبية بحق وحقيق يابنت زيدان.

من يومين قال لها:

ـ أنت ياجارية عريانة. نهار السوق هاتى لك جلابية.

سلامة موافق ياقمر. لا ياخبر أبيض ياولاد أفتكر نفسى وأنسى سلامة.

مستحيل. سلامة أحق مني. لا بد له من جلباب. كيف يذهب إلى الصلاة أو يقعد في وسط الناس. العمدة وشيخ البلد وأعيان البلد ورجال البلد.. ليس أقل منهم.

ـ اخص عليك ياجارية.. راجلك يمشى كتفه ورجليه عريانة.. يلف رأسه فى البرد بقميص قديم.. اشترى له جلابية وكوفية.. آه.. وشه ح ينور فى الجلابية الجديدة وح يفرح.. مبروك عليك ياسلامة.. يازين الرجال.

وصلت المدينة.. أخذت لها ركنا بين البائعات.

لم تبلغ الساعة التاسعة صباحا حتى كانت قد باعت كل ما معها.. لملمت بحرص منديلها وفيه النقود، دسته في صدرها، ستشترى جلباباً لها.. لا.. لزوجها سلامة.. فرحت حين فكرت في سلامة.. انتفخ صدرها بالفخر لأنها فضلت زوجها على نفسها. تنفست بسهولة.

توجهت إلى محلات القماش.. هذا.. لا.. ذاك الكبير.. فيه تشكيلة حلوة سأشتريه جلبابا من الكستور المخطط.. يدفئه ويستر عظامه التى ينهش فيها البرد.. هذا البرد القاتل.. عاله يعتال الخلق هذه الأيام. يهدم البيوت.. يأكل الزرع.. مهما اشعلنا النار ترتعد الأبدان.. آه.. ابنتى كم تألمت ليلة البارحة ولم يقر لها قرار الا قبل الفجر بقليل.. ليتنى حملتها معى إلى الطبيب اليوم.. ولكن كيف أحملها وأحمل المقطف، إنها كبيرة.. تسع سنوات.. والمشوار طويل. إذن ستبقى النقود معى للطبيب، غدا يحملها أبوها على الحمار إلى البندر.

ـ ياحبيبتى يابنتى.. المرض زاد عليها.. بكرة الحكيم يشوفها.. اشفها يارب.. ماتزعلش ياسلامة ماهى بنتك برضه.. حملت القفة على رأسها وتوكلت على الذى لايغفل ولاينام.. يممت وجهها شطر البلدة عائدة.. زوجها اليوم عنده رى..

ربنا يقويه على الطنبور.. ليس لديهم ساقية.. أصلهم على قد حالهم.. فدان واحد وبالايجار.

ـ الحمد لله على قد كده.. مضطر يشتغل بالبدالة.. لو كان عندنا ساقية كانت البقرة هى اللى تدور فيها.. بقرتنا.. ياسلام عليها.. كفاية علينا لبنها القشطة.. حتى فضلتها..

وخلفت لنا عجل صغير.. بكرة يكبر.. كلها ست أشهر يبقى زيها.. الدار بيهم عمار.. بس البرسيم لوحده مش كفاية.. عايزين غذا والخروف معاهم يبقى لابد أشترى لهم ربع قنطار كسب، يساعد شوية مع الذرة والبرسيم.. البرسيم لوحده يخليها تسهل.. البهيمة روحنا والدار من غيرها خراب.. يعنى نشترى الكسب بالفلوس.. والبنت.. البنت نوديها للشيخ فرج يرقيها.. ويوصف لها وصفه ماتنزلش الأرض.. حكيم ايه وبتاع ايه.. ماسبق وكتب لها دوا مانفعش.

فرحت بينها وبين نفسها لأنها تذكرت البقرة.

ـ ياخبر أبيض كنت ح انسى.. والغريبه أن سلامة اللى لايغفل هو كمان.. نسى.. مشاغله كثير.. كتر خيره.

انعطفت في طريقها على تاجر الحبوب.. إشترت منه ربع قنطار كسب.

عبرت الكوبرى قبل البلد.. والكوبرى هذا نخلة منزوعة.. صنع منها الفلاحون جسرًا. سقطت على سلامة مباشرة.. وجدته يجرى فى الحقل مشمرا عن ساقية. يفتح الطريق للمياه.. قالت له صار وصار وصار.

قال لها: عملتى خير ياجارية.

تركها ليلحق المياه قبل أن تتسرب إلى حقل جارهم، ألقت ماتحمله وشدت جلبابها على وسطها ومضت فى أثره تعاونه وتغنى أغنية قروية مشهورة:

ـ يا أم الولاد يا شارية الغالى.. تعمرى لهم فى الهنا طوالى.

يناير ١٩٧٠

اشتياق

عندما تنادى حفيدها الصغير:

ـ ياشمير.. ياولد ياشمير.

يغرق أخوته فى بحر هادر من الضحك.. يتبعثرون فى كل اتجاه، أجمل مافى الدنيا أن يسمعوا جدتهم تنادى أخاهم الصغير. بفمها القطنى الفارغ. ككيس نقود قديم شدوا خيطه.

العجوز وحدها فى الدار.. تبتسم فى أسى.. تتكئ على سنيها السبعين.. تتأمل خيمة الصمت تنسدل على الجدران.. تشمل الكون كله.

الكآبة وغياب الأنفاس تنسج خيوط البرد.. تنهال أكوام الثلج على كل ركن فى جو الوحدة والشيخوخة تنبت أعشاب الغربة والوحشة.. لايرغب فيك أحد.. تلقى على قارعة طريق.. من يسأل عنك.. هذا زمن الفرد المتعجل يستهدف نفسه.

لم يبق من أهلها غير إبنتها وزوج ابنتها القاضى وأولادهما.. يسكنون الدور الثامن بعمارة فى نهاية نفس الشارع العملاق.. بينهما نصف ميل.

وحدها تعيش.. بلا أنيس إلا قطة ضامرة مثلها تماماً.. الوحدة والشيخوخة شيباً صباها.

منذ الصباح وقلبها يأكلها عليهم لهفا..لكنها.

لكنها.. لن تترك بيتها الذى ضم زوجها حلماً جميلاً ملوناً، مازال يشع حتى الآن دفئا تؤججه الذكريات.. أنفاسه فيه.. شريك الأيام الصعبة.. لاتنسينا الأيام رفيق الغربة.. زميل الدرب المجهول.

زوج ابنتها قاض مجرب.. يقول.. صدقت كلماته:

ـ حتى لو ضحكت فى الوجه الأيام.. وتبسم للإنسان وجه الزمن العابس. وتغطينا بالمال وبالجاه.. لايمكن أن ننسى زميلا فى ثلاثة.. الجيش والسجن والغربة. والغربة ماأقساها لو كانت داخل وطنك.

أحفادى.. أنفاس جدكم فى بيتى.. لاأتركه.

صورته مرسومة على كل جدار.. هذه نظراته ترقبنى.. ترشدنى.. تسألنى.. يده تسندنى حين أهم بنقل الخطوات.. أسمع صوته وأرد عليه.. هل يملك لسانى ألا يرد عليه ومن قبله قلبى.. لم يغيبه التراب، فالتراب لايخفى الأحباب.. لم يخفه القبر.. ولم تبعده السنون الخمس.

ألح عليها زوج ابنتها القاضى كى تسكن معهم:

ـ رائحة المرحوم.

ـ وكيف نطمئن عليك؟

ـ تعالوا.

ـ القضايا بالليل والنهار.

ـ أدرسها عندى.

ـ مرتبط بالمراجع والكتب.. وكلها فى منزلى.

ـ دع ابنتى تزورنى والأولاد.

ـ مرتبطة بى.

ـ تمنع ابنتى عنى إذن.. تحرمنى منها

ـ لا أقصد.. لكنها لازمة لتحضير ملفاتى ومذكراتى وترتيب المكتب ومطالب

الأولاد.

ـ ماذا تعني؟

ـ أرى أنك تقبلين ياأمي لنفسك الارتباط بزوجك الميت. ولا تقبلين لابنتك الارتباط بزوجها الحي.. والحي كما تعلمين.

ـ أبقى من الميت.. أليس كذلك؟

على نفسها تحاملت العجوز ونهضت.. الح زوج ابنتها عليها بالبقاء.. قدم الأسف وأبدى الاعتذار واللاقصد.. تركتها ابنتها تخرج. تعرف أن إصرار أمها أقوى من الحديد. وعنادها بلا حدود.. وإذا مسها تيار الغضب. فلن تفلت من قبضته.

بعد يومين زارها القاضي والأولاد.. ومعهم كل مايلزم لاقامة يوم جمعة كامل في شمس دارها. التي لاتعرف دارهم.

مر أسبوع.. أسبوعان ولاخبر.. لعل المانع خيراً.. اليوم هو الجمعة منذ الصباح وقلبها يأكلها عليهم.. لو كان في نيتهم الحضور.. لحضروا منذ الصباح.. الوقت الآن بعد العصر.

لاتستطيع الجدة العجوز مقاومة الرغبة الجياشة في رؤيتهم.. لحظتها تحس بالانتعاش تحس بدم الصبا يجرى في عروقها المتهرئة..

هل تذهب لتأخذ أخفادها في أحضانها؟.. لا.. هل تترك المرحوم؟.. لا.. ما العمل؟.. يالها من حيرة؟.. الأفضل أن تذهب.. الألم ينخر في ركبتيها كالنمل.. يمتص رحيق العافية. أين العافية؟.. يالله حسن الختام.

تنهدت.. نهضت.. يداها فوق ركبتيها.. هربت الحياة من عظامها.. كل شئ غارق في بهمة السكون إلا زحف المداس.

مرت على حاجياتها في البيت.. طبق مكشوف تغطيه.. بالذات الملح لأنه يحوى الأبراص، لكن اللبن ستتركه مكشوفا. لتلعقه القطة.. ستبيت غالبا عند ابنتها.. قلبها يأكلها عليهم منذ الصباح.. تلفتت إلى الجدران الذاهلة في غباء. عن إذنكم ياأهل البيت سأعود في الصباح.

أقفلت الشقة في أناة.. إستدار جسدها المقوس في حركة آلية واهنة.. نزلت السلم

واحدة واحدة.. طفل صغير.. يعود الإنسان كما كان..

تاتا.. يدها على السور، درجة وتقف.. درجة أخرى وتقف.. هبطت الأدوار الثلاثة حتى الباب الخارجى.. الباب يبدو من الداخل ثغرة كبيرة فى كهف يفضى إلى نور الشارع.. تقطعت أنفاسها.

الشارع عملاق مهيب. الحركة فيه كيوم النشور.. سيارات تتسابق كأنها تهرب من النار.. الناس يتدافعون بلا وعى.. ينطلقون كالآلات بلا بصيرة.. عربة بلا قائد أبواق تتعالى تصم الآذان.. التراب والدخان.. الشخص يقابل أخاه لايعرفه.. عيناه فى عينيه.. ولايعرفه.

خطواتها وجلة. وقبل أن تنقلها. تنظر إلى اليمين ثم تنظر إلى اليسار.. الشارع فى المدينة الكبيرة غول يأكل الأطفال والعجائز..

ترتعد عند كل بوق. رمح يشق الجسد الهش. يهتز هزة الموت. تستعيذ بالله.. وصلت عند كشك فى منتصف الطريق تقريبا.. استدارت تنظر إلى بيتها.. كأنها متفارقه.. كأنهم سيخطفونه إذا واصلت طريقها.. بدا زوجها يلوح لها.. حسبت المسافة الباقية على العمارة الحمراء العالية.. هانت.

هذا الشارع كان أيام شبابى خاليا من المارة أو يكاد.. والحركة فيه ضئيلة.. سيارتان أو ثلاث.. تسير فيه معصوب العينين.. فلا تخاف، تمشى ذاهلا عن أحوالك ولايهملك.. تحمل أكياسا وصناديق تحجب عنك الرؤية.. لابأس. تمشى وأمامك أولادك يجرون كقطيع الغنم.. لاخوف عليهم.. أما الآن فأنت لا تأمن على نفسك وأنت فى قمة شبابك وفى منتهى القوة والنشاط.

بلغت العجوز باب العمارة.. أبلغها البواب أن الكهرباء مقطوعة. يانهار أبيض وكيف ستصعد إلى الثامن؟.. جلست على مضض تنتظر.. كلها آذان صاغية لعودة الكهرباء.. والأولاد يقفزون فى قلبها.. ستصعد السلم ولاتنتظر.. ياأم العواجز درجة سلم وتقف.. درجة وتقف.. درجة أخرى وتقف.. يدها على الجدار.. شهيق الأنفاس وزفيرها أخذ يعلو بصدرها ويهبط فى عجلة كذراع قطار قديم..

العرق ينبت على جبهتها وتحت أنفها كحبات من السكر.. الله يسامحك ياهيئة

الكهرباء الله يسامحكم يا أولادى.. تضطروننى للمجئ وصعود هذه السلالم.. فى كل دور ترتاح.. ترفع الأنفاس المقطوعة.

بلغت شقتهم.. ضربت الجرس وجلست منهارة على الأرض تنتظر. لم يفتحوا دقته بالمداس.. لامجيب.. ياخبر أبيض.. دقته.. دقته.. الشقة مهجورة.. سترجع هذا كله.. انتظرت وانتظرت ثم هبطت الدرجات من جديد.

سألت البواب. فأكد لها أنهم فوق.. إنهم فى الشقة المقابلة يحتفلون بعيد ميلاد ابن جارهم الطبيب.

أغرورقت عيناها بالدمع.. عيد ميلاد الصغير.. وأنا أعانى من الوحشة تمسك الوحدة بخناقى ليل نهار.

استدارت لتغادر المنزل.. قفزت فى صدر البواب مشاعر الإنسان.. رجاها أن تبقى حتى يدعوهم اليها.. جلست على أريكته تلتقط الباقى من أنفاسها.. صعد البواب الطيب ثمانية أدوار.. أبلغ القاضى بحضور أم زوجته.

هبطوا جميعا إليها فى عجلة ولهفة.. وجدوها تتجه خارج العمارة.

ـ أمنا.. أمنا.. حمد الله على سلامتك.

نظرت إليهم بعيون عاتبة.. قالت.

ـ الحى أبقى من الميت.. أليس كذلك؟

تهدل جسدها وانهار.. حملوها إلى شقتهم.. ودموعهم تتساقط على وجهها فتطفى نارها.

مارس ١٩٧١

لهلوبة

عند خروجى دس مجدوع الأنف قطعة فى جيبى

لكزنى بكلمات حجرية: إذا قابلوك فابتعلها ومت، وحذار أن تذكر شيئاً نزعت نفسى من نصائحهم وجوهم الخانق، ألقيت بجسدى فى الشارع كالهابط من الطائرة فى الفضاء بلا مظلة. تلقانى البرد بصفعاته. لسعت أنفى سياطه. تذكرت النار ما أحلاها الآن.

النار تتألق وأمامها أبى يجلس فى بيتنا، مادا يديه، ونحن حوله كزغب القطا صغار نستمرئ الدف والحنان، ونتذوق رائحة الرجولة. كانت الأيام جميلة. لكنها مضت متعجلة، فغاب أبى وانطفأت النار، وهاهو البرد يطيح بالمارة، وأنا نافر العظم، ضئيل الجسم، لاأحتمل.

سلمونى حقيبة ثقيلة:

ـ هذه فرصتك الأخيرة، بضاعتنا حساسة وأنت لاتأتينا إلا عند الحاجة وهذا خطر علينا.. لكننا تقديرا لماضيك نعطيك هذه المرة آخر فرصة.

إنها آخر فرصة فعلا كى أهجرهم وأتزوج نعمات.. الطيبة نعمات.. الحياة والاستقرار نعمات.. سأهجرهم لأنى لايمكن أن ألتقط رزقى من نقل الحقائب اللعينة.

الشوارع الخالية ترقبنى، تفتح لى صدرها لتبتلعنى. الحزن فى عينيها يبرق فى الليل فيملأنى وحشة.. حاولت أن أدس يدى فى جيبى لكن يدى اليمنى تنوء بحملها الثقيل البرد يهزنى وينهش يدى التى تحمل الحقيبة. يود لو يخطفها.

ـ عليك أن تسلم الحقيبة إلى وكيلتنا فى المكان المعهود. إسمها لهلوبة.

أنا لم أدخل السجن حتى الآن، لذلك يرحبون بى كلما ضاقت بى الدنيا، واضطررت للذهاب إليهم مستسلما لأن البطن أحيانا أقوى من الإرادة.

لا أعرف بالضبط شكل التخشيبة ولا البلاط البارد.. هل البلاط مثل كل بلاط والجدران الخانقة مثل كل الجدران؟.. لاأعرف بالضبط هل السجانين ذوى الشوارب بشر مثلنا أم لهم صفات أخرى يتفوقون بها على البشر.. وماهى قصة الأقدام الثقيلة التى تقتحم البطون فيصمت الكل بعدها؟

لا أعلم شيئا عن هذا كله، لكنى أشعر بحاسة خفية أننى أصبحت أقرب إليهم من الخطوة القادمة.

الشوارع تبحلق فى وجهى، والعمارات الشاهقة البلهاء ترنو إلى. لاشك أنها تضم فى أحد أدوارها من يرقبنى.

من لى بسيارة تنتشلنى من حالتى المهينة. وحدى ضمنى المساء. بدأ المطر يتساقط فوق رأسى نقاطا باردة تثقب رأسى كالمسامير. زاد الدق. زاد الدق. إتسعت الرقعة غدا المطر شلالا. لاأستطيع الركون إلى أى جدار. الوقت ضيق. الحصار حولى شديد.. هم والوقت والحقيبة والمطر والجوع والبرد والليل و..

سر. تماسك. لحظات وينتهى الهم الأسود. لحظات وتصبح حراً، لاتتبع أحداً لايملك رأسك غيرك.. بعد لحظات يمكنك أن تنظر فى أى إتجاه.

كانت نعمات تعمل معهم، لكن معدنها يختلف تماما عن معدنهم.. هجرتهم إلى الأبد واستطاعت أن تهجرهم إلى الأبد. طالما قالت:

ـ دعك منهم. إننى أعرفهم فلا أمان لهم. سيأكلونك لحما ويلقوا بك عظما

ـ أنا عظم فقط.

نعمات صديقة الأيام التعسة، قلبها العصفورى ووجهها النورانى أراهما على كل لوحة وفى كل ميدان وكل حديقة وعلى كل رصيف.. يخطران لى فى النوم واليقظة.

تخليت عن كل الناس إلاك يانعمات، سأهجر مصدرا رهيبا من مصادر الرزق من أجلك. مضطر أنا إذ لجأت إلى أحباب الشيطان. لكنها آخر مرة.

سنلتقي.. حتما سنلتقي. سأبحث عنك في السماء وتحت الأرض، وأشترى لك حذاء طالما تمنيته، ثم ندخل السينما ونتعشى وبعدها نلقى بمصيرينا فى كف الرحمن.

لطالما كان الدفء في صدرك شاطئ، وكانت السباحة في عينيك لذتي. ولمس يديك الوديعتين كقطتين كان راحتى، وفراشا وثيرا أسترخى عليه من همومى الثقيلة.

لم يخلق من يفهمني إلاك. فكل الناس تجهل حساسيتى وانشغالى بأمور وأوهام قد تبدو للبعض تافهة. لكنى أجد فيها سلواى.

إننى أؤكد لك يانعمات برغم البرد. والفاقة وسيطرة الرجال المشوهين؛ أن الحب هو طريقى الوحيد وسندى بعدما فقدت أمي وأبي وتزوجت أختى وسافر أخي.. وغدوت أنا الوحيد.

البرد شديد. يحشونى إحساسا غليظا بالوحشة. يدفعنى إلى البكاء. فجأة وجدت نفسى فى بحيرة. تعثرت قدمى وسقطت الحقيبة. فسقطت فوقها. هكذا أمرونى.

غرقت فى مياه سوداء. بلغت قطرات منها فمى وأنفى. تف. إخص. عفنة. لعل المجارى تقيأتها. بصقتها بشدة. أحسست أنها تسربت إلى أمعائى ودمائى. أطلت من عيونى وبللت قلبى. مضيت.

الظلام من حولى يتابعنى كأنه يعمل مع الرجال المشوهين. شرعت العروق فى ساقى تصرخ من ثقل الحمل وطول المسير. تبادلت يداى حمل الحقيبة.

كانت نعمات تفتح لى نفساً أقفل اليأس أبوابها، فكنت أفرح بالدنيا وتلذ لى التضحية. لكن الجفوة ملأت كل الأركان. وتكدست الفرقة فى الطرقات وتعفنت النفس التى تعودت الخضرة.

قلبى يحدثنى أنى سألقاها بعد أن أنفض عن كاهلى حقيبة المصائب.

تصورى يانعمات.. الناس تستنكر أن يكون لدى من هم مثلى إحساس.. يعاملنى الناس على أنى آلة أو جدار، كرسى أو حذاء. هل حقا يانعمات ترين أنى أفتقد الإحساس. ولماذا يعتقدون بأن الإحساس والشعور إنتهيا من العالم لمجرد أن الإقبال على القرش زاد.

أنا حقاً مجنون أو معتوه أو منهار، لكنى أقول لا.. مهما استولى القرش على الدنيا وعبد المال كل الناس، سيظل هناك الإحساس يزهر في كل صدر، يتسلق كل الأغصان ويدق الأبواب، يعلن في سخط الأسير أنه موجود وله الخلود كالنباتات فى الأرض.

هاهو الشارع، وهذه هى حارة الأرامل. وثالث البيوت يمينا. السلم يسقط فى العتمة.. كتب على خطواتى هبوط تلو هبوط.

مضيت أهبط وأتحسس الجدران اللزجة بفعل الرطوبة فى الطلاء الجيرى.

قالوا إن لهلو بتهم تسكن السطوح. ولكنى أهبط.

إنتهت درجات الهبوط، فتوقفت أبحلق فى الظلام. لكم حذرتنى نعمات من براميل الليل وقمما مات الرجال المشوهين.

إرتطمت بباب مغلق وسمعت صوتا ينادينى:

- من هنا.

أمسك بالحقيبة فخطفتها، تشبثت بها. قال بصوت يأتى من قفاه:

- هؤلاء هم الرجال.

لم أعره إلتفاتا ولم أكلف خاطرى سؤاله.. أين لهلوبه؟

تقدم فتبعته على ضوء سيجارة. نقطة حمراء فى الظلام. تراها العين ولاترى لها نورا. ولاترى الأصابع التى تحملها.. صعدنا الدرجات وبلغنا السطح. لاحت لنا السماء معتمة ولكنها حانية الملامح. تمكنك من الرؤية دون أن تدرى كيف.

دق حامل النقطة الحمراء وهو يشبه الكركدن حجرة جانبية، فتناهى إلينا صوت نسائى خشن محشو بدخان الجوزة: هل حضر؟

رد الكركدن: نعم

قال الصوت اللانسائى: أدخله

دلفت إلى الحجرة. تطلعت إليها. كأنها شهدت معركة حامية منذ دقائق.. لم أهتم إستدارت سيدة الحجرة نحونا. روعنى مارأيت.. فشهقت:

ـ من. نعمات!

ـ شوقى!

تجمدت للحظة، ثم ألقيت بالحقيبة وأسرعت بمبارحة الوكر اللعين، وأنا لاأملك القدرة على تقليب الأمور، ولا على متابعة خطواتى التى تهبط فى طيش درجات الظلام.

فى نهاية السلم إصطدمت بجدار عجبت له. تحسسته فإذا هو جدار بشرى، رجال صامتون. أسقط فى يدى حين أدركت أن رؤوسهم تعلوها القبعات.. نفذفى جسدى صوت آمر: أين الحقيبة.. قلت: لقد كنت أتوقع لقاءكم.

قال الضابط: نحن سعداء بأننا جئنا حسب توقعك. هيا إلى لهلوبة.

لم أفكر فى مقاومتهم. أغمضت عينى حتى لاأفكر فى شئ. على أن أرتاح فلطالما فكرت. الحياة معهم أفضل. لن أجوع ولن أظمأ. لن يسقط على المطر ولن تقهرنى امرأة؛ وتذلنى فى أعز مالدى. مشاعرى. حبى. سأسلمهم عقلى وقلبى فهما مشكلتى. سرى الخدر فى جسدى، وأحسست كأنى متجه لغرفة العمليات.

فى قسم البوليس جلست لهلوبة إلى جوارى؛ والمشوهون أمامى. بدا عليها هدوء غريب كأنها ستصرف مكافأة.

قالت: لقد التقينا أخيراً.

قلت: فى القسم.

قالت: سنقضى باقى عمرنا معاً .

قلت: حينما تكون هناك سجون مشتركة.

قالت: مكتوب علينا.

لكن الضابط أطبق دفتى الملف بشدة وقال: إنتهى التحقيق. خذوهم .

وأخذونا.

زاد الخدر فى جسدى. أحسست إحساساً ضبابياً بأن جسدى ثقيل.. تتناهى إلى أصوات الملتصقين بى كأنهم يتحدثون فى حجرة مجاورة. وأنا هنا أجلس على الأرض، وفى حجرى يترنح العصفور المذبوح لآخر مرة فى حياته.

إرتطمت نظراتى بنظرات مجدوع الأنف. نظراته وخذتنى كالشوك. تذكرت تحذيره لى. مددت يدى إلى جيبى وأخرجت القطعة التى سلمنى إياها. هى الآن لازمة لقد قلت لهم ببساطة كل شئ وإنتهى الأمر، هى الآن حلال على.

خطر لى هاجس..

هل ألتهمها حتى أسبح فى ملكوت أخر. ملكوت غير هذا تماماً. إبتعلتها وسبحت فعلا فى عالم أخر. مختلف عن هذا العالم تماما. تماما.

يوليو ١٩٧١

علمتنى الحب

مضت أصابع الخادمة تتخلل شعرى الكثيف، وتتلمس وجهى، بينما كنت مشغولا فى تقبيل ثديها الشامخ، المعتد بنفسه حتى قالت بصوت كأنه تنهيدة:

ـ مارأيك؟

ـ فيما؟

ـ فى الثدى.

ـ حبة مانجو.

ـ وماذا أيضاً؟

ـ قشدة.. عسل.

ـ وماذا أيضاً؟

فتح الباب فجأة وأطلت أمى.. دست نظراتها فينا.. لاتصدق.. رمشت أهدابها.. لاتصدق ماترى.. ولكنها الحقيقة ياأمى.. أسرعت بالتراجع ومضت الخادمة فى هدوء وثبات يدعوان للدهشة تغطى ماتستطيع، دون أن تبرح مكانها.

ألجم الحياء لسان أمى، منعها من الكلام لفترة قصيرة.. بلعت ريقها الذى لا تجده وتحشرج صوتها وهى تقول فى حدة لم تتمرس عليها:

ـ أجننت ياسعدية؟.. ردى..

ـ هو ياسيدتى

لم تنظر أمى إلى واسترسلت تعيب على سعدية ردها:

ـ هو ياسيدتى.. أهذه هى ثقتنا فيك؟

ـ ..

ـ ودائما أقول سعدية كابنتى بالضبط .

ـ ..

ـ هيا لمى حوائجك واذهبى.. لا أريدك

قالت سعدية بكل بجاحة:

ـ آه.. ألمها.. الأرزاق على الله

تملكتنى الدهشة.. سعدية ستذهب.. شئ غريب، ولماذا لاتقول لأمى، أنا آسفة.. إن أمى طيبة وستقبل إعتذارها، وربما تنسى الأمر بعد ذلك تماما وسعدية تعرف أمى أكثر مما أعرفها

عليها أن تعتذر وينتهى الأمر.. لاتذهبى ياسعدية؟.. كيف تذهبى ياسعدية؟ أخذت سعدية تلملم حوائجها وهى تزوم، ثم صفعت الباب فى وجه أمى وكأنها تريد أن تحطمه على أصحابه.. تابعتها أمى فى صبر نافذ إلى أن غدونا وحدنا، ثم جاءتنى وهى تسحب فردة شبشبها لتضربنى بها، وتضرب بكل مافيها من غضب حتى طارت الفردة من يدها المبللة بالعرق؛ ولكن سخطها لم يهدأ فصفعتنى وصفعتنى وهى تقول فى ألم:

ـ كل شئ إلا هذا.. أريدك أحسن الخلق.. سيضيع مستقبلك ومستقبلى.

ومع كل حرف قرصة فى وجهى، وعضة فى ذراعى، وقضمة فى فخدى.. جنت المرأة، مسها غضب مروع وتبعثر شعرها.. طاخ.. طاخ.. ضرب مستمر وأنا أفكر فى المجنونة الثانية.. سعدية التى ذهبت هكذا بسهولة، ولم تقاوم ولم تعتذر لتبق.. ماذا لو تحملت علقة مثل علقتى.

لم تتركنى أمى إلا بعد أن انهد جسدها ونضح منه عرق غزير، ومضت عنى، تجرجر قدميها فى أسى وهى تقول:

ـ إلا هذا. إلا هذا. ثلاث بنات أنجبتهن وولد. إنه الوحيد، وهاهو يسعى للفساد. والسبب. سعدية هانم.

قبعت فى الركن أفكر فى سعدية هانم التى ذهبت بكل بساطة. أمى فى الخارج تولول:

ـ سعدية المجرمة. السهتانة.

خلفتنى سعدية بلا مداعبة وأخذت معها لحظاتنا التى قضيناها معا. لحظات بدأت تلون عمرى منذ تعلمت الحب على يديها فى العام الماضى. لم أكن قد بلغت الخامسة عشرة. أصبحت بعد أن أدركت طعم اللحم ولذة القبلات أحس أن الحياة لذيذة لها طعم آخر يتدفق بالمتعة. غدوت أفهم إلى حد كبير معنى الشباب والشيخوخة. الحب والنساء والأطفال والجنون والحقد والغيرة. أصبحت أحس بنفسى وبالناس. نفذ إلى قلبى حب آخر غير حب أمى. حب يستحق الاهتمام وترك الكتاب.. ذلك الحب الذى يختص بعالم النساء، وأمى ليست من هذا العالم الشهى.. منذ طفولتى وأنا أحسب أمى مرسلة من عند الله للحنان والتضحية والحب المقدس. أما سعدية فشئ آخر. من عالم آخر كنت أجهله، حتى قررت هى أن تعلمنى إياه فقررته مادة ضمن أهم دروسى.. النجاح فيه هو النجاح فى الدنيا كلها. والرسوب فيه رسوب نهائى مدمر.

ـ وأنا نائمة فى العسل. والبنت تعبث بالولد الصغير وكاد يرسب فى العام الماضى لولا إهتمام أبيه المفاجئ به فى نهاية العام.

كانت أول مرة عندما خرجت أمى تثرثر مع جاراتها، وإذا سعدية تغلق الباب الخارجى بالمزلاج وتدلف إلى حجرة نوم أمى ثم تنادينى من هناك:

ـ سى ميمى

ـ ماذا ياسعدية؟

ـ أسرع.. أسرع

ـ ماذا هناك؟

ـ فأر. فأر ياسى ميمى.

عدوت إليها وفى يدى المقشة، ألفيتها قد خلعت جلبابها، ووقفت أمام المرآة بقميص النوم، عجبت لأمرها. لكنى سألت فى حماس:

ـ أين الفأر؟

ـ دخل.

ـ أين؟

ـ فى عبى.

ـ نعم!

ـ تعال وأنظر بنفسك.

دنوت منى. فتحت لى صدرها. قالت: أنظر

ولاأدرى ما الذى دفعنى إلى النظر. ربما للبحث عن الفأر، ربما لرغبتى فى رؤية ما بالداخل، خامرنى إحساس إننى مدعو كى أرى بئراً مسحوراً أو سرداباً سريا.

ألقيت داخل الصدر نظرة ممتدة، لأتأكد أن الفأر قفز فعلا إلى صدرها.

وقعت رأسى إليها ونظرت فى عينيها ثم إستدرت لأبرح الحجرة، مقدراً أنها ليست إلا دعابة. مازالت أمى تولول فى الخارج:

ـــ وأسألها فى كل مرة: لم تغلقى الباب بالمزلاج؟ فتقول إنها خائفة، ومن خيبتى أصدق.. حقاً إن مثلها يخاف.

أمسكت بى سعدية وقالت: ألم تره؟.. هاهو

شدت يدى وأدخلتها فى عبها وجعلتنى أتحسس ثديها، ألفيته دافئا وملمسه ناعم لدن. مستنى رهبة وسمعت له دويا فى أعماقى، فهى المرة الأولى التى ألمس فيها مثل هذه الأجزاء من جسم امرأة لم أرتاح عموماً لهذا الموقف، ولم أشأ أن تظل يدى داخل صدرها.سألتنى: ألم تجده؟

ضحكت بلا فهم وتركتها ومضيت إلى حجرتى أذاكر.

وماهى إلا لحظات حتى جاتئنى وهى تقول: هل أصنع لك شاياً؟

سألتها ونظراتى تحوم حولها وتفحص جسدها: ألا تخشين البرد؟

ـ لا.

تقدمت منى وحطت يدى على ثديها، كل يد على ثدى وأخذت تحركهما بشدة تغمض عينيها، تنهد وتتلوى كالمتألم، وأنا دهش مما أصابها. أشد يدى والارتباك يعترينى.

تركتها وخرجت إلى الشرفة. أستنشق الهواء وأحاول أن أفهم.

خرجت أمى فى اليوم التالى لتثرثر مع جاراتها إلى أن يعود أبى، وسمعت سعدية تنادينى فى لهفة: إلحقنى ياسى ميمى. ثعبان. ثعبان. التقطت المقشة وأسرعت إليها، وما أن اجتزت باب النوم حتى تلقتنى عارية ودفعتنى إلى السرير فانطرحت عليه وأنقضت على وأنا كالريشة فى يدها تقبلنى وتقول:

ـ عانقنى.. قبلنى.. هل أنت حمار.

قبلتها وعانقتها مضطراً أو شبه مضطر. لكنها قبلتنى فى شفتى قبلة عنيفة فأحسست بشعور غريب فقبلتها فى شفتيها وخديها، وقبلت ثدييها المتدليين فوق وجهى كعناقيد العنب.

مع الأيام وشيئا فشيئا أصبحت أتجاوب معها وغدوت أنا الذى أغلق الباب بالمزلاج

وإذا تأخرت على أتسلل إلى المطبخ لأسأل عن طعام أو شراب، وربما تتاح لى الفرصة لأذوق بعض الطعام وهى إذا شاءت أطعمتنى، وإذا شاءت ردتنى حتى تملكتنى تماما وأصبحت تنادينى: ياولد ياميمى، ولم أحاول أن أصحح لها اسمى وأذكرها بأنه سى ميمى، لأنى بالفعل ولدها وصديقها وحبيبها. لقد أصبحت رجلا عاشقاً تهفو إليه إمرأة ناضجة.

فى الخارج تلطم أمى خديها: وأسأل نفسى وأبوه يسألنى. لم يهزل الولد؟ فلا نجد جوابا.

لقد مضت سعدية دون أن تعتذر لأمى وتبق. مضت عناقيد العنب وحبات المانجو مضى الدفء والحنان، ولكن صدرها مازال يطل من بين صفحات الكتب. شفتيها تقرضان أذنى فأمسك أذنى، يمتصان رقبتى فأتحسس رقبتى. أمى تصرخ فى انزعاج:

ـ ونلاحظ أن سى ميمى لايقلب الصفحات. مخه فى الهانم. ياخسارة التربية، سألت زملائى فى المدرسة دون أن أغوض تماماً فى الموضوع. ألم يجرب أحدهم لمس جسد امرأة، منهم من قال لا ومنهم من قال نعم، ومضى يؤلف حكايات أعلم تماما أنها كاذبة، لأنه يحكى عن مواقف غير معقولة ولايستطيع التعبير عن المشاعر الحقيقية التى تخالج من يلمس لحم امرأة، وهذا التعبير لايتاح إلا لمن كان مجربا مثلى.

وحين أدركت أن ماحصلت عليه لم يحصل عليه غيرى، زادت حسرتى لأن ماحصلت عليه قد فقدته. ومضى كل شئ بعد أن عرفت طعم كل شئ، ورددت إلى ظلام أقسى من الظلام الذى كنت فيه قبل سعدية.

قررت أن أذهب إليها عند أمها. أعطيها مصروفى الذى ادخرته طوال أسبوع وليتها تصرف أمها بأى وسيلة فنتعانق. أبلغتنى أمها أنها تعمل الآن عند آخرين وتبيت عندهم كل يوم. طلبت منها عنوانهم ومضيت فى حماس إليها.

سأذهب إليها ولو كانت فى السماء. قالت: لماذا جئت؟

ـ لأطمئن عليك.

أخرجت مصروفى وقدمته لها: خذى هذه النقود، ربما تودين شراء شئ؟

ـ لا.. إبقها معك إنها مصروفك.. وأنا هنا أحصل على أجر طيب.

ـ أود أن أبقى معك بعض الوقت.

ـ عد ياميمى إلى أمك.

ـ أود التحدث إليك.

ـ إنك طفل صغير.. عد لأمك واشكرها.

ـ لماذا.. ألست غاضبة منها؟

ـ بالعكس. لقد كان غضبها سبباً فى مجيئى هنا. وأنا فى غاية الراحة.

ـ ولكنى..

ـ ولكنك طفل صغير، عد إلى أمك وانتبه لدروسك.

أغلقت فى وجهى باب الشقة. أغلقته بلا رحمة وبلا كلمة. رنوت للباب الذى تحول إلى سد منيع. كدت أبكى، لطالما أحببت جسدها الحنون. قعدت على العتبة أتطلع إلى النافذة أسألها وأغالب الدمع. أحس أنى بلا بيت وبلا أم. إلى أين أتجه!

مضيت سعدية واختفى تماماً جسد سعدية. فكيف ستكون حالتى بعدها وكيف ستكون حالتها بعدى. إن مافى جسدينا لايمكن السكوت عليه. ولكنها مرتاحة هناك وأنا طفل صغير. فمن تراه الذى سيبحث لها عن الفأر فى عبها ومن الذى سينقذها من الثعبان.

ديسمبر ١٩٧١

رضـــــا

حتى بلغت سن الأربعين. كنت قد تعودت على طعام أمى وحنانها؛ لمسات يديها نظرة عينيها. لهفتها لغيابى. إعدادها فراشى. أمى. ياله من اسم ورسم ومعنى.

تغطينى أثناء الليل. تبتسم لى دائماً. تسهر على كأنى طفل. وكان أبى حتى بلغت الأربعين قد تعود بدأبه الأبوى ذى المسئولية، على أن يوقظنى فى الصباح. يشركنى قهوته. يذكرنى بدعوات الصباح والتوكل على الله. والاستماع إلى بعض الآيات القرآنية. كى يفتح الله على.

ـ حاضر ياأبى.

كان يحمل ملابسى إلى الكواء، فلا عمل له بعدما ترك الوظيفة وأحيل إلى المعاش بعد الستين. يسألنى عن أحوالى. يكلمنى فى إهتمام أثناء الطعام. وقت محدود ذلك الذى يجمعنا.

أختى طلقها زوجها. جاءت إلى بيتنا تجرجر خلفها أولادها الثلاث. تخدمنا وتعيش. زوجها غبى.. أنا لست متعصبا لأختى، لكنه حقا غبى.

وأنا حتى بلغت سن الأربعين. لم أتزوج. لماذا أتزوج؟. لاأحب الهم.. أيامى المتكررة تتوالى فى استرخاء. أيام بالكربون. صورة طبق الأصل.

أعود من عملى ظهرا. أتغذى وأنام. أثرثر قليلا.. يحركنى الملل فى الشقة بعض الوقت، ثم ألحق بالأصدقاء فى القهوة. أكبر قهوة فى حينا كله، لاتغلق أبوابها قبل الثانية صباحا. لكننى أعود فى الثانية عشرة، بعد أن نقضى وقتاً فى الطاولة وأحيانا فى الشطرنج والسياسة والنكته والحكايات الخاصة والعامة. وقت بلاهم. بلا معاناة.

أنام نوماً عميقاً. نوم الخلى. نوم الطفل البرئ. نوم من غفل عن الدنيا وغفلت عنه. أعيش بلا هموم. رأسى يختفى فى الوسادة بعد ثوانى. قالوا عدة مرات. الزواج باب النكد والتعاسة. يبدو هذا صحيحا. ألمس ذلك بسهولة ومن أول نظرة إلى واجهة الحياة الزجاجية.

يقول أحمد شاكر صديق القهوة حين أحدثه عن حياتى بلا زواج.

ـ وهل هذه حياة يافالح؟

ـ حياة الهدوء والاستقرار.

ـ ويعتدل فى جلسته بين الصحاب. كأنه سيلقى علينا فكرة جديدة، غير مطروقة ولم يلتفت إليها أحد قبله:

ـ لعلم حضراتكم. ليست هناك حياة اسمها حياة الهدوء والاستقرار.

ـ لا. فيه.

ـ هذه للحيوانات ياأستاذ.

ـ بل هناك أناس أعرفهم.

ـ ويتقدم أحمد شاكر من المنضدة ويدس نظراته فينا جميعا ويقول بصوته المصقول الهادئ.

ـ أحب أنبه حضرتك. إن الحياة هى الحيوية.

ويتابع حديثه كأنه يبشر بدين جديد. ويواصل ضغطه على الحروف.

ـ والحيوية هى الحب والزواج واللعب والتمتع بالمباهج والضحك والبكاء وشقاوة الأولاد والصحة والمرض والسفر والعرق الغزير. ويعلق الزملاء:

ـ الله. الله. هل فى العمر متسع لكل ماذكرت ياسيد أحمد. كفاية علينا القهوة.

ـ فى أى كتاب قرأت هذه الأقوال. إنها لذيذة بلا شك. الاستماع إليها متعة. كالتفرج على صندوق الدنيا.

ويرد أحمد شاكر وهو يحك ذقنه، ويسند ظهره إلى الحائط، قائلا فى كلمات تحمل معنى غير مباشر لإهانتنا، وإن لم تلمس أقفيتنا بشدة:

ـ إن تجاربكم محدودة؛ وغداً وبعد فوات الأوان ستدركون صواب رأيى.. خلاصة القول. عليك ياشارل بالزواج.

نسيت أن أقول بأنهم كانوا يسموننى شارل بدلا من نور الدين، لأنهم اكتشفوا مابينى وبين الرئيس الفرنسى شارل ديجول من شبه. نفس الطول. نفس العرض. نفس الأنف المنتصب، يطل من وجهى كالتمثال الضخم يعلو فى وسط الميدان. ولاينسى شاكر أن يعلق دائماً. ولكن ليس نفس المخ. مخ «ديجول» متواضع جداً بالنسبة لك وهو يهزأ بى ولاشك.

ويقول لى الشيخ رمضان. جارنا الطيب:

ـ تزوج يا سيد نور الدين. فالزواج نصف الدين. ستر للعورة. ومنع لكل شر وهو سنة الحياة. وقبل ذلك يكون لك به البنون، والبنون زينة الحياة الدنيا.

فى أحد الأيام وبعد خروجى من القهوة فى منتصف الليل. صافحت وجهى نسمات هواء رقيقة. تملكنى هاتف يقول: سر وحدك. حدث نفسك. تأمل حياتك ولا تكن كالبهائم. تعللت لزملاء القهوة بأسباب ملفقة، ومختلفة حتى أمشى وحدى تمشيت خطوة خطوة. كنت فى حاجة إلى أن أفكر على مهل فى كلام الشيخ رمضان.

الولد. نعم الولد. مأأحلى هذه الكلمة. معناها مثير. دافئ. فيه ثراء نفسى. فيضان حنان. مثل الكلمة المقدسة. الله. النبى. الوحى. الملاك.. السماء. المعبد. الصلاة.

الولد يلعب. الولد يقفز. يقع. يأكل. ينام. يكركر ضاحكا.. يجرى خلف الدجاج. يشد ذيل القطة يمتطى ظهر جده. يمسك جلباب جدته. يبعثر الرز. يشوه الجدران بالألوان. بالقلم. يرفع بقبضته الصغيرة كل شئ إلى فمه.

صغير جداً. قطعة لحم، لكنه ينمو كل يوم. ينمو كل لحظة. وتتجلى ملامحه. أنفه وفمه جبهته وذقنه. اليوم يفأفأ. غدا يقول بب، بعد غد يقول بابا، بعد بعد غد يقول للراحل باى باى. بعد بعد بعد غد. إذا عدت من العمل يقول بابا جه.

بعد ذلك تنبت الأسنان كبقايا أسنان المشط المكسور. بيضاء لبنية ثم ينقل الخطوات تاتا. تاتا. يمشي ويقع. يمشي ويقع. ثم يمشي فى تماسك ويداه مبسوطتان تتشبثان بالهواء خشية السقوط. كلنا يخشى السقوط. كلنا نقع فى بئر الخوف منذ البداية.

يجرى ويكبر. العود يمتد، يعلو ويشتد. يصبح مثلى طويلا.. لا.. أطول. الله يخلق دائماً الأفضل بعد الأفضل.

وصلت إلى البيت. الأفضل أن أتزوج.

تزوجت

أين الولد؟. أين البنت؟. الزوجة لطيفة. طيعة وحنون

ما أسعدنى بها. لكن أين الولد؟. أين البنت؟.

سنة. سنتان. ثلاث. طبيب. أطباء. لاعيب فيها ولاعيب فى ماذا إذن؟. إرادة الله.

ـ لماذا أنت قلق؟

ـ أريد الولد.

ـ وهل حياتك بدونه عذاب؟

ـ لا. ولكنى أقدمت على الزواج من أجل الولد. أصبر.

صبرت أربع سنوات، خمس سنوات، سحر وشعوذة. زار وأعمال. شيوخ ومقامات، بخور وأحجبة وزيارات، شفاعات ورقى، رسومات على ذراعى وذراعها وعلى فرجى وفرجها ولاأمل.

ـ أصبر. إنها إرادة الله.

ست سنوات، سبع سنوات. وأخيراً تحققت إرادة الله. لاأدرى كيف

أنعم الله على بالبنت.. فصليت أشكر الله.. أشكر الخلاق العظيم.. الحكيم الذى إمتحن صبرى وإيمانى، ولقد صبرت حتى لم أعد أحتمل، سنى ثمانى وأربعون عاماً. على أعتاب الشيخوخة. متى أربيها؟ الحمد لله. بنت. ياسلام، ليس لها أنف مثل أنفى، البنت يعيبها أى شئ. حتى الشعرة فى القدم سميتها رضا.. لأننى لاأريد أكثر منها.

حفلة بمناسبة مرور أسبوع على ولادتها.. خسارة فيها. لا، كثير عليها. لا.. دعوت إليها القريب والبعيد والأقرباء والغرباء.. بنت بنت.. رزق البنات كثير.. الشموع والحلوى والورد والابتسامات.. رضا

لست أدرى لماذا خالجنى شعور بأننى مهم بعد أنجبت هذه البنت.. صحيح أنها كلها تشبه أمها، وأحلى مافيها أنها لاتحمل أنفا مثل منقارى القبيح، إلا أن شعوراً بالزهو تملكنى فصرت أمشى رافع الرأس كأنى بطل فى المصارعة أو رفع الاثقال.

منفوشا، مختالا.. مرقوما، منتشيا.. أسير كالديك الرومى..، مضئ الملامح، باسم الأسارير.. تطل من عينى نظرات البهجة والأمل.. كأننى اكتشفت إختراعا جديدا سيطيل الأعمار أو دواء ناجحاً سيقضى على دودة القطن، قضاء مبرما فتحفظ ثروة البلاد.. الحمد لله.. أنا لى معنى.. لى قيمة.. لى ذكرى.

يقول الشيخ رمضان مهنئا:

ـ قال من جل جلاله، وتجلى فى الوجود كماله «لئن شكرتم لأزيدنكم».

ـ رضا ياعم الشيخ والحمد لله.

فى اليوم التالى.. بكت كثيرا.. كثيرا، واختفت الحمرة من بشرتها، وبدت كالمختنقة.. كالكلب الميت. انشق قلبى، تصدعت جنباتى.. لم أحتمل بكاءها فهى لاشك تبكى من الألم.. رضا تتألم.. حملتها إلى المستشفى.

بعد نهار كامل من المداولات والمشاورات والمصطلحات الإنجليزية، والكشف المستمر وصور الأشعة وإشعال البايب، وهز الرأس وعقد الجبهة وأنا معهم أتابعهم كأنى أخشى أن يسرقوا منها قطعة.. غاية فى الإنتباه والملاحظة.. قال كبيرهم فى كلمات متقطعة.. متمهلة كأنه لايريد لفظها:

ـ آسف ياسيد.. البنت.. بصراحة.. البنت فى خطر تام.. قلبها مشوه

ـ ماذا.. كيف؟ نعم.. مامعنى هذا؟

ـ الولادة تمت طبيعية تماما، إلا أن الست حرمكم تعرضت لاشعة إكس فى إحدى المستشفيات أو العيادات أثناء فترة الحمل.

ـ نعم صحيح، لكن الطبيب يومها أكد بألا خطر هناك.

ـ بل منتهى الخطر.

ـ والعمل؟

ـ لاأمل.

ـ ستموت؟

ـ إرادة الله..

وماتت رضا.. ماتت رضا.. وبكيت.. تذكرت أنى لم أبك طول حياتى قال الشيخ رمضان مهدئا:

ـ الله موجود.. تماسك يارجل.. هل كنت فى حاجة إليها لتعيش.. هل ستطيل عمرك.. هل ستمنحك القوة؟ هل ستشد أذرك؟

ـ كفى أرجوك

ـ «فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن، وأما اذا ما إبتلاه ربه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن» اصبر.. إن الله يعطى ويأخذ ثم يعطى

ـ فات الوقت.

ـ غيرك ينجب فى الستين والسبعين.. أين الإيمان.. بدونه تتهافت الارواح كأجنحة البعوض.

ـ ماتت رضا.. اكتشفت فى صدرى كنز الحب.. اكتشفته وماتت.. زرعت فى قلبى بستان الامل وماتت.. إرادة الله.. إذن هى الحياة كما قال أحمد شاكر وبدأت أحس خفق قلبى يهدأ.. ويعود إلى مقره فى صدرى. الايمان.. الايمان.. الرضا.. الرضا.. سينقشع كابوس الهم عما قريب إنشاء الله.

ديسمبر ١٩٧٠

كلنا لها

بعد الغذاء تمددت فى الفراش إلى جوار زوجتى، وكعادتى كل يوم، حاولت النوم.. فاستعصى وتدلل، تقلبت عدة مرات.. زوجتى ترقبنى، سألتنى عما بى.

فقلت : لاشئ.

قالت : بل هناك شئ.

فقلت : ليس أمراً هاماً.. ولكننى أحس أنه يفرض نفسه على، وقد شغل بالى طيلة اليوم.

قالت فى صوت حنون سببه الفضول لا الرقة: وما هو؟

فقصصت لها ما جرى اليوم فى القطار بينما كنت مسافراً إلى القاهرة.

أخذتها الدهشة حتى أنها رغم تعودها على تصديقى فى كل ما أقول، إلا أنها طلبت فى إلحاح أن أقسم لها بالله العظيم، فأقسمت لها بالله العظيم وبحياتها أيضاً، بأنه صحيح فسألتنى: وهل رأيت صورها وهى تقف معه: بعينك؛؟ قلت لها: بعينى.

وأفقت إلى نفسى بعد فترة من الوقت وجيزة فإذا الشمس قد غربت، وإذا الدنيا توشك على استقبال الليل شاحبة بعد فراق نهارها العزيز. لقد استدرجنى الكرى بعد أن أفرغت من صدرى مايقلقنى مايرتع فى خاطرى كالسر الدفين.

قمت فاغتسلت وجلست أقرأ، وبعد وقت غير قصير فوجئت بأنى لم أكن أقرأ شيئا لأنى عدت إلى ذاكرتى أسألها عما تلقت من الأفكار فإذا هى خاوية، وقد كانت السطور تمر أمام عينى فلا أعيها، ووجدت نفسى منساقًا ـ كما يحدث دائماً ـ تجاه السلم فأصعد درجاته إلى سطح المنزل كى أغسل رئتى بالهواء العليل القادم من ناحية البحر مارا بالاشجار المخضرة المزهرة، وأستقبل بكل ترحاب موجات النسيم الهفهاف تفوح بالعبير وبطيب الانفاس.

تمشيت على السطح عدة خطوات، وكنت أرنو إلى الأشياء المبعثرة بلا مبالاة، شرقت فى رأسى مرة أخرى، تلك الحكاية التى قصصتها على زوجتى عصر اليوم، والتى حدثت صباح اليوم.

تطلعت إلى السماء بعيون صافية. حكاية ذلك الرجل تصلح للكتابة، آه. منذ زمن طويل لم أكتب شيئا، ولا تحتاج المسألة فوق ما أنا فيه إلا إلى قلم وذهن صاف.

تنقلت الفكرة بين جنبات عقلى، عشت معها. عشقتها. سلمتها يدى وسلمتنى يدها. أحتضنتها. أسكنت فمى فى عش فمها الدافئ. رويتها من رحيق ذاكرتى ومشاعرى. فنمت وكبرت أحسست أنها تمتد فى داخلى، كشجرة العنب النابتة فى الحديقة، تتشعب هنا وهناك تحتضن الجدار وتتعلق بالنافذة، تستند إلى السور وتنحنى خلفه وتميل على حوض الماء. تركتها تتغلغل وتنتشر، موقنا أنها ستنضج وبعد ذلك أجنيها، وأبدأ فى رسمها حروفا على الورق. وتصفيفها صفا صفا.

ها هى المساء فى أعماق تتلبد بسحاب كثيف داكن، وتوشك أن تهطل بغزارة، والأرض عطشى ياليتها تهطل. يدى اشتاقت للقلم. نزلت إلى غرفتى، إندفعت إليها فى صمت. أسير خطوات العازم على أمر، المصمم على هدف. وما أن جلست وأمسكت بالقلم حتى إنسابت الكلمات بلا توقف، كأنها كانت تعانى من الكبت.

كنت أقف بالقطار، ورغم طوله وعرضه كنت أقف، لأنه كان خال تماما من مكان أجلس فيه، بل هو خال من مكان أقف فيه. وهذا المكان العزيز وهوعبارة عن مساحة لا تزيد على مساحة البلاطة المتوسطة أى ٢٠ × ٢٠سم أو قل على الأكثر ٢٥ × ٢٥سم، مساحة طولها بطول قدمى الواحدة، عرضها بعرض قدمى الاثنتين.

هذه المساحة تم الاستيلاء عليها بعد جهد جهيد، وهى نتيجة غزوة احتللت على إثرها مكان شخص نزل فى بنها وهى المحطة التى صعدت منها.

ركبت من بنها إلى القاهرة صباحا كما أفعل كل يوم، المسافة لا تزيد عن خمسة وأربعين من الكيلو مترات، وعن مثلها من الدقائق. هذا فى حالة وصول القطار، أما فى حالة عدم وصوله، فهذا يتطلب حساباً جديداً لأن الزمن فى هذه الحالة يبدأ فى الإسترخاء والترهل، ربما تصل وقفتنا أو لحظات إنتظارنا إلى عشر أو خمس عشرة ساعة حسب طيبة المسئولين ورحابة صدورهم، وطول بالهم وكرمهم بالشاى طيلة النهار وبالوقت كذلك. فى هذه الساعات التى لا تهم، يدغدغون مسائلهم بهدوء وتأن لأنهم يحبون الإتقان، ولأن فى العجلة الندامة وفى التأنى غاية السلامة، والسرعة عاقبتها الموت والدمار وقانا الله وإياكم شر السرعة.

آه.. من السهل على أن أتذكر المواجع فى كل كلمة أقولها، فكل حرف أنطلق به كفيل بأن يستدرج الآلام من خدرها، فتقفز إلى ذاكرتى فى منتهى الخفة والنشاط فإذا قلت مثلا القطار، فكلمة القطار وحدها كفيلة بأن توقظ فى مئات المشاعر، التى يمكن لأقلها مرارة أن ينقلنى من الرضا إلى السخط والغضب وإذا ذكرت الأتوبيس شرحه، وإذا ذكرت المرتب، ذلك الصديق المتواضع المتوارى.. شرحه، وإذا...

كنت أقف فى القطار الممتلئ باللحم والاشياء.. وبعد أن ترك المحطة متجها إلى القاهرة.. بدا من بين الصفوف رجل يتحرك، كأنه مضبوط على حركة القطار أو كأنه يسير بالبخار.. والله وحده أعلم كيف يتحرك فى وسط هذه الجموع المتلاصقة، كل شئ هنا متداخل تماماً.. ملتحم تماما، بدليل أن أى شخص لن يحاول حك أنفه إذا أحس بالرغبة فى ذلك. أما إذا ألحت عليه. كإلحاح زوجتى فإن عليه أن يمرر ذراعه من خلف ظهر زميله أو من تحت ذراعه، ثم يعيدها فى هدوء من نفس الطريق. ولا يستطيع طبعا أن يترك هذا العمل لغيره ممن يتاح لهم ذلك بسهولة، لأن ماحك جلدك مثل ظفرك.

الرجل المتحرك شيخ أو يكاد، ضرير أو يكاد، مهلهل الثياب أو يكاد. كان يقف فى منتصف العربة وأنا فى أولها عند الباب.. تمكن بعد زحف عجيب، من الوصول إلى مكان قريب منى، فوجدت معه عود، تدافع بجسده كالدودة، حتى أفسح له ولعوده ساحة صغيرة

من فراغ؛ لا أخاله بالطبع سيغنى لأن المكان والزمان والظروف كلها لاتساعد على الغناء ولا على الإستماع حتى لو كان الغناء شجياً.

أخرج من كيس معلق على جانبه ريشة بدأ يعزف بها على العود.. طلعت يا محلا نورها شمس الشموسة، وتلتها بعض أغانى لأم كلثوم، ومنها القلب يعشق كل جميل ثم لحن الآذان، ومن الغريب أن يعزف مثل هذا الرجل ذرى الهيئة ألحانا شجية وفى هذا الضيق! حتى أن الناس بدأت تتجاوب معه وتنسى قسوة الزحام وطول الطريق.

انشغلوا عن مطالعة الجرائد وعن النكات والضحكات الباهته وعن التطلع إلى المزارع الخضراء والصفراء خارج القطار، حيث تشقها الترع وتتقافز عليها الطيور، كما كفوا عن المراقبة الدائمة لأعمدة الكهرباء وعد أعمدة التليفونات، وانصرفوا عن السماء الريفية الصافية، وذالك الأفق البعيد الذى يحتضن الاكواخ والنخيل، تركوا كل ذلك.

وأغمضوا عيونهم مستسلمين لدغدغة الموسيقى وماتنعشه فى قلوبهم من رقة ورهافة، وتتدفق معها الأحاسيس الناعمة والأمانى الحلوة، تأخذهم بلا إرادة إلى عالم هادئ وديع، فيذوبوا ويذوبوا حتى يرتدوا إلى أصولهم جزء من الطبيعة، همسة من همسات الخلود، نغمة من نغمات الجمال الابدى، الذى ابتعدوا عنه كثيراً حتى أصبحوا غرباء فى دنياهم.

الرجل مندمج، هائم، تستجيب يده لخياله؛ فتغرد الأنغام وترقص، ولا تغرد الأنغام ولا ترقص إلا للخيال الحى والموهبة الفذة.

ولما توقف، تقدمت منه الأيدى بالقروش، تقول: أحسنت ياعم. أحسنت ٤ ياسيدنا ويرد هو: أحسن الله اليكم، الله صاحب النعم.

وتمتد يداه باحثة عن الأيادى الممتدة لتقبض على ما فيها، ولما انتهى من الجمع أو لما انتهوا من الدفع، ألقى النقود المعدنية فى الكيس؛ وأخرج من الكيس مصحفا ليضع فيه خمسة قروش ورقية، وعندما فتح المصحف سقطت منه صورة على الأرض فهم شاب بالتقاطها، لكنى كنت أسرع منه إليها، التقطتها من تحت الأقدام، وتطلعت فيها، فإذا هى. مستحيل. صورة صوفيا لورين. أعدت النظر إليها، فإذا هى مازالت صوفيا لورين، بحلقت فيها مرة ثالثة فإذا هى «صوفيا لورين». أقربها من عينى «صوفيا». أبعدها صوفيا، أنظر إلى صدرها لأتأكد أنها صوفيا، أبحلق فى شفتيها الشرهتين صوفيا. أحملق فى عينيها البقريتين.. هى صوفيا.. هى صوفيا.

وبيد تمتد فى وهن وتردد كأنها لا تريد أت تمتد، أعطيته الصورة وكان لاهيا فى وضع الخمسة قروش، ويبدو أنه لم يتبين وقوع الصورة فحين لمسها، قبض عليها بسرعة ودسها فى المصحف، وألقى المصحف فى الكيس، واستدار متجها إلى العربة الأخرى من القطار ليغنى، وينقدونه القروش كما نقده أهل هذه العربة.

زوجتى تنادى. أنا مشغول الآن. نصف ساعة فقط. صوفيا لورين. ولماذا يحملها هذا الشيخ، ما علاقة شيخ ضرير شحاذ بصوفيا لورين. ضدان لا يلتقيان فى شئ، ولا حتى عن طريق الإعجاب فلا أظن مثله قرأ مجلة أو جريدة أو دخل سينما أو شاهد تليفزيونا. ولا أخال صوفيا قد زارتهم فى قريتهم. وجذبها منظره فأهدته صورتها. والأدهى وأمر أنها تنام فى مصحف.

الأمر تافه لاشك وأحس نفسى تافها إذا أعرته إنتباهى، لأن هناك الآلاف بل الملايين، من قبيل الإعجاب والحب يحملون صور النجوم والرؤساء ولاعبى الكرة وصوراً أخرى لبعض التافهين والتافهات، فما علاقة الشيخ بصوفيا لورين، ما هو مبرر الإعجاب وكيف تم التعارف بينهما، ولماذا؟. لست أدرى. مازلت أكرر حتى لايشك أحد فى عقلى. أن الأمر عادى تماما، لكن الأمر فى هذه المرة يبدو لى غير عادى، وقد حاولت أن أصرف ذهنى عن هذا الموضوع بانشغالى بالناس بالمناظر التى تجرى خارج القطار، أو بمشاكلى الخاصة، بعملى، بالجريدة التى أحفظها عن ظهر قلب كل صباح أتسلى بها بينما يأخذ القطار من عمرى وقتاً غير قليل فى الصباح والمساء، يأخذ ما يشاء كأنه علاج كتبه له الطبيب، أن يتناول فطوره وغذاءه من حسابى. حاولت. حاولت، فلم أتمكن، لأن صورة صوفيا حين تكون مع شيخ ضرير مسألة لا يمكن السكوت عليها، وخاصة إذا كان من يراد له السكوت شخص فضولى مثلى، كيف أسكت وصوفيا لورين مع شيخ ضرير ويحفظهما فى مصحف. ويتشبث بها، كيف نفذ اسمها أليه وكيف إمتدت إلى صورتها يديه؟ إنهما يمثلان طرفا نقيض كالسلب والموجب.

الأصوات تأتينى من خارج الغرفة ابنتى الصغيرة ذات الخمس سنوات تداعب أخاها الرضيع، تدغدغ صدره فيقهقه. يغرد الفضاء معه، ضحكت سعدت لهذا الصفاء. لبراءة القلب الصغير ياترى ما هو حجم قلبه؟ فى حجم بيضة الحمام أم أكبر؟ فى حجم قبضته، هكذا قالت والدتى يوما ما. يده القابضة دائماً كأنها تخفى شيئا ثمينا، لعله الحياة. الحياة..

لماذا جاءت عيونه كعيون أمه ولم تأت سوداء كعيوني؟. ولماذا جاء أنفه طويلا كأنفي ولم يكن صغيراً كأنف أمه، كعقلة الأصبع. الأصوات التي تأتيني من الخارج خضراء تجرفني إلى الشاطئ. وأنا أريد أن أبحر. لا أريد الشاطئ، على الأقل الآن.

لم أدرك كامل وعيي بنفسي إلا وأنا أعبر العربة خلف الموسيقى الضرير وألحق به، بينما كان يعزف لركاب العربة الاخرى، فوقفت أنتظر حتى يفرغ موسيقاه ويخلو لي وله الجو، فأطلب منه أن يعطيني الصورة، وإن رفض فلأعرف لماذا يحملها.. صحيح أنه يبدو كتوماً، غائر الملامح كالبئر.. مجهولا كالضمير.. لكني سأحاول.

لو كان يحمل صورة فتاة عريانة تماماً، لما أثار ذلك دهشتي، فما أكثر الشباب والشيوخ الذين يحملون مثل هذه الصورة لكن صوفيا شئ غير مقبول ولامعقول .. أريد أن أعرف فقط وجه الترابط.. ربما وصلت إليه بطريق الخطأ لا أكثر.. وسوف يذهب جهدي هباء وسعيي كله سدى.. فيصير سلوكي هو الذي يدعو إلى الغرابة لا سلوكه.. ثم .. ما الذي يعنيني أنا في ذلك؟ ولماذا أنا بالذات من دون كل هؤلاء الناس، أصر على متابعته وأحاول أن أعرف.. هل أنا الذكي وهم الأغبياء؟ هل أنا خالي البال وناقص مشاكل وهم تعساء، أنهكت كتوفهم الاعباء؟. ربما كنت أكثر تعاسة منهم، ولم تعد لي كتوف بالمرة كي تحمل مزيداً من الأعباء.

لا داعي مرة أخرى كي نثير المشاكل ونوقظ الأوجاع،ككلاب الحراسة.. ما أن تحس الريح حتى تزعق وتصيح، الهمس يثيرها، ونقر الخطوات سكاكين تمزق أجسادها فتهب من مكمنها، وتعد مخالبها.. يجب علي أن أتوقف عن الكلام وعن التفكير أيضا.. بل والنظر والشم والسمع، لأنها كلها مصادر للإثارة والتذكر.. أخشى أن يخطئ الأخرون في حقي فيقولون مادمت تطالب نفسك بالتوقف عن التفكير وقتل حواسك فالموت أفضل. وأنا أقول لهم: لا.. لن أموت. أني أحب الحياة، إنني أنتظر أن أحقق يوما ما رسالتي التي خلقني الله لها. هكذا يقولون. وسوف أعرفها يوما ما. وإن كنت على ثقة أني سأعرفها وأنا على فراش الموت. فلتعد مرة أخرى إلى الشارع الرئيسي ولا داعي لهذه الأزقة اللعينةإنتقل الشيخ الموسيقى إلى عربة أخرى وأنا خلفه. حتى توقف القطار في القاهرة فنزلت ونزل وسار في طريق أخر غير الطريق المعتاد، إتجهت خلفه، ولكني تلفت للوراء

فوجدت الركاب يسيرون فى تجمع لحمى على الرصيف كأفواج النمل فى الصيف جمع قبائله وإتجه ليحمل صور صورا ميتاء أسعدهم به الحظ النادر.

توارى الرجل فى طريق فرعى ثم نزل فى نفق، يالهذا الشيخ إنه سريع الخطى عبر النفق فكان فى أول شبرا. قف يارجل، أنهكت بدنى، لم أكن مستعداً لهذا السير الحثيث ألا تعلم أن شباب هذه الأيام مرهقون البركة فيكم أنتم أيها الشيوخ ويا أيتها النساء ولم يقض علينا والحق يقال غيركم أيها الشيوخ الناصحون ويا أيتها النساء الفاتنات الساحرات.

عندى فى البيت زوجة علاقتها بالفتنة والسحر كعلاقة هذا الشيخ بصوفيا لورين. ها هى تنادى أحسست على الفور أنى أذكرها. الحمد لله.. من عرف بلاوى الناس هانت عليه بلوته. نعم ياست هانم.

ـ قم لتتعشى.

ـ دعينى الآن

ـ لقد نام الأولاد.

ـ هذا حسن.

ـ وأريد أن أنام.

ـ هذا رائع.

وبصوت حنون يغيظنى، ويكاد يقضى على كل اصرارى وعزمى.

ـ لن تجدنى.

ـ أين ستذهبين؟

ـ لن يتاح لك ما هو متاح الآن

ـ أعرف ذلك. لكنى أطلب نصف ساعة فقط

ـ منذ ساعتين وأنت تقول لى. نصف ساعة

ـ هذه أخر مرة

ـ أخر مرة، تذكر أنك قلت عدة مرات أن هذه أخر مرة.

ذهبت. الحمد لله. ماذا كتبنا؟. فلنقرأ قبل ذلك بسطور. من عرف بلاوى الناس. لا . لا. من قبل ذلك حتى نلتحم بالنص. قطعت التسلسل أوقف الله نموها. فركت جبهتى

وأغمضت عينى. دعكتها، كأنى أستوضح الرؤية، خيم الصوت التام على الغرفة وأنا مغمض العينين أستجلى وأستلهم وأحسست أن الأمور بدأت تتحسن وأن السفن تقترب من الشاطئ.. أشجعها وأكاد أنزل لأجرها أحملق فى الفضاء. فى الأشياء الذاكنة الرابضة فى بلاهة بالحجرة، كأنها تصيخ السمع أو تتفرج على هذا الأبله القابع بينما يحدث نفسه ويحاور الهواء. تدور نظراتى فى الفضاء كأنى أرى أشياء تروح وتجئ. ألملم الخيوط. أجمع الشباك أه. هذا حسن. نستطيع أن نستأنف بالعبارة التالية.

قف أيها الشيخ. أيها الجنى توقف. فتوقف قائلا: ماذا يابنى؟. وأنكمش فى بعضه، وأخذ فجأة سمات الشيخ القديم الذى كان يعزف بالقطار، متهدماً متهاوياً.

سحقاً لك. كفوا عن التمثيل والادعاء. كفوا جميا عنه.. ستسقطون بلا ريب لأنه داؤكم. رفقا بى وبأوجاعكم.

ياشيخ. ماذا أقول له؟ كيف أدخل فى الموضوع بعد هذا المشوار الطويل؟ قلت له لقد رأيت معك صورة فى المصحف وأريدك أن تعطينها.

قال على الفور وقد أغضبه السؤال التافه: أى صورة ولماذا؟ شئ بارد.

واتتنى قريحتى، فكذبت عليه قائلا: أنا صحفى وأريد أن أنشر موضوعا عن صوفيا لورين فى جريدتى وليس عندى لها صورة. وسوف تساعدنى الصورة التى معك خاصة أن الوقت غير متاح للبحث عن صورتها.

ـ آسف ياسيدى، مع السلامة.

ـ لماذا؟

ـ لأنى لا يمكن أن أفرط فيها.

ـ إن مستقبلى متعلق بنشر هذا المقال، لقد وعدنى رئيس التحرير بفرصة واحدة ثم يفصلنى. والصورة ستكمل المقال.

ـ إن كل ما تعرفه عنها غير صحيح.

نويت أن أحتمل كلامه الفارغ حتى النهاية..

ـ لا تقل هذا ياعمنا، لقد نشرت المجلات الأجنبية عنها آلاف المقالات وشاهدت لها أكثر أفلامها.

ـ ليس هذا هو المهم.

ـ وما هو المهم إذن؟

ـ كيف أصبحت صوفيا لورين.. صوفيا لورين؟

ـ وهل تعرف أنت ؟

ـ بل أنا صانعها.

لقد احتملته حتى هذه النقطة من الحديث؛ وبعدها يجب أن أتركه أو أضربه ضربة أهشم بها رأسه.

ـ ماذا تقول ياعم الشيخ؟

ـ لقد سمعت ما قلت.

ـ زدنى إيضاحًا.

ـ لن أزيدك شيئا وأذهب.

ـ لن أذهب حتى أدرك كل شئ.. وإلا استدعيت لك الشرطة وقلت سرقنى.

ـ هل تلحق الأذى بشيخ ضرير؟

ـ وهل تريد أن يضيع مستقبلى الزاهر وأنا فى عز الشباب.

ـ وهل تبدأ مستقبلك الزاهر وأنت فى عز الشباب بالكتابة عن امرأة؟

ـ أبدأ مستقبلى كما يتراءى لى، فلا يخصك هذا.. فقط ساعدنى.. إنك كوالدى وأعتمد عليك.. فإمددنى من بحر ذكرياتك فلا شك أن كان لك يوما ما ماض عريق ومجد عظيم، لكن الحياة ترفع وتخفض كما تشاء.. أليس كذلك؟

ـ إن كل ما سأقوله لك؛ سأقدم عليه الدليل القاطع.

ـ عظيم.

ـ انتظر ولاتقاطعني؛ لا تكن مثلهم تتكلم كثيرا.. سوف أعرض عليك تاريخ حياتها كله بالصور.

وهل لى أن أسأله سؤالا قبل أن يبدأ؟

ـ هل أنت متزوج؟ فنظر إلى فى أسى وتنهد:

ـ كنت.. ولقد ذهبت لتعيش معه فى القصر الكبير

طأطأ الرجل رأسه..

أحسست أنه كاد يبكى من فرط التأثر، فأخدته من ذراعه قائلا، هل تسمح بالجلوس على هذه القهوة ونتبادل الحديث.. هون عليك، لن تأخذ من الدنيا شيئاً.. إنها فانيه.. تأبط الشيخ عوده وسار متهاوياً كأنه مجرم هارب من العدالة استسلم حين لم يجد سبيلا لإستئناف الفرار.. وفى الطريق:

ـ إن أخطر ما فى هذه الدنيا يابنى جمال النساء

ـ لم يسبق لى أن تعرضت لهذا الخطر ياسيدى

ـ إن النساء طيبات القلوب، لا يريدن الشر ولكنهن أصله، ولا يرغبن الخراب ولكنهن الطريق إليه، وهن لايقصدن السحر ولكنهن مصدره، كلهن دعوة للحياة.. لايستطيع أقدر الرجال أن يرفضها، وإذا رفضها فقد حكم على نفسه بالذبول والموت.. لأن ذلك هو حكم الطبيعة تستوى فى ذلك الجميلة والقبيحة.. صوفيا لورين مع سنية مع ماريا مع ثريا مع ست الدار.. كلهن بلا إستثناء.. تنهد وقال:

ـ تركتنى وحدى أهيم فى دنيا الوحدة، لولا هذا العود، صاحب القلب الكبير، أنه صديقى الحنون

جلست وطلبت قهوتين مضبوطتين، ولما جاءت القهوة اختطفت كوب الماء وابتلعته جرعة واحدة.

بدأ الرجل بعد أن هدأ يخرج من الكيس أوراقا وصورا.. ما هذا.. آه أنت يدك ساخنة ملتهبة.

صديقتى والقفل

دون إرادة أخذ يرنو إلى القفل:

سأله: من أنت؟

فأجابه القفل: أننى القفل

ـ أعرف أنك القفل ولكن ماذا تفعل هنا؟

ـ أيها الفتى ألا تدرى ما قيمة القفل؟

ـ بل أدرى، فالقفل حماية وأنت هنا بلا جدوى ، لا شئ يستحق حمايتك مضت عيناه تسأل القفل، والقفل يجيب بهدوء لا يثيره أن يشك أحد فى أهميته.

سليم تائه بين السؤال والسؤال لايستطيع أن يدفع قدميه إلى الميضأة.. ألم يأت إلى المسجد ليصلى أم تراه جاء ليجرى حواراً مع قفل قديم معلق فى الباب المؤدى إلى المأذنة.

وأخيراً كشر القفل وعلت الكآبة ملامحه، بداضخما كأنه فأس.. بينما سليم يرقبه ولا يملك لنفسه فكاكا.. أجراس الفضول تدق داخل برجه، وهو حائر فى وقته كالبندول.. هاتف يلكزه فى صدره ويشد أذنه: افتح القفل.. اصعد.. تفرج على العالم من فوق المأذنة.. إلى متى ستظل فى الذيل.. كن إيجابياً مرة.

إمتدت يد زوجتى إلى صدرى فى نعومة.. لحمها الطرى دافئ ولذيذ.. اختلج جسدى للمستها الرقيقة.

وقفت خلفى تماما وأصبح صدرها فى ظهرى ورأسها فى كتفى ويداها فى صدرى كنت مشغولا بالموسيقى الضرير.. أريد أن أقص عليكم.. قصته.. ولكنها.. ماذا تريدين؟.. أجبينى واذهبى.. لم تجب ولن تذهب وتابعت مداعبتها لى وكلما حاولت أن أنطق، ضاعت الكلمات والحروف.. لقد هجمت بكل طائراتها ودباباتها وهى إذا وضعت فى رأسها أمراً فلن تتركه أو تهلك دونه.. حاولت أن أرد فلم أستطع.. حاولت أن أسألها فلم ترد.. واكتسى وجهها بحمرة شفافة وحرارة ونجوى.. فقبلتها لأرضيها وأرضى نفسى، وأطلب عطفها وعفوها عنى.. وتحللنى من قيودها نصف ساعة أخرى، أقسمت لها بكل الوعود، أن أوافيها هناك، وظللت أتكلم.. حتى توقفت وحدى عن الكلام، أحسست أن لسانى لا يتحرك وليس عندى ما أكتبه، بل نسيت ما كنت أكتبه لكنى سوف أعود على الفور، لن أغيب عنكم، سأعود لكى أكمل الحكاية.. فالكتابة لذة لا تعادلها لذة وخاصة إذا كانت عن هذا الرجل الذى إستولت عليه امرأة، فبدلت حاله.

بنها فى يوليو ١٩٦٩

ريفى بسيط تدفعه الأيام هنا وهناك.. الوقت لديه جلباب فضفاض.. سليم دائماً صامت، كأن صمته يلذله، وفجأة يلوح له شيطان ما، يطالبه بأن يكون ذا شخصية وصاحب أفكار، تتحرك فى أعماقه الفارغة كالبئر المهجور مشاعر غلابة توحى إليه أن يفعل شيئا، يصدر أمراً ما، يعلن خبرا ما.. غير لائق أن يبقى فى المحفل صورة، أو فى الموكب دابة لا تملك إلا الهرولة.

إمتدت يده مرة فى جحر بلا تفكير يستفسر عما فيه، وإذا حية تلدغه، وترتد إليه يده باكية ملتاعة.. ينفضها كأنه يرمى اللدغة ويدس أصابعه الملدوغة فى شفتيه يبرد نارها.. كن إيجابيا مرة.

بحلق فى القفل.. انقض عليه بكفه الثقيلة، اعتصره بأصابعه المعروفة ولكنها ريفية الصلابة.

فغر القفل فاه، وانحلت عقدته وإذا الباب يفتح صدره للفاتح.

باب المأذنة الذى لا يفتح لغير الشيخ رجب فتح لك ياسليم، ليس غيركما فى البلد بحلق فى يديه وفى القفل وفى الباب.. رقصت أعماقه كأنه فتح باب الجنة.. نسى كل شئ فى الدنيا وإستعدت مشاعره لاستقبال السعادة والمتعة.. وتأمل أولى درجات السلم ثم تطلع فى عجب إلى جدران الممر المخنوق.

جاء ليتوضأ ويطلب عون القادر صاحب هذا البيت. الله ياالله كيف يتسنى لى أن أكفى سبعة أنفس من نصف فدان لا نملكه، أنت معنا ولا ريب، لكنهم يفتحون الأفواه بلا زحمة تساندهم أمهم.. أنا لم أتعب ولن أتعب، ولكنى أسأل ماذا أفعل؟

دواء للمرض ومصروفات تعليم لثلاثة وطعام وكساء وعلف للبهيمة وكيماوى للأرض وإيجار الفدان.. أليس هذا كثير ياصاحب هذا البيت؟

أنا لا أنزف دمعاً ولا أنهش لحما ولا آتى جرما مهماً علا صياح أمهم:

ـ الكل يدخلون على أولادهم يحملون وأنت؟

ماذا أقول؟ الأرزاق عليها أقفال غليظة لا يفتحها إلا الله.. أنا أعمل ولا أكل أبدا، معى ولدى الكبير.. ليل نهار يعمل كحمار، ويجيد مثلى الصمت ككلب شبعان.

بلدنا لا تعرف غير الزرع ومساحات الأمل تحددها الأرض، ليلنا معروف ونهارنا معروف والأيام معدودة.

كفى يا امرأة.. تحرك يارجل.. احمدى الله واصبرى.. الحمد لله.. الفلاحون يجمعون الفئوس ويسوقون النهار أمامهم فى رحلة العودة.. إنتهى العمل لا تجد الشمس ما يستدعى بقاءها، تجمع خيوطها النحاسية وتشرع فى الغروب.. يهجم فى إثرها الليل الرابض خلف الأفق ينتظر غروب الشمس.

كفى يا امرأة أنا ذاهب إلى المسجد.. أتهرب منا؟.. بل أهرب من الغم وحمل الهم.. ألا يهمك حالنا؟.. أقبل يدى ظهراً البطن فهل تفعلين؟.. اذهب وجرجر فى ذيلك نصائحك.. لا تفقهينها.. لا يفقهها غيرك والدنيا تعرف لغة أخرى، وتقول كلاما جد مختلف.. الدنيا ليست كل شئ فى الدنيا، الدنيا تحوى ما هو غير الدنيا.. سلام.

المدخل مخنوق والسلم كثير الدرجات، كيف يجتازه الشيخ رجب وهو كالخرتيت حجما وملامح.. وهذا المنعطف ربما يمرق فيه برأسه أولا كالطفل المولود.

مضى سليم يصعد كأنه يهبط فى سرداب، جدران ملتفة تدور وتدور.. بصعوبة أقنع نفسه أنه لا يمضى داخل مصران أو أمعاء.. مازال السؤال الحائر يتراقص أمام عقله، كيف يمر من هنا موكب الشيخ رجب بشحمه المتراكم ولحمه المكدس.. ماضر لو وزعوا لحمه على عشرة أفراد.

بدأ النور الرمادى يدنو منه ويتلقاه مرحبا قبل نهاية الدرجات.. لاحت له السماء زرقاء محمرة بدم الشمس.

رنا إليه الأفق فى دهشة، مالذى أتى بك إلى هنا.؟

أجاب سليم: تفكيرى العبقرى.. أنا لست شخصاً عادياً.

الرؤية من أعلى يسيرة ولذيذة.. الدنيا كلها فى راحته.. مجرد خطوط فى كفه..

نسمات طرية نقية، تسربت إلى أنفه، ونفذت إلى صدره، ملأت قلبه رضاً وحباً للحياة، يكفيها أنها أنقذته من دخان الغم وعتمة الأحاديث الفحمية التى تدفن كل أثار البهجة.

الترعة هناك تلمع مياهها مع تقلب فتات الموج.. ها هو القطار يجتاز حدودنا من بعيد البعيد، فى أقصى إمتداد البصر، ثعبان أسود لا يدخل قريتنا ولا يرضى أن يقيم بها لحظات.

فكر أن يؤذن للصلاة، لكنه تذكر أن الشيخ رجب أذن لها.. لا بأس أن يدعوهم مرة أخرى فربما هناك من لم يسمع.

وهم، لكنه أمسك بتلابيب نفسه حين أدرك أن ثورة الناس ستكون عليه عارمة.. ليبق القفل على الأفواه كما هو.. ليس هو المسئول عن تذكيرهم بالصلاة.. يكفيه مالديه من أفواه.

أصبح الإنسان فى هذا الزمان، يحتاج إلى أقفال كثيرة. لص. لص. لمحت لصاً يحمل آنية، يعدو فوق الأسطح، من تراه، من تراه؟

سقط بين الحطب فى بيت الحاج سلامة، لم يعرف بالضبط من أين صعد!

هام للغاية أن يعرف من أين صعد؟ ففريسته لاشك هناك.

ربما كان اللص هو ابن الحاج سلامة وربما كان صعوده من دار عمته أخت الحاج سلامة. فى قريتنا السارق أخ المسروق والناهب عم المنهوب.

خطرت الشمس على باله وأرسل إليها نظراته، بحث عنها.. لم يجدها. أغلق القفل عليها فتوقف النور عن الظهور، عادت نظراته ترنو للقرية المحشوة بالأولاد.. بدأت ألسنة الدخان تتلوى فوق الأسطح الحطبية الدكناء.

تذكر أنه لم يتوضأ ومضى منه الوقت، وهو يسبح فى مياه حلوة أعلى المأذنة يرقب الناس، والناس غارقة فى الحكايا، فى كل كلمة حكاية، وفى كل موقف لها حكاية، غير حكايات كثيرة تتسكع فى أعماقها تود لو تقال ولو يلفها الكذب، وكثيراً ما تقال ولو لفها الكذب.

بنت هناك تركت جرتها عند الطلمبة، ومضت خلف دوار العمدة، حركتها السوداء تبدو أعلى برغم ضياع النور، برز لها جسد من باب الدوار الخلفى، إنه شكرى ابن العمدة يعرفه سليم، فى حجم أبيه، لكن البنت ككل البنات رفيعة العود تلبس السواد وخمارها

الأسود يدور حول الوجه المضئ كسوار، يحسب أنه يضع حدوداً للعاشق لا يتعداها، لكن أيا خمار البنت الأسود فى أى الأزمان عرف العاشق أى حدود.

لا. ليس هو شكرى، إنه العمدة نفسه، يتقلب فى جسد متدحرج كأربعة من فرسان البحر، عرفه سليم حين إستدار تجاهه يحاول أن يضم على الفتاة ذراعيه، لكن الكرش كبير، وماذا عن زوجته؟. هيا ياعينا سليم إلى الدار، داره لا تبتعد عن الدوار إلا عده أمتار. نصفها مستو والنصف الباقى خال. يستقبل نور الله ويفسح للدخان الدائم ساحة.

بحلق سليم فى الدار، نفذت عيناه من السقف المفتوح. يجب أن يخبر زوج العمدة بنظراته عما جرى، زوجها المسئول عن القرية يعابث فتاة لا أعرفها. أحقا لا تعرفها. أقسم أنى لا أعرفها. صفها لى. رفيعة القوام وتلبس السواد، مضيئة الوجه كبدر، أهذا كل ما هناك. أجل. وأين كنت أنت؟. أنا. كنت فوق المأذنة. أنت كاذب، غير مسموح لإنسان أن يقترب حتى من باب المأذنة.

جذب إليه أفكاره السابحة فى أسئلة زوج العمدة، واستعاد نظراته المشغولة، حين لمح شبحا يجرى فى إثر شبح، اختفيا ثم عادا للظهور. واختفيا ثم عادا للظهور. إنه العمدة. هو بلحمه وشحمه، لا، لأن العمدة تركناه خلف الدوار مشغولا بأخرى. إذن فهو ابن العمدة وفريسته هى ذكية الخادمة. ماذا يجرى فى الدنيا. كل شئ يجرى وراء كل شئ.

إرتدت الدنيا ثوب الظلام وإستراحت إليه وسكنت فيها الحركة. ما عاد سليم يسمع ولا يرى، ربما لم تسكن الحركة ومازال كل شئ يجرى وراء كل شئ.

أمسك بالخيط المتدلى من رأسه. لكم تمنت زوجه أن تعمل عند العمدة فهناك خير وفير، وتنعم بالرزق المتفجر فى غير نظام. لكم تمنت!. فماذا لو قلت للعمدة عما جرى من ابنه مع ذكية حتى يطردها وتعمل مكانها أم الأولاد، فتنال ماتبتغى وتهدينى صمتها الحبيب.

لتكن زكية هى التى جرت فى إثر شكرى وعابثته فهرب منها. وكيف عرفت؟ رأيتهما. وأين كنت؟. كنت بالمأذنة. كاذب. لا يسمح لمخلوق أيا كان بالدنو حتى من بابها الأرضى.

حل الظلام وشبع من الرؤية رأى مالا عين رأت. اتفق مع نفسه على ألا تنقطع الزيارات. لابد من زيارة صديقته المأذنة، لقد غسلته وطهرته. موعدنا غدا فى نفس الوقت هبط الدرجات وأعاد القفل إلى مكانه قبل أن تضبطه أية عين، فالنظرة وحدها تبنى خبراً وحكاية.

تسمر بعد خطوات. اندق فى مكانه. هل يمضى إلى داره بلا صلاة لا العبد ولا الرب يقبل هذا. عاد فصلى وخلا المسجد من كل الأنفاس ماعداه.. لاك فى رأسه المشاهد التى رآها من أعلى. أسرار وأسرار، حكايات غريبة. أناس كثيرون ليسوا فى أماكنهم وغيرهم يلبسون ملابس ليست لهم.

أحس بالجوع يجرى وراءه، وهو لا يملك قدرة على المكوث حتى بعد العشاء.. تنهد بإرتياح كشخص أدى عمله وزيادة. جمع عافيته فى وعائه الجسدى، وثبت رأسه فوق كتفيه ومضى إلى داره، يرنو بين الحين والحين إلى المأذنة التى امتصت كل غضبه وآلامه.. صديقتى المأذنة.. موعدنا بعد آذان المغرب مباشرة.. هذا أنسب الأوقات لى ولك.. أغلق القفل على السيرة وأكد على نفسه بألا تحكى لأحد ما كان. ومضى صامتاً، ولكنه كان شخصاً أخر غير الذى كان قبل أن يتعرف إلى المأذنة التى أصبحت صديقته بعد أن حل لغز القفل.

مايو ١٩٧١

الرجل الدب

بعد أن تغذى وتجشأ، مسح الزوج شفتيه بظاهر يده وحمد الله على النعمة، ثم طلب من زوجته أن تحضر الشمام المثلج، فهو يحبه مثلجا، وقد ذابت فيه بعض حبات السكر، تضيف حلاوة إلى حلاوته ويترسب في قاع الطبق ماء حلو المذاق، ولا يحس الزوج بحلاوته إلا إذا رفع الطبق بكلتا يديه إلى شفتيه يرتشف ماءه.

تنحنحت الزوجة ودارت حول نفسها، مرتبكة لا تجد الكلمات.. اختفت الكلمات كعادتها حين تبحث عنها في إهتمام وإلحاح. سأل الزوج:

ـ ماذا جرى لك ياسيدة.. أين الشمامة؟

ـ حالا ياصابر. إغسل يديك أولا حتى أعده لك

ـ أنت تعلمين أني لا أغسل يدى وفمي إلا مرة واحدة في نهاية طعامي

ذهبت إلى المطبخ، تسأل نفسها على مهل: ماذا أقول له؟ لقد بحثت عنها في كل مكان، فلم أعثر لها على أثر، ربما انشقت الأرض وبلعتها.

انقض عليها صراخ زوجها كالمطرقة.. هزها.. هدها.. دكها.

ـ ماذا تفعلين عندك ياسيدة؟

ساد الظلام كل فراغات رأسها.. سقطت من يديها المعالق في حوض الغسيل ردت بلا إرادة:

ـ أغسل الأوانى
ـ تغسلين الأوانى.. هل جننت؟ أين الشمام؟
ـ حالا.. أنت لا تصبر أبدا
ـ ولم الصبر.. أحضره أنا
ـ لا.. ابق أنت وسأحضره.. هل أعد لك الشاى؟
ـ أى شاى وأى زفت على دماغ أهلك

فى نفسها قالت: آه من لسانك المبرد.. بدأنا فى الغلط، والليلة لن تمر بخير. بعد قليل سينهمر السب واللعن.. فتحمل ياأبى فى قبرك وأنت يا أمى ياساكنة على بعد أمتار.

ـ انت يامسطولة، لماذا لا تردى

ـ آه صحيح عنده حق، أنا لم أرد عليه، لكن ماذا أقول له؟ يجدر بى أن أواجهه وأمرى لله

خرجت إليه.. بلعت ريقها.. أمسكت بجدار المطبخ المجاور للحمام لكى تجرى إلى الحمام وتغلق على نفسها بابه إذا هاج.. فهو عند الغضب ثور.. دب مفترس.. تفقد عيناه كل دروب الرؤية.. ينسى كل كلمة حلوة وكل لحظة جميلة مرت عليهما من قبل.

ـ بصراحة ياصابر أنا لا أعرف أين ذهبت الشمامة؟

ـ نعم.

ـ أنا رأيتها قبل أن تحضر بنحو ساعة، وقلت فى نفسى يابنت ياسيدة بعد قليل سأقطعها، وأجهزها لصابر فى الثلاجة، فهو يحبها مثلجة.

ـ اخلصى.. ثم ماذا؟
ـ أدور عليها فى سلقط فى ملقط.. لا أثر لها
ـ هى شمامة بعجل ياست سيدة.. أم أن أحدهم خطفها وسيطلب منا فدية
ـ هذا ما حدث ياصابر.. بحثت فى كل مكان تتخيله أو لا تتخيله.

نظرت سيدة إلى كل الأشياء القريبة منه لتتأكد أنه لن يجد ما يلقيه عليها.. لحمد لله.. سيقضم أسنانه ويظل يدق المنضدة ويخور كالثور، وإذا نهض ستسرع إلى الحمام وتغلقه عليها.. ولكنه ربما يكسره.. يعملها إنه رجل لا ضابط له ولا حاكم، ولا يتقى الله

رغم أنه متعلم وموظف وظيفة محترمة.. ما هذه الشحنة الكبيرة من الغضب والثورة فى صدره، لماذا هو دائما يغلى؟.. هل العمل له دخل؟ لا أظن لأنه يعمل عمل كتابى.. لماذا تتقافز أمام عينيه العفاريت دائما.

فى هدوء غريب لم يسبق له مثيل قال

ـ سأبحث عنها بنفسى.. ولو وجدتها فلن تبيتى الليلة هنا.. فاهمة.

سألته ببرود:

ـ وإن لم تجدها.. قال لها على الفور

ـ لن تبيتى أيضا

وفجأة التقط دورقا زجاجياً مملوء بالماء كان على يمينه ولم تراه.. قذفه عليها قذفة صاروخية.. لا تراه العين.. ولولا ستر الله ويقظتها لإرتطم بوجهها، ودمره تدميرا كاملا.. إصطدم الدورق بالجدار خلفها بعد أن تنحت من طريقه طاخ.. سقط على الأرض قطعا مائية تسبح فى الماء.

قام يبحث بهمة ونشاط كأنه يبحث عن حجة البيت أو تحويشة العمر، فلا يعلو صراخ الناس هذه الأيام إلا من أجل المال والعقار..

لم يكفه البحث عن الشمامة فى الآماكن التى يمكن أن تتردد عليها بحجمها البيضاوى المستطيل قليلا، بما لا يزيد عن حجم رأسه مرة ونصف مرة.. بل كان يبحث تحت المراتب والحشايا وفوق الدولاب وفيه وتحته، وفوق الأرائك وخلف اللوحات المعلقة وفوق السرير، أما تحته فقد ألقى ابنته هالة ذات السنين الأربع نائمة.. فكر فى خضم غضه المكظوم أن يدفعها بقبضته ويقول:

ـ انهضى يابنت أمك.. بلوى خلفت بلوى.

لكنه تابع بحثه وهو يزفر

ضرب كفا بكف، استغفر الله كثيراً.. لم يجدها أبدا أبدا.. لم تمر من هنا إطلاقا ولا أثر لها ولا رائحة تدل عليها.. شم كل الأماكن والأركان التى يمكن أن تكون قد تدحرجت إليها.. فهو شمام قدير.. لكن لا أمل اليوم فى الشمام.

وقف كالفتوة فى وسط الصالة وهو لا يعرف ماذا يقول، وماذا يجدى قوله.

ـ لو كانت إبرة .. مجرد إبرة لوجدتها.

فجأة نظر إلى زوجته المتشبثة طوال الوقت بجدار المطبخ، مستعدة للهروب إلى الخندق إذا حدثت غارة، قدمها اليمنى إلى الخلف، توفر بها خطوة؛ فلا يكون مطلوبا منها عند الهجوم إلا الاستدارة والقفز فى الحمام.

برقت عيناه بإحمرار السخط، وكأنه سينفخ فى الصور إستعداداً ليوم القيامة

ـ غورى فى ستين ألف داهية.. لن تبيتى فيها

ردت عليه لأنها عرفت النتيجة منذ البداية ولا أمل فى تراجعه عنها.. تقول إذن ما فى نفسها والأجر والثواب على الله..

ـ وهل هناك من تتحملك مثلى.. نكد بالليل وبالنهار.. شخط ونطر.. ضرب وسب وزعيق.. عيشة مرة تقصر العمر..

وغادرت سيدة البيت.. وإنتهت بهذا معركة الشمامة بلا جراح؛ أو خسارة فى الأرواح ولا تدمير فى العتاد، اللهم إلا الدورق الزجاجى وهى معركة سلمية بالقياس إلى ما قبلها من المعارك؛ لكن الموضوع مازال معلقا ولم يتصل أحد بهم بشأن الشمامة الضائعة لا ليطلب فدية ولا ليدلهم عليها.

وعلى ذلك فالغضب قدر ظل يغلى فى صدر صابر.. فذهب ليجلس فى الشرفة يدخن وهو مازال بالفانلة واللباس.

بعد قليل استيقظت البنت الصغيرة هالة، ودارت فى الشقة تبحث عن أمها وأبيها وهى تدعك عينيها، وأخيرا عثرت على أبيها يزفر الدخان مكفهر الوجه، شرس الملامح تتسع فتحتى أنفه رويدا رويدا.. نامت واقفة على حجره فى كسل وحب.

ـ أين ماما يابابا؟

ـ غارت.

ـ أين ماما..؟

ـ ذهبت إلى أمها.

ـ خذنى إليها.

ـ عندما نجد الشمامة.

ـ الشمامة حلوة يابابا.

تنبه إلى كلماتها.. البنت أكلت الشمامة كلها.. مستحيل.. قبض على ذراعها الصغير فى قسوة غير أبوية، عصرته وأوقف تدفق الدم والحياة فيه.

ـ هل أكلت الشمامة؟

ـ لا يابابا.. لقد كانت تنام معى بدلا من هذا الدب الصوفى

ـ كانت تنام معك!

ـ نعم.. ومازالت نائمة فلا توقظها

ألقى بها فالتصقت بسور الشرفة وأسرع إلى السرير انحنى، أطل تحته. وجد الشمامة جاءت إليه هالة، خشيت أن يوقظ الشمامة.

ـ وجدتها تحت السرير، نمت إلى جوارها، غرست فيها أسنانى.. إنها أجمل من هذا الدب.. لصوفه رائحة غريبة.. وحين أقبله تدخل فروته فى فمى.. أنظر هذه هى أسنانى.. ها أنت وجدت الشمامة.. هيا نذهب إلى أمى.

تنهد الأب فى إسترخاء.. جلس على السرير، يريد أن يحتضن ابنته الجميلة الرقيقة البريئة التى يحبها كل الجيران.

ـ بعد أن نأكل الشمامة.

ـ لا أحب الشمام.. أنا أحب أمى.

ـ كونى عاقلة.. بعد أن نأكل الشمام.

ـ بل أريد أمى.. أريد أمى.

واهتزت فى غضب وضربت السرير بقبضتيها اللينتين.. سحبها من يديها احتضنها فى حنان بدا فى عينيه.. حنان أبوى ساحر.. عاطفة غلابة تطل فى العيون مع أشباح الدموع.. أشياء لا تصدق عن هذا الرجل الدب.

قال لابنته:

ـ احملى الشمامة.. سنذهب إلى ماما ونأكلها عند جدتك.. هيا.. هيا

حمل ابنته، وحملت ابنته الشمامة وأغلق الباب بشدة.. وسار معا والناس فى الشارع يحيون هالة ويضحكون لها ويداعبون فيها الرقة والبراءه.

سبتمبر ١٩٧١

العجــز

إهـــــداء

إلى شريكة الحياة..

ورفيقة العمر..

نموذج الاخلاص والحب

فــؤاد

الـــدم

عندما وضعت قدمى على أول درجة من درجات السلم الحجرى، استوقفنى للحظة منظر دم. نقط من الدم.. لكنى لم أهتم.

كل شيء ممكن حدوثه. والاهتمام يكون بقدر الانفعال، والانفعال يكون بقدر الخصوصية.

لكنى مع درجة أخرى، وجدت نقطاً أخرى من دم. ثم درجة ثالثة ورابعة.. كلما صعدت وجدت الدم يسبقنى. توجست.

بدأت الأسئلة تدق رأسى. ما هذا الدم؟.

هل ياترى دم دجاجة أم دم إنسان؟.. أم دم قط أم دم.. أم مجرد لون.. سائل أحمر.

وإذا كان دماً بشرياً فهل يخصنا؟.

ثقل دق الأسئلة وطرق الأفكار على رأسى.. هل يخصنى؟..

فى هذه الحالات يسرع العقل فى طريق التشاؤم، حتى ليتخيل الإنسان أن مخلوقاً من السماء جاء خصيصاً ليذبح ابنه، وقد يتصور آخر أن رصاصة خاطئة أصابت زوجته.

شيء معقول وممكن.

لم تعد التصرفات الحمقاء والخرقاء فى هذا العصر، مقصورة على الهمجى دون المتعلم، أو الريفى دون الحضرى. لقد غدت الأنهار بلا جسور واختلط الحابل ـ كما يقولون ـ بالنابل.

لم تعد هناك برامج محددة لخطوات الإنسان ولا مناهج لسلوكه ولا خطة له فى الحياة. أصبحت المسائل ارتجالية وبنت لحظتها ومعظمها ردود أفعال وليست أفعال.

كالخائف. حين يحسب القطة فى الليل روحاً شريرة أو عفريتاً يتقمص جسد قطة إلى غير ذلك.

أنا بالذات دق قلبى بعنف، حين وقعت عينى على الدم.. أنا بالذات لم أفكر فى المجانين، لم تشغلنى رصاصة طائشة..

شغلتنى رصاصة حقيقية. رصاصة تتبعنى من زمن، وتترقبنى طويلاً لتنطلق إلى صدرى، فتصيب وتدمى، وتنهى القضية.

فجأة تصورته أمامى. ارتسم فى رأسى وقلبى وجهه الشرس وشاربه الضخم ونظراته القاتلة. فجأة أحاطنى من كل جانب. لفتنى نظراته كثعبان. قيدتنى. علقتنى وشنقتنى.

وقفت على السلم مجمداً. درت حول نفسى مذعوراً..

هل جاء؟.

هل عرف مكاننا.. وكيف؟.

لا.. لا تسأل كيف.. لايصعب عليه شىء، إنه داهية.. يأتى من أسيوط إلى رشيد بحثاً عنا، ليصب رصاصاته فينا ويرتاح.. يرفع رأسه بعدها ويظهر وجهه كله المختفى خلف «التلافيح» و«الكوفيات» و.. و.. حتى لا يبقى له إلا عينان كعينى بندقيته المشتاقة.

عيون لا يغمض لها جفن ليل نهار.. سنوات مضت.

لا تسأل كيف يجد طريقه إلينا.

يستطيع أن يبلغنا ـ وله عيون ـ حتى لو ابتلعتنا الأرض أو اختبأنا فى بطن الحوت، يستطيع أن ينفذ من ثقب الإبرة.. وغير العيون له أنوف تشم آثارنا وتهتدى إلى روائحنا أنّى ذهبنا آه.. آه مسح البلاد كلها من جنوبها إلى الشمال.

ما هذا الدم؟.

هل يمكن أن يكون قد؟.. لا أظن.

فقط أنا لا أظن، من باب الأمل فى الله والطمع فى رحمته.

يارب ليس الآن.. يارب أجّل قضاءك.

هل هذا الدم.. دمهم؟.

دق قلبى بعنف.

قفزت أتابع الدم. الدم يقفز معى، إلى أن أبلغ شقتى.

وانتهى هناك. نفذ تحت عقب الباب.. توقفت أقلب الأمر.

مت لدقيقة. تيقنت أن كل شىء قد انتهى.

لم أطرق الباب. بلغنى صراخ ابنتى. فتحت بسرعة واندفعت تجاه الصوت. ألفيت دينا الصغيرة غارقة فى دموعها.. أين الدم اختفى فجأة.

ـ أين ماما؟

عدت أهزها فى اضطراب.

ـ أين ماما؟

كفت عن البكاء ولم ترد. زادت حيرتى. أوشك عقلى أن يطير شظايا. عدت إلى الدم. سرت فى أعقابه، تصورته خطاً دموياً إلى الأبد. نقط حمراء ممتدة إلى نهاية العمر. لها أسنان تنهش.

انتهى طابور الدم عند المطبخ، دون بحيرة ودون منطقة تجمع واسعة. انتهى فى صمت وبلا نتيجة محددة. كدت أجن.

بعد التزام الصمت والسكون محاولاً التفكير بلا جدوى.. أخذت أقفز فى الشقة كالمذبوح. أدفع الأبواب وأرتمى تحت السرير وتحت المقاعد. أفتح الدولاب وأحدق.. لم يعد لى رأس يفكر. لم تعد لى عينان لأرى.

أسرعت أهبط الدرجات. انعطفت إلى البواب. دفعت بابه. نهض من فراشه وتثاءب.

ـ أين الأولاد؟.

ـ أولادك؟.

ـ نعم.. أين ذهبوا.

ـ وكيف أعرف ؟

صعدت السلم فى قفزتين إلى الشقة المقابلة.. بعنف وغيظ طرقت الباب.

ـ أين الأولاد؟.

ـ أليسوا بالشقة؟.

هبطت السلم فى قفزتين. فوجئت بزوجتى تجتاز باب العمارة. تحمل ابنتى الكبيرة نهى، ويدها بالشاش مربوطة. توقفت. تنهدت. جلست على السلم.

قالت: أمسكت الصغيرة السكين، حاولت الكبيرة أن..

لحظات قبل ركوب الحصان

فرقاً ترتعد المياه الملونة. تتكسر ألوانها المتعددة تحت وهج الشمس. تسمرت الجبال تحدق.

العيون خنادق. المحاجر غاصت فى الرءوس. النظرات تراجعت لتنطلق. تطوف بالساحة العريضة. ترقب وتراقب.

تثلج الهواء. لاشهيق. لا زفير.

تفرغت المسافات بين الأشياء وتلاشت. تعرفت الأجسام إلى الأجسام. تلاقت فى التحام.

بمرور الوقت غدت أجساماً مادية كل الأصوات. أحجاراً..رصاصات لا نعرف أنه انطلق إلا إذا قتل.

دوى. أنواع مختلفة من الدوى، وجميعها لها لون واحد. لون واحد. لون الخطر والرعب. لها هدف واحد. الموت والدمار والسحق.

قسموا وحدات البلدوزر إلى مجموعات. على كل مجموعة أن تعبر القناة بآلاتها الثقيلة. تقتحم السد الرملى. تشد صدر الموت.

ثلاثة كنا وضابط. أنا أصغر الجنود سناً وأحدثهم عهداً.

فى قلب الشمس تماماً وقفنا نرقب دورنا للعبور. دورنا مازال فى بطن الزمان. الزمان تكسر وتفتت، ثم تضاءل وتبخر. شعرنا أننا سنهبط من طائرة بلا مظلة. لم يبق إلا تحديد الموقع.

تحول الزمان هذه اللحظة إلى مكان.. منتهى التركيز على المكان. عيوننا وقلوبنا معلقة بالضفة الأخرى من القناة. وبذلك المرتفع بالتحديد. أنا نفسى كنت أرنو لأول مكعب رملى سأكتسحه بالبلدوزر. هذا هو الزمان.

أما المكان فقد تحول إلى زمان. كل شىء محسوس وملموس أصبح لحظة. أنا أصبحت لحظة. تك وانتهى. مجرد تك. أدنى وحدة من وحدات الزمن أياً كان اسمها.

حين تحولت إلى لحظة فقدت ذاكرتى. تلاشت من رأسى كل المعلومات. أى معلومات. لا أعرف شيئاً عن اسمى. اسم عائلتى. قريتنا الصغيرة. أيام الطفولة والدراسة. أصدقائى. حنان أمى. أغنياتى المفضلة. نصيبى من تركة عمى.

كل شىء ضاع تماماً وضعت.تحولت إلى لحظة. فقدت ذاتى ومعالمى وأصبحت زمناً ما.. يوماً أو سنة. دقيقة. ثانية لا أدرى. يحدد ذلك خروج الرصاصة. أصبحنا كلنا نمثل الزمن المتجسد فى الأشياء. المتمثل فى المكان. الزمن مفروش فى هذه البقعة من العالم.

كل من تحمله جيداً ويفرم ويضغط ويكبس ويسحق ويغدو لحظة.

وعيت لنفسى فألفيت أنى متشبث بالمدفع الرشاش بيدى. ساند وعيى لا وعيى. تطابقا. اتفقا. توحدت. أصبحت كلاً واحداًوكنت أجزاء متناثرة. زاد تشبثى بالمدفع. التحمت بالحديد انه أصدق الأصدقاء فى هذه اللحظة.

سمعت هاتفاً ما من داخلى. من خارجى. لا أدرى يقول الموت هنا هو الشىء الوحيد الذى يجب أن نثق به ونوقن بحقيقته.

عبرت أفكارى الحدود والقناة إلى العدو المستعد هناك.. هناك العيون خنادق والنظرات تراجعت لتنطلق. تثلج الهواء. لاشهيق لازفير. تفرغت المسافات عندهم بين الأشياء.

في قلب الشمس تماماً وقف كل منهم ينتظر دوره للعبور.. الزمن تكسر وتفتت. تحول إلى مكان. منتهى التركيز على المكان.

أما المكان فقد تحول إلى زمان. كل شيء محسوس عندهم أصبح لحظة. تك وينتهي كل شيء. الجندى العدو هناك في الجانب الآخر تحول إلى لحظة. مجرد تك وتحذف كل علامات وجوده.

أصبحنا كلنا ـ نحن والأعداء ـ متحدين متناغمين منسجمين متشابهين في كل شيء. الزمن المتجسد في الأشياء.

قلبي يدق بعنف. الأسنان تطحن بعضها. الشفاه لم تعد ضفافاً جلدية للفم. لكنها بالمقابض الفولاذية أشبه. أو فوهة بركان مازال ينفث من جوفه الحمم.

أصدر الضابط أمره إلى داود، وهو أقدمنا كي يتقدم. إنقض داود على الآلة كي يتقدم. صرخ السولار في بطن الحديد المتحفز، وكأن الضابط أصدر أمره إلى الآلة أيضاً.

بدا داود فارساً فوق حصانه. شامخاً. مجتاحاً.

عبر القناة. قرر أن يكتسح العفن المتراكم في أحضان سينا والسنين. أعد السكين. للآلة سكين ضخم كمقصلة أسطورية.

تقدم داود. شق السد الرملي. تقدم داود. تقهقرت الرمال ارتعدت. دنا من آخر السر الغليظ.

فجأة. تطايرت الآلة في الفضاء شظايا، وتبعثر الفتات من لحم الحصان، والفارس أيضاً. فتات.

حلقت فوقهما هالة قاتمة من اللهب والدخان كأنهما من نفثات الحزن عليه نفثه.

أحنى الضابط رأسه وأحنيتها. تنهدنا. انتزع الأسى من مكمنه كل شيء. انخلعت قلوبنا. انقضت عليها المصيبة فدكتها في الصدور. انتصبت المشاعر في كينونتي كالأشواك. كالرماح.. الثورة الغضب.. الكرامة.. الشرف.. الثأر.. الدم.

بصقنا جثث القلوب المحطمة. تخلصنا من غيبوبة الألم قفز الضابط عالياً، وبكل مايملك من غضب، أصدر إلى الجندى الثانى يوسف أمره كى يعبر، كأنه القائد فى فرقة موسيقية، مندمجة تماماً فى ايقاعات اللحن العنيف.

برغم ارتفاع الآلة ودون أن يستند إليها، كان يوسف فوقها فى قفزة واحدة.

أدار المحرك وهم بالانطلاق، ثم لاذ بالصمت لحظات.

هدأت النغمة الصارخة. بدأ صمته غير منسجم مع الأحداث. راقبناه بفزع. تمتم ببضع كلمات غير مسموعة، ثم هبط.. عبث الشك بالصدور.

أخرج من صدره بطاقة بها عدة صور لأولاده ورسالة وسلسلة ذهبية، سلمها للضابط.

انفجرت باكياً.

فى هذه اللحظة التى يغوص الزمان فيها وفينا، ويحفر له أعمق الخنادق. فى هذه اللحظة التى تتهتك فيها أضلعنا، فتنزف بعنف. فى هذه اللحظة التى ترتجف فيها المدافع فوق رمال الفناء.. بكيت.

أبكى يوسف ذو الذيل الطويل من الأعباء واللحم والدم والحب والحكايات الساذجة. ربما هناك مائة شخص ينتظرونه، وقبلهم جميعاً طفله الصغير الذى يترقب أباه وهو عائد إليه بفارس مهيب، على حصان من الحلوى أو حصان من خشب.. لعبة للعيد القادم.

بكيت.

أسرعت إلى الضابط. رجوته أن يجعل دورى قبل يوسف.

رفض. صرخ يوسف.

ـ لا. لست جباناً. هذا وطنى وهذه أرضى وذاك ثأرى.

وفتات الجسد الملقى هناك الآن، حاراً مجنوناً ينتظرنى.

وداود يعرف أنى أنا القادم. لا تقل هذا.. رأسى لن يدفن فى التراب أبداً. أنا لن أموت حتى لو عدتم بدونى.

بكيت.

عصرت الجفون وصرخت.

ـ أرجوكم. سوف أقتل نفسى إن لم أفعل. أرجوك ياحضرة الضابط. أرجوك يا أمباشى يوسف.

رفض الضابط ورفض يوسف.

هويت على يدى يوسف أقبلها. وجسدى المحموم مهتاجاً يهتز.

ـ الموت أرحم منكم فارحمونى. ارحمونى.

أخيراً وافق الضابط فقفزت. وافق فطرت. أحتضن السماء، وأدوس حصانى الحديدى العملاق، فيزمجر ويرعد وينتفخ صدرى وأنا أعبر القناة. أمزق السد الرملى.

أشق فيه طريقاً فسيحاً لقول الدبابات.

رفعت السكين. زرعته فى الرمال. غرفت جبلاً من الرمل. حملته وألقيته بعيداً، غرفت مرة ومرة. صار لحصانى خندقاً كبيراً. تمدد فيه وسكن.

تلفت يمينى وشمالى، اكتشفت أنى لم أعد وحيداً.

الآلات والدبابات تبتلع الأرض فى تحفز ولهفة. وراءها وأمامها وقلبها الجنود. بشوق مجنون يخوضون بعيداً فى الصحراء، وتزهر مواضع الأقدام.

المظاهرة

كان الصمت يستولى على الحجرة تماماً، والضابط يتصفح باهتمام مجلة مملوءة بالصور، وقدماه على المكتب.. فجأة صرخ التليفون.. رفع الضابط السماعة. قال بهدوء العظماء:

ـ نعم.

انتفض حتى كاد يتشقلب ووقف معتدلاً: أهلاً يافندم.

عملت يده بنشاط فى ترتيب هندامه وشد حزامه، وكل حواسه تنتبه لما يسمعه، وبين الحين والحين ينطق بكلمة أو كلمات: مستحيل.. هنا فى قصر النيل.. لكن يافندم القرار صريح.. يمنع الـ.. أوامر سعادتك.. القوة الموجودة عندى بالقسم لاتكفى.. آه لو سمحت.. نعم.. حاضر.. لا تهتم سيادتك.. سألحق بها فوراً.. مع السلامة.

انتظر إلى أن أغلق محدثه السماعة، فوضع السماعة وشرد.. ضرب جرساً، ولم ينتظر الإجابة.. زعق:

ـ يا صول عبد العاطى.

جاء على الفور الصول عبد العاطى ودك الأرض بحذائه، انتصب محيياً مأمور القسم: تمام يافندم.

ـ اجمع لى القوة واستدعى حضرات الضباط، ونبه على المركبات كى تستعد، أبلغ الكل بالحضور حتى من قام بأجازة.

دق عبد العاطى الأرض بحذائه مرة أخرى وحيا الضابط: فى الحال يافندم.

دار على عقبيه ومضى فى حماس.

تقدم الضابط من الخريطة المعلقة على الجدار فى مواجهة مكتبه. سقطت نظراته مباشرة فوق الكوبرى. بدأه من أوله. سعد زغلول يقف شاهراً يده كالسيف.

أشار بعصاته إلى المواقع التى ستمر بها المظاهرة.. أين تراه أضيق ممر يتعين عليه أن يحتله ليسد عليها الطريق.

فتح الباب واندفع الضباط:

ـ ماذا حدث؟

ـ مظاهرة.

فى صوت واحد رددوا وراءه:

ـ مظاهرة.

ـ مظاهرة.. كنا قد ارتحنا من هذه الأمور.

ـ ربما لا يكونوا طلبة.

ـ طلبة أو غير طلبة، المهم أن هناك مظاهرة، أى عمل ضد القانون.

ـ وأين هى الآن؟

ـ فوق كوبرى قصر النيل ومتجهة إلى ميدان التحرير.

ـ وبعد الميدان.

ـ لا نعرف.

ـ ماهويتها.. ماهدفها؟

ـ لا أحد يعرف.. البلاغ لم يفدنا بغير ذلك.

ـ إما أن تتجه يميناً إلى قصر العينى فمجلس الشعب.

ـ أو تتجه إلى الأمام حيث باب اللوق فقصر عابدين.

ـ أو تتجه يساراً إلى شارع رمسيس حتى قصر القبة.

ـ على أى حال.. علينا الآن أن نذهب فوراً إلى ميدان التحرير ونتصرف حسب الظروف.

ـ أحذركم من العنف.

ـ هم الذين يبدأون.

ـ لا داعى للرد عليهم حتى لانتورط أكثر.. تكفى الدروع والعصى.

ـ وماذا تفيد؟

ـ انتظروا الأوامر.

ـ رأيى أنه لابد من المسيلة للدموع.

ـ موافق على سبيل الاحتياط.

ـ اتصل سيادتك بالمطافئ لتلحق بنا.

ـ من المؤكد أن سيادة اللواء اتصل بهم.. فضلاً عن أنه ليس من سلطتنا إصدار الأمر إليهم فى مثل هذه الشئون.

ـ إذن لابد من مساندة قوات الأمن المركزى، فنحن وحدنا سنسحق.

ـ وعد سيادة اللواء بارسالهم فوراً.. لكنها منطقتكم ومسئولة منكم.. فهم الآن يمرون بأرضكم.

ـ تمام يافندم.

ـ بعد دقيقتين على الأكثر نأخذ تمام أمام القسم.

انطلقوا جميعاً، جنود ومباحث وضباط وسيارات لورى وجيب..

فى ميدان التحرير هبطوا..

فى آلية تامة انتظموا صفوفاً، تحمل الدروع والعصى، وفوق رءوسهم تصطك الخوزات النحاسية وترن.. على الأسفلت تدق الأحذية الثقيلة، وفى الفضاء تدوى الحناجر معلنة ومبدية شراستها، وقدرتها على الردع: ها.. ها.. ها.

اندفع أحد الضباط ومعه جهاز الاتصال، وصعد فوق كوبرى المشاة الذى يلتف حول الميدان كدائرة النار.. راقب الكوبرى فى اهتمام وتحفز، راعته أعداد ضخمة من الجماهير تهدر بأصوات لا يتبينها تعبر الكوبرى وتتقدم كالغول.. كحيوان أسطورى ظهر مرة أخرى فى نهاية الزمان.

تحدث فى الجهاز إلى رئيس القوة.

ـ تمام يافندم.. المظاهرة ضخمة جداً، لا أرى لها نهاية.. عدد كبير محمول على الأكتاف.. أرى جنود الأمن المركزى وهم يصطفون هنا أمامى فى أول الميدان. يبدو أن الأوامر لم تصدر بعد لإيقاف المظاهرة والقبض على زعمائها.. المسافةبين المتظاهرين وجنود الأمن لاتزيد على خمسين متراً، صمت الضابط ليستقبل رد المقدم رئيس القوة:

ـ ابق فى مكانك.. سننضم إلى قوة الأمن المركزى.. سنوقف المظاهرة بإذن الله.

ـ أعتقد أن الشيوعيين وراء هذه المظاهرة.

ـ كيف عرفت؟

ـ يحملون أعلام حمراء.

ـ لابد أنهم كذلك.. ومع ذلك لن نبدأ العمل إلا بعد معرفة هويتهم.

أشار المقدم إلى ضابط وثلاثة جنود يرتدون الملابس المدنية:

ـ توجهوا فوراً إلى المظاهرة واندسوا وسط الجماهير.. حددوا نوع الهتافات وأكثرها تردداً ثم انضموا إلينا بسرعة عند أول الميدان.

استدار إلى الضباط رؤساء القوة:

ـ كل القوة بالخطوة السريعة تتجه إلى أول الميدان.

انتظر الجنود حتى تصدر لهم أوامر رؤساءهم المباشرين الضباط الصغار.. ثم بدأوا القفز فى أماكنهم.. أقدامهم تعلو وتنخفض، إلى أن صدر لهم الأمر الثانى بالاتجاه إلى الميدان.. فتقافزوا إليه، يطلقون صيحات الرعب والتهديد: ها.. ها.. ها.

بلغوا المكان ووقفوا صفاً واحداً متشابكى الأيدى ليكونوا سوراً حصيناً من الأجساد والدروع والخوذات والنظرات الشذراء والتحفز.

بدت الأعلام الحمراء الضخمة.. الصيحات فى الميدان كله.. بدت المظاهرة خرافية فى حجمها.. زحف طويل عريض كثيف..عنيف متحمس.. الزعماء المحمولون ملتهبون، بعضهم مفتوح الصدر تماماً والعرق يسيل.. حشد هائل من البشر، لم تعرف بعد مطالبهم.

قال أحد الضباط لزميله:

ـ كيف يجرؤ هؤلاء الشباب على ركوب هذه المظاهرة والخروج فيها، القانون الذى صدر يمنع المظاهرات بشتى صورها مازال يعمل بكفاءةعالية.

ـ شيء غريب حقاً وحماس أسطورى سيؤدى بأصحابه إلى التهلكة... إنه لجهل حقيقى وطيش أكيد.. الروح أحق أن تصان والعمر أثمن من أن يهدر فى موقف كهذا.. الدم الغالى سيراق بكل بساطة وبدبشك البندقية ستتحطم الرءوس.

زعق المأمور فى الجميع.

ـ استعدوا..تشابكوا جيداً، سأقف على جانب الشارع، سأشير إليكم بمجابهتهم.. انظروا إلى يدى، لأنكم لن تسمعونى.. لا تدعوهم يمروا.. هذا أفضل موقع لاحتجازهم..

أسرع الضباط إلى الطوار.. ووصلت الجموع الحاشدة.. استمع الضابط إلى هتافها المجنون:

ـ الأهلى حديد.. الأهلى حديد..

كادت الدهشة تصعقه، حاول أن يستمع لهتاف آخر.

ـ وبطلكم مين؟.. الأهلى، وفريقكم مين؟.. الأهلى.

كاد الذهول يقضى عليه.. أفاق من غيبوبة المفاجأة، انتشى فرحاً لأن كل هذه الجموع تشجع فريق الأهلى، لأنه هو الآخر يشجع الأهلى.. رفع يده وهتف معهم.

رأوه الجنود وهو يشير بيده.. انقضوا على الجموع الزاحفة يردونها فى عنف.

بدا أنهم غير قادرين على الصد.. رفعوا الأيدى بالعصى.. اختطفهتا الجماهير الزاحفة الهادرة كالسيل.. تقدمت المظاهرة الهائجة بالفرح.. تلاشى الجنود..

تمددت الجموع فى الميدان الكبير وانتشرت.. النساء والأطفال فى الشرفات يلوحون بحرارة.

الوجه والحائط

لم يكن يفصلنى عنه غير متر واحد. تطلعت إليه. حدقت فى الندوب التى نخرت المستطيل الحجرى المواجه لى مباشرة. واجهنى الحائط. دنا منى ثم دنا منى ودنا، لمس أنفى. ضغط عليه سواه بخدى. تبطط أنفى. لمس الحائط خدى. عفرهما بالتراب. ضغط.. التقى بعظمتين. ضغط. فى مهل تراجع إلى أن بلغ موضعه الأول.

زعق الضابط. انغرس فينا صراخه العالى. عدت أبحلق فى الجدار. تهزه القطارات التى تجرى فوقه. ترتطم العجلات الحديدية بالقضبان، وتدق القضبان رأسى. تدك أكتافى. زعق الضابط مرة أخرى. تدفق صوته الهادر من نافورة أقدامه، مر خلال جسده المشدود. انكب على رءوسنا. زلزلها.. بعدئذ تساقط الصوت فى سراديب الكيان المهتز. جرى مسرعاً كالهارب داخل أجسادنا ورقد.

ـ الكل ثابت. ارفع رأسك. الذقن فى مستوى الكتف. العيون الى أقصى اتساعها مفتوحة.

هذه هى المرة المليون التى نسمع فيها هذه العبارات. كف الضابط عن الطرق.. جذب الحائط نحوه نظراتى المرتجفة. لم أستطع طويلاً تجاهل أسنان الألم التى تنهش الأصبع الأيمن فى قدمى.. الحذاء ضيق وثقيل.

صرخ الحائط فى. انتبه إلى. بحلق فى ودقق النظر. تأملنى ملياً.. متين أنا قوى ثابت فى مكانى كالطود. هأنذا أقف أمامك رغم القطارات.. لست مثلك متهاوى الأركان.

دق القطار المتجه إلى المرج رأسي.. تأملت الحجر المواجه لعيني.. خلف ظهري تسرع السيارات المجنونة، تتواصل بلا توقف.. لا تبقى للشارع المصلوب على الأرض لحظة، يفيق فيها من اغماءة السحق المتوالى.. تطحنه السيارات وتطحنني.

لحظة هدوء واحدة لاتتركها لى كى أفكر فى أى شيء، أو أتذكر أى شيء.. الأبواق تتعالى وتتجمع كالدخان فى سحابة، ثم تسقط مرة أخرى.. كتلة صوتية ثقيلة كألواح من الصفيح.

الأتربة تقذفها العجلات عن الأرض، وكلما حاولت أن تعود.. قذفتها العجلات، فتحملها الرياح.. تحلق فوق رأسي، وتنهال على قفاى، تتجه داخل أذنى، تلتف حول الرقبة وداخل البدلة، وتمضى الريح، لكن الأتربة تتسرب إلى ماتحت الجلد.

الأرض تهتز تحت قدمى كأنى أقف على مطاط، أو بساط فوق بركة من الوحل.. بطرف عينى تجسست على الشرطى الذى يبعد عنى إلى اليمين مسافة مترين.. مشدوداً وجدته. محدقاً فى الحائط، فى السور العالى الممتد إلى ما لا نهاية. بدأ مهتماً بالوقوف، مهمتها بالحائط.. وددت أن أناديه، ولما يلتفت إلى أو يشير إلىّ بأصبعه بما يفيد سماعى، أقول له.. أقول له أى شيء.. ماذا أقول له؟.

سألته ونحن مكومون فى اللورى عن أمه المريضة، التى رفض الضابط التصريح له بالذهاب إليها.. لم يعد هناك ما يستوجب السؤال.

مللت. مللت وقفتى من ساعة الضحى، خمس ساعات، وجهى فى الحائط، أدور فى داخلى.. أجوس خلالى.. لا أهتدى، تضل خطواتى بحثاً عنى.. أطفو مشتاقاً للحياة.. أود أن أسمع، أسمع ولو بضع كلمات.. أتعطش لكلمة.

مرت بى سيدة ريفية ترتدى ثوباً أسود، تطلعت إلىّ وخلفتنى، مشت إلى زميلى، الذى يبتعد عنى مترين سمعتها تسأله:

ـ أنتم يابنى مصلوبين كده ليه؟.

لم يرد عليها.. مضت وقد حملت سؤالها سؤالين. حدثت نفسى.. لو كانت قد سألتنى أنا، بماذا كنت أجيبها؟.. تسليت فى البحث عن إجابة إلى أن مللت، وعاد الألم

يتفجر من تحتى.. من إصبعى الصغير. وعاد هدير الضابط المتلاطم الكلمات يصفع أذنى، ويدقنى فى مكانى.

السيارات المسرعة كأنها تحاول النجاة من خطر تلصقنى بالجدارة، تضعنا جميعاً أمامه وهو يتفرج علينا، فرحاً بصحبتنا، فكل الناس أمامه يمرون لا يأبهون، ونحن آلاف الجنود نقف أمامه بثبات. ندرس كل ذرة فيه، ونحفظه من طول التحديق.. من يناولنى الآن سيجارة.

بطرف عينى احتوت نظراتى زميلى الشرطى الذى يبعد عن شمالى مسافة مترين.. مسعد.. الذى لا يكف دوماً عن السخرية التى تورم جسدها فجأة.

قال مسعد: ولم أجد مفراً من حملها إلى الطبيب الذى قال زوجتك تعانى من الاكتئاب. لم أتمالك نفسى من الضحك إلى آخر العمر.. ومرت أيام لاحظت خلالها أن جسد زوجتى فعلا يتحول إلى بالونة كبيرة، بينما وجهها يضمر وينكمش.. ولكنى للأسف كلما رأيتها ضحكت فيزداد جسدها تورماً.

من بين قهقهته تبلغنا كلماته:

- زوجتى صريحة واضحة، أعلنت عن نفسها بالورم، والغريب أنها برغم الاكتئاب والورم مازالت تعيش، فى حين أننى لو اكتأبت لمت فوراً، بل إننى لأموت قبل أن أكتئب.. لا أتخيل حالة الاكتئاب هذه فإما أن تعيش فى رأيى أو تموت، ومابينهما عذاب... الآن فهمت السر فى أن أغلب الناس متورمون.

مسعد كائن عجيب حقاً، لا ينطق أحدنا بكلمة إلا وعلق عليها بما يضحكنا. وكم أفسد الطوابير وأزعج الضباط فيصرخون فيه، ويخرجونه من الطابور ليلقى جزاءه، فيقول مايضحكهم، ويضطرون لإعادته.

أما الآن فالمسكين يقف مكتوم الأنفاس، يوشك أن يموت من الغيظ، لايجد من يكلمه، ولا يجد من يسخر منه.. الحائط يسد عليه طريق البسمة، والضابط يمر علينا «بوشه الكشر».

لمحنى مسعد. أحس بنظراتى. أشار بإبهامه جهة الخلف، أيقنت أنه يعنى زملاءنا الذين يقفون على الجانب الآخر من الشارع، يطلون على المقاهى ومحلات العصير والأثاث والملابس.. يتسلون بالنظر إلى المارة.

أما نحن فحظنا فى كل مرة هذا الجدار، ننتظر مسمرين ست أو سبع ساعات، إلى أن يمر الضيف الكبير فى طريقه إلى القاعة الكبرى، فيلقى خطابه ويعود من نفس الطريق.. طريق يمتد ثلاثة كيلومترات أو يزيد، نفرشه نحن الآلاف على ثلاثة صفوف.

صف أنا فيه، وجهته هذا السور وفوقه السكك الحديدية، وصف وجهه إلى المحلات التجارية، وثالث فى الوسط بين الرائح والغادى، تتبادل فيه الوجوه، شرطى وجهته إلينا وشرطى وجهته هناك وهكذا.

كان أبى حين أخطئ وأنا صغير، يشفق علىّ من الضرب بالعصا أو بالحزام، فيأمرنى بالوقوف ووجهى للحائط.. أقف ساكناً لا أهتز.. لا أدفع عنى الذباب الذى وكأنه يعرف حالتى، ينكب على عينى وأنفى يقلب فيها.

كنت أحملق فى البياض المتهرئ، أتخيله أشكالاً.. أدفن نفسى فى الأشكال الناقصة. تتبخر من ذهنى الدنيا، تبتعد وتتلاشى، إلى أن يصفعنى صوت أبى، فيلقينى على الأرض بعيداً عن خيالاتى.

ـ قف معتدلاً وإلا...

تعودت من سنين أن أرنو للجدران. أن ألتصق بها. أفصل حبة الرمل عن حبة الرمل.. تعلمت كيف أبحث فيها عن الأشكال، وأتتبع قوافل النمل المسافرة، هذه النملة تمشى كما تشاء، وهذه تحمل ماتشاء وهذه تدع ماتشاء.. تعلمت كيف أحدث الجدران أحكى لها عنى.. لكن ذلك كله لم يكن يحول بينى وبين الدمع يتواثب فى عينى، حتى وأنا كبير.. وفى هذه السن ومعى الزوجة والأولاد.

كنت أقف ساعة واحدة على الأكثر، بعدها يشفق أبى على، فيأمرنى بالاختفاء من أمامه، ولما كبرت أصبحت أقف نحو ست ساعات دون ذنب، أو ربما هناك ذنب.. الله أعلم..

وجهى للحائط، علىّ أن أطيع ولا أفتح فمى بكلمة غير.. تمام يافندم.

ـ بس.. بس.

بطرف عين نظرت إلى مسعد، أشرت إليه بيدى إشارة تسأله:

ـ ماذا تريد؟

ووجهه للحائط أجاب: حظى التعس يضعنى كل مرة بين حمارين، لاينطق الواحد منكما حرفاً.. مجرد حرف يغيث الملهوف.. لست أدرى من أين جاءوا؟.

ـ هس هس وإلا..

ـ ألا تحمل معك ما يفيدنا فى هذا الموقف العظيم.

ـ أنت تعرفنى.

ـ خيبة.

حين أدخل دارى أجر أقدامى تقابلنى ابنتى:

ـ ماذا أحضرت لى يا أبى؟

أمر من أمامها دون إجابة وأرتمى على السرير.. تدخل زوجتى.

ـ لم ترد على ابنتك.

ـ بماذا أرد عليها؟.. هل ترين أن لى رأساً يمكن أن يتذكر شيئاً؟ اذهبى فهات الماء..

تمضى فتحضر الطشت. تخلع حذائى اللعين. تغمس قدمى فى الماء.. أسمع ابنتى وهى تجرجر فى الشارع فردة حذائى الكبيرة وتقول: شى.. شى ياحمار.

تقدم منى الحائط. بحلق فىّ. احمرت عيناه. ظهرت أنيابه. مد فى وجهى أظافره المدببة. تراجعت. تقدم منى. تراجعت. السيارات تندفع خلفى. وقبل أن تدهمنى وتسحقنى استردنى الحائط إليه. جذبنى من خصرى بعنف. عانقنى. بصق فى وجهى. أغمضت عينى، فقدت وعيى لحظة. كدت أتهاوى.. زعق الضابط: ثابت ياعسكرى هناك.

حدق مسعد فى الحائط. تململ. عهدناه لا يتحمل الوقوف طويلاً. يحب الحركة. القفز والدوران.. للأمام والخلف. إذا تحدث يتمدد وينحنى، يطول ويقصر، يلف ويرفع رجله اليمنى، يصفق بأصابعه. يهرش «يشن» بأنفه.

هو الآن متجمد. متحجر تماماً كالحائط الذى يواجهه.

فجأة صرخ مسعد: امش ياكلب.

وفى لحظة قفز وتعلق بأعلى الجدار. استند بقدمه على موضع حجر متهدم.. استأنف: إلحق يا حضرة الضابط.. رجل يحمل تحت معطفه رشاشاً.. لقد رأيته.

صعد إلى السكك الحديدية. تقافزت فوق القضبان. تحولت أنادى الضابط. لم ألمحه قريباً..

سررت أن مسعد رغم عدم تركيزه ولهفته الدائمة على الثرثرة والتسلية، قد تنبه للرجل حامل الرشاش، ولو لم يره لحدث ما لا تحمد عقباه.. حادث كهذا ربما يأخذ فى طريقه دولاً بكاملها. وبالتحديد شعوباً بكاملها، والشعوب فى رأى مسعد:

ـ يعنى ناس مثلنا غلابة.

اضطربت للحظات.. ماذا على أن أفعل؟ الضابط اختفى الآن، وكان دائماً وراءنا.. لابد أن أنطلق فى أثر مسعد، غير معقول أن أتركه وحده فى مواجهة رجل مسلح.. صرخ إصبعى من نار الألم.. الحذاء الثقيل يغرسنى فى الأرض. شطرتنى الحيرة. هل أذهب أم أنتظر الضابط.. أذهب، لا أذهب.. أذهب. لا أذهب.

قررت أخيراً أن أذهب لأساند مسعد، مسعد أهم من الأوامر، أهم من غضب الضابط. قفزت إلى أعلى السور، لم أحس بالحذاء.. عدوت خلف مسعد.. لحقته.

ـ ماذا هناك يامسعد؟.

لم يجبنى..

دنا منا قطار يستعد لرحلته إلى السويس، تتزايد سرعته لحظة بعد أخرى، قال مسعد فجأة مشيراً إلى القطار: هاهو.

قفز إلى القطار. قفزت. استنفرت قوتى. أشرعت سلاحى، وفتحت إلى أقصاهما عينى.. نسيت كل شىء عدا هذا المسلح.. أعددت نفسى لملاقاة الخطر. فليكن مايكون.

فتشت عيناى عن مسعد.. ألفيته يجلس أمامى مباشرة على أول كرسى.. بحلقت فيه.. بنظرةسألته عن المسلح.. بأصبعه على فمه رأسياً قال: هس.

همـمت أن أفتح فمي معترضاً ومتسائلاً، جذبني من صدري بعنف، فألقاني على المقعد. أسرع القطار ونحن فيه، فوجئت بأني أركب القطار.. الهواء البارد يداعبنا بحنان.. يجفف العرق. المناظر الخلابة تتبدى لنا من منافذ القطار.. تعرض نفسها علينا وتغيب بسرعة.

تنفست بملء رئتيّ. لم أسأل مسعد عن الرجل المسلح.. وفي وقت واحد ضحكنا فجأة.

لابد أن نرحل

تأمل شعيرات ذقنه فى المرآة. مرت أصابعه عليها. راحت وجاءت عدة مرات. سمع صوت خشونتها. حلقها صباح أمس، فكيف أصبحت لها الآن كل هذه الأنياب. قال لنفسه: احلقها وتوكل. بسمة حلوة مع الوجه الحليق، تحل كثيراً من العقد المكدسة فى كل مكان. يرضى عنك رئيسك، يتقرب منك الزملاء. آه... والزميلات.

بدأ فى آلية يحلق، بينما كان يتابع عصفوراً ينقر فى رأسه.على الرغم من كونه موظفاً جديداً، لم تمض أربعةأشهر على تعيينه بالشركة إلا أنه استطاع فى مدة وجيزة، أن يأخذ على طريقة العمل الحالية بعض المآخذ، التى ما كان يجب أن تمر على قدامى العاملين بها، دون علاج، وهم فى منزلة أساتذته. لقد لاحظ أن الطريقة المستخدمة فى اعداد أجور آلاف العمال بالشركة، طريقة حلزونية ومطولة بلا جدوى.

لديه فكرة يود لو يعرضها على رئيسه لتقليل الاجراءات، وفى نفس الوقت تحكم الضبط وتحقق الدقة فى الحساب.

يده تحتضن صدغيه وتنسحب إلى أسفل ذقنه، لقد تخلص من الشعيرات اللعينة ولكن ذقنه مازالت خشنة. دورة أخرى فى الزوايا والأركان تصبح أبهى. البشرة مازالت ملساء. ريعان الصبا وفورة الشباب. الوجه مازال وجه طفل لم يقسمه سكين الزمن إلى مناطق، ولم تشق فيه الأخاديد.

أغرق وجهه مرة أخرى بالصابون. يداه تعملان فى روتينية واعتياد. لكن رأسه يفكر ويفكر.

انتهى من أناقته. بدت السعادة جلية عليه. لأنه ذاهب إلى العمل. العمل الذى انتظره سنوات منذ تخرجه.. والعمل فى رأيه.. بداية الاستقرار والحياة الحقيقية.

استعد تماماً.. الوقت مازال مبكراً ولكنه انطلق إلى الشارع فى حماس.

حملته رشاقة عمره فى خفة إلى رصيف الانتظار، ولم يطل به الوقوف جاءت على الفور السيارة المطلوبة. وقفت بجانبه.. التصقت به.. الباب مسدود بالملابس. الملابس محشوة بالبشر، وأذرع كثيرة تعمل فى حيوية. تدفع هذا وتمسك بذاك، لكنها لاتقدر على النفاذ فى الملابس الملتحمة.

حاول الشاب بكل الوسائل. فلم يجد إلا مكاناً لنصف قدم، وقبضة فى ذراع المرآة. أما وجهه وجسده ففى الهواء. تعلق بالسيارة فحملته وانطلقت.

عض البرد يده المتعلقة بالمرآة. لم يسأل فيه وتماسك. سالت المياه من أنفه. فكر أن يتسلى بالنظر فى المرآة ليتأكد من سلامة ملامحه. ألفاها بلا زجاج. مجرد قطعة من الصفيح الصدئ.

أخيراً وصل إلى مقر عمله، مر الوقت سريعاً، حتى لقد تأخر عن موعده، أعاد ترتيب هندامه، وتأكد من وجود حذائه وسرواله ونقوده ورأسه، اطمأن على كل أعضائه. كله تمام.. هو الآن صالح للعمل.

نسى ما كان. حيا زملاءه وحيوه. جلس إلى مكتبه. فتح الأدراج التسعة. أربعة رأسية على اليمين، ومثلها على الشمال، ودرج واحد كبير بينهما.

أخرج كعادته كل مافيها من الأوراق والملفات. رصها جميعاً على المكتب.. بسط أمامه أوراقاً بعينها. أعاد النظر فى مذكراته الطويلة، فيها يعرض طريقته الجديدة، لإعداد أجور مصنع يزيد العاملون فيه على ألفى عامل. انتهى من القراءة. سرح قليلاً تأمل السجادة التى تتوسط الحجرة بين المكاتب الأربعة. تساءل ماذا سيكون رأى رئيسه عندما يقرأ هذه المذكرة؟

في البدء سيؤخذ، وربما يعيـ فر با لأنه بالطبع لن يفهمها من القراءة الأولى، وبعد أن يقرأها مرة ثانية. تلتمع عيناه بالزهو والاعجاب. سيشعر بأن الإدارة التى يشرفها برئاسته، تضم عقليات لايوجد لها مثيل فى الإدارات الأخرى. ليس هذا فقط. بل سيبدأ فى نسج أحلامه.

عليه أن يتقدم بهذا المشروع تملأه العزة، لمدير الإدارة، وسوف يضيف من عنده قوله: لأنى دائم القلق من أجل مصالح الشركة، فقد فكرت فى هذا المشروع المختصر.. واخترت هذا الشاب لتنفيذ فكرتى «يقصدنى أنا» نعم. لقد اخترته لأنه مرظف نجيب وهو مثلى قلق من أجل مصالح الشركة ومصانعها وعمالها.

وبعد أن يطل مدير الإدارة فى مذكرة المشروع، والجداول وبيان النتيجة المترتبة على تنفيذ الفكرة، ومدى التوفير الذى ستحققه. سيأخذه العجب. لكنه سيكتم ذلك فى قلبه ويقول:

ـ حسن. اتركوها لى كى أدرسها.. غداً أوافيكم برأيى.

وقبل الظهر يكون قد دخل لمدير الشئون المالية والإدارية فى أمر هام، يعرض المذكرة عليه فيدهش لها المدير ويسعد، فيشد على يد مدير الإدارة معجباً بنشاطه وكفاءته ويدخلان بها للمدير العام.

آه.. هنا النهاية. هنا الأمل. هنا القرار الذى سيصدر فوراً بتنفيذ الفكرة الجديدة.

لكنه ينسحب فجأة من بين المديرين ليستمع إلى همس زملائه فى المكتب.

نظروا إليه.. سألهم: مامعنى هذا؟.

أجابوه فى نفس واحد: يعنى دعك من هذا وتعال اسهر معنا سهرة واحدة ستظل العمر تذكرها. أخذته الدهشة.

قال: أى سهرة ياجماعة.. أنا لا أميل إلى هذا الصنف من اللهو.

أكدوا عليه: لا تنس. سننتظرك الليلة..

قال فى ثقة: اطمئنوا. لن أحضر.. لن أحضر.

عاد إلى أفكاره كأنه آب إلى بيته الذى يرتاح فيه.. هؤلاء المجانين كيف يفكرون!.. هل اللهو فقط الذى يشغلهم حتى وهم فى العمل.. وما بال المذكرة المقترحة لاتشدهم وتشغل بالهم.. ألن توفر عليهم الجهد والوقت وتحفظ للشركة نفقات باهظة؟.. سيرون كيف يصدر المدير العام أمره بتنفيذ الفكرة ومكافأة مجزية لصاحب الفكرة.. صاحب الفكرة.. ومن هو صاحب الفكرة؟. أنا طبعاً.. ولكن ربما يدس رئيسنا أنفه فيها. لا بأس.. أنا ورئيسى، ولو أنه لم يفعل شيئاً ولم يكتب حرفاً. وما هو موقف مدير الإدارة.. ربما يصر هو الآخر على أن له يداً فيها أو أنها فكرته.. لا.. غير معقول أن يقول أنها فكرته فالمسائل ليست بهذه البساطة. الحلال بيّن والحرام بيّن.. فهل يسمح لنفسه بإدعاء كهذا.. كلا.. ربما يقول إننى أعجبت بالفكرة التى عرضها على هذا الموظف، وربما يقول عدلت فيها قليلاً، وربما يقول بل ساهمت فيها بنصيب كبير. على أى حال لابأس. أنا ورئيسى ومدير الإدارة.. أما المدير المالى والإدارى فمن غير المعقول أن يقحم نفسه، ولو أننى لا أستبعد ذلك، فهو ذو أنف طويل ويده دائماً ممتدة لأى شىء.

لنفرض أنهم سيدعون شيئاً من هذا. اذن فسوف أستحق فى هذا الاختراع الثلث أو الربع حسب الطامعين.

ياللسعادة الغامرة. إذ يتحقق الهدف.. إننى أفكر فى عملى ليل نهار.. أعطيه أعصابى بكل رضا واقتناع، وكيف لا وهو رزقنا جميعاً.. شجرتنا التى تظللنا.

ـ الشاى يا أستاذ جاد.

دخل الساعى بينه وبين أفكاره.. وضع الشاى على المكتب. ظل جاد يحلق فى المذكرة وكأنه يتأكد من صمودها أمام النقد.

حدث نفسه: يجب أن نبدأ مبكرين.

ترك الشاى ونهض. حمل الأوراق فى قلق. تقدم فى مشية عسكرية إلى غرفة المدير، لحق به الوجل وتعلق بصدره وقدميه. الوجل الذى ورثه عن زملائه كلما اتجهوا إلى غرفة المدير. وجل بلا احترام وخوف لا يدفع للاهتمام.

أخذ الوجل يزداد كلما قصرت المسافة بينه وبين الباب المؤدى إلى غرفة المدير. طرق الباب، ولم يسمع صوتاً. طرق مرة ومرة ولم يسمع.. ارتعد فى انتظار كلمة عظيمة تشق أذنيه وتملأ الفضاء. هى: ادخل.. ولكنه لم يسمعها.

فتح الباب ببطء كأنه يخشى أن يكون نائماً فيزعجه. لم تزد الفتحة عن عشرة سنتيمترات. حتى بالكاد يرى المدير. وبالكاد يراه المدير إذا رفع رأسه الكريم.

وجد المقعد خلف المكتب شاغراً.. تشجع قليلاً وفتح الباب عشرة سنتيمترات أخرى لتتسع الرقعة المنظورة أمامه. لم يجد أحداً تملكته جرأة لم يعهدها إزاء باب المدير، فتحه إلى نصف مداه. فمهما كانت جرأته لا يجب أن يفتحه كله. لأنه لا من سلطته ولا من حقه أن يمسك أكرة الباب وحدها.

رئيسه غير موجود فى أى ركن بالحجرة.. دخل ودار فيها. رفع عينيه إلى سقفها. عبأ نظراته وشحن ذاكرته بما فيها، كأنه يخشى أن ينساها..

وقف ينتظر على مسند أحد الكراسى الضخمة. لكن أصابعه كانت تتحسس الجلد المشدود فى غطرسة وكبرياء. فكر أن يقعد على الكرسى «الفوتيل» أمام المكتب ولو من قبيل التذوق والاستطعام. لكن هاجساً طرد الفكرة بقسوة. ربما يغضب المدير إذا رآه جالساً مستريحاً كأنه فى بيتهم، استدار ليعود إلى مكتبه. فوجئ بالمدير يمرق داخلاً من الباب. وبيده بعض الأوراق.

ـ ماذا هناك يا أستاذ شبراوى.

تساءل: ياه.. تنادينى باسم جد جدى.. لماذا لا تقترب منى وتنادينى باسمى وأنت تعرفه.. وهو سهل جداً.. اسمى جاد. أليس أسهل من الشبراوى فما سبب الغطرسة؟ هل ترى أن رأس حضرتك برأس جد جدى.

ـ رد ياسيد.. نعم.

ـ آه.. فعلا.. أصل.

بلع ريقه ثم تابع فى تماسك: أنا فى الحقيقة.. كان قصدى أن الإجراءات..

ـ خلصنى.

ـ فكرت فى أن طريقة إعداد الأجور مطولة وتحتاج لوقت ونفقات.

ـ وأنت مالك.

ـ راودتنى فكرة.

حاول أن يتبلع ريقه فلم يعثر عليه. شد عروقه بحثاً عنه لكنه لم يجد له أثراً.. بلل شفتيه لتنزلق الكلمات..

ـ راودتنى فكرة لو نفذناها ستوفر كثيراً من الوقت والجهد..

ـ وماذا أيضاً؟

ـ هذا كل ماهنالك.. وهذه هى الفكرة.. بإمكاننا أن نستخرج مرتب أى عامل من غير تضريب. فكل شىء مبين بالجداول. شوف حضرتك.

أخذ المدير الأوراق وهو فى نصف حالة غضب. يعنى جاهز للثورة من مجرد عرض الموضوع.

مضى يقرأ بإهتمام.. شمل الغرفة صمت لاتزعجه حتى أنفاس من فيها.

كان المدير واقفاً فجلس. أقعدته المذكرة. وشدته الفكرة الجديدة. بدأت عصافير السعادة تتقافز فى صدر جاد وتغرد. قال لنفسه: انبهر الرجل بما رأى. وبعد قليل سيقفز من الفرحة قائلاً: هذا ماكنت أبحث عنه.. سيعجب كيف أنى رغم سنى وحداثة عهدى بالعمل، قد فهمت كل شىء.

أخذ يحلق فى وجه المدير. تأمل عينيه. كيف ينظر، وكيف يتكرمش جفناه كى يرى أكثر، وأنفه الذى تدبب، وعظمتى خديه البارزتين.

أسند مديره جبهته إلى كفه اليمنى. عاد فاستبدلها بكفه اليسرى.. فجأة.. ألقى الأوراق فى الفضاء قائلاً.

ـ ما هذا ياسيد؟.. هذا تخريف.. هلوسة.. وفوق أنه مجهود ضائع. فهو يدل على أنك لم تفهم عملك بعد..

ـ يظهر حضرتك لم تقرأ.

ـ بل قرأت. وعلمت أمراً جديداً لم أكن أعلمه. أنت مغرور. حاول ألا يستسلم للرفض ويتراجع.

قال:

ـ نتناقش...

هذه هلوسة لا أناقشها.. ليس عندى وقت أضيعه معك... تفضل.

استولى على جاد غضب هائل. لكنه أمام المدير لايستطيع إلا أن يموت فى جلده، ويفقد سمعه وبصره ولسانه، فلايعود بإمكانه أن ينطق أن يبصر أو يسمع شيئاً ... أى شيء.

انحنى فى هدوء كي يلتقط مشروعه الذى كان يطير منذ دقيقة فى فضاء الغرفة. وسقطت كل ورقة منه فى ناحية.. لكن مديره صرخ:

ـ قلت تفضل على مكتبك.

فتفضل جاد خارجاً منكسراً.. وحاول أن يبحث عن أى فكرة فى رأسه.. فلم يتلق أى اشارة.. لقد تحطمت الأبراج، واندلقت كل القوارير، وتعثرت الخطوط، واحترقت الصمامات، فانقطع الإرسال.

دق فى صدره سؤال: هل استمع أحد إلى النقاش الذى دار مع المدير؟. النقاش الذى أطاح بى وبأفكارى وبشخصى وبآمالى بلا أدنى رحمة.

لم يستطع أن يفتح عينيه ليرى الطريق. لم يستطع أن يفتح فمه ليحيى من يقابله أو يرد تحيته.. ارتاب فى قدرة جسده المخدر بالهزيمة، على أن يكمل طريقه إلى المكتب.. هناك حيث ينتظره زملاؤه ليعرفوا مصير الاختراع. الاختراع الذى ظل يعمل فيه بالبيت، مدة تزيد على عشرة أيام بلياليها. هز رأسه فى ألم.. سيضحكون كعادتهم.

إنهم يضحكون من كل مايجرى وفى نفس واحد. رءوسهم ونفوسهم مشحونة ببرنامج إليكترونى واحد. سيسقطون معاً على الأرض من السعادة أو السخرية أو من التشفى أو من أو من.. بملء أشداقهم وحلوقهم سيضحكون منى.. منى.

بلغ بصعوبة باب المكتب.. توقف. استند إلى الجدار. لم يدخل. قرر أن يخرج من الشركة كلها.. لن يكتب أذناً ولن يوقعه من المدير حسب الأوامر، ولن يتركه لزملائه.

انطلق كالصاروخ الذى يعرف وجهته، ومرق من البوابة الواسعة دون أن يجيب من ناداه، أو يعير مراقب الباب إلتفاتاً.

تسكع فى الشوارع.. الساعة الحادية عشرة. مضى يتفرج على معارض المحلات. لاحت له عينان مثل عينيه تبحلقان في وجهه من خلال الزجاج. خجل من نفسه. لم يتعود الفرجة على الفتارين.. تابع سيره فى غير اتجاه.

تذكر الإهانة. اجترها. ألفاها مرة. أحس بالاستهانة. وود لو يحمل الطوب من الأرض. ويضرب العربات ويهشم زجاج المبانى..

توقف عند أحد الأكشاك. ابتاع علبة سجائر. أشعل منها سيجارة فى ارتباك. خيل إليه أن الناس ترمقه فى عجب لأنه يشرب سيجارة. الناس تحملق فيه.. تجمعوا حوله. لماذا يشرب سيجارة. ضحكوا.. سخروا منه. كل الطريق يضحك. شاب يشرب سيجارة ويخرج من فمه دخاناً. ألقاها على الأرض.. ضحكوا. داسها بقدمه وبعثر باقى العلبة فوق الرءوس.. هلل الجميع. ضاق بالناس.

الشارع يمتلئ بالناس كأنه مزاد لبيع البشر.. تساءل.. من أين كل هؤلاء. أليسوا فى أعمالهم ومصانعهم.. مزارعهم.. مدارسهم.. أم أن كل رؤسائهم فعلوا معهم مافعله معى المدير.

لقد عاملنى بغلظة وطردنى شر طردة. رغم أنه كان يقول دائماً إنى بمثابة ابنه. ربما لأنى أطيعه فى كل ما يأمر واستسلم له.

الآن يرانى الابن العاق. لأن لى رأى.. وماذا أكون إذا لم أفكر وإذا لم يكن لى رأى..

مضى يتسكع فى غير اتجاه.

زحام فى قلب زحام.. خرج الزحام من قلب الزحام. ليلتقى بزحام ملتحم بزحام ويفترقان فيصطدم كل زحام بزحام. ضاق بالزحام. قرر العودة إلى البيت.

بلغ الدار. أحس برغبة مجنونة فى التبول. اندفع مباشرة إلى الحمام.. تعرى. انتظر.. دعا نفسه للتبول.. نادى أعصابه. لم يتبول. بعد لحظات سكتت أعصابه. اقترب من المرآة.

بحلق فيها. لم يجد وجهه. المرآة غير مكسورة فأين الوجه. أين ياترى تركه. فى الشركة أو فى محل. هل سقط فى الطريق. أمسك رأسه.. وجدها. دارت حولها يداه. لكنها لاتظهر فى المرآة. صحيح أنه يحس برأسه فوق جسده كالبطيخة. كتلة لادماء فيها ولا نبض.. لكن أين صورة وجهه التى تعكسها المرآة!

لقد رأى جسداً يرتدى بدلة ولا رأس له. صعد إلى السرير، سحب كتاباً وبعض المجلات ليقرأ. نقل عينيه بينها بلا جدوى.. الحروف ضبابية مغيمة كأنه يقرأ من خلف زجاج مهشم.. واجهه عقله بالحقيقة التى يحاول التغلب عليها. لا أمل فى القراءة الآن رغم حبك للقراءة.

ذاب فى لحظة تأمل غير مركزة. أحس بالتفاهة.. تفاهة كل شىء.. لماذا يجرى الناس ويتعبون ويفكرون.. مديره سخيف ودم زملائه ثقيل. والرجال فى الشوارع أغبياء.. والسيارات بلهاء.. هذا العالم غريب.

انزلق بظهره فى السرير، فأصبح رأسه على الوسادة.. تمنى أن يكون هناك عالم آخر يجد فيه ذاته.. تسمع له كلمة.. ولايسحق فيه كحشرة.

انقطع الارسال مرة أخرى.. وتوقف فى رأسه سيل الصور المتعقبة.. نام..

نام طويلا واستيقظ. دار حول نفسه وحول الشقة لحظات.

فجأة أسرع يرتدى ملابسه ويمشط شعره فى المرآة. اطمأن لأن وجهه عاد إلى الظهور فى المرآة، وإن بدت ملامحه مختلفة وعيونه منتفخة، وجبهته مجعدة بخطوط عريضة وذقنه طويلة. فتعجب.. ألم يحلقها فى الصباح.

نزل إلى الشارع. لم يقف على رصيف الانتظار. مضى من شارع إلى شارع. بدا كمن يمنع قدميه من الإسراع.. ويحاول رد فكرة مجنونة فى رأسه.

بعد مسيرة نحو ساعة وجد نفسه فى قلب المدينة، ثم انحرف إلى أحد أحيائها الشعبية، ودلف إلى الحارة المسدودة التى وصفها زملاؤه. لقد قالوا له: سننتظرك الليلة لنسهر معاً.

فتح الباب. استقبله زملاؤه بالأحضان المتلهفة، كأنه كان غائباً لسنوات طويلة.

استسلم لهم. سكنت أعصابه. لم يهتم بالأرض حين مالت به. قالوا له: لا أمل فى أن تفكر هناك أو تحلم.. أما هنا فبامكانك أن تحلم كما تشاء، وتغير كما تشاء، فنحن هنا أصحاب الرأى والكلمة.

أحس بالرضا ولم يعبأ بالأرض وهى تهبط رويداً رويداً...

البوابة

لم يفاجئه الجمع الكبير الذى ينتظره فى مكتبه، فقد تعود عليه، ولكنه كان كمن نسيه لحظه.

علا صدره مع أنفاسه اللاهثة، تنبه للمجهود الذى بذله فى صعود الدرجات. نظر إلى الناس وأطال النظر. حملت نظراته بعض المعانى. حومت فى رأسه الأفكار.

«سبحان الله.. متى ينتهى هؤلاء الناس؟.

فى كل صباح تستقبلنى الوجوه، وتفتش فى النظرات، فى كل صباح آتى وحدى إلى هذا المكتب اللعين. لا يدفعنى أحد إليه، لكنى وحدى أحضر لألتقى بهذه العيون، لا أحد يدق بابى ويحملنى إلى هنا قسراً.. أتعلق بالأتوبيس أو الترام.. أتعلق.. وأحياناً أندس فى سيارة أجرة. أتشبث بأى قشة لأصل إلى العمل، وأصعد تسع وسبعين درجة، فأجد كل هؤلاء فى انتظارى.

كلهم يريدون بطاقات شخصية.. بطاقات.. شخصية.. أى بطاقات وأى شخصية.. سذج».

يحلق فيهم وتنهد.. اتجه إلى المكتب. حدق فى المقعد، وكأنه يسأله إن كان مستعداً للعمل أم لا.. انحط عليه، فانحط الناس فوقه. تدافعت المناكب وامتدت الأيدى وتناطحت النظرات.

في وجهه أشرعوا الأوراق. ضحك فى ألم. كلهم يريدون بطاقات شخصية.

فى عينيه.. تماماً فى عينيه، يتسابق كل منهم كى يدس أوراقه قبل الآخر.. زعق طالباً شاى الصباح.

بحلق فى الأوراق الممتدة نحوه، ترفرف فى الهواء.. ترفع إليه الدعاء والتضرع.. تتمنى أن تمتد إليها يده.

تجاهل الأوراق..

ببطء درامى تصاعدت نظراته إلى أعلى.. الوجوه تترقب منه كلمة. إشارة. سؤال. همهمة.

لكنهم يحلمون.

الصف الأول يتكدس فيه عشرون وجه.. حاول أن يعلق عينيه على مشجب أى وجه.

جال فيها وسافر.. لم يتوقف عند أى محطة. كل الوجوه مسطحة وكل البلاد متشابهة. نفس الأنف. نفس الشفتين. نفس الجباه والذقون. غير معقول. لا يشبه وجه فى الدنيا وجهاً آخر. هو رآهم كذلك.

فى الصف الثانى أكداس من الوجوه. أنصاف الوجوه.. قطاعات طولية فيها عين ونصف أنف ونصف شفة وربما ربع ذقن وخد ولا أذن..

وخلال كل ذلك بلغته لهفتهم وقلقهم.. خوفهم وانتظارهم.. كراهيتهم.

غامت الوجوه فى عينيه.. رآهم بوابة حديدية ضخمة لسجن كبير.

بوابة هائلة من الوجوه والعيون.

حاول أن يرى أبعد من البداية.. لم يجد غيرها. بوابة تمتد من أول الأوراق المشرعة فى عينيه إلى آخر الصفوف.

«لن تقهرنى نظراتكم ولن أستجيب لها. لن يؤثر فيما تلقونه أمامى من رجاء واحترام.. كل مشاعركم تجاهى مزيفة.. كلها موضع شكى. أنا على ثقة أنكم تلعنوننى بالرغم من نظرات الابتهال.

لن أعبأ بكم. لن تدفعوننى لشىء لا أرضاه. أنا فقط الذى أحدد متى أبدأ العمل».

مثل محصل الأتوبيس، تقدم عم إبراهيم بطريقة دودية يحمل الشاى، يردد كلمات التحذير والاستئذان والتنبيه.

وضع الشاى على مكتبه، ثم قفل راجعاً وسط الزحام.

نظر الموظف إلى الشاى بامتعاض. بدت النظرة كما لو كانت موجهة فى الأصل لهم، وأخطأت طريقها فمضت وانسكبت فوق الشاى المسكين.

مزيداً من الإهمال والتجاهل والعناد والغطرسة.

أخرج من جيبه سيجارة واحدة ويبدو أنها وحيدة..

محطمة كانت، كأنه نام عليها.. أخذ يصلح من شأنها ويسوى جوانبها، وأخيراً وضعها فى فمه.

وعلى الفور امتدت إليه القداحات وتقربت إليه أعواد الثقاب. اشتعلت نيران صغيرة وتراقصت أمام معبده.. نظر إلى الشموع المضاءة والنيران التى تتلوى متلهفة إلى عناق سيجارته.

برهة ثم وضع السيجارة فى جيبه وترك النيران ترقص، ونهض فجأة.

اجتاز الزحام الذى انشق له فجأة، كأنه عصا موسى.. خرج.

خرج نهائياً.

أحداً منهم لم يتخل عن موقفه. تدلت السيوف المشرعة بالأوراق.. مضت عيون الصف الأول تلوك الصبر وترقب الدخان الذى بدأ يخف ويتلاشى. الوقت يمر.. الدخان يمضى والوقت يمر والصبر ينفذ.

الموظف المختص لا يظهر.. تصاعدت ألسنة الهمهمات.

ـ تراه أين ذهب؟

ـ فليذهب أحدكم للسؤال عنه.

ـ اذهب أنت.

سقط الصمت ولم يذهب أحد.

عاد خيط الكلمات يتسلل من بين الأفواه.

ـ أنا هنا من السابعة.

ـ أنا هنا من السادسة والنصف.

ـ أنا هنا من الأمس.

لم يحتمل أحدهم هذه المبالغة.

ـ وكيف هذا؟.

ـ جئت بالأمس وبت عند أخى المقيم فى نهاية هذا الشارع.

ـ أين تراه ذهب؟.

نفد الصبر، لكن المواقع المحتلة تحتاج لمزيد من الصبر. لايمكن التخلى عنها بسهولة. إنهم الطليعة. المقدمة التى يتعين عليه أن يبدأ بها، سواء هو أو غيره. اليوم أو غدا.

امتد الصبر قليلاً ولم تتوقف الأسئلة والاستفسارات والهمهمات، ثم بدأت لغةجديدة.

ـ استهتار.

ـ قلة استعنا.

أطلت كالعادة أصوات العقل. كالعادة وفى أشد الحالات سوءاً وفى أتعس المواقف.. تسمع أصوات العقل.

ـ طولوا بالكم ياجماعة.

ـ كلها عشر دقائق أو ربع ساعة.

ـ ربنا خلق الكون فى ستة أيام.

ـ هانت.

فى عز الضنك وتسمع الجموع من يحدثها عن الصبر وعن طول البال.

لكن نغمة السخط تتسرب من جديد.

ـ نحن هنا منذ ساعتين.. شىء فظيع.

ـ الفظيع هو أنت.

ـ أنا؟.

ـ كف عن دفعى للخلف.

ـ بل أنت الذى تدفع.

ـ لقد صبرت على أفعالك مدة كافية.

تزداد المشاحنات كلما قل العمل أو انسد الطريق فى وجه الأمل. يواجه الأفراد بعضهم بعضاً ويتقاتلوا.

ـ أنت الذى صبرت علينا أم نحن الصابرون على حجمك وأنت كالفيل.

ـ أنا كالفيل يا..

ـ ياجماعة.. لايصح هذا.. صبراً.. فات الكثير..

ـ هانت.. تحملوا.

ـ الأستاذ وصل.

ـ افسح ياسيد.. افسح يا أخ.

ـ إنه عم إبراهيم.

ـ أين الأستاذ ياعم إبراهيم.

ـ يشرب الشاى.

ـ الشاى هنا أمامنا.

ـ يشرب غيره فى القهوة.

ـ ماذا تقول؟.

ـ ماسمعت.

تعالت الأصوات وضجت الأفواه باللعنات والاعتراض.. فجأة لم يجدوا نقطة صبر واحدة. يحلقوا فى وجوههم وكأنهم يبحثون عن الوسيلة.

قررت فئة منهم شجاعة أن تنزل إلى القهوة ليحملوه منها حملاً..

هبطوا الدرجات وهم يلتهبون حماساً وبأساً. يرددون عبارات رادعة يجب أن يقولوها.

قبل أن يبلغوا القهوة حدث تعديل فى زحف المسيرة، فتقدم أشخاص وتراجع آخرون، اندفع البعض وتوارى البعض واعتدل البعض.

لمحوه بالمقهى يطالع الجريدة وأمامه الشاى. رآهم. أشاح بوجهه إلى الجانب الآخر. تقدم منه الفيل وكأنه أدرك حجمه أخيراً.

ـ يا أستاذ.. نحن هنا من ساعتين.

لم يرد.

تقدم المتشاجر مع الفيل، فهو ليس أقل منه. وإذا كان الفيل هو الأكبر حجماً، فإنه الأرجح عقلاً.. قال:

ـ وراءنا مصالح.

ـ أخذنا بصعوبة إذناً من العمل بساعة.

لم يعبأ. تقدم آخرون وقالوا ماقدروا عليه من الكلمات الهادئة.. الراجية.. المتمنية.

سحب من سيجارته نفساً طويلاً وأغلق عليه فمه ثم نفثه فى وجوههم وعاد إلى الجريدة.

تدفقت منهم عبارات مبهمة تستهجن وتستنكر. فجأة دق المنضدة وتفجرت كلماته من بركان شدقه:

ـ ماذا تريدون منى؟. أريد أن أفهم ماذا تريدون؟.. ابتعدوا.. لن أبرح مكانى قبل أن أشرب الشاى وأنتهى من السيجارة.

تحمس الفيل.. فى حزم وإصرار قال:

ـ بل ستصعد معنا الآن.

ألقى بالقنبلة التى يتضاءل معها الكل.

إنبهر الجميع بهذه العبارة القوية الصارمة، فأيدوها بعنف، واقتربوا من الفيل، تداخلوا فيه، أصبحوا جميعاً صفاً واحداً. متحد الملامح، تحمل عيونهم نفس النظرات.

ابتسم الأستاذ فى قرف ولم يرد عليهم. تصور الفيل أن الأستاذ لم يحس به ولم يهتم بكلامه، فهو إذن غير محسوب. لابد أن يعلم الجميع أنه ليس بناء هشاً.. قال:

- إلى المدير ياجماعة.

اندفعوا إلى المدير فى هدير صاخب وزمجرة.. استوقفهم عند الباب إبراهيم.

- نريد المدير.

- لم يصل بعد.

- بل وصل ورأيناه منذ قليل.

- فيم تريدونه؟.

- لا دخل لك.. افسح الطريق وإلا..

تخلى إبراهيم عن الباب. فتحوا. لم يجدوا المدير على مكتبه. كان بالركن الآخر يكح. بكل قسوة يكح ويسعل ويبصق فى المنديل. ثم يعود ليسحب الأنفاس من البورى الرابض أمامه.

راعهم وجهه المحتقن وعيناه الجاحظتان وأنفاسه المضطربة كشخص يختنق.. بحلق فيهم.

- ماذا؟.

ثم كح.

- ماذا..

ثم كح وبصق.

- ماذا تريد..ون.

العجـــز

مهموماً. شارداً. لا يتحكم فى خطواته ولا يحس بقدميه، عاد إلى بيته بعد الظهر. يجتر فى رأسه ما حدث.

فهو يراجع خزينته كل يوم ويضبط المنصرف منها مع الأذونات المقدمة إليه. كل يوم. كل لحظةيتأكد من سلامتها ودقة ما فيها بالمليم، فكيف تكتشف لجنة الجرد المفاجىء أن لديه عجزاً فى عهدته المالية قدره ١٤٢,٦٥٠ جنيهاً.

شىء يقرب من المستحيل، لقد عرف الجميع عنه دقته وحساسيته المرهفة للنقود كأمين خزينة قديم. إكثر من عشرين عاماً وهو بهذه الحجرة وأمام هذه الخزينة، ومن هذه النافذة الصغيرة يصرف فى الشهر للموظفين وغيرهم ما يقرب من ربع مليون جنيه، ومع ذلك لم يحدث أن فقد مليماً واحداً.

وهذه الأيام بالذات تشهد بأن حركة النقد الوارد والمنصرف محدودة، إذ أصبحت الهيئة تعتمد على الشيكات أكثر من النقدية فى صرف مستحقات المتعاملين معها.. فكيف حدث هذا العجز!!

المبلغ يبدو تافهاً لا يخيف، ولا يرهقه كثيراً إذا اضطر لدفعه ولو على شهور، لكن القضية بالنسبة له ليست حجم المبلغ، إنما الكرامة. الخبرة فى العمل. تاريخه فى الهيئة. السمعةوالكفاءة. الناس.. وعيون الناس.

كفاءة الشخص فى عمله تحدد نوع النظرات التى توجه إليه، فالناس لايمكن أن تحترمه إذا كان مهتزاً فى عمله أو معدوم الكفاءة.

عندما اقترب من بيته قد أوشك على السقوط من طول التفكير، ومما زاد فى إرهاقه وإنهاك جسده أنه لم يصل إلى نتيجة، ولم يهتد إلى حل ولم يضع يده على سبب لهذا العجز، رغم أنه بذل جهداً كبيراً لاعتصار ذاكرته التى يعتقد الآن أنه فقدها.

لم يتذكر أى شىء. أحس بالعجز عن التفكير. بل أحس أيضاً أن أجهزته لم تعد تعمل.. فمؤكد أن قلبه الآن متوقف، وجهازه الهضمى متعطل، حتى جهازه التناسلى.. كل شىء مات.. انه مجرد شىء يتحرك.. يتحرك بقدرة الله وحدها.

صعد درجات السلم وهو يفكر بآخر ما تبقى فى رأسه من أعصاب. دخل الشقة وهو يسحب آخر ضوء فى شمعة فكره وذاكرته.

وقعت عيناه على التليفزيون، ووقعت عين التليفزيون عليه. ألفى نفسه يتجه ناحيته. أدار المفتاح. نطق التليفزيون.

كانت الشقة سابحة فى السكون. دوى فيها الصوت الخافت والضوء الباهت.

نسى الرجل كل شىء وكان رأسه التى يحملها دائماً فوق كتفيه، قد استبدلت برأس أخرى، خاوية تماماً، ولا تدرى شيئاً عن أى شىء.

انكشف صدر التليفزيون عن منظر لراقصة رائعة اللحم تتلوى. جلس الرجل على كرسيه المعتاد وسط الردهة. ظهره إلى الجدار ووجهه بالضبط.. بالضبط فى مواجهة جهاز التليفزيون، بلا سنتيمتر واحد جهة اليمين وبلا سنتيمتر واحد جهة اليسار. والراقصة فى قلب الدنيا.

ظلت عيناه عليها لا ترمش. تأمل بكل اهتمام حركاتها المثيرة الغريبة.

قال فى نفسه أو قالت له نفسه: راقصة عظيمة حقاً.. منتهى اللياقة والليونة والجمال.. هكذا يجب أن تكون النساء.

تسرب إلى رأسه دبيب خافت، ينقر فى رفق.. يذكره بالعجز والخزينة، أحس التليفزيون بالنقر، فمد يده الخفية التى تقف فوق رأس الرجل تحرسه وتوجهه. وطرد كل

الهواجس، ولم يسمح بأى نقر على رأسه الذى يعتز به، ودق على مفتاح التثبيت، أى المفتاح الذى به تثبت عينا الرجل على التليفزيون فلا يرى غيره.

استرخت أعصابه فمد ساقيه على المنضدة الصغيرة.

ـ هل جئت يايوسف؟.

جاءت زوجته الممتلئة من الداخل تدق الأرض. لم يتنبه لصوتها. وضعت يدها على كتفه. أدرك وهو مرتبط بالراقصة أنها زوجته. وضع يده على يدها ـ دلالة على أنه يرد تحيتها دون أن يرفع نظراته عن التليفزيون.

مد التليفزيون يده الخفية المكونة من ذرات مشعة، فوضعها على رأس الزوجة الممتلئة، فهبطت على الكرسى كأنها تحمل أثقالاً تنوء بها. ربطها بأحباله. ثبت على رأسها لوحة أزراره. أمرها أن تتعجب، وتدهش وتغار.

قالت: خفيفة كالريشة.. ألم يكن جسمى مثلها يايوسف؟.

لم يسمع يوسف شيئاً ولم ينطق حرفاً.

فجأة اختفت الراقصة وظهرت صورة ثابتة للأهرامات بينما الموسيقى تعزف.

لم يسمع يوسف شيئاً ولم ينطق حرفاً.

لحظات وأذن المؤذن لصلاة العصر، وتغيرت الصورة، فأصبحت مسجداً ومئذنة مرتفعة يصعد عليها التليفزيون ويهبط، ويجوس خلال أبهاء المسجد وأعمده الفخمة.. بينهما بعض المصلين الخاشعين.

تذكر الرجل أنه لم يصل الظهر، لكنه رأى أن يصلى الظهر والعصر معاً.

بعد لحظات دق جرس الباب.

رفع التليفزيون يده الوهمية عن رأس الزوجة، وأتاح لها الفرصة كى تسمع، وأمرها أن تفتح الباب.

فتحت الباب. دخل ولدها الأكبر. سلم على أبيه، سأله أبوه بينما كانت الأم تحول القناة.

ـ أين كنت حتى الآن؟ ألا تخرج من المدرسة فى الثانية.

ـ نعم ولكنى كنت فى..

وضع التليفزيون يده على رأس الرجل وجذبه إليه، ولمس مفتاح التركيز.

بطرف عين أطل الرجل على الصورة فشاهد عناوين الفيلم الأجنبى وحركات الممثلين العنيفة منذ البداية، فأطلق سراح ولده وكف عن السؤال.

ـ طيب.. طيب ادخل الآن.

لم يعرف أين كان ولده وأخذ يتابع الفيلم. وضع التليفزيون يده على رأس الولد وحوله إليه، فلم يدخل كما أمره أبوه وإنما ألقى بحقيبة الكتب على الكرسى، وجلس على آخر. تكاد تثقب نظراته شاشة التليفزيون من شدة التحديق.

انتبه الجميع فى شغف إلى هذه البدايةالساخنة التى بدأ بها الفيلم.

توقفت سيارة نقل كبيرة مزدوجة المقصورة، وهبط منها أربعة من الشباب، ضخام الجثث، مفتولى العضلات. مفتوحى الصدر عن شعر وسلاسل ذهبية. انتشروا فى المكان يحلقون فى تحفز إلى كل من يخرج من باب الحانة.

وخرج شاب. ما أن وقعت عيناه عليهم حتى اهتز، إذ عرف فيهم خصومه.

استعدوا له وبدأوا يقتربون منه. كل واحد يدنو من زاويته، والشاب يمسح المكان بنظراته القلقة، باحثاً عن مهرب.. وقبل أن يلفوه بخطواتهم المتئدة المنذرة، استنفر قوته جميعها وأسرع بالقفز فى اتجاههم ليفلت من بينهم، لكن اثنين منهم تشبثا به ووقعا فوقه وجاء الآخران، وأوقفوه ليضربوه، لكنه تمكن من افلات ذراعه الأيمن وضرب به أحدهم، واختطف الذراع الأيسر وضرب به آخر والثالث بقدمه اليمنى والرابع بقدمه اليسرى، وأسرع إلى سياراتهم فركبها وطار بها.

نهضوا أخيراً ينظرون فى خيبة إلى سياراتهم التى خلفتهم.

قدمت البنت الصغيرة من الداخل:

ـ جوعانة يا ماما.

لم تسمعها الأم. هزتها الطفلة.

فى عجلة كان الشبان الأقوياء يندسون فى سيارة أجرة لإقتفاء آثار الشاب الهارب.

ضغط التليفزيون عن طريق جهازه الداخلى الذى يتحكم به فى رءوس المشاهدين على مفتاح الوعى عند الأم. أفاقت وتنبهت ليد ابنتها:

ـ ماذا تريدين؟.

ـ جوعانة.

ـ نعم.. نعم.. سأحضر الطعام. اجلسى.

جلست الطفلة تتابع الفيلم معهم ولو أنها لا تستطيع أن تقرأ الترجمة. عاد التليفزيون فاسترد الأم. مضت تتابع الفيلم ونسيت الطعام، إذ المطاردة على أشدها بين الشاب الذى خطف الشاحنة وبين أعدائه فى السيارة الأجرة.

مال الشاب إلى اليمين فجأةودخل شارعاً ممتداً، التقطت عيناه على حين غرة منزلاً كبيراً ببوابة خشبية، اقتحمها ودخل المنزل، فاختفى فجأة عن العيون التى تحدق فى الشارع وتنطلق إلى نهايته.

أسرع الشاب بالخروج والعودة من حيث أتى، دون أن يلتفت إلى أصحاب الدار الذين علا صياحهم وسخطهم لرؤية البوابةالمهشمة.

وأخيراً دخل بالشاحنة أحد الجراجات، وهبط منها وأغلق عليها باب الجراج ثم أشار لسيارة أجرة فحملته إلى مكان آخر.

ـ جوعانة.

كانت الأم تتابع الشاب باهتمام، وهو يعانق فتاته عناقاً حاراً، وكذلك كان زوجها يتابع، وأكثر اهتماماً منهما كان الابن الأكبر.

ـ جوعانة.

ـ ..

ـ جوعانة.

انتهت القبلة، وجلس الشاب على الكرسى، وشرعت الفتاةتقدم له بعض الأطعمة والمشروبات، فصرخت الطفلة.

ـ جوعانة.

انزعج التليفزيون من صراخها، فهو لا يحب الضجيج، ويتعكر مزاجه إذا لم يتوفر الهدوء التام وإذا لم يحظ بالاهتمام، بل ولابد أن تكتسى الوجوه بعلامات الدهشة والانبهار. لذلك فقد أعاد الوعى إلى الأم حتى لا يتكرر صراخ الطفلة، فنهضت إلى المطبخ وهى تقول:

ـ حالا يا ابنتى حالاً.

وضعت الأطباق على المنضدة الصغيرة فى «الأنتريه» أمام الزوج.

أخذوا جميعاً ـ وعيونهم على الفيلم ـ يمدون الأيدى ويقضمون فى بطء، ويمضغون كبقرة تجتر غذاءها تحت الشجرة فى ظل الأصيل.

جاء الابن الأوسط:

ـ لماذا لم تنادوننى لأتناول طعامى؟

لم يعره أحد التفاتاً. جلس يأكل. مد التليفزيون يده الخفية. جذبه نحوه. بدأ يتابع الفيلم. ويتناول الطعام بيده دون أن ينظر إليه، وأصبح حاله كحال الباقين، منهم من يضع ملعقته فى الملح بدلا من وضعها فى طبقالأرز، وآخر يضع لقمته فى الأرز بدلا من وضعها فى طبق الملوخية.

انتهى الفيلم فأمر الأب ابنه ـ كأنه فى غرفة العمليات العسكرية ـ بسرعة تغيير القناة. ظهرالمدرس وهو يشرح البرامج التعليمية. تسلل الفتور إلى الجميع، حتى الكبير الذى يعيد السنة الثانية الثانوية، والصغير الذى انتقل بصعوبة وبعد ملحق إلى الإعدادية لم يرض أى منهم أن يشاهد البرامج التعليمية وحولوا القناة..

دخل إلى حجرته الابن الأوسط وحز ذلك فى نفس التليفزيون إذ أنه يجتهد فى سبيل إرضائهم، وهمهم بكلمات اشعاعية غامضة، كان بها يود أن يقول لهم:

ـ إننى أجهد نفسى كى أقدم لكم كل شىء وأجلب لكم المتعة والمنفعة من كل بقاع الأرض. أوفر عليكم الجهد حتى لا تتنقلوا بين الأغصان كالعصافير بحثاً عن عش سعيد. امكثوا أمامى واقبعوا فى مقاعدكم وسوف أقدم لكم ماتشتهى أنفسكم.

حاول الأب النهوض لخلع ملابسه، لكنه لم يستطع، فمنذ فترة وهويشكو من ركبتيه، رغم أنه لم يتعد الخامسة والأربعين.

حاول مرة أخرى إلى أن نجح، ورفعت الأم أطباق الطعام دون مساعدة الأولاد الذين أصروا على مشاهدة الإعلانات. وكل منهم تتجدد أمنياته مع كل إعلان. فهو يتمنى أن يشرب بيبسى.. بيبسى ثم يتمنى أن يغسل أسنانه بمعجون آرتف بالفلورين، ويتمنى أن يركب مثل هذه السيارة الفارهة، ويدهن وجهه بالكريم الجميل، وينام فى حجرة النوم الخرافية، ويستحم فى هذا الحمام البللورى، ويتعطر بهذه الرائحة التى تمكنك من أن تقتحم الصعب و.. و.

أسرع الأب بالعودة ليلحق الإعلانات ففى بعضها تظهر الفتيات الحسناوات، وهو يحب الفتيات الحسناوات.

أسرعت الأم وراءه قادمة تحمل الشاى لتراقبه وهو ينظر بكل أعصاب بصره إلى التليفزيون، ليبحلق فى الفتيات وفى اعلانات معينة.. وهى تعلم جيداً أنه يحب مشاهدة الفتيات الحسناوات النحيلات «المعصعصات».

انتهت الاعلانات وأطلت مذيعة نشرة الأخبار، فحول الولد الكبير القناة، ولم يعترض الأب، فهو لايريد أن يعرف شيئاً عن أى شىء. عن أى دولة.. عن أى حادث.

فوجىء الجميع بأن البرامج التعليمية مازالت فى قمة حماسها تشرح للطلبة علومهم، فتركوها تشرح.

أخذ الأب يتابعها بعينيه فقط، فهى لا تخصه ولكنه يشاهدها والسلام.. يجب أن يتفرج على أى شىء بينما يشرب الشاى وينفث الدخان، ويمصمص شفتيه ويدفع لسانه ليبحث عن بقايا الطعام بين أسنانه.

دقت الساعة السابعة مساء، فتذكر أنه لم يصل أى فرض، واقترب موعد صلاة العشاء. شعر فجأة بآلام فى ركبتيه فلم ينهض.

جاءه ولده الأوسط معاتباً:

ـ لقد كذبت على يا أبى.

ـ لماذا يا ولدى؟

ـ لقد سألتك حين قدمت إلىّ القميص هل أعلن صاحبه عنه بالتليفزيون قلت نعم.

ـ هذاحق ياولدى، لقد رأيت عنه اعلانات كثيرة.

ـ لكن زملائى لم يروا هذه الاعلانات وسخروا منى.

ـ ربما كانوا يذاكرون ولا يهتمون بالتليفزيون.

فضحك الولد مندهشاً من سذاجة أبيه قائلاً:

ـ أنهم يأخذون يا أبى دروساً ولا يذاكرون.

ثم مضى إلى حجرته.

دق جرس الباب. نهضت الأم وفتحت.. كان أخاها.

قالت: أهلاً يا أحمد.

وقال زوجها: أهلاً يا أحمد.. حولى القناة الثانية.

ـ لا أهلاً ولا سهلاً، أنتم لاتسألون على أحد، ولو مت لما تحركتم.

قالت أخته فى اهتمام وحنان: ماهذاالكلام يا أحمد.. لا تقل هذا.. أمعقول هذا يايوسف؟.

أجاب زوجها بذهن شارد: غير معقول.. اجلس يا أحمد.

جلس أحمد يسألهم عن أحوالهم وهم يردون مرة، ومرات يغفلون.

كان التليفزيون فى هذه الأثناء يبذل جهده يجذب إليه أحمد. لكن عين أحمد لاتستقر على شىء لأكثر من دقيقة، وحتى رأسه نفسه لايستقر، وعقله لايتابع فكرة إلى نهايتها، وينتقل بين عديد من الموضوعات سريعاً، لايمسها إلا مساً هيناً ويتركها ليمس غيرها وهكذا. كل مايسعده ويجذبه موضوع يصلح للضحك، فهو مغرم بالضحك، ويمكنه أن يضحك من أى شىء مهما كان حزيناً ومأساوياً.

وحين جذبه التليفزيون. التفت إليه وأخذ يسخر من بضاعته. من الديكور والممثلين وسطحية الأفكار، ونظرة المذيع وجلسته والأخطاء الكثيرة فى المعلومات المقدمة وعدم مطابقة السلوكيات للواقع على الإطلاق.. إلى غير ذلك حتى ضاق التليفزيون بهذا الشخص الذى يقلل من أهميته، كما أنه سيعكر صفو الأسرة وسيخرجهم عن طاعته ويشغلهم عنه..

زاد من غيظه أنه لايستطيع التحكم فى الضيف الجديد، لأنه لم يستطع لا هو ولا أجهزة التليفزيون المنتشرة فى المدينة أن يتمكنوا من رأس أحمد، ولم تركب له الأزرار التليفزيونية لتوجيهه إليكترونياً.. فهو الآن خارج دائرتهم.. حر طليق كعصفور.. يجلس وقتما يشاء وينام وقتما يشاء، ويسافر ويلعب ويجرى حينما يشاء، ويفكر كيف يشاء ومتى يشاء.

لكن التليفزيون لم ييأس فلابد أن يبهره ويجذبه، قرر فجأة أنّ يقطع برامجه لأسباب فنية، ويقدم بدلاً منها استعراضاً أجنبياً عامراً بالنساء والشباب والموسيقى والديكورات المبهرة، والأضواء الصارخة الملونة، فاهتم الجميع ماعدا أحمد.

جاء الابن الأوسط فسلم على خاله وسأل أبوه عن حل لمسألة صعبة من مسائل الجبر. قال له أبوه:

ـ الوقت ليس مناسباً. خالك موجود.

قال الابن: وهل خالى غريب!

صرخ الأب: عيب ياولد.

فانبرى الخال: أنا لست غريباً.

قال الأب فى تحد وعيناه على التليفزيون:

ـ قلت ليس الآن.. يعنى ليس الآن.

وأحس أحمد أن مشكلة توشك أن تنشأ بسببه، وفى نفس الوقت قرر أن يرضى الطرفين: الابن والأب.

قال: تعال.. اسألنى عما تريد.

أدرك الأب أن المسألة ستطول ولن يتمكن من مشاهدة هذا الاستعراض المبهر.

قال بحدة: ولا أنت تجيبه الآن.. وقت آخر.. هيا.

دخل الصبى فألقى الكتاب من قبيل العناد وعاد فجلس معهم.

تململ أحمد ثم قال موجهاً حديثه لأخته:

ـ ألم تعلمى بوصول أختك منذ أسبوع.

كانت الأخت مشدودة إلى التليفزيون بخيوط حديدية..

قال أحمد بصوت عال: فكرية.. أفيقى.

ـ ماذا؟

ـ ألم تعلمى بوصول أختك من الخارج مريضة.

أجابت بتثاقل: أعرف.

سألها: ولماذا لم تذهبى إليها؟

قالت وهى توارى خجلها: مشاغل يا أحمد.

رد بهدوء.. حاول أن يكبح جماح دهشته: أى مشاغل؟

قالت: احك له يا يوسف.

لم يحك له يوسف فهو منهمك فى الاستعراض الراقص والراقصات.

هزته: يوسف.. يوسف.

لم يرد يوسف وبدا كأنه ميت يجلس فى الكرسى مفتوح العينين.. ميت من نوع غريب وجديد.. ميت عصرى.

والتليفزيون مايزال فى حيرة من أمر الضيف.

انتهى الاستعراض فأجابهم: نعم.. ماذا.. لماذا.. مالكم.

سأل أحمد: ألم تعلم بأن أمينة وزوجها وصلا من الخارج لأنها مريضة جداً.

قال وهو يشعل سيجارة فربما تخفي شيئاً من ملامحه: نعم.. علمت.

سأله أحمد وكان نادراً مايتابع موضوعاً إلى نهايته.

ـ ولماذا لم تذهب إليها؟.

ألهمت سحب الدخان يوسف بعض الأفكار ليرد بها فقال:

ـ الحق أنني مشغول جداً هذه الأيام بالذات.. ولدينا عمل بالهيئة كثير.

وهنا مشاكل الأولاد ودروسهم و.. والحياة أصبحت وأنت سيد العارفين صعبة جداً.

بدا على أحمد أنه صدق ما قيل. فقال:

ـ عندما علمت أنكم لم تذهبوا إليها جئت لأنبهكم فلا يجوز ألا تذهبوا لزيارتها.

قال يوسف وهو يتنفس بملء رئتيه، إذ أحس بصدور العفو عنه، وأنه يستطيع متابعة التليفزيون.

ـ ألف سلامة.. ستذهب إن شاء الله. حولوا القناة.. التمثيلية. أسرعت الأم السمينة النشيطة:

ـ لقد نسينانها فعلاً.

قال أحمد: إنها مملة.

كاد التليفزيون ينفجر غيظاً من هذا الذى لا يعجبه شيء ولا يود أن يعيره اهتمامه ولو لدقائق، وهو كفيل أن يعد له لوحة الأزرار ويبثها فى رأسه.

مضت التمثيلية تدق فى رءوسهم وجاء الابن الأكبر والطفلة الصغيرة. جرجرهما التليفزيون من حجرتهما ليتفرجا.

أخذوا جميعاً يضحكون على أى شيء، بمناسبة وبدون مناسبة وبعد المسلسل تناولوا العشاء فى نفس المكان، وذهب أحمد وهم ملتصقون بالكراسى، عيونهم مقيدة إلى التليفزيون وأجسادهم مستسلمة و«محطوطة».

الوقت يمضى وهم يمارسون هوايتهم فى التنقل بين القنوات والتليفزيون يصر على أن يتولى أمرهم بنفسه.. يدفع هذا للضحك ويشير إلى ذاك بالخوف ويعرض على الآخر أن يقوم إلى دورة المياه من قبيل الرحمة قبل أن تنفجر مثانته.

فى نحوالتاسعة نامت الطفلة فى مكانها ، دون أن ينتبه لها أحد، وحتى بعد أن انتبهوا لم يستطع أحدهم النهوض لحملها إلى سريرها فبقيت.

وبقوا إلى أن انتهى الارسال فى جميع القنوات، ولم تعد هناك صورة وإنما مجرد جهاز كهربائى، تشع منه ذبذبات ضوئية تصدر صوتاً مزعجاً.. تش.. تش.

وحتى بعد ما انتهى الارسال لم تسمح لهم نفوسهم ولم يسمح لهم التليفزيون أن يقفلوه، تمثل لهم خاطر مسيطر بأنه من الممكن أن تطل عليهم من بين هذه الذبذبات صورة ممثل أو راقصة أو حتى جزء من مباراة فى كرة القدم أو رجل بستة أو سبعة مليون دولار.

ولماذا لا يحدث هذا؟ ما الذى يمنع من أن يعود الارسال بعد أن يذهب المسئولون إلى منازلهم ليرتاحوا حتى الصباح.

غير مستبعد أن يكون هناك فيلم مرفوض مثلاً، أو سهرة تليفزيونية مهجورة.. تغضب لحالها فتكتم آلامها فى نفسها إلى أن تحين الفرصة، وعندما تتأكد فى مرة من غيابهم تنهض من قبرها أو تخرج من علبها، وتقفز إلى جهاز الارسال، وتفاجىء المشاهدين المخلصين من أمثال عائلة يوسف مهابة، وتعرض نفسها دون أن يقدمها مذيع أو مسئول.

لم يعد هناك شىء على الاطلاق بمستبعد، على الأقل فى نظر هذه الأسرة، وهى ليست أسرة شاذة أو غريبة ولا يعانى أفرادها من أمراض عقلية.. أبداً فإنهم عاديون جداً وتقليديون.

كان عليهم أن يناموا. أخيراً.. وأخيراً جداً وبعد طول صبر ومقاومة أطفأوا التليفزيون، كانوا يخشون إذا هم أطفأوه أن يموت ولا يعود إليهم فى اليوم التالى، فينتحر بعضهم ويضرب الباقى عن الطعام.. أخيراً أطفأوه فعم السكون، وكأنهم كانوا آخر ناس فى الدنيا إيقاظ.. سكون.. سكون..

تبادلوا النظرات فى دهشة. أحسوا أنهم وحدهم الأحياء فى هذا العالم، أما جميع الخلق فنائمون منذ سنوات أو ميتون.. سكون.

بتثاقل نهضوا للنوم.

وماهى إلا لحظات حتى غدا كل منهم جزءاً من السرير، جثة هامدة لايشير إلى ارتباطها بالدنيا إلا الغطيط العالى من الجسد المنهك.

اطمأن التليفزيون إلى أنهم جميعاً قد ناموا، فهب من رقدته المهيبة التى يكمن فيها كل يوم كأبى الهول، ثم أخرج قوائمه من تحت صندوقه وبسطها فقام عليها، صارت تمتد بشكل خرافى. وكبرت رأسه وتضخمت جوانبه ولمعت شاشته.

تجاوزت أطرافه المكان الواحد وتفرعت فى الممرات والمدخل والردهة، ملأ التليفزيون المكان كله حتى لم يعد فى الشقة غيره.

بدأ جولته الليلية يجوس فى الممرات والحجرات. تحسس رءوس النائمين.. نعم.. الكل نام وغرق فى بحر النوم تماماً.. ضغط على أزرار الأحلام وشرع يتحدث إليهم فى همس عال كالفحيح. يخرج صوته من كل جزء فيه ومن كل طرف لا من الصدر وحده:

ـ احلموا.. احلموا بى.. أناالاهكم الأعلى فاعبدونى.. امنحونى كل حياتكم، أمنحكم الجمال واللذة والراحة.

وقبل أن يكمل وصيته إليهم، بلغته من فم يوسف أصوات غامضة بلغات عديدة وكلمات ناقصة أوضح ما فيها قوله: كان يجب أن يطلقها، لكنه تخاذل.

أما الولد الأكبر فكان يقول فى كلمات متدفقة: أن مسدسه سريع الطلقات لم يمهلهم حتى..

وكانت الصغيرة تقول: أين باك بتاعى وتقول لها أمها: باك ليس ملكك وحدك. باك لنا جميعاً.

انشغل الكل بالأحلام.. تراءت لكل منهم أمنياته التليفزيونية واستعاد بعضهم شيئاً مما رأى خلال اليوم فى التليفزيون.

وقبل الفجر استدار العملاق بكل ثقة وهدوء، لملم أطرافه وتكوم. صعد إلى منبره وربض. بدأ يخور كالثور ويهبط، يخور ويهبط، ويتضاءل حجمه كالبالونة المثقوبة، يخور ويتضاءل إلى أن طلع النهار، فأصبح على هيئته العادية الوديعة المهذبة التى يراه الناس عليها، وكأنه لم يبرح مكانه لحظة، ولم يشغل أحداً أو ينطق حرفاً.

استيقظ الرجل فى نحو العاشرة، أسرع فزعاً يدس جسده فى الملابس. أى ملابس.. ترك القوم كلهم غرقى فى عالمهم، يتعالى غطيطهم من الحجرات مختلف النغمات، كأنهم يعزفون هذا الغطيط تبعاً لنوتة موسيقية، وبقيادة قائد أوركسترالى ماهر.

هرب من رائحة النوم المتعفنة، وقفز هابطاً السلم إلى عمله.

بلغ مكتبه فإذا لجنةالجرد تنفث الغضب وتتشبث بالصبر وقد أوشكت على الرحيل، لتكتب تقريرها عن حالة الخزينة.

سألوه: ماذا فعلت؟

ـ سألهم: فيم؟.

سألوه: فى العجز.

فغر فاه: هه.

سألوه ثائرين: العجز.

قال متلفتاً: عجز.. أى عجز.

بحلقوا فيه. وقع من طوله. تلقاه كرسيه. وضع رأسه فى كفيه.

اشـــتياق

عندما تنادى حفيدها الأصغر:

ـ يا شالم.. ياولد يا شالم.

يغرق إخوته فى بحر هادر من الضحك.. يتبعثرون فى كل اتجاه.. أجمل ما فى الدنيا أن يسمعوا جدتهم تنادى أخاهم الأصغر بفمها القطنى الفارغ، ككيس نقود قديم شدوا خيطه.

العجوز وحدها فى الدار. تبتسم فى أسى. تتكئ على سنيها السبعين.. تتأمل خيمة الصمت تنسدل على الجدران. تشمل الكون كله..

الكآبة وغياب الأنفاس تنسج خيوط البرد. تنهال أكوام الثلج على كل ركن. فى حو الوحدة والشيخوخةتنبت أعشاب الغربة والوحشة. لا يرغب فيك أحد. تلقى على قارعة طريق. من يسأل عنك. هذا زمن الفرد المتعجل يستهدف نفسه.

لم يبق من أهلها غير ابنتها وزوج ابنتها القاضى وأولادهما. يسكنون الدور الثامن بعمارة فى نهاية الشارع العملاق.. بينهما نصف ميل.

وحدها تعيش. بلا أنيس إلا قطة ضامرة مثلها تماماً ـ الوحدة والشيخوخة شيباً صباها.

منذ الصباح وقلبها يأكلها عليهم لهفاً.. لكنها..

لكنها.. لن تترك بيتها الذى ضم زوجها حلماً جميلاً ملوناً.. مازال يشع حتى الآن دفئاً تؤججه الذكريات.. أنفاسه فيه.. شريك الأيام الصعبة.. لا تنسينا الأيام رفيق الغربة.. زميل الدرب المجهول.

زوج ابنتها قاض مجرب. يقول.. صدقت كلماته..

- حتى لو ضحكت فى الوجه الأيام وتبسم للإنسان وجه الزمن العابس وتغطينا بالمال بالجاه. لا يمكن أن ننسى زميلاً فى ثلاثة. الجيش والسجن والغربة.

أحفادى. أنفاس جدكم فى بيتى.. لا أتركه..

صورته مرسومة على كل جدار. هذه نظراته ترقبنى. ترشدنى تسألنى.. يده تسندنى حين أهم بنقل الخطوات.. أسمع صوته وأرد عليه. هل يملك لسانى إلا يرد عليه ومن قبله قلبى. لم يغيبه التراب، فالتراب لا يخفى الأحباب. لم يطوه القبر. ولا تبعده السنون الخمس.

ألح عليها زوج ابنتها القاضى كى تسكن معهم:

- ورائحة المرحوم!

- وكيف نطمئن عليك؟

- تعالوا.

- القضايا بالليل والنهار.

- أدرسها عندى.

- مرتبط بالمراجع والكتب وكلها بالمنزل.

- دع ابنتى تزورنى والأولاد.

- مرتبطة بى.

- تمنع ابنتى عنى إذن.. تحرمنى منها.

- لا أقصد.. لكنها لازمة لتحضير ملفاتى ومذكراتى وترتيب المكتب ومطالب الأولاد.

ـ ماذا تعنى؟

ـ أرى أنك تقبلين يا أمى لنفسك الارتباط بزوجك الميت، ولا تقبلين لابنتك الارتباط بزوجها الحى.. والحى كما تعلمين.

ـ أحق من الميت.. أليس كذلك؟.

على نفسها تحاملت العجوز ونهضت.. ألح زوج ابنتها عليها بالبقاء. قدم الأسف وأبدى الاعتذار. تركتها ابنتها تخرج. تعرف أن إصرار أمها أقوى من الحديد.. وعنادها بلا حدود. وإذا مسها تيار الغضب فلن ينقذها من قبضته أحد.

بعد يومين زارها القاضى والأولاد. معهم كل مايلزم لإقامة يوم جمعة كامل فى شمس دارها التى لاتعرف دارهم.

وبعدها..

مر أسبوع.. أسبوعان ولا خبر. لعل المانع خير.. اليوم هو الجمعة.. منذ الصباح وقلبها يأكلها عليهم. لو كان فى نيتهم الحضور. لحضروا منذ الصباح.. الوقت الآن بعد العصر.

لا تستطيع الجدة العجوز مقاومة الرغبة الجياشة فى رؤيتهم. لحظتها تحس بالانتعاش. تحس بدم الصبا يجرى فى عروقها المتهرئة.

هل تذهب لتأخذ أحفادها فى أحضانها؟.. لا.. هل تترك المرحوم؟.. لا.. ما العمل إذن؟.. يا لها من حيرة؟.. الأفضل أن تذهب. الألم ينخر فى ركبتيها كالنمل يمتص رحيق العافية.. إن كانت هناك عافية.

تلفتت إلى الجدران الذاهلة فى غباء وأقفلت الشقة فى أناة. استدار جسدها المقوس فى حركة واهنة. نزلت السلم واحدة واحدة. طفل صغير. يعود الإنسان كما كان. تاتا. يدها على السور. درجة وتقف درجة وتقف.

هبطت الأدوار الثلاثة حتى الباب الخارجى.

الباب يبدو من الداخل كأنه ثغرة كبيرة فى كهف يفضى إلى نور الشارع. تقطعت أنفاسها.

الشارع عملاق مهيب. الحركة فيه كيوم النشور.. سيارات تتسابق كأنها تهرب من النار.. الناس يدافعون بلا وعى.. ينطلقون كالآلات بلا بصيرة. كعربة دون قائد.

أبواق تتعالى تصم الآذان. [illegible] ...حان. الشخص يقابل أخاه لايعرفه.. عيناه فى عينيه ولا يعرفه.

خطواتها وجلة، وقبل أن تنقلها تنظر إلى اليمين ثم تنظر إلى اليسار. الشارع فى المدينة الكبيرة غول يأكل الأطفال والعجائز.

ترتعد عند كل بوق. رمح يشق الجسد الهش. يهتز هزة الموت.

وصلت عند منتصف الطريق. استدارت ترنو لبيتها كأنها ستفارقه. كأنهم سيخطفونه إذا واصلت طريقها.. بدا زوجها يلوح لها..

«هذا الشارع كان أيام شبابى خالياً من المارة أو يكاد، والحركة فيه ضئيلة.. سيارتان أو ثلاث. تسير فيه معصوب العينين فلا تخاف، تمشى ذاهلاً عن أحوالك لا يهمك، تحمل أكياساً وصناديق تحجب عنك الرؤية. لا بأس، تمشى وأمامك وأولادك تسوقهم كقطيع الغنم. لا خوف عليهم.. أما الآن فأنت لا تأمن على نفسك برغم الشباب».

بلغت العجوز باب العمارة. أنبأها البواب بانقطاع الكهرباء. جلست على مضض تنتظر. لكن الأولاد يتقافزون فى قلبها. نهضت. صعدت السلم. يدها على الجدار.. درجة وتقف.. درجة أخرى وتقف. وفى كل دور ترتاح.. تلتقط الأنفاس المقطوعة.

بلغت شقتهم. ضربت الجرس، لم تسمع له صوتاً جلست منهارة على الأرض.. دقت الباب بالمداس. لامجيب. دقته. دقته. الشقة مهجورة.. انتظرت وانتظرت ثم هبطت الدرجات من جديد.

سألت البواب. أكد لها البواب أنهم فوق. فى الشقة المقابلة يحتفلون بعيد ميلاد ابن جارهم الطبيب.

اغرورقت عيناها بالدمع. «عيد ميلاد الصغير. وأنا أعانى من الوحشة ليل نهار».

استدارت لتغادر العمارة. قفزت فى صدر البواب مشاعر الإنسان. رجاها أن تبقى حتى يدعوهم إليها. جلست على أريكته تلتقط الباقى من الأنفاس.. صعد البواب الطيب ثمانية أدوار ـ أبلغ القاضى بحضور جدة الأولاد.

هبطوا جميعاً فى عجلة إليها.. كانت تتجه خارج العمارة.

ـ أمي.. أمي..

نظرت إليهم بعيون عاتبة.. كانت العيون تقول:

ـ الحي أبقى من الميت.. أليس كذلك؟

تهدل جسدها وانهار.. حملوها إلى شقتهم.. ودموعهم تتساقط على وجهها فتطفئ نارها.

قرية فوق الأرض

يجب..

ألا يعطى هذه المجنونة الفرصة لمزيد من النقاش الهستيرى. إنها تحب اللجاج بشكل خرافى. طول النهار «شقار ونقار» مع أى إنسان يلقيه حظه الأسود فى طريقها.. وأسوأ المخلوقات حظاً هم أولادها. لا تكف عن التحرش بهم بمناسبة وبلا مناسـبة، ولا يسلم من هذا رضيعها الذى لم يتجاوز ستة أشهر.

تخلق عدة مشاكل من مشكلة واحدة.. إذا مر أى شخص فى الحارة ولو خطأ تقبض عليه فوراً، كأن حشرة دخلت بيت العنكبوت ولا تتخلى عنه إلا بعد أن يقول «حقى برقبتى».

ويذهب وهو يلعن اليوم الذى حمله إلى هناك..

امرأة مستفزة دائماً.. لقد تحملها كثيراً واشتكى منها لأهلها فى بداية حياتهما الزوجية، لكن أهلها كانوا دائماً يعرفون داءها، وما أن حملها عنهم حتى التقطوا أنفاسهم، وحمدوا الله أن مخلوقاً ما رضى أن يتلقى هذه المصيبة، وكان سليم هو الذى حملها. إنه كان ظلوماً جهولاً.

هم أنفسهم كانوا يشفقون عليه، وطالما رثوا لحاله، لكنها ابنتهم ولحمهم، وسليم طيب، وليس مجرد طيب، بل هو طيب إلى درجة تغيظ وتقلق، طيب إلى درجة البرود،

وهذا هو ـ فى رأيهم ـ الشخص المثالى الذى كانوا يتمنونه لها، وإن تمنى بعضهم لها أن تقع فى شخص مشتعل المزاج، حاد الطبع، سريع الغضب إذا ناداها ولم ترد عليه قام عليها فسواها بالأرض، لا يقول لها كلمة إلا ويسبقها كفه على صفحة وجهها.

كان من الممكن أن يكون هذا أنسب وخاصة فى نظر بعض الخبراء منهم، المحنكين فى الحياة، المتمرسين بطباع البشر العجيبة.

لكن اشفاقاً عليها، لأنها ابنتهم.. لحمهم وعرضهم. ألمها يؤلمهم ودموعها تدمى قلوبهم، لذلك اختاروا لها شخصاً من النوع الأول النوع الطيب جداً لدرجة البرود، وسليم هو زعيم هذا النوع وأبرز أعلامه، لدرجة أنه يكاد يكون بلا شخصية.

ولو كانت له شخصية فلن يسمح لزوجته «الولية القرشانة أم عياله» أن تتصرف معه على هذا النحو الشرس.

وطيبة سليم هى نفسها سبب معظم مشاكله مع زوجته. هى نار حامية وهو بارد كالثلج.. البرود يتفجر من حركة أصابعه الواهنة ولفتاته الكسول، وصوته الرخو، «يطهق» بلد ويضطرها أن تمل الحياة كلها، وتبرح مكانا هو فيه.

وبسبب كسله هذا فهو لا ينتظم فى عمله عند فلان أو علان. فى أرض العمدة يعمل يومين، وسرعان مايتركها ويذهب «لأمينة» خليفة برفع الطوب، يترك هذا كله ليعمل فى «تعطين الكتان». ليست له صنعة ثابتة ولا قرش ثابت ولا معنى ثابت. الوقت لديه جلباب فضفاض ودائماً صامت. كأن صمته يلذ له.

أحياناً يثور على طباعه وعلى نفسه، لماذا لا يكون شيئاً ما، ولماذا لا يفاجئ الناس بحركة غريبة تبهرهم فيتحدثون عن هذا الساكت «السهن» غير السهل.

قرر اليوم ألا يعطى «الولية القرشانة أم عياله» فرصة لمزيد من الصراخ ووجع الدماغ.

العصر قال «الله أكبر»، إذن ليذهب إلى المسجد فيصلى «ويروق» وإنشا الله «تولع».

بلغ المسجد. ودخل بيت الأدب. تطهر. استدار للميضأه.. وقف فى الردهة الصغيرة بين بيت الأدب والميضأة، يشمر أكمامه ويبسمل ويحوقل ويتشهد ويصلى على رسول الله.. لكنه توقف فجأة. جذب انتباهه الذى لا ينجذب أبداً قفل معلق على باب صغير. قفل ضخم، أسود لونه من الصدأ..

قالت له نفسه: ما هذا القفل؟

رد عليها: مالنا الآن ومال القفل.. قدمنا للصلاة.

قالت له نفسه: هذا القفل غريب الشكل وهذه أول مرة أراه هنا..

رد عليها: أول مرة أو آخر مرة.. مالنا نحن.. جئنا هنا للصلاة.

قالت له: لابد أن أعرف.

القفل كتلة حديدية. سليم يرقبه ولا يملك لنفسه فكاكاً.. أجراس الفضول تدق داخل برجه، وهو حائر.

قالت له نفسه: إنه باب المئذنة. إفتح القفل وأصعد. تفرج على الدنيا من خلال المئذنة. إلى متى ستظل فى الذيل.. كن ايجابياً مرة. حدق فى القفل. إنقض عليه. اعتصره بأصابعه المعروقة.. فغر القفل فاه. انحلت عقدته وفتح الباب.

باب المئذنة الذى لا يفتح لغير الشيخ رجب فتح لك ياسليم.. ليس غيركما فى البلد.

بحلق فى يديه وفى القفل وفى الباب، رقصت أعماقه كأنه فتح باب الجنة.

قال لنفسه: ياه.. أنا داهية كبيرة ولا أعلم.

نسى كل شيء فى الدنيا واستعدت مشاعره لاستقبال السعادة والمتعة. تأمل أولى درجات السلم ثم تطلع إلى جدران الممر المخنوق..

فجأة دخلت عليه «الولية القرشانة».. وقفت بالباب.. قالت له:

ـ ياخيبتك.. ماذا تفعل هنا.. الكل يسعون من أجل الرزق وأنت؟.

ـ كفى يا امرأة.

ـ تحرك يا رجل.

ـ احمدى الله واصبرى.

تقدمت نفسه بجسارة، وأبعدت طيف امرأته أو عفريتها كما يحب أن يسميه ودفعته إلى الداخل.

المدخل مخنوق والسلم كثير الدرجات، كيف يجتازه الشيخ رجب وهو كالخرتيت حجماً وملامح.

صعد الدرجات، كأنه يهبط فى سرداب سرى، جدرانه ملتفة تدور وتدور، بصعوبة أقنع نفسه أنه لايخوض فى مصران أو أمعاء.

تراقص السؤال الحائر أمام عقله كلما «انحشر» فى منعطف.

ـ كيف إذن يمر من هنا موكب الشيخ رجب بشحمه المتراكم ولحمه المكدس؟.

بلغ السطح. انكشفت السماء بكل اتساعها.. ليس هناك مخلوق واحد على الأرض الآن أعلى منه. رنا إليه الأفق فى دهشة: ما الذى أتى بك إلى هنا؟.

الدنيا كلها أمامه، خطوط فى كفه.. نسمات طرية نقية تسربت إلى أنفه ونفذت إلى صدره.. تنفس بملء رئتيه وسقى أعماقه الظمأى.. أحس بالبهجة لأنه ابتعد عن دخان الفم.

ـ ها هى الترعة تلمع مياهها مع تقلب فتات الموج، هاهو القطار يجتاز حدودنا من بعيد البعيد، فى أقصى امتداد البصر كثعبان أسود يتسلل من بين الأشجار الباسقة، لايدخل قريتنا ولا يرضى أن يقيم بها لحظات.

فكر أن يؤذن للصلاة، لكنه تذكر أن الشيخ رجب أذن لها.

ـ ماذا لو أدعوهم مرة أخرى.. فربما هناك من لم يسمع.

هذا أفضل فعلاً. أدعو مرة أخرى للصلاة، وكله بثوابه.

وهم.. سحب أنفاسه وفغر فاه إلى أقصى ما يستطيع، وضع راحته على صدغه. شىء إلهى أوقفه، أقنع نفسه أن ثورة أهل البلد ستكون عليه شديدة لأنه عبث بالمقدسات.

حدق فى البيوت.. كلها بيوت مسكينة. أغنى الناس مسكين وأفقر الناس مسكين.

تسرب إليه إحساس بالشفقة عليهم.. البيوت من طين.. كل الأسقف من الحطب والقش.. تكدست فوقها الأتربة وجاء دخان الأفران و«الكوانين» فسودها، كل بيوت القرية سوداء حتىّ بيت العمدة وشيخ البلد.

القرية كلها عبارة عن بقعة سوداء من الفقر والغلب والضآلة والانكماش.

من هنا.. من فوق المئذنة بدت له قريته صغيرة. صغيرةجداً فلماذا وهو في داخلها يشعر أنها الدنيا وأم الدنيا وأصل الخير ومصدر كل غذاء البندر.

ناس غلابة. طيبين، تفزعك ألسنتهم، لكنهم طيبون، وكل أملهم فى الدنيا عشاء ساخن، وأقصى أمنيات الأم جلباب لها وصندل لابنها.

وآخر ما يبتغيه الرجل حرث أرضه وسلامة بهيمته.. العمدة ورجاله يمشون على الأرض في تيه وخيلاء، لكنهم مساكين برغم هذا التيه والخيلاء.. يراهم جميعاً من فوق المئذنة صغاراً كالدود.

لديه الحق إذن فى أنه لايتوتر مع أحد ولا يتشاجر.. القرية كلها صغيرة، كلها على بعضها بسكانها وبيوتهم وعفشهم لا يملأون قطاراً واحداً.

لص. لص..

لمح لصاً يحمل آنية، يعدو فوق الأسطح.. من تراه؟ سقط بين الحطب فى بيت الحاج سلامة.. لم يعرف بالضبط من أين صعد؟.. هام جداً أن يعرف من أين صعد؟..

ومع ذلك لاتشغل بالك.. ربما كان اللص هو ابن الحاج سلامة وربما كان صعوده من دار عمته.. فى قريتنا السارق أخو المسروق.. والناهب عم المنهوب.

هام في الأفق يرنو للشمس التى تستعد للرحيل.. للسيارات التى تجرى على الطريق السريع، تلتمع أجسامها حين تسقط عليها أشعة الشمس، النهر الكبير هناك.. كل ماهو كبير هناك. تراه فقط من فوق المئذنة.. سرد لفترة.

عادت نظراته ترنو للقرية المحشوة بالكلاب، والأولاد الذين لايجدون غير التراب يلهون به.

بدأت ألسنة الدخان تتلوى فوق الأسطح الحطبية الدكناء.

بنت هناك تركت جرتها عند الطلمبة، ومضت خلف دوار العمدة حركتها السوداء تبدو من أعلى ضياء النور، برز لها جسد من باب الدوار الخلفي. شكرى ابن العمدة، فى حجم أبيه، لكن البنت ككل البنات. رفيعة العود وتلبس السواد. طرحتها السوداء تدور حول الوجه المضىء كالسوار.

لا. ليس شكرى. إنه العمدة نفسه، يتقلب فى جسد متدحرج كأربعة عجول فى زكية. استدار وضم على الفتاة ذراعيه.

أين زوجته، لابد أن أبلغها، زوجها المسئول عن القرية، يعابث فتاة لا أعرفها.

ـ أحقًا لا تعرفها.

ـ أقسم أنى لا أعرفها.

ـ صفها لى.

ـ رفيعة القوام وترتدى السواد مضيئة الوجه كبدر.

ـ أهذا كل ماهناك!

ـ أجل.

ـ وأين كنت أنت؟.

ـ أنا. أنا كنت فوق المئذنة.

ـ أنت كاذب.. غير مسموح لإنسان أن يقترب حتى من باب المئذنة.

تخلى فجأة عن أفكاره السابحة، فى أسئلة زوج العمدة. حين لمح شيخًا يجرى فى اثر شبح، اختفيا ثم عادا للظهور.

من خلال الضوء الباهت استطاع أن يتعرف على شكرى وزكية الخادمة.. آه زكية الخادمة.. هكذا إذن.

لكم تمنت زوجته أن تعمل عند العمدة، فهناك خير وفير ورزق فى غير نظام وبلا صاحب.. لكم تمنت!.. ماذا لو قال للعمدة عما جرى من زكية حتى يطردها، فتحل زوجته محلها.. سيسأله العمدة:

ـ وكيف عرفت؟

ـ رأيتهما.

ـ أين كنت؟.

ـ فوق المئذنة.

ـ كاذب..

حل الظلام وتعذرت الرؤية.. على أية حال لقد رأى ما لا عين رأت ولا خطر على قلب بشر.

إتفق مع نفسه على مداومة الزيارة. أحس انه اغتسل وتطهر.

هبط الدرجات وأعاد القفل إلى مكانه، قبل أن تضبطه عين.. فالنظرة وحدها تبنى خبراً وحكاية.

مبـــروك

من باب المطحن المـقـام على الطريق الزراعى خارج المـدينة، خرج سالـم منحنى القامة يسحب نظراته على الأرض.. يرى قدميه الحافيتين وهما ينقلان الخطوات على تراب الطريق.. تشبثت يداه من فوق رأسه بجوال كبير من الدقيق يحمله على ظهره.. تقدم من عربته الكارو.. ألقى الجوال عليها بحركة متمرسة. تعود عليها.. أحكم وضع الجوال بين الجوالات التى سبقته وناء بها حمل العربة.

كان هذا آخر جوال فى هذا الدور. بل وفى جميع أدوار اليوم.. اليوم بالذات ستنتهى أدواره بعد الظهر، ولن تستمر كما هى العادة حتى المساء.

اليوم غير كل الأيام.. سوف يعود إلى جماعته مبكراً ليطمئن عليها.

كان الوقت ظهراً. والشمس فى كبد السماء، تعلو كل الرءوس.. تلهبها بحرارتها الشديدة، وتملأ الدنيا بنورها الالهى.. تنفذ الشمس فى كل شيء.

لا تستطيع العيون فى مثل هذه اللحظات أن تحملق فيها أو ترنو إليها.. ستمضى الأيام وستظل الشمس دائماً فى القمة من مخلوقات الله..

سحب سالم من أمام الحصان كيس البرسيم. وضعه إلى جواره على العربة..

صعد إليها.. طرقع سوطه فى الهواء دون أن يمس الحصان قائلاً ــ على الله يامبروك.

لم يكن مبروك في حاجة إلى طرقعة السوط ليتحرك.. ولم يكن مبروك فى حاجة إلى أن يقول له صاحبه: على الله يامبروك.. ليتحرك فهو يعلم تمام العلم أن صاحبه حين يسحب من أمامه كيس البرسيم أو التبن فعليه أن يستعد للرحيل..

وهو يفهم فى هذه اللحظة تمام الفهم أن وقت الأكل والراحة قد ولى، وجاء وقت العمل.

يشد الحصان ساقية ويرفع رأسه.. يدفع رقبته إلى الأمام فى عزم وعصبية ليتمكن من جر حمله.. يجذب العربة فى خطوات متحفزة..

إنه قوى وقادر ومخلص فى لعمله.. ولكنه دائماً ومن قبيل الحرص يحشد كل طاقته ليجر العربة.. خشية أن يكون الحمل أثقل مما توقع.. لأن ذلك إذا حدث - لا قدر الله - واستهان بحمله فربما تسوء الأمور، فتنزل قدماه وتتكسر ساقه وتضيع كرامته فى هذا السقوط.. لا.. وألف مرة لا.. إنه يدرك هذه المسائل ويعرف الى أى مدى هى مهينة ومشينة.

أما صاحبه فيقدر فيه هذه المفهومية وهذه الجدعنة.. ولا يبخل عليه بالطعام والشراب والحمام اللذيذ فجر كل يوم فى النهر، يدعك له ظهره وجسمه كله بالماء والصابون والليفة.. ليفة له وحده.. يراه صاحبه جوادا ولا كل الجياد ورجلا ولا كل الرجال.كان على مبروك أن يجر هذا الحمل عدة مرات فى اليوم من شروقها حتى غروبها، من المطحن خارج المدينة الى التجار والأفراد داخلها .. مسافة تزيد على ثلاثة كيلو مترات.

يذهب الى المطحن خاليا ليعود محملا بما يزيد على عشرين جوالا كبيرا من الدقيق، حتى يتحول لونه البنى القاتم الى الأبيض الناصع.

أبداً لا يتبرم.. لا يسخط على هذه الحياة،كما يفعل بعض البنى آدمين ..

يسبون الناس والقدر ويلعنون كل شئ ويشتكون لطوب الأرض.. لكنه راض تماماً.

ومقتنع بأن هذا الدقيق الذى يحمله أكل عيش للناس وله.

ولكى يتخلص من لون الدقيق يهز جسده بشدة عدة مرات، أو يتقلب بعد الشغل على رمال الجسر قرب شريط السكة الحديد وبعد أن ينفض عن جسده ذرات الدقيق.. ويحس أن

وسامته قد عادت إليه، يمر أمام الحاج متولى فى دكانه. ليلقى نظرة على فرسته ويتلقى منها مثلها.. وتمتد اللذة فى جسده.. تنتشر دفئاً وبهجة.. لكنه يسأل نفسه بعد أن يتركها:

لماذا لا تعمل مثله فرسة الحاج متولى؟

وتأخذه الدهشة لبرنامج حياتها.. طول النهار تأكل بجوار الحاج، وطول الليل تنام. هذا كل عملها.. ناس لهم حظ وناس لا حظ لهم.. لكنها لذيذة.

صوت صهيلها يتسرب إلى كل كيانه.. هو متأكد أنها تناديه، ولكنه لا يملك الاستجابة لها والفراغ لأمورها الكثيرة.. فى عنقه مسئوليات وأعمال لا تنتهى، ويأمل بينه وبين نفسه إذا ـ ان شاء الله وبدون مقاطعة ـ فرغ من العمل، فسوف يقضى اليوم كله إلى جوارها، يستحلب حنانها، ويستمتع برقتها وحلاوة نظراتها.. من غيرها جدير بحبه؟.

اليوم على ما يبدو ستسنح الفرصة ليحقق مايريد.. لقد أخبره سالم بأن العمل اليوم سيكون نصف يوم فقط.. سيذهب سالم ليطمئن على جماعته، وسيذهب مبروك ليطمئن على جماعته.

صحيح أن سالم صاحب العربة يشفق عليه ويحبه كابنه وأكثر إلا أن الشغل شغل.ولقمة العيش سيف مسلط على العباد.. ولا تعرف يا أمه ارحمينى.

مهما بلغت محبة سالم لمبروك فإن محبته واهتمامه بلقمة العيش.. أكثر..

والمقصود.. أن مبروك يذهب إلى المطحن محملاً ويعود محملاً.. يذهب إلى المطحن فارغاً من الدقيق، ولكنه محمل بجماعات من البشر، رجالاً ونساءاً وأطفالاً يحملون الأكياس والقفف والأوانى مملوءة بالذرة والقمح والشعير والحلبة لطحنها.. وفى العودة يحمل مبروك جوالات الدقيق وهى حمولته العادية فى غالب الأحيان.. وربما ينقل فيما بينها أثاثاً لأسرة صغيرة، أو لشاب أعزب، أو نصف ألف طوبة حمراء من الأمينة القائمة فى سكة المطحن إلى داخل المدينة، أما أظرف الحمولات طرا لديه فهى حمولة الخضروات وبالذات الكرنب.

ومبروك راض بكل مايفعله حتى لو كوى ظهره بسياطه ويكون أكثر رضاً حين يمر على رقبته بيده الحانية. فتمتص كل مايدب فى أعضائه من الخور والنصب.

لكن حين يقبله صاحبه فهذه أسعد اللحظات.. عندها تختلط فى نفسه المشاعر الحلوة.

١

الحب والفخر والشكر.. ساعتها تسرى فى عروقه دغدغة مريحة تسره.. فيغمض عينيه ويستسلم كالمرأة المنتشية تتمنى المزيد.

لا يخفى على مبروك ما يجرى هذه الأيام، هو ليس صغيراً أو ساذجاً أو متبلداً غبياً، هو أيضاً ليس حماراً حتى يغفل عن حال صاحبه سالم، فهو يعرف ويحس بكل مايجرى لسالم.. كان الله فى عونه.

منذ أيام وعينا سالم ترسلان من النظرات الساهمة مايفضح قلبه الشارد ونفسه القلقة، واليوم بالذات تبدو حركاته غير مستقرة وكلماته مبعثرة وقدماه تتعثران فى لا شىء.

ولا يتحقق له بعض الهدوء والاستقرار إلا إذا جمع شتات صدره واقتلع منه تنهيدة ساخنة.

تشى بما فى جنباته من التوتر المؤلم والقلق الموجع.. إنه ولا شك اضطراب النفس من أجل عزيز، أو من أجل المصير.. فلا يقلق مسيرة الإنسان فى دربه الطويل إلا أن يتعرض مصيره لتهديد ما.. المصير.. دائماً يفكر أبناء البشر فى المصير.

لما لا يهدأون مثلنا ويفكرون فيما تمضغه الأسنان، وتحمله الظهور وترنو إليه العيون..هذا فيه الكفاية.. كان الله فى عون سالم..

يتنهد سالم ثم يقول:

ـ استر يارب.. أنا عبدك وراض بكل شىء.

ثم يتولاه صمت طويل يذوب فيه وهو ساهم، يفيق بعد فترة ليقول: أنت الكريم.

العربة تسير بغير قائد أو تكاد.. سالم لا يرى الطريق ولا ينتبه إلى منحنياته أو قسماته.. الحصان يتجه بأمانة واخلاص فى طريقه إلى المدينة، وكأنه يدرك ما ألم بصاحبه من الألم.. يبالغ فى سرعته وخفته.. لا ينظر إلى كل حصان يمر به.. ذاهل عن كل شىء عدا صاحبه والعربة والطريق.. العبء كله يقع على عاتقه وحده.. تندفع خطواته بأمانة تنهب الطريق وتطويه.. وسالم فوق العربة لايبدو لناظريه شىء غير رأس الحصان ترتفع وتنخفض مع خطواته الراقصة المنتظمة.. رأس الحصان تميل ناحية الشمال قليلاً كأنه يود الاستماع لتأوهات يحس أن قلب صاحبه يغلى بها.عين الحصان تبرق وكأنها تسأل سالم عما

حدث، أو مايحدث.. تود أن تقول له: مالك.. ولا يهمك. معاك ربنا ومعاك مبروك.. احك لى.. ألست صديقك.. لابد للإنسان فى حياته من صديق.. إن لم يفعل شيئاً فيكفى أن يرفع عن كاهل الإنسان عبء أسراره، ويمتص متاعبه ولو بالاستماع فقط.

نظر سالم إلى الحصان وهام فى أثر تفكيره. وعيناه لاتريان إلا مايفكر فيه.. هل ياترى يمكن أن يفهم الحيوان مايعانيه الانسان.. ويرد على نفسه: نعم يفهم وبالذات مبروك.. حصان جدع.

ويهدأ رأسه من الفكر المشتعل حين يخرج أحشاءه فى تنهيدة تقتلعها من صدره كأنها شجرة تجتث من الأرض بجذورها.

ـ ادع لها يا مبروك يا أبو القلب الأبيض.. زينب ستلد اليوم.. ادع لها أن تقوم بالسلامة.

زادت هزات رأس الحصان، وككل إنسان يفهم ما يجب أن يفهم. فهم سالم أن معنى ذلك.. نعم ستقوم زينب بالسلامة إن شاء الله.

انساب سالم مع مجرى ذكرياته.. لونها يبدو لعينيه غريباً بين البنفسجى والأسود، طعمها فى شفتيه سائل ذابت فيه قطعتان من سكر وملح.. امتزجا مراً بحلو.. فلا عرف طعم هذا ولا أدرك طعم ذاك.

أخذ يقلب ذكرياته كمن يقلب فى جمر، ليزداد اشتعال النار ويحمى أوارها. الذكريات دخان لأحداث مضت.. لكن الإنسان يجب أن يتذكرها مهما كانت بالغة السوء.. ويظن أحياناً أنه قد خلعها من صدره، لكنه يصبح فريستها فى كل حين.

يحاول أن يتخلص من سنينه الماضيات، فلايستطيع.. تصبح ذيل الإنسان الذى لم يخلق له فى جسمه، فخلق له فى نفسه.

لقد بقيت زوجته زينب سبع سنوات دون حمل. رغم أنه دار بها وبنفسه من قبلها على كل الأطباء حتى أطباء القاهرة.. ولجأ إلى كل الوصفات البلدية وغير البلدية.

فلم يفلح، حتى أذن الله بعد تمام اليأس واكتمال حلقاته حول روحهما.. فحملت فى العام الماضى، ووضعت ولداً بهى الطلعة، مشرق الملامح.. وضاء الجبين.

هكذا قالت الذكريات وقال سالم:

ـ كان نسخة منى.. وكانت عيناه تبرقان.. سميته أحمد.. كنت أريده أن يكون رجلاً.. رجلا أكبر منى.. كنت أنوى أن أعلمه صنعتى.. إنها ليست سهلة كما يعتقد البعض.. وليس كل من أوتى القوة يستطيع أن يحمل جوالاً، أن حمله فن ووضعه فن وضبطه على الظهر فن.. ولا يتأتى ذلك إلا بالتمرس الطويل.. بالخبرة والعرق.. آه (استرسل فى الأشجان التى تفوح من الذكريات).

كنت أريد أن يساعدنى فى عملى.. يخفف حملى. رنا إلى الفضاء.. قال لنفسه بصوت واهن:

ـ ها هو أحمد يحمل جوال الدقيق بذراع واحدة، وحين رآنى أحمل الجوال على ظهرى وقد ثقل على وهدنى قال لى: اتركه لى يا أبى (وضحك فى مرارة).

قلت له: إنت ياولد تحسب نفسك رجلاً.. ضحك وقال لى:

ـ لا.. أنا لست رجلاً معك وفى وجودك. ابتعد أنت واتركه لى. أطلت رأس الحصان فجأة من شرفة أحلامه، فلم تخرجه من ساحة الذكريات، ولم تصرفه عما فيها ولكنها دخلت معه إليها.قال لنفسه:

ـ كان يحبك يامبروك.. أقصد كان سيحبك وكنت ستحبه.. لأنه مثلى طيب القلب ولايريد من الدنيا غير اللقمة الشريفة.

تابع حديثه وكأنه تذكر شيئاً.

ـ تعرف ترقص يامبروك؟ كنت أريدك أن ترقص له فى فرحه.

ونبعت فجأة من عينيه دموع ساخنة، لم تمسح ذكرياته ولم تمنع استرسالها، لكنها أفرغت من قلبه شعور الألم، فبدأ كالكرة مجوفاً ولكنه نابض.

انسابت الدموع على خديه المعفرين بذرات الدقيق، فشقت لها خطين بلون جلده الأسمر من بين لون الدقيق الأبيض الذى كسا وجهه.. كل ما فيه من الملامح حتى أنفه وأذنيه ورموش عينيه.

انسابت دموعه حين تذكر أن زوجته ولدت له ولداً فى العام الماضى. وسهر معها الليل كله يغنى بعلو حسه ويلاعب المولود، وزينب تضحك لأنها أثبتت أنها امرأة ولا كل النساء، وزوجة ولا كل الزوجات، وأم تستطيع أن تنجب وسوف تنجب الكثير.

كآبة مفاجئة أظلمت وجهه:

ـ هل تذكر يامبروك ثاني يوم، حين قابلنا الولد ابن جارنا، صاحب الخبر المشئوم عند دكان الحاج متولى، وقال لى ابنك مات ياعم سالم.. ساعتها وقع الجوال من فوق ظهرى.. فاكر يامبروك أو نسيت؟.. هز الحصان رأسه: نعم نعم..

وقع الجوال واقفاً خلف ظهرى واستندت عليه ثم سألته: وأمه يابنى قال: بخير لكنها قطعت نفسها من العياط.

طفرت الدمعة من عينى.. ونظرت إلى الأرض كأنى أريد أن أخفى فى ترابها ألمى وحظى الطين.. الولد قال لى: لا تحزن يا عم سالم ربنا يعوضك عنه.. الحقيقة.. كلمة الولد رفعت عن صدرى حملاً ثقيلاً.

.فتحت عينى وكأنه كلمته كانت التصريح لى بالحياة.. أحسست أن الولد لو لم يقلها فربما أطبقت يدى على رقبته، فلا أتركها إلا بعد أن يطب ساكت..

اقترب من نهاية الذكريات والذكريات طريق طويل.. مهما كانت مرة يحب الإنسان أن يرجع لها.. يسمعها ويحسها ويحتضنها ويحافظ عليها.. يرددها بينه وبين نفسه ويتأكد دائماً من وجودها.. لم تغفلها الذاكرة ولم يبتلعها النسيان.

إنها صندوق المجوهرات الثمينة.

ويتذكر سالم:

ـ فاكر يامبروك قبل أن يقابلنا الولد بلحظات.. ماذا حدث لك وقعت على ركبتك وأنت تصعد الكوبرى فاكر أم نسيت؟ وانقلب الدقيق.. قلبى انخطف منى ساعتها، لكنى قلت: الحمد لله أصبح عندى أحمد.. هو ذراعى وظهرى.. نسيت ربنا مرة وفاتت، والعوض من عند الله هو الأول والآخر.

حين طفا قليلاً فوق سطح الذكريات وأصبح قادراً بوعيه على العيش فى الحاضر الذى كان غائباً عنه.. لمح بعينه كوبرى المدينة فأفاق من رحلات أفكاره وأغلق على الفور باب ذكرياته العريض.

قفز من العربة ليكون إلى جوار حصانه. يشجعه ويشد من أزره وهو فى المرحلة الصعبة من الطريق. ولم ينس أن يضع ذيل جلبابه بين أسنانه، حتى لا تعوق حركته وأخذ يردد بعض الكلمات منغمة، يبعث بها العزم ويحييه فى قلب مبروك.

هيلا.. هيلا.. اجمد يامبروك.

ويضرب الحصان حوافره فى الأرض، يحاول أن يدفع الطريق إلى الخلف، يطويه ويتقدم ـ هيلا. على الله.. يابو الفوارس.

مضى سالم يمسح العرق المتصبب على رقبة مبروك.. ومع هذا الحنان الذى تتدفق به يد سالم، تشتد عزيمة الحصان، فالحنان يدركه الحجر، وتقوى ضربات الحصان فى الأرض، يزرعها همة وحماساً.. وصاحبه إلى جانبه، ينقل بصره بين ما مضى من الكوبرى ومابقى منه.

يا قوة الله.. الشدة من عندك..

ويشد مبروك حيله، ويتقدم إلى أعلى إرتفاع فى الكوبرى، مفتوح العينين فى اصرار، مرفوع الرأس فى ثقة.. لا يعبأ بحمله وكأنه غير موجود.. لقمة العيش صعبة. تحتاج إلى الصبر والبذل والتصميم.

ما أن أتمت العربة عبور الكوبرى الطويل المرهق، الذى يحمل أسوأ الذكريات لسالم وحصانه وللآخرين، حتى التمعت عينا سالم بالفرح وبرقت ابتسامة على شفتيه، ورقص قلبه بين جنبيه.. أخذ يجرى فى خفة إلى جوار حصانه ويقترب من رأسه، يكاد يتعلق فيه.. أخذ يواليه وهو يغنى بعيدان البرسيم.. يتناولها الحصان فى زهو المنتصر، كأنه يرى نفسه جديراً بها وبخير منها.

سالم يهلل فى فرح:

ـ أنت لم تقع يامبروك كما وقعت فى المرة الماضية.. الله لا يرجعها.. زينب ستلد أحمد وسيعيش أحمد بإذن الله..

سيعيش يا مبروك.

زادت هزة رأس الحصان.. وفهم منها سالم أن الولد سيعيش.. وتنهد سالم فى انشراح، صعد إلى العربةيكمل باقى الطريق ويفكر على مهل، فيما ينوى أن يفعله لابنه الجديد.

سوف يعيش ابنى يا مبروك.. هل تعرف لماذا؟.. لقد أحضرت له طبيباً.. أحسن طبيب.. سوف يأخذ منى مايشاء.. المهم ابنى.

ـ لاذ بالصمت قليلاً وكأنه يحاول تصحيح مسار فكره.

ـ لن أسميه أحمد فأحمد قد مات.. سأسميه باسمك.. لكى يبارك الله فيه.

ولن أعلمه صنعتى.. يبدو أن أحمد حين علم أنى سأعلمه صنعتى. ذهب..

تركها وتركنى.. سوف أعلمه فى المدارس الكبيرة فى مصر كى يصبح ضابطاً أو طبيباً.

وأشترى له سيارة وليس عربة كارو، سوف يكون شخصاً عظيماً سيكون أهم منك عندى، يجب أن تقبل هذا من الآن.. وسوف ترتاح من العمل بعض الوقت كى يركبك، وتتنزه به فى الحقول والمزارع.. وإياك إياك أن تهمله أو تؤذيه أو تتركه يسقط من فوقك.. اعتنى به يامبروك.. سيحبك وتحبه.

وصلا إلى المدينة.. أنزل سالم الجوالات، وركب الحصان وطرقع سوطه.

أسرع الحصان كما لم يسرع من قبل، كأنه يعلم بما يخالج صاحبه من القلق والأمل.

وصل سالم إلى البيت.. قفز من العربة واندفع إلى الداخل مشرعاً أذنيه، خافق القلب، يكبر باسم الله ويستعين به.

تلقته حماته راقصة الملامح، باسمة الشفاه قائلة:

ـ افرح يا سالم.. مبروك.

أضاءت قلبه أنوار البهجة فهلل: ابنى حبيبى مبروك ابنى.

فنبهته وحماته فرحة: قل ابنتى.. جاءت لك بنت كالقمر المنير.

تسمر سالم فى مكانه وجحظت عيناه.. بنت.

ردت عليه حماته: طالعة لأمها..

ـ بنت!!

قالها كأنه لا يفهم معناها.. ما معنى كلمة بنت.. ماذا تكون.. ماهى؟.

غلبته الدهشة كأنها أنجبت له راديو مثلاً أو كتاب..

أخذ يستعيد أفكاره وكأنه يلوم نفسه، لماذا لم يفكر في ذلك؟ لقد نسى هذا الموضوع تماماً.. لقد تصور أن الدنيا ليس فيها غير الذكور.. الأمل خدعه واستدرجه إلى مكان منعزل.

أخذ ينظر إلى حماته نظرة الطالب الذى جاء ليمتحن فى كتاب ففوجئ بأنه سيمتحن في كتاب مختلف تماماً.. مذا سيفعل فى ورقة الإجابة؟.

أخذ يقلب رأسه يمنة ويسرة وهو لا يكاد يفهم شيئاً، ويجاهد فى تخليص نفسه من الموقف الذى غرق فيه كالأبله.. ويحاول أن يتكيف مع الموقف الجديد: الحمد لله على كل شيء.

نظرت إليه حماته.. اتهمته عيناها بالتقصير فى الفرح:

ـ ما بك يارجل.. اذهب واجلس إلى جوار زوجتك.. ست الستات.

تقدم إلى الحجرة التى تنام فيها زوجته، متهدل الأكتاف، منكس الرأس كأنه ذاهب إلى السجن.. وفى الغرفة رأى زوجته فشد عوده.. وابتسم حين لاح له وجهها رغم الوهن والارهاق وبقايا الألم.

نظرت إليه زوجته نظرة المنتصر بعد جهد، نظرة من يتوقع أن يهنئه كل الناس.

« تمت »

عسل الشمس

أمنيات بهانة

لم يبق حتى تبلغ المدينة غير كيلو متر واحد، القفة المحشوة بحزم البقدونس والجرجير والكرات ثقيلة. الرقبة المشدودة تعين الرأس على حملها، وذراعها اليمنى تحرسها من الوقوع، بينما تحتضن رضيعها بالذراع اليسرى، تضمه إلى الصدر المجهد والقلب. الرضيع بفمه وقبضته وعدد من الأظافر الناعمة يتشبث بالثدى الذى يشبه بالونة فرغت من الهواء..

الأفق يضيق والسماء معتمة، الضباب كثيف وقطرات الندى تطير وتسقط على كل شيء، وهى ماضية لاتعبأ، تشق الحجب فى ردائها الأسود كشبح مهيب يجتاز فضاء لا نهائياً، تصحبها الأشجار التى تصطف على جانبى الطريق فى إصرار وتسبقها إلى المدينة.

القدمان الحافيتان تتقدمان فى ايقاع ثابت ولحوح فى محاولة لدفع الطريق إلى الوراء.

البرد قارس يصفع معالم الوجه الجاد، والعينان المتطلعتان للمدى المبهم يترقرق فيهما الدمع. قنوات صغيرة من العرق تنحدر على أخاديد الرقبة المتصلبة ثم تذوب فيما بين الثوب والجسد.

القدمان الحافيتان اللتان تنقلان الخطو بهمة، أصبحتا من طول الحفاء قطعتين عنيدتين من العظم والجلد المشقق، ونادرا ما يحس الجسد الحى والمختبىء خلف الثياب بما تقاسيانه على الطريق الصعب.

بثوب الأم كانت طفلة صغيرة تتعلق، وتندفع فى خطو متعثر دون أن تقع، والأم فى اجتياحها تبدو كأنها لا تحس بالمقطورة الصغيرة.. كان عليها أن تصحبها معها بدلا من تركها بالبيت وحيدة بعد أن يذهب أخوها وأختها إلى المدرسة الإبتدائية.

طوال الطريق لم تبرح رأسها خريطة السوق وتضاريسه، والمكان الذى تود لو يسعدها الحظ وتحط فيه اليوم. أنه ركن صغير لكنه قريب من الباب ويسهل رؤيتها فيه. أكبر مشكلة فى حياتها أنها لاتستطيع أن تحافظ على هذا الركن كل يوم. فهى لا تلحق به يومين متواليين، رغم تفكيرها الدائم فيه طيلة النهار وأثناء النوم ورغم تبكيرها بالخروج لتقطع هذا المشوار الطويل من كفر سندنهور إلى بنها.. دائما هناك من ينقض عليه.. وليس لديها عربة يد أو أى شيء تتركه في الركن يحرسه لها حتى تجيء.

كبار الباعة لا يحملون لذلك هما، فعرباتهم موجودة والعسكرى الملعون لا يقترب منها.

تذكرت زوجها محفوظ العسكرى، الذى هو طبعا أكبر وأهم من هذا العسكرى البارد، لأن زوجها يعمل فى مصر ومع ضباط كبار، واليوم بالذات سيركب الشريطة الثالثة.

ابتسم خاطرها لأنها قالت لسنية أم الواد فتحى جارتها فى السوق.. أن زوجها شاف الريس.

تحولت إليها سنية فى اهتمام وسألتها : معقولة

فأكدت لها بهانة : هى مرة واحدة يابت!

ولن تنسى أبدا يوم قررت أن تحكى لسنية أم الواد فتحى وكريمة «الصفراء» عن ولدها جلال.

ـ باركوا لى ياولاد.. ابنى دخل الكلية.

قالت الجارتان فى صوت واحد : والنبى يابت يابهانة!

ردت بهانة وقد أحست بالدهشة التى علت وجهيهما ولونت صوتيهما :

ـ أى والنبى.

سألتها كريمة «الصفراء» التى يلبس وجهها ستين وجها فى الدقيقة ويتلون بعشرين لون فى الثانية الواحدة : كلية اية إن شاء الله.

تمهلت بهانة لحظة وأعدت لسانها لتقول فى نفس واحد : كلية الاقتصاد والسياسة. بصت كريمة لسنية ومصت ليمونة بشفتيها : ودى يتوظف بيها فين.؟

قصدت بهانة أن تتروى هذه المرة ـ لأن ما ستقوله يجب أن يقال واحدة واحدة وبوضوح وأيضا لأنه لا يجب أن يكرر.. قالت كما سمعت من بعض المتعلمين عندهم فى الكفر :

ـ جلال ابنى يتخرج من الكلية دى يطلع على وزارة الخارجية عدل.

مصت كريمة «الصفراء» شفتيها من جديد فى تعجب ساخر تشوبه مرارة:

ـ آه .. ابن بهانة ح يروح وزارة الخارجية وجوزها بيشوف الريس.

قالت سنية بطيبتها المعتادة :

ـ وفيها ايه يا كريمة.

جنت كريمة : فيها ايه ازاى، وده معقول؟

خبطت بهانة على صدرها وقالت بلا غضب : يعنى أنا كذابة.

تحولت إليها كريمة المذعورة : لا ياحبيبتى.. العفو.. بس صواميل عقلك عايزة تربيط.

تدخلت أم الواد فتحى قائلة : بس يا كريمة عيب.. ربنا يسعدها بأولادها.. ماهى راخرة بتشقى ولابد ربنا يكافئها..

هدأت كريمة بعد جهد، ولكن بهانة كانت قد قررت أن تحتال بأى طريقة حتى ترى جارتيها زوجها وهو بالبدلة الميرى والشرايط، وأيضا ولدها وهو قادم من مصر كل خميس.. لكن ذلك لم يحدث، لأنها هى نفسها كلما حاولت أن تقدم على ذلك عادت فتراجعت وطردت الفكرة، وفى كل مرة تقنع نفسها قائلة:

ـ ما حدش فاضى لحد.. وجلال ابنى ربنا يعينه على المذاكرة والسفر والمعيشة الفقايرى اللى عايشها مع زمايله.

تذكرت بهانة أن اليوم عمدة بلدهم عنده «ليلة».. سيقيم حضرة وذكر طبعا، وسيذبح عجلا كالعادة.

ـ ياريتك يابنى تيجى النهاردة علشان تتقوت بحتة لحم.. أحست بالتعب فجأة يخدر أعضاءها، لكنها ثارت عليه وشدت أعصابها وزاد اصرارها، هدهدت نفسها.

ـ الدنيا من غير تعب مالهاش طعم، وبكرة تفرج.

تبخر كل أثر للإرهاق والتعب وهى تمنى نفسها بالعودة المبكرة كى تستعد لزوجها وتراه بالشريطة الثالثة وابنها الذى سيجىء اليوم من مصر.

وحدها تزرع ربع فدان أجرته بنفسها، وتبيع بنفسها محصوله الذى لا يكفى مع مرتب الرجل كى يأكل أولادها ويلبسون كما تتمنى لهم.. لكنها دائما ـ لا تدرى لماذا ـ تحس أن الله يرقبها هى بالذات ولن ينساها.

الرأس يفكر ويتمنى ويتمنى، والقلب يرقص متفائلا والنهار الرمادى الوليد يداعب الكون الذى لفه النعاس، والقدمان الحافيتان فى خفة تتقافزان فوق الطريق.

مع كل لحظة تبتعد القرية وتتلاشى، وتلوح معالم المدينة وتتخلق.. تطلع عليها من الأفق المجهول، بينما الوقت يمر بسرعة.. يقفز مثل لحظات الغروب فوق الأعمار.

تعودت الطفلة الملتفة بالهلاهيل من الرأس إلى القدم أن تقطع هذا المشوار كل يوم، وتعلمت أن تكبح سخطها من اندفاع أمها، تدفع خلفها خطوها اللاهث، وفى كل خطوة توشك أن تقع ويتأجل الوقوع للخطوة التالية.

فى قلب المدينة غدت الرؤية ممكنة فقط خلال الشوارع التى تمتد بين عمائر شاهقة، السيارات شرعت تجرى والناس خلفها وأمامها يجرون، والقدمان الحافيتان لا تحفلان بالأرض الجديدة، تهبطان فى بحيرات الماء وتدوسان الحصى وتخوضان فى النفاية.

المقطورة الصغيرة فى حرص شديد تتشبث بالثوب وتحاول ترتيب الخطوات بلا جدوى اندفعت بهانة صوب السوق وقد توالى دعاؤها إلى الله أن تجد الركن بلا محتل، ولكنها حين بلغته تلقت الصفعة القاسية، كانت هناك حسنية زوجة رجب الأعرج..

في نفسها قالت :

ـ داهية تأخذها هي وجوزها.

مرت بها سريعاً ولم تجد فرصة لكي تقول شيئا.

أسرعت تلف السوق. تمسحه على عجل وبتحفز شديد، فالوقت يمر والباعة يخرجون من الأرض أكثر من المشترين.

عادت إلى حسنية.. ودت لو تلقي ما معها كله فوق رأسها. نظرت إليها حسنية متوعدة.. تحولت عنها وتأملت السوق من جديد.. كان الكل قد حط لم تجد غير موضع صغير على آخر حدود السوق جهة الشارع.. تمتمت وهي تجلس :

ـ ربنا يسترها النهاردة مع سليم العسكري.. كده أنا قاعدة رجل جوه ورجل بره.

علمت نفسها أن تجلس والقفة لاتزال على رأسها دون معاونة. هبطت أولا على ركبتيها كالجمل، وحطت مؤخرتها فوق الكعبين كجلسة المصلي، ثم سحبت ساقاً من تحتها فأصبحت أمامها وسحبت الأخرى وربعت، ثم وضعت الرضيع في حجرها، فأفلت الثدي من فمه.. ضرب الهواء بيديه بحثا عنه.. أهملته إلى أن انزلت القفة بيديها الاثنتين. وضعتها أمامها وكشفت عما بها.. ردت الملهوف إلى صدرها ومدت ساعدها الأيسر تحته. ضمته في حنان آلي وسرعان ما عثر بالثدي واطمأن حين استقر رأسه على قلبها الواجف.

اسندت الطفلة رأسها على فخذ الأم ودست وجهها في بطنها وتمددت ملتصقة بمؤخرة أمها طلبا للدفء، وشرعت تكمل نومها الذي قطعه بعنف المشي فجرا في طريق طويل.

طابت نفس بهانة بعد أن استقرت وتنفست لأول مرة منذ غادرت قريتها. أخذت ملامحها تستعد للصباح الجميل، بينما كانت توزع تحياتها على زميلاتها وتسأل عن أحوالهن ويداها تسوي حزم الخضروات التي جمعتها عند الغروب وسهرت الليل تضمها في حزم.. هاهي تهزها كأنها توقظها من النوم وتعرفها أنهم أصبحوا في السوق وعليها أن تظهر خضرتها اللامعة التي تدل على الطزاجة والنضارة.

مسحت وجهها وسوت شعرها المنزعج من طول الرحلة والحمولة.

اندفع الضباب فجأة وعلا الضجيج مع الشروق، وكبر غول الحياة مع دبيب الزبائن.

لاحت منها نظرة ناحية الحاج إبراهيم تاجر الخضروات الكبير.. أهم رجل فى السوق، الكل يعمل له ألف حساب.. كان يجلس كعادته فى صدر دكانه وأمامه البورى. بعد لحظات ظهر سليم العسكرى.. تقدم من الحاج إبراهيم وحياه تحية عامرة بالقشدة والفل والسعادة.. رد الخضرى بغير عناية.

ـ باح الخير يا أبو شرايط.

جلس أبو شرايط كما يسميه فقط التجار الكبار، ودون أن يدرى طالت نظرته للبورى، فأخذ الحاج إبراهيم نفسا ممتدا، عبأ به حلقه وشدقيه وناوله لسليم.. قال التاجر شيئا، فقهقه سليم. فرحت بهانة لأن سليم يضحك وهذا معناه أن هذا النهار يمكن أن يضحك..اليوم سيتسلم زوجها الشريطة الثالثة، ويجب ـ إذا اتيحت الفرصة ـ أن تقول لسليم ذلك حتى يعرف قدرها ويحط فى عينيه حبة ملح.

ـ سليم اللى راعب الكل هنا.. على دراعه شريطين اثنين بس.. بكره يعرف أن فيه اللى أحسن منه.. وأن عندى ولد فى الكلية.

عندما عبر جلال بخاطرها، بدت ملامحها أكثر نعومة وأقل عصبية.. أطلت من عينيها نظرات وديعة.

ابتسم لها حميدة بائع الطماطم كعادته.. قررت أن تكون لطيفة معه ولامت نفسها على حدتها التى بلا مبرر، صحيح أن الدنيا تحتشد بالأعداء لكن لماذا يركبها الخوف منه مع أنه مثلها فى حفرة واحدة.. لابد إذن من السلام ولا داعى لسوء الظن.. إذا كان أحيانا يثقل عليها فى الكلام، فليس ذلك لغرض آخر غير أن يقضى يوما مسليا، يغمره الابتهاج، وإذا رقص القلب المكدود فى الحياة المرة ولو بعض مرة، فإنه يستطيع أن يكمل العيش فى هذه الدنيا.

أحست أن شكوكها لا معنى لها.. فليكن الجميع أحبة .. سرت فى أعماقها بهجة وضيئة واستقر القلب المرتجف.. رحبت بزبائنها وتساهلت معهم ورضيت عن الدنيا.

فجأة هبت العاصفة، وقبل أن تنحنى على مالها تحميه وتستنقذه، كان الحذاء الرهيب قد بعثر القفة على الطريق وتمرغت الحزم فى التراب.

فزعت الطفلة وصرخ الرضيع حين ألقته أمه فجأة على الأرض فى عنف حنون.. أغمدت الثدى وأسرعت تلملم طاقات العرق والطين، وهى فى شبه غيبوبة تغالب الدمع. ولم تنتبه إلى أن بائع الطماطم كان أول من انحنى يجمع معها رزق العيال.

خامر بعض المارة احساس عابر بالشفقة والحقد، وهم يرونها تقتلع من السوق بكل هذه القسوة.. عاد العسكرى بعد أن أنهى مهمته المقدسة للجلوس مع الخضرى المنفوش الذى كان يقيس فى زهو كرشه الكبير.

انتهت المأساة فى ثوان وبقى لبهانة الخد فوق اليد، والقلب المفتت..

اكتسى الوجه الوديع شراسة وجهامة، ولم يخف على أحد الشرر المتطاير من النظرات المنكسرة.

استرخت أعضاؤها فى يأس ورأى الناس بطنى القدمين الممددين فى استسلام، وكانت الشقوق المزدحمة تحفر فى اللحم خطوطاً متقابلة.

ديسمبر ١٩٨٤

عصر بهانة

ـ ياما أنت كريم يارب.

قالت بهانة فى سرها عندما وصلها مرسال الحاجة صفية زوجة العمدة.. خطفت الرضيع وسحبت فى ذيلها ـ كعادتها ـ الطفلة الصغيرة وسابت الولد والبنت فى الدار وأسرعت إلى الدوار تمنى نفسها بالفت واللحم.. الكل سيجد الليلة عشاء دسماً.

ـ يقطع ويوصل .. حكمتك يارب

لم تفكر لحظة أن تبحث عن الحاجة صفية ولكنها دخلت على الشغل طوالى.. حين طلعت عليهن، قالت النساء تقريبا فى نفس واحد:

ـ آهى جت.

ألقت عليهن كلمات خاطفة، وهى تمسح المكان بعينيها.

ـ كل سنة وأنتم طيبين.. البواجير دى شوية.

حطت الرضيع فى ركن، ومن نفسها أسرعت أخته تجلس إلى جواره، تهش عنه الذباب وتدس فى فمه البزازة المعلقة فى صدره بدبوس.. وتعود وتدسها فى فمه لأن العفريت يلفظها بلسانه مصراً على طلب الأصل[1].

(١) الأهالى فى كفرنا يسمون البزازة لهاية.. لكن معظم أطفال بلدنا لا تخدعهم هذه اللهاية.

اندفعت بهانة تشعل باجوراً خامساً.. وضعت فوقه حلة كبيرة ثم دخلت حجرة العجين لتطمئن عليه. لم يختمر بعد.

انقضت على الطشت الكبير تقلب الرز بيدها وتطيل التحديق فيه.. دعت امرأتين لإعادة تنقيته.

ـ الرز لسه فيه الدنيبة واللابسة والحصوة الحمراء.

مضت إلى الفرن حيث كانت هناك صبية جميلة وطرية .. المنديل «المدندش» على رأسها مائل ـ والكحل فى عينيها يلون نظرتها ويفجر فيها بحارا مغرقة.

أما الخدان ففيهما حمرة شفيفة وبينهما أنف دقيق، والذقن الصغيرة المدببة ضاعت تحت الشفاه الفراولة، وعلى أطراف الأصابع يصرخ طلاء الأظافر ويقول بالنيابة عنها : أنا شيء آخر .. أنا لست مثلهن.

لفت الصبية التى بدت غريبة أمام الفرن خرقة قديمة مبلولة على رأس «المجراف» وشرعت تنظف «العرصة» فى أناقة.

قالت لها بهانة بسخرية ناعمة.

ـ شيلى يا أختى شيلى.. أحمى الفرن الأول، وبعدها تضعى..

حاولت الصبية ذات الأنف الدقيق أن تقاوم.

ـ أمى يا خالة بهانة.

ركبتها بهانة بثقة :

ـ لا أمك ولا أمى.. النار يا حبيبتى ح تساعدك وتنضف معاكى.. قومى هاتى وقيد.

ظهرت الحاجة صفية فى طولها وعرضها والعباءة على كتفيها كأنها كاهنة فى معبد آمون.. لاحت على وجهها الأبيض المستدير كطبق البنور علامات الارتياح لاختلاف الحال بعد ظهور بهانة ـ أيوه كده.

شهد عصر بهانة تحرك الجميع وانتظام العمل وقلة الثرثرة .. واشتعال بؤر النيران فى كل ركن وتصاعد الدخان، حتى أقشعرت الأبدان بالدفء الزائد ونضحت بالعرق.

خطت الحاجة صفية خطوتين وكأنها تتقدم بحذر إلى البحر، وقد أغرتها مداعبة المياه الشقية.. مرت بنظراتها على كل شيء .. لاحظت أن طفلة بهانة الصغيرة تتابعها ولاتحول نظراتها عنها.

قالت : إزى ولادك يابهانة.

ـ بيبوسوا إيديكى يا حاجة.

شاركت فى الحديث واحدة عرفت الخبر منذ دقائق فقط.

ـ باركى لها يا حاجة.. محفوظ جوزها يركب الشريطة الثالثة النهاردة رسمت الحاجة أثر المفاجأة وقالت : صحيح.. ألف مبروك يابهانة.

استطردت وفى بالها ما يجب عمله الليلة :

ـ الحلاوة على إن شاء الله.

ردت بهانة بامتنان صادق.

ـ ربنا يخليكى يا حاجة.. أفضالك مغرقانا.

وزعت الحاجة بضع عبارات.. أنهتها بقولها :

ـ أنا عايزة الليلة دى غير كل الليالى. المعزومين السنة دى كتار وكلهم من كبرات البلد. وأنتم عارفين أهم حاجة فى الليلة.. الأكل والشاعر.

سألت صبية الفرن فى لهفة.

ـ فيه شاعر يا حاجة صحيح؟

قالت الحاجة بفخر :

ـ شاعر كبير.. صيبت مفيش كده.. همتكم بقى .

ثم استدارت وخرجت.

دنت بهانة من الفرن لتطمئن على الوقود.. كانت الصبية قد أحضرت أقراص «الجلة»، وحطب القطن وبعض الأغصان الجافة..

جلست بهانة وحشت الفرن بحطب القطن والخشب.. اشتعل الفرن وتراقصت النار المشتاقة.. ألقت إليها بهانة بقرص «جلة» من فتحة «العرصة» فتألقت النار بألوان جديدة..

ـ أم .. أم.. الحقى يا أم.

انتفضت بهانة على صوت ابنها المندفع. انخلع قلبها ..

ـ فيه ايه ياوله.

حاول الولد وهو يرتفع وينخفض أن يقول الخبر كله فى كلمة واحدة.

ـ أبويا جابوه العساكر متصاب ورأسه مربوطة بشاش

ـ يالهوى.

انطلقت الكلمة من روحها مغموسة بالدم والفجيعة وهى تضرب صدرها بقسوة كأنه السبب.

* * *

كان الضابط قد صرخ فى الجنود يأمرهم بالصعود فورا إلى «اللوارى» التى ستقلهم إلى العباسية.. فرزتهم عيونه واحدا واحدا، ثم سأل باهتمام وهو يلتفت حوله..

ـ فين محفوظ.. شوفوا لى محفوظ.

سمع إجابة لايعرف مصدرها بالتحديد : لسه ماوصلش سأل أى أحد : إزاى ماوصلش.. عمره ما تأخر.

انتهى إليه تعليق من عسكرى يعرف طريقته فى الكلام :

ـ يوم من نفسه.. على الأقل علشان الشريطة

أشاح الضابط بوجهه ويده وهو يقول:

ـ شرايط ايه وبتاع ايه.. إحنا فاضيين.. التلامذة عاملين دوشة جامدة.

لمح الضابط محفوظًا وهو ينط من أتوبيس النقل العام.. طويل عريض.. مضىء الوجه بابتسامة.. رتب هندامه وشد حزامه وتوجه متبخترا.. زعق الضابط :

ـ اتحرك يا رايق.. مفيش وقت.

كانت الابتسامة لاتزال عالقة بملامحه وهو يقول:

ـ صباح الخير.

قال العسكرى أبو لسانين :

ـ الطلبة من النجمة بيهتفوا

أسرع محفوظ يقول:

ـ ضدى

قال الضابط الذى كان يدور حول نفسه :

ـ خذ الاثنين التلاقيح دول معاكك.. هم لسة فى روضة الأمن المركزى.

قال أبو لسانين:

ـ تعالى هنا جنبى يا أبو شريطة

ابتسم محفوظ على مضض وهو يقول:

ـ انك دكر أنت وهو.

قال أحد الجنود :

ـ فرحنا لك ياريس

رد محفوظ بسرعة:

ـ باين فى عينيك

ضحك الجميع ثم قال واحد منهم :

ـ النهاردة تقريباً آخر مظاهرة.

علق آخر:

ـ يموت الزمار وصباعه بيلعب.

عاد الأول يؤكد :

ـ آخر فصل فى المسرحية النهاردة.

سأله البعض :

ـ والسبب ؟

قال: اللى قبضنا عليهم إمبارح.

زعق الضابط :

ـ انجر على اللورى أنت وهو.

نال محفوظ شهرة كبيرة فى تفريق المظاهرات، أى مظاهرة مهما بلغ حجمها ودرجة هياجها، كان قادرا على صدها والسيطرة عليها واصابة عدد كبير من رجالها وأسر عدد أكبر.

أصبحت خبرته ومهارته العالية فى هذا النوع من العمل البوليسى مضرب المثل وقد ساعدته ضخامته وخفة حركته وتوقد ذهنه وشجاعته.. وهذا كله كوم وقناعته التى لا تهتز بأن المظاهرات تمثيليات كوم آخر.

هو واثق تماماً أن المتظاهرين فى كل أنحاء العالم وخاصة فى مصر قبضوا مبالغ لقاء هتافاتهم التى لايفهمون معناها ولايقصدونها، وأن وراءهم فئة كل مرادها زعزعة النظام وتعويق الإنتاج[٢].

على أية حال باستطاعة محفوظ أن يقتحم أية مظاهرة وأية معركة مدنية ويسيطر عليها ويبهر رؤساءه بقيادته للجنود ورفضه استعمال القنابل المسيلة للدموع إلا فى المظاهرة الضخمة التى لاتستطيع سوى الدبابات السيطرة عليها.. ساعتها يمكن أن يستخدم المسيلة، وهو لا يرفضها رحمة بالشباب الغض والمضلل لكن التعجل باستخدامها إقرار بعجزه.

---

(٢) الله يجازى الذى كان السبب فى غرس هذه الفكرة اللعينة عن المظاهرات فى رأس محفوظ وللأسف لاهو ولا أنا نعرف من الذى حفر عميقا جدا فى مخه وزرع هذا الاعتقاد.. الله يسامحه مطرح ماراح. هو فى دار الحق ونحن فى دار الباطل مؤكد من زرعها مات من آلاف السنين.

تعود أن يبدأ بالاعتماد على نفسه.. ونفسه تنوب عنها «الصاعقة».. لابد أن تمسح عصاه الغليظة على الرؤوس والجباه، ولابد أن تشنف آذانها بما يصدر عن العظام المتكسرة من أنغام..

ويأتى بعد الصاعقة دور قدمه التى تشبه كلباً أسود صغيراً وشرساً وهذه القدم الأسطورية قادرة على أن تقذف الشخص الذى تلحق به عدة أمتار، وبعد أن ينكفىء على وجهه تتركه لمحفوظ شخصياً فيقفز عليه ويحمله من قفاه حملا.. وهذا معناه نهاية الثائر الصغير(٣).

ضرب محفوظ طلبة جامعة القاهرة فى عدة مناسبات وطلبة جامعة عين شمس والإسكندرية وعمال شبرا الخيمة وحلوان والمحلة وعموم الشعب الخارج فى مظاهرات من الجامع الأزهر وميدان التحرير والحسين والسيدة وآدم.. واختير أيضاً على رأس مجموعة لفرض مرشح الحكومة فى دائرة بنها ابان السبعينيات أيام الديمقراطية وسافر إلى أسيوط ومدن أخرى عدة مرات خصيصا لوقف نشاط الجماعات الإسلامية وغير الإسلامية(٤).

ومحفوظ لايعتبر نفسه موظفاً ولا يتعامل مع المهام التى تطلب منه بوصفه عاملا رسميا يتقاضى لقاءها راتبا، ويجب أن يحلله. ولكنه يتعامل معها من منطلق الهواية والمزاج الشخصى فهو يجد فى فض المظاهرات والإمساك بالمجرمين والعبث بالمتمردين من أى صنف ولون لذة شخصية وغالبا لايجد مثيلها عند بهانة ولا فى حضن أولاده.

ولم يتعود محفوظ على العمل البوليسى الذى يقوم على مجرد الملاحظة أو الحوار وهو غير مقتنع أبدا بالعمل فى السكك الحديدية حارسا فى القطارات أو عسكرى فى ميدان ينظم المرور أو حتى صول فى قسم يكتب المحاضر.

قال له أحد الاثنين الجدد القادمين من روضة الأمن المركزى.

---

(٣) ليس مرادنا من أستعراض قدرات محفوظ هو الإعلان بهدف اتساع رقعة الاستفادة منه فى فض المظاهرات سواء الخاصة أو العامة ولايمكن أن تكون لنا مصلحة ومع ذلك يمكن التأكد من قولنا بالرجوع إليه فى قريته التى يستجم فيها الآن بعد ما حدث له وهى كفر سندنهور مركز بنها قليوبية.

(٤) لا علم لنا بما أشيع أخيراً عن الطلب الذى تقدم به جيش الدفاع الإسرائيلى إلى وزارة الداخلية تطلب فيه أعارتها محفوظ لثلاثة أشهر قابلة للتجديد للمساهمة فى فض الانتفاضة الفلسطينية فى الضفة وغزة ونظن أن الطلب جاء متأخراً بعض الوقت وعلى أية حال فقد وضع الطلب الحكومة فى موقف حرج، أما الطلبات التى وصلت من بورما وباكستان والفلبين وكوريا الجنوبية وأمريكا اللاتينية فقد رفضتها الحكومة.

ـ بيقولوا أنك شديد أكثر من اللازم.

تنهد محفوظ وهو يقسم بينه وبين نفسه أنه إنسان بسيط وطيب ويحب الناس جدا جدا.. ثم قال:

ـ لو دققت شويه تلاقينى أرحم من الجراح.. صحيح أنا أحيانا باجرح لكن بداوى.. هو يداوى فرد، وأنا أداوى محافظة بانقذ البلد من الثورة المضادة ووجع الدماغ فيرتاح الجميع.

سكت لحظة فتنبه هو وتلميذه الجديد إلى دمدمة محرك اللورى المنطلق بهم، ودبيب العجلات على الأرض الصلبة والضجيج الذى تحدثه هيستيريا السيارات.

عاد تلميذ الروضة يسأله وانضم إليه زميله.. تمهل محفوظ قبل أن يجيب على حزمة من الأسئلة، ثم أخرج من جيبه ورقة صفراء متهرئة وأعطاها لأحدهما وقال له :

ـ اقرأ المكتوب هنا وأنت تعرف حاجات مهمة.

بحذر أمسك العسكرى الأخضر الورقة المطوية وكأنها طرد سينفجر.

وسأل :

ـ ايه المكتوب فيها.

قال محفوظ : افتحها.. مفيهاش أسرار. حوار كان واحد صحفى عمله معايا ونشره.

أعاد العسكرى إليه الورقة وعيناه فى الأرض.

ـ آه ما بتعرفش تقرأ.. وأنت.

لم تبد على وجه الآخر أية إجابة.. ففهم أنه مثل زميله حتى فى الجهل.

ـ سيبنا من المقدمة.. اسمع ياسيدى.

سأل الشاويش محفوظ: ألست تقف ضد الشعب لأن العمال أو الطلبة يتظاهرون من أجل مطالب شعبية مشروعة؟

رد محفوظ فى ثقة : لاتصدق هذا .. هؤلاء الطلبة والعمال مجرد أدوات.. هناك زعماء كبار وبالتأكيد شيوعيون يدفعونهم لهذا.. والذين ينفذون المظاهرة زعماء أيضاً، ولكنهم يختصون فقط بالتنفيذ والتحكم فى المجاميع وتوجيهها.

توجد أذن ثلاث فئات تتعاون فى صنع المظاهرة.. مفكرون أو مخططون.. مقاولون أنفار أو منفذون.. ثم وقود المظاهرة أو أدواتها، والفئة الثالثة عادة تكون كالطوبجى الأعمى يهاجمون بلا وعى ويرددون هتافات محفوظة وفى أكثر الأحيان تكون الفئات المؤيدة للمظاهرة أربع فئات إذا أضفنا إليها الفئة الممولة.. داخلية أو خارجية.

ـ الممولة!

باندفاع قال محفوظ : نعم .. التى تنفق على المظاهرة سألته ـ وهل تحتاج المظاهرة إلى مصاريف.

ـ طبعاً.. المسألة تتطلب أجور للمتظاهرين وانتقالات وربما يحتاجون إلى معدات حسب الغرض من المظاهرة.

بدأ محفوظ متحمسا وهو يتحدث.. يتكلم بلسانه وعينيه ويديه ورجليه وشاربه الكث.. كل عضلاته وأعصابه تشترك فى الحوار فقررت أن أخفف عنه فسألته : ماذا تفعل لو وجدت أولادك فى البيت ثائرين.. ابتسم ولمعت عيناه وقال : أطلب منهم أن يركبونى.

سألته : هل فكرت أن تكتب مذكراتك[٥] ؟

أجاب بشرود : لا.

سألته : هل تتذكر أخطر..

وقف اللورى فجأة وزعق الضابط :

ـ وصلنا يا رجاله.. كله ينزل.

طوى محفوظ الورقة بسرعة ودسها فى جيبه وهو يقفز إلى الخارج. قال الجندى الجديد لزميله :

ـ ربنا يستر.

---

(٥) قرأنا منذ أيام فى إحدى الصحف العربية خبراً يقول أن الصحفى المصرى سيد البركاوى ذهب إلى كفر سندنهور وبدأ بالفعل كتابة مذكرات محفوظ البنهاوى رجل المظاهرات المعروف بعد ما جرى له وأن عمدة الكفر خصص مكانا لائقا لاقامة الصحفى التى يتوقع هو نفسه أن تمتد لعدة أسابيع، ولم يكشف البركاوى عن اسم الناشر لكن المؤكد أن عدة صحف سوف تطلب منحها حق النشر فى حلقات الأمر الذى استدرج مخاوفى وأستفزها بعنف حتى أصبحت مضطرا لإبلاغ السلطات كى تأمر بفرض حراسة مشددة على محفوظ خشية أن يلقى مصرعه بعد عدة حلقات.

جلس آلاف الطلبة على الأرض أمام الجامعة يسدون الطريق من أول النفق لمسافة أكثر من مائة متر.. كان الموقف سيئا لأن هذا الطريق بالذات ممر لأكثر من مليون إنسان يستخدمون آلاف السيارات الكبيرة والصغيرة العامة والملاكى والأجرة.

بعض الطلبة يحملون لافتات كتب عليها «الرأى الحر قبل التعليم» «حرروا الطلبة» «لا تكمموا الأفواه»..

نصف القاهرة يتعثر الآن فى الزحام والاضطراب .. كل الشوارع مغلقة رغم قيام ضباط المرور بتحويل السير إلى طرق أخرى..

اطمأن الجنود الذين يرافقون محفوظًا إلى أن المظاهرة سلمية لكنهم بعد دقائق أحسوا أنها ليست سلمية على الاطلاق.. وهم أنفسهم الذين بدأوا الهجوم.. لم يكن هناك خيار.. كان لابد من إزاحة الطلبة من الطريق.. أصدر الضابط أمره بضرب الطلبة بالعصى.

لم يعبأ الطلبة ولم يتحركوا.. تلقى البعض ضربات قاصمة فمالوا فى مواقعهم.. زادت الحالة سوءا.. تحاور محفوظ مع الضابط.. أصر الضابط بعد أن أحس بعناد الطلبة وتشبثهم على طلب المسيلة.

تراجع الجنود وأعيد تنظيم صفوفهم بحيث يستطيعون إغراق وحصار الطلبة بالقنابل.. الأوامر تتردد فى جهاز اللاسلكى الذى يحمله الضابط وينصت إليه باهتمام .. الأوامر تتوالى والزعيق والإلحاح والتهديد، وسيادة الوزير على التليفون والسيد المحافظ وسعادة الباشا اللواء مدير الأمن أما سعادة الباشا اللواء مساعد مدير الأمن فقد قال:

ـ دول حبة عيال.. ايه اللى جرالكم.

وتكهرب الجو بدون سبب ثم ظهرت من بعيد سيارات فارهة حمراء وخضراء تصفر وتزغرد.. ولما توقفت بعنف ودقة هبط أقوام ذو مقامات عالية.. أشكالهم هى التى تعلن ذلك.. وجوه حمراء وملابس ثمينة وطريقة كلامهم توحى بأن شيئا ما فى حلوقهم..

وصلت سيارات أخرى وفيها ضباط برتب مخيفة ومشية عظيمة وضباط آخرون يهرولون وهو مايدل على أنهم ليسوا عظماء بما يكفى.. والأوامر تترى وتهبط من رتبة إلى رتبة.. ثم تحملها الرتبة الأخيرة إلى رتب أقل.. ثم إلى رتبة أقل منها إلى أن تصل إلى

محفوظ «ومحفوظ لا يتوانى».استعد الجنود بالقنابل المسيلة واستعد العظماء لمشاهدة المذبحة ولكى يلاحظوا بأعينهم أن الطلبة عرفوا تماما أن الله حق.

لكن الطلبة هبوا فجأة وانهالوا على الجميع بالحجارة ـ مطر غزير من الصخور المدببة.. الأذرع إلى أقصى ماتستطيع تلقى والحجارة تطير وتطير ثم تسقط فوق الرءوس وعلى الصدور وفى الأرض.

وشرع الجميع فى التحول بنظراتهم نحو السماء فى محاولة لإتقاء الحجارة لكن الرعب جمدهم وقد فوجئوا أن الحجارة تصل إلى أبعد مكان ينتصب فيه ضابط..

امتلك بعض الضباط قدرا من الشجاعة ساعدهم على أن يحاولوا حماية الرتب الأعلى بصدورهم وفى الوقت نفسه يطلقون الأوامر بالضرب والسحق.

تساقطت القنابل من أيدى بعض الجنود لأنهم سقطوا .. حتى الذين يرتدون الخوذات وحاميات الوجوه المصنوعة من البلاستيك الشفاف.

ومع ذلك تعلقوا بالثقة والأمل سوف يسيطرون على المظاهرة وسوف يتلقى هؤلاء الطلبة درسهم الأخير..

ـ اهجم يا عسكرى.. ارمى المسيلة هناك فى الجنب الورانى يمين.. فى الوسط كمان.. ارمى..

ثم سمع الضابط صوت ارتطام قريب وفوجىء بالدم ينفجر من رأس محفوظ ويندفع نحوه، ومحفوظ يغطى وجهه بذراعه ثم يتداعى.

زعر الضباط ذعراً حقيقياً حين وجدوا رجلهم الأول مقتحم المظاهرات ومحطم الثورة المضادة يسقط على الأرض والدماء تنبثق من كل مكان فيه، وتهز قلوب الجميع.

تهاوى محفوظ وهو بين الوعى والغيبوبة ولم يعرف الذين حاولوا معاونته لماذا كان الدم أيضا يسيل من فمه.. لكنهم وجدوا جرحا غائرا فى مؤخرة رأسه وفى جبهته.

تطلعت عيناه الشاردتان إلى السماء بهدوء.. وأمر الضابط بأن تحمله سيارته إلى أقرب مستشفى ومنها إلى بيته.

حمله الجنود وهو مستسلم هادىء.. مفتوح العينين ونظراته إلى أعلى ساكنة لاتشى بأى معنى.. ما الذى جرى له؟ حدثه الجنود فلم يرد.. حاولوا أن يسروا عنه فلم يبد عليه أنه يسمع أو يرى ضمدوا فى المستشفى جراحه وسمحوا له بالخروج .. عاونه الجنود على ركوب السيارة وانطلقوا به إلى بلدته، كان بالنسبة لهم الأب والزعيم والأخ الحنون..

انصبت نظراتهم جميعا عليه.. الجندى الذى يجلس إلى جواره فى المقعد الخلفى، والجندى الذى يجلس فى المقعد الأمامى وحتى السائق أيضا كان ينتهز فرصة خلو الطريق من السسيارات ليخطف نظرة إليه.. كان سكوته يوحى بالتوتر والقلق.

تساءل كل منهم بينه وبين نفسه عن عينه وصحته.. كان عدة أشخاص فى شخص واحد.. لم يتبق منهم إلا هذا الحطام الساكن الذى يدنو من الموت.

ظل محتفظاً بنظراته فى مستوى ثابت لا تحيد عنه.

.. أى عالم آخر هو فيه الآن وأى حياة.. أية أفكار يستطيع أن يرحل إليها.

أول ما خطر بباله ولده جلال.. حمدا لله لأن جلال لا يحب المظاهرات .. جلال سريع الغضب حقا ولكن فى نفسه .. يثور ويكتم ثورته.. تذكر بهانة ولم تعطه الحجارة فرصة كى تستقر فى رأسه صورة بهانة وهى تطالع المفاجأة.. كانت الحجارة مطرا غزيرا.. اسقطته وأسقطت عددا كبيرا من الزملاء.. خالبت عليهم حيلة الطلبة.. من ياترى وراءهم؟

ـ الحجارة اللى وقعت على مش حجارة مقابل فلوس .. حجارة عفية مرمية علينا بقلب جامد مغلول.. يظهر النوبة دى مفيش وراهم حد.. يكونش لأنهم عايزين يطلعوا زملاءهم .. جدعنه منهم برضه رغم اللى جرالى..

تنهد.

لمحه الجندى الذى يجلس إلى جواره.. فرح.. لأن تنهيدة محفوظ معناها التفكير.. يعنى الحياة.. حاول أن يستحثه:

ـ ألف سلامة يا حضرة الصول..

لم يرد محفوظ.. وبقى هناك فى عالمه :

ـ الحكاية عايزة حساب تانى وتفكير تانى..

عرفت بهانة القصة، واطمأنت عليه.. ساعدته في خلع ملابسه.. تركته يرتاح وعادت إلى الحاجة صفية حتى لايفقدوا عشاء دسما.. قالت له.

ـ ابعث لي العيال بعد المغرب.

ديسمبر ١٩٨٧

ابن بهانة

عمل حسابه أن يصل إلى المحطة قبل موعد قيام القطار بنحو ساعة.. أصبح على ثقة أن يوم الخميس هو بروفة حقيقية ـ مسرحها القطارات ـ ليوم الحشر، وعلى ثقة أيضا من أن العائد إلى بلده فى هذا اليوم ليس لديه مانع من التعلق بأى حديدة فى القطار، فركوب قطار مزدحم ليس مشكلة والصعود على سطحه ليس مشكلة، والاكتفاء بالتعلق بمقبض الباب لا يأباه أحد أو يخشاه، والانحشار بين العربتين ليس أمراً صعباً.

كل أطراف القطار صالحة لأن تحمل المشتاق إلى أرض له فيها أهل وميلاد.. والناس فى بلادنا يتعودون بسرعة ويرضون بالموجود.

جلس جلال فى أول كرسى وجده خاليا فى إحدى عربات الدرجة الثالثة وتنفس بارتياح، فمنذ أسابيع لم يحظ بكرسى فى هذا اليوم المشهود. تسلل إليه شعور بالرضا لأنه وجد كرسيا، وهذا معناه أن الزحام لن يسحقه، ولن يضطر للشجار مع الضاغطين عليه.

قد يميل عليه راكب.. ليست مشكلة، ويدخل بين فخذيه راكب.. ليست مشكلة.. وقد يحمل حقيبة ثقيلة سلمتها له راكبة لاتجد لها ولا للحقيبة مكانا فوق الأرفف أو تحت الأقدام.. ليست مشكلة مع أنه متوجس منها لأنه لا يعرف ماذا بها.

وليس من الذوق أن يرفض طفلا يريد والده أن ينقذه من فيضان البشر، عليه أن يأخذه فورا وأن يتزحزح له قليلا ويحشره بينه وبين جاره أو يبقيه على فخذيه إذا لم يكن عليهما شيء..

عاش جلال كل هذه المواقف التى يطالعه بها يوم الخميس وتعود كغيره على قبولها، وتعود الجميع بلا مضض حتى أصبحت القاعدة وغيرها هو الاستثناء.

فإذا لاحظ أحد الوافدين على المحطة يوم الخميس أن الحركة عادية والأجساد فى أى ركن فيها غير ملتصقة، فهذا معناه أن الحرب قامت أو هناك حظرا للتجول طيلة النهار.

توافد الركاب وامتلأت الكراسى وبدأت مرحلة الوقوف.. تسلل النهار دون أن يحس به أحد.. باقى نصف ساعة على قيام القطار.. سأل جلال أحد الركاب.

ـ الجرار وصل؟

تطلع الراكب إلى العربة الكبيرة التى تمتد أمامه كنفق له سقف نصف دائرى وقال:

ـ يظهر لسه.. لو كان وصل كانت اللمبات نورت.

تنبه جلال ولام نفسه.. كيف فاتت عليه هذه المعلومة البسيطة!

بعد لحظات نبت الضوء الشاحب فى اللمبات القليلة المتنناثرة فكر أن يفتح كتابا كان فى يده، يشغل به الوقت الباقى حتى يتحرك القطار.. تطلع أولا إلى اللمبة التى فوق رأسه وكأنه يسألها عما إذا كان ضؤوها يكفى أم لا.. وجدها بالكاد ترسل ضوءاً رمادياً مختنقاً.

توالى قدوم الركاب وتعالت النداءات.. وبلغته دقات على سطح القطار فادرك أن الجنود وصلوا، واندفعوا نحو أماكنهم المفضلة.. كان جلال يحسب لأقرب وقت أنهم هاربون من الكمسارى .. أقسم له التهامى زميله أن هؤلاء الجنود معهم تذاكر ونقود، لكنهم يفضلون الجلوس فى الخلاء بعيدا عن الزحام، وحيث الهواء يصافح وجوههم والدنيا كلها مبسوطة أمامهم.. السماء والأرض والخضرة والبيوت المبعثرة وسط المزارع.. قضبان الحديد.. منظر القطارات القادمة وهى تكاد تدهم القطار الذى يمتطوه.. وكما يقول التهامى.

ـ يكفى شعورهم أنهم فوق ظهر القطار.

دق قلب جلال رعباً وهو يرى لأول مرة الجنود وهم يجرون فوق العربات ويقفزون من عربة إلى عربة، مسافة تزيد عن المتر بلا أى تردد أو استعداد، وهم على هذا الارتفاع والقطار بعزم مافيه يفر هارباً.

هبط الليل تماماً وغطى كل شيء.. كان عليه أن يأخذ قطارا مبكرا حتى يتمكن من دخول البلد قبل الغروب.. فالطريق من المحطة إلى البلد ترابى ومظلم.. وبرغم الطريق وظلامه فقد أتيح له أن يرى ابتسامة من القلب تولد فجأة فى عيون أمه وأبيه.. الفرح هنا فى جيبه.. وسوف تطير أمه من الفرح أما أبوه فإنه يتخيله تماما وهو يشعر بالزهو لأن ولده رفع رأسه وسط الناس.

تحسس الخطاب الذى تسلمه اليوم فى جمعية رعاية الشباب .. الخطاب موجه لوالد جلال.. «الجمعية التى تسعى ضمن أنشطتها الاجتماعية إلى رعاية بعض النابهين من الطلاب واعانتهم على حل مشاكلهم وتحقيق آمالهم، قررت منح نجلكم راتبا شهريا قدره ثلاثين جنيها طوال العام الدراسى الحالى، نظرا لما يتميز به من التفوق وحسن الخلق.

تأمل والده فرآه محمر الوجه، مضيء العينين، أما أمه فكانت تغالب دمعها الفرحان.. سأله والده.

ـ ودى جمعية الحكومة.

ابتسم جلال وقال :

ـ لا يابا.. دى جمعية كونها الأغنياء.

فوجىء محفوظ..

ـ أغنيا فى مصر بيوزعوا فلوس على الغلابة.

اندفع جلال وقال : دا واجب عليهم يابا

قالت بهانة :

ـ يا حلاوة ياولاد.. ثلاثين جنيه كل شهر

تدخل محفوظ قائلا: ،

ـ السنة دى بس يا محروسة.

انطلق جلال خائفا على الفرحة التى عمت الدار:

ـ قالوا لى فى الجمعية لو فضلت شاطر كده ح أقبض كل شهر. تنهد محفوظ وأراح رأسه على الجدار وطلب من بهانة كوبا من الشاى..

قالت بهانة وهى تربت على فخذ محفوظ والفرحة تتألق فى وجهها : معلش يا أبو جلال.. مفيش شربات.

ازدحمت العربة، وصعد الكثيرون إلى رفوف الحقائب فوق رءوس العباد.

حرص جلال على أن يخلص نظراته من عيون الجالسين أمامه.. الوجوه كلها تتقابل، والنظرات تتلاقى وتصطدم ثم تفر إلى النوافذ.

وقعت نظراته على عشرات الركاب يجلسون على المقاعد الحجرية على الرصيف ويقفون فى انتظار تحرك القطار، مفضلين البقاء خارجه بدلا من التبكير بدخول علبته التعسة.

أطل جلال فى ساعته عدة مرات وحسب الدقائق المتبقية ثم زعق القطار وتحرك بنعومة حتى لم يكد يحس بحركته إلا المتربصين له، والذين لم تبرح عيونهم العلامات الثابتة على الرصيف لتسعد باكتشاف لحظة قيامه التى لا تقل عن ليلة القدر.

أسرع كل الذين كانوا على الرصيف المكتظ يتدافعون إلى القطار ويلقون بأنفسهم فيه.. من الأبواب ومن النوافذ.. مئات البشر يستقلون سفينة نوح قبل أن ترحل وتتركهم للطوفان المكتسح .. تكدس الكل فوق الكل، ولم يعتذر أحد لأحد.

استأذن جندى من جلال كى يصعد إلى رف الحقائب.. تلكأ قبل أن يوافق ثم أشار له بيده وأفسح مكانا لقدم الجندى الذى سرعان ما قفز وأصبح فوق الرف وأدلى ساقيه.

راقبه جلال فى تبرم وحين استقر الجندى فى موضعه استقرت فردتا حذائه الضخم فوق رأس جلال.. بلغ تبرم جلال حد السخط.. تمهل قليلا قبل أن يفكر فى أن يقول شيئا.. تأمل نظرات الجالسين حوله.. رفع رأسه وحدق فى الحذاء كأنه يفكر فى الموقف الذى يجمعهما .. هو والحذاء.

قاس المسافة بين رأسه والحذاء.. لم تكن هناك مسافة تذكر بين عينيه التى تنظر إلى أعلى والحذاء.

الحذاء كبير له ملامح فظة.. بدا الحذاء كأنه يفتح فمه ويكشر عن أنيابه ويهدد بعينيه.. طال تحديق جلال فى النعل المتجهم الذى حفر فيه رقم ٧ أو ٨ أو W مكررا عدة مرات.

ما الذى يمكن أن يفعله ليختفى هذا الحذاء من الوجود ؟ المشكلة الوحيدة الآن فى العالم كله هى هذا الحذاء الذى يسكن بالضبط فوق رأسه.. كيف يبعده عنه.. عاد جلال ينظر محتشدا بالسخط فى عيون الجالسين، كانوا يرمقونه والحذاء.. كانوا لاشك يفكرون فيه والحذاء، كانوا لاشك يتصورونه دائماً والحذاء .. كان هو فى عيونهم دائما والحذاء.

تصور أنهم ينتظرون قراره ليثأر لكرامته.. عاد ينظر إليهم فهربت عيونهم إلى لاشىء أحس أن الحذاء يهبط تدريجيا ويلمس رأسه.. اندلعت فى رأسه النار.. بدأ شعره يبيض.. شعرة.. شعرة.. هبط الحذاء .. نفذ من جلدة رأسه إلى جمجمته.. حفر فيها حفرة تكفيه.. واصل هبوطه إلى المخ.. ضغط.. أظلم الكون ولم يعد جلال يرى شيئا أو يسمع أو يجيب على كلمة.

غاص الحذاء فيما وراء عينيه تحت خديه وبلغ شدقيه وأطل من فمه لحظة ثم تابع الطريق إلى رقبته واستقر فى صدره.. كل فرده فى جنب .. ضغط على رئتيه وقلبه وكبده.. فقع مرارته.. حاول جلال أن يتنفس أو يبتلع ريقه فلم يفلح.

شعر جلال بحرج الموقف وحساسيته، أنه هو الذى سمح له بالصعود وكل الناس يصعدون وهل كان باستطاعته أن يمنعه.. هذه هى الظروف والعدل المتعسف يسود.. يحنى له الناس رؤوسهم.. فهل من حل يزحزح الحذاء عن موضعه؟

تطلع جلال إلى الرف الطويل الذى يمتد بطول العربة.. كان العشرات يحتلونه كطابق ثان.. لم يجد فيه سنتيمترا واحدا يمكن أن يجبر الجندى على الانتقال إليه حتى يبتعد الحذاء.

نظر إلى الناس.. كانوا كلهم متجهمين.. والعربة كالنفق والاضاءة شاحبة والقطار يجرى ويدمدم.. والحياة كلها مستسلمة.. لكن لا أحد فى مثل وجعه. تطلع من جديد إلى قدره المعلق والمستعد للهبوط المفاجىء الدقيق على أم رأسه.. الحذاء مسنون وشرس ومستبد فى سيطرته على الموقف.

تطلع جلال إلى وجه الجندى قبل أن يفكر فى الخطوة التالية.. بدت ملامحه منمنمة وطيبة عكس حذائه.. لم يكن شكله كالآخرين من ذوى الخبرة بالعراك والسفالة.. محترفى التبجح والتحدث بالذراع قبل اللسان الرقيع.

قال له جلال :

ـ ابعد حذاءك.

رد الجندى بأدب :

ـ فين؟

تشجع جلال وقال :

ـ مش شغلى

تلفت حواليه ومط شفتيه.. مسح الجندى العربة بنظراته. كانت كلها ناس فوق ناس..

لم تلح له أية فرصة للحل.

صبر جلال لحظات ثم عاد يلكز الجندى :

ـ يللا يا دفعة.

ـ أروح فين؟

ـ انزل أقف.

ـ وقفت كتير.

ـ ما هو كده عيب.

اهتدى الجندى فجأة إلى حل ربما يرضى جلال

ـ اقلعها؟

قال جلال على الفور وكأنه يشتمه :

ـ اقلعها.

قلع الجندى الفردتين ووضعهما على فخذيه.. استراح جلال.. انزاح عن صدره هم العيون التى كانت ترقبه.. مئات العيون كانت دون الناس جميعا ترقبه.. ترقبه وهو مهان.

استرخت أعصابه الهائجة وبدأ يفكر فى نفسه وأمه وأبيه والكلية والخطاب الرائع.. الخطاب الذى يحمل أجمل خبر قرأه أو سمعه فى حياته.. مرتب شهرى وهو لم يزل فى السنة الأولى.. مايزال هناك ناس تحس بالناس وتفكر فيهم.

اندلعت فجأة فى أنفه رائحة كريهة بشكل قاتل.. لم يتصور إلا أنها رائحة تصدر من جثث ألف كلب ماتت منذ أيام وتعفنت.. كم هى بشعة رائحة اللحم الحى بعد أن تخرج منه الروح وينفجر فيه الموت.

لم تكتف الرائحة بالوقوف أو النفاذ فى أنف جلال، لكنها تسللت إلى عينيه، فلم يعد يبصر، وإلى شفتيه فكاد يبصق، وإلى معدته فأوشك على التقيؤ.. شرع جسده كله ينتقض من التقزز.

حبس أنفاسه أطول مدة حتى كاد يختنق، وتساءل عن سر الرائحة رغم أن القطار يجرى بين المزارع.. ما الذى سيحدث فى الكون.. هل يوشك على نهاية مبتكرة وبشعة..

فكر فى النهوض والهرب.. لكن لا سبيل.. اكتشف أن الرائحة التى كهربت الجو كله وسممته هى رائحة جوارب الجندى .. تنفس بصعوبة وألم وقد تذكر أنه هو الذى طلب إليه أن يخلع الحذاء.

عاد إلى العيون يستفتيها.. بعض العيون كانت تنظر فى بلاهة ورضا.. بعضها اسقطت الأهداب وراحت فى نوم يبدو عميقا..

بعضها هربت إلى الطريق الزراعى المظلم، ترقب الأشباح التى تجرى فيه وتتبادل الأضواء الخاطفة والاختفاء.

لم يستطع أن يرفع رأسه إلى الجوارب المشعة التى يمكن أن تستخدم كوسيلة من وسائل الحرب الكيمياوية.

ـ الله يخرب بيتك يا بعيد.

أحس أنه فى مفترق طريقين لا ثالث لهما.. الجنون أو الموت. يجب أن يفعل شيئا وبسرعة.. عيون الناس وملامحهم لا تدل على أن شيئا ما قد حدث ومازال يحدث.. أحس أنه وحيد فى بئر عفنة، لابد من وسيلة ولو كانت الانتحار، بديلا عن الموت البطىء.

فكر أن يجذبه من قدميه ويلقيه فى الطريق.. النافذة مفتوحة.. تقلبت أحشاؤه بحثا عن مخرج.

ـ الله يخرب بيتك يا بعيد.

ظل جلال مسيطرا على نفسه يكتم أنفاسه أزاء الرائحة الفظيعة. رائحة الإنسان حين تنفجر فيه البلادة وينعدم الاحساس .. آه.. الجواب الحرب الكيمياوية.. القطار سريع.. الدماء .. أمه.. أبوه.. الشرطة.. المستشفى .. السجن.

أفاق جلال على صوت جهورى ومدبب يصرخ:

ـ أنت فاكر نفسك فى بيتكم!

تحول إلى صاحب الصوت، وجده وسط الزحام.. جندى طويل القامة منتصبا كنخلة وسط الحقول.. يصوب نظراته إلى جندى الحرب الكيماوية.. على كتفه شريط أحمر عريض مطرز بكلمتى «الشرطة العسكرية».

.. على وجهه طبقة ثقيلة من المقت..

لم تعجب جلال طريقة كلامه.. دون كلمة أعاد الجندى الذى فوق الرف لبس الحذاء.. اختفت فجأة رائحة البشاعة. . تصور جلال أن هذه الرائحة يمكن أن يعذب بها المتهم كى يعترف، والأسير حتى يكشف كل أسرار شعبه.

تنفس بعمق وملأ رئتيه بعطر المزارع ونسى الحذاء مؤقتا.. وبدأت نسمات الرضا تمسح على جبينه برقة ونعومة.. ابتسمت ملامحه لأن محطة بنها اقتربت وبعد قليل سيقرأ أبوه الخطاب.

مارس ١٩٨٥

عسل الشمس

دفعته عن أنفها فعاد وحط على جبهتها، بصعوبة رفعت يدها وأبعدته، حام وهبط على فمها، صبرت عليه لحظات، ثم نفخته فطار.. .. عاد فوقف على خدها العظمى.

تأكدت أخيرا أن الذباب لم يخلق إلا لها، وأنه لن يرحل عن وجهها.

لم يكن دفعها له إحساساً خالصاً برفض قذارته، بقدر ما كان رفضا لوجوده الذى يسوق تأملاتها الكسولة فى مسافة بعيدة من الزمان.

قالت لها أمها : لقد وضعتك يوم شنق زهران.

حاولت أن تتذكر ماذا قالت عن زهران ــ فلم تسعفها الذاكرة وتخلت عنها تماما، كما تعودت أن تفعل فى مناسبات عدة، لقد غدا الماضى كصفحة محا الزمان ما بها من سطور.. ربما تتذكر موقفا من المواقف الحرجة، كيوم طردها زوجها وأهله إلى الشارع، ولم تبرح الدار إلا بصحبة أولادها الستة، وأبت أن تذهب إلى أهلها فى الجزيرة.

بقيت فى القرية تكافح مرفوعة الرأس وترعى أولادها، تحت سمع وبصر زوجها وأهله، إلى أن جاءوا هم بأنفسهم وأجبروها على العودة فرضيت متشحة بالكبرياء.

وتذكر يوم معركة الجسر مع الهلالدة بسبب نزاع الرى الشهير. لقد اشتركت فيها بنفسها، ولم ترضخ لأمر زوجها بالعودة إلى الدار إلا بعد أن شجت بحجر ثلاثة رءوس.

حتى هذه الذكريات المعدودة تسبح فى فضاء رمادى يلفه الضباب.. وهى مصرة على أن تمضى رغم ذلك فى محاولتها العنيدة للتذكر.

ولم تنتبه إلى أنها ـ فى السنة الأخيرة بالذات ـ كلما أسرفت فى نبش الماضى، فى محاولة للانتقال إليه، طافت بها مخلوقات غير مرئية، وخفقت بأجنحتها لتسمح لها بالتعرف عليها فتقول:

ـ ارجعوا.. ليس الآن.. أرحلوا.

كانت تعلم أنهم رسل الموت، يطلبون إليها الاستعداد، فقد آن الأوان، وهذه ميزة لا تتاح لكل الناس.. فها هو الموت يمنحها الفرصة بإعلانه عن نفسه.

بدت خائفة وعاجزة، لكنها لا تريد أن تستسلم.

عاد الذباب، لوحت له بكفها النحيل ليبتعد بدأ الذباب كأنه يود لو يعرف فيما تفكر.

بلغها صراخ أحفادها وشقاوتهم.. كان الأولاد فى أول زمانها بلا صوت وبلا مطالب ولا خبل.. أنجبت أحد عشر.. لم تحس بأحدهم.

اندفع حفيد هربا من أخيه فأصطدم بها ووقع عليها لم تتوجع رغم ما أصابها. رأت أن تبرح المكان لأنه طريقهم وسوف يقعون عليها مرات.

أحست بتألق النهار.. أذن فقد تسلقت الشمس الجدران وابتعدت عن الأرض المحصورة.

استدارت العجوز إلى الحائط وأعتمدت عليه ونهضت.. السحابات السوداء على عينيها لاتكاد تتيح لها الفرصة كى ترى الخطوط المحددة لمعالم الأشياء.

تقدمها ذراعها، يحوم فى الفضاء كقرن الاستشعار، يكشف لها الطريق إلى الحارة اجتازت العتبة، وأكملت ثلاث خطوات ثم جلست.

هذا مقامها النهارى هنا أقرب مكان إلى الدنيا.. تمضى خلاله فى دراسة صامتة لما يدور حولها، رأسمالها الوحيد سمعها الذى يعمل بكفاءة.. تميز هذه البنت من أختها، وهذا الولد عن أخيه، وتميز صوت الشيخ جوهرى وأقدام ولدها، وتميز نباح كلبهم من كلب البندارى.

منذ سنوات وهى تراقب نفسها تمضى فى طريق شاحب الضوء.. سرعان ما بدأ الظلام يكسوه، ومع مضى الزمن الردىء تحيط بها العتمة كلفافة من خيوط العنكبوت.

لا أحد يحنو عليها فى هذه الدنيا ألا الشمس المهيبة الحنون وما عدا ذلك فالكل أعداؤها ويودون لو ترحل.

تحس أن الشمس تحتضنها وتخلع عنها أرديتها المتعفنة، وتمسح عظامها الرميمة، وتداعب كساءها الجلدى، وتسلمها للذكريات.

لا يمكنها أن تسترجع طوفان الذكريات دون أدنى احساس بالمرارة أو الندم، وهى ترى أن هذه السنوات ليست كالسنوات السابقة.

طويلة تلك المسافة التى قطعتها مع الزمان.. كانت تعمل وتعمل، حتى إذا أرادت أن تتسلى، فإنها تتسلى بشىء مفيد.. كانت دائما ذات فائدة.

زوجة أصغر أبنائها التى تعبث بوجهها طيلة النهار .

قالت له:

ـ أن أمك تضع خرزات المسبحة المقطوعة للبط.

لم تدافع العجوز عن نفسها حين قال لها :

ـ أرجوك يا أمى.. لاتفعلى شيئا

وكأنها فقدت الاحساس بالظلم، لم تهتم بأن تقول له إنما وضعت للبط حبات الفول.

كانت متأكدة أن دفاعها غير ذى جدوى، فأبنها المنبهر بجمال زوجته لن يستمع إلا لقولها.. هى متأكدة أنها ألقت للبط حبات الفول.

ـ جيل مجنون. هل يعقل أن ألقى للبط خرزات المسبحة!

صحيح أن رؤيتها بالعين مضطربة، أو ربما معدومة لكنها تستطيع أن تتعرف على الأشياء وتحددها باللمس إذا أمسكتها.بيدها تستطيع أن تفرق بين رغيف صنع بقمح خالص، ورغيف أضيف إليه قليل جدا من الذرة.

انتهت إلى الاقتناع بأن هذه السنوات رديئة، زيفها المزيفون وغشها التجار.. لم يكن لامرىء أن يفكر من قبل أن تمتد يده إلى طقوس النبل والحياء، لكنها الآن تمتد إلى ما مدى.

اكتشفت أن الشمس ترحل عنها ويغطيها الظل والثلج بسطت راحتيها على الأرض، واعتمدت عليهما، تحركت قليلا فى اتجاه الشمس المزدهرة.. تحسست مداسها المتهرىء، قربته منها.

قالت زوجة ابنها التى تلوك فى شدقها ـ فى خلاعة ـ فص اللادن.

ـ هل أحملك إلى الشمس يا خالة؟

كانت تحس أنها بالقرب منها، تتفرج عليها وهى تقبع وحيدة فى منفى الشيخوخة، نسيتها وواصلت تأملاتها.. لقد عاشت طويلا وشرب جسدها كثيرا من عسل الشمس وكثيرا جدا من برودة الظل.. رحل الزوج مبكرا ومضت وحدها تربى أحد عشر رجلا وامرأة.. انتشروا فى الأرض لاتراهم، إلا الأصغر الذى يقيم معها بأولاده. والكلمات بينهما قصيرة ومكررة وأغلب كلماته ليست كلماته تساءلت بينها وبين نفسها : كيف أصبح لها مثل هذا الولد المركوب.

بلغها من جديد صراخ الأولاد وضجتهم.. خرجوا من الدار مندفعين، يتضاربون ويتقاذفون الأشياء.

فجأة انحنى أحدهم ومد يده إلى نعل الجدة، وقبل أن يقذف به أخاه، قبضت عليه يد الجدة، فوجىء الولد الذى يعرف أنها عمياء بيدها تكاد تسحق يده، حاول أن يخلص يده بلا فائدة.

بهت الولد الذى كان يرى يدها طيلة النهار ترتعش من شدة الضعف والهزال، فكيف أصبحت الآن فى منتهى القوة والصلابة، كأنها ليست لإنسان، إنما لآلة حديدية صدرت الأوامر لها أن تقبض فقبضت.

سقط النعل وجرى الولد.

ابتهجت العجوز لهذا النصر المؤزر تنهدت وابتلعت ريقها وجددت لعابها دست فى فمها سنة من القرنفل. انشغل بها لسانها خامرها احساس بالأمل فى استمرار الحياة. دفعت عنها بكل حماس أوهام اليأس والاستسلام للنهاية المجهولة.

ورغم أنها تفتقد الانسجام مع هذا العالم، لكنها تود لو تبقى كى تتفرج عليه وهو ينتفض بالجنون.

مازال لها فى الدنيا عمر، ومايزال مطلوبا منها أن تعيش يريد الله لها أن تشهد مزيدا من الأحداث فى هذه الحياة المتردية.

شردت قليلا وغلبها احساس بالأسى. انتهى فجأة بالدمع والنشيج المحموم.

يوليو ١٩٨٠

الحضن

كانت العجوز تجلس فى صدر الردهة، لترى من خلال الباب المفتوح كل العابرين، وتطمئن على أن الدنيا مازالت دنيا، وأنها مازالت فيها، طالما تحس بالحركة تدب من حولها، وطالما ترى النور يقتحم الدار.

خرجت بنت ابنها من حجرتهم متجهة إلى الباب المفتوح.

قالت الجدة :

ـ هات القلة يا سناء.

ارتدت البنت عن الباب. مضت إلى صينية القلل. رفعت بصعوبة من بينها قلة.. نقلت قدميها والقلة على بطنها تترجرج، قدمتها إلى جدتها، شربت ومسحت فم القلة وفمها.. عادت الطفلة بالقلة إلى الصينية ثم تابعت طريقها إلى الشارع مصمصت الجدة شفتيها وتلفتت حواليها.. خرجت بنت ابنها الوسطى. اصطادتها الجدة.

ـ هات المداس يا حنان.

بعثرت البنت نظراتها سريعا فى أرض الردهة.. لم تجده .. انحنت تبحث تحت الأرائك. أخيرا وجدته ووضعته أمام الجدة مضت الطفلة إلى الخارج مصمصت الجدة شفتيها.كان ابنها يقيم معها، وكانت حجرته مع زوجته وبناته الثلاث تطل على الحارة وهى التى كانت تخرج منها كل البنات.. الواحدة تلو الأخرى.

الأم فى الداخل تغسل للبنات رؤوسهن، وتمشط شعورهن.. كل بنت تنتهى زينتها تولى وجهها نحو الشارع، حيث المرأة فى الخارج فى عيون البنات الأخريات... تنام الجدة فى الغرفة الجوانية أما الغرفة الثالثة فقد خصصتها لابنها الأصغر يقيم فيها إذا جاء من بنى سويف فى إجازة.

يتسلل أحيانا أبو البنات إلى غرفة أخيه، هربا من ضجة البنات وصراخ أمهن خرجت البنت الصغرى ضئيلة الحجم، قفزت كالعصفور تجاوزت السنتين بقليل مبتلة الشعر، هربت من التمشيط، المشط المتوحش يحاول كلما خاض فى شعرها أن ينتزع خصلات الشعر من الجذور.. صرخت ولكن الأم ماضية لا تعبأ، وحين تركت الأم شعرها لحظة لتمسك بزجاجة الجاز بيد وتسكب فى اليد الأخرى قطرات، فرت الطفلة إلى الخارج نادتها الأم لكنها كانت قد قررت ألا تعود، وماذا لو لم تعد؟

ما الذى سيحدث؟ لمحتها الجدة وقالت لها:

ـ تعالى أضفر لك شعرك.

حدقت فيها الصغيرة لحظة.. عينا الصغيرة سوداوان.. واسعتان جميلتان.. هما أبرز مافيها.. نظرت الجدة نظرة استكشاف.

كانت كل منهما تعمل للأخرى ألف حساب، فالجدة صاحبة الحول والرأى فى البيت ويمكن أن توحى لابنها أن يضر هذه المتمردة العنيدة طويلة اللسان.

مضت الصغيرة إلى دورة المياه مشت على أظافرها.. وبأطراف أصابعها دفعت الترباس الصغير.. فتح الباب.. تقدمت خطوتين صغيرتين.. رفعت ثيابها وقبضت بأصابعها العصفورية عليها جلست وبالت.

عادت تقفز مسرعة أمام الجدة.. قالت الجدة :

ـ اقفلى الباب..

وقفت الحفيدة عند باب حجرتهم، وحدقت فيها.. قالت الجدة :

ـ عودى فاقفلى الباب.. سيحمل إلى الرائحة الكريهة والصراصير.

أخيرا قالت الصغيرة..

ـ لا أستطيع .

قالت الجدة :

ـ إذن تعالى أضفر لك شعرك.

ـ أمى التى تضفر لى.

تتعثر الكلمات على شفتيها وبعضها ناقص والآخر ملتوى تفرح الجدة ويملأ صدرها حب كبير لهذه البنت العفريتة.. لابد أن تلجأ الجدة للمناورة.. ضحكت عليها بفمها المغلق.. حاولت أن تخفى فراغه المرعب :

ـ تعالى إلى جوارى.. سأحضر لك الحلوى.

من جبروتها البنت قالت : لا أريد واختفت فجأة.. مصمصت الجدة شفتيها وظلت صورة العصفورة عالقة بعينيها تراها وهى تقفز أمامها، وكأنها تقفز داخل قلبها، وتشتاق إلى أن تعانقها وتقبلها.. أبو البنات دعاهن جميعا إلى احترام الجدة احتراما يقرب من العبادة، لكن الوحيدة التى خرقت هذا القانون هى الصغرى التى لاتعترف بأحد ما يتراءى لها تفعله صلبة الرأى عنيدة والجدة تهيم بهذا العناد.

جاء ابنها من الخارج انحنى على يدها وقبلها جلس إلى جوارها.

ـ لابد أن تنام البنت معى.

ـ أنها مزعجة.

ـ لن تزعجنى.

ـ تتقلب كثيرا فى الفراش وتضرب باليدين والقدمين.

ـ لابد أن تنام معى.

ـ ولم؟

ـ لأنها لاتطيعنى ولابد أن تنام معى.

ـ ستنام معك.

ـ قلت لها اغلقى باب المرحاض فلم تفعل.

ـ سأضربها.

ـ اياك.....

نظر الأب تجاه حجرته، لمح الرأس الصغير يطل ويستمع والعينين السوداوين تبحلقان في ثقة..

ـ تعالى يا بنت..

لم تتحرك ولم تهتز فيها شعرة، طامن من غلواء رجولته وهيبته قال فيما يشبه الرجاء....

ـ تعالى يا حلوة.. تعالى لأبيك..

أسرعت العصفورة وارتمت فى الحضن المفتوح، قال لها ـ هكذا تغضبين الجدة؟.. هيا اغلقى الباب.. ألا تشمين الرائحة؟

أحست ـ رغم سنها ـ أنه استقبلها ليأمرها، إذن فهذا الحضن ليس لها.. تسللت من بين أحضانه، ووقفت على بعد خطوات.. قال : ردى الباب.. كما أمرتك الجدة.. أسندت رأسها على كتفها غير مبالية.. أمسكت بيدها ظافر قدمها وثنت رجلها لمست مؤخرتها بالكعب.

ـ اسمعى يا بنت الكلام..

لم تهتم. ذهب وأمره إلى الله فأغلق الباب، حتى لاتتضايق أمه من الرائحة.. بعد العشاء نهض الابن وزوجته والبنات نصف نائمات.

ـ هات يدك يا أمى حتى أصحبك إلى حجرتك.

سلمت الأم يدها ومضت أم البنات بهن إلى الحجرة.. تدفعهن أمامها بحنان، توقفت الجدة فجأة فتوقف المركب..

ـ هات البنت تنام معى.

تقدم الأب من الصغرى ليحملها، صرخت البنت وتاوت، خمشته في وجهه ولكمته وعضته وأفلتت رفضت النوم مع الجدة رفضاً قاطعاً..

ساد صمت حرج، خجلت أم البنات صرخ الأب فى ابنته كى تعود لكنها أسرعت إلى السرير واختفت فيه.

عاد إلى أمه يصحبها إلى غرفتها ساعدها فى الصعود إلى السرير تمددت وغطاها.. قالت له ـ غدا تحضر كيسا من الحلوى.

ـ صعب أن تمضغى الحلوى، ستعد لك أم سناء الأرز باللبن.

ـ أنها ليست لى ياولد أنها للصغيرة.

ضحك الابن.

ـ لاتشغلى بالك.

ـ لابد أن تطيعنى.

ـ سأجبرها على طاعتك.

ـ لن تطيعنى إلا إذا نامت معى.

ـ يكفى الحلوى كى تطيعك

ـ لابد من الحضن.

فى المساء التالى انحنت الجدة على العنيدة، همست فى أذنها:

ـ تعالى إلى حجرتى لتأخذى الحلوى.

ـ لا توجد لديك حلوى.. أنت تكذبين.

تكذب.. قالت الحفيدة أن الجدة تكذب. لطمتها الكلمة بعنف .. لو قالها أبوها لتبرأت منه إلى يوم القيامة. كانت فى شبابها تسب العمدة نفسه.. فلايملك ازاء شخصيتها وجبروتها إلا أن ينحنى وينصرف..

ـ هات يدك .. وسوف ترين الحلوى بنفسك..

نطت العصفورة واقفة دون مساعدة، نهضت العجوز معتمدة فقط على عصاها اندفعت فى حماس إلى حجرتها أغلقتها فزعت الحفيدة حامت فى عينيها نظرات الشك عادت تجرى إلى الباب :

ـ لا تغلقيه.

أسرعت الجدة تخرج من صندوقها الكبير كيس الحلوى اطمأنت البنت..

ـ اصعدى إلى السرير.

ـ لن أصعد.. أريد الحلوى.

ـ اصعدى أولا..

ـ الحلوى أولا.

بعد تردد قدمت الجدة الكيس مستسلمة وجسدها ينتفض خشية أن تخطفه العصفورة وتطير.

احتضنت العصفورة الكيس فكرت فى الهرب خافت من عصا الجدة تحسست الكيس.. فتحته وأخرجت قطعتين دستهما فى فمها.

كل واحدة فى شدق استحلبتهما أعجبها الطعم، السكر يتقطر فى فمها سعدت بالحلوى وتذكرت سناء وحنان، لايذوقان ما تذوقه رضيت عن جدتها رضا منعها من الخيانة.

صعدت إلى السرير حسب الاتفاق تنفست الجدة كأنها استردت الحياة صعدت فى أثرها.. نامت إلى جوارها مضت الصغيرة تتطلع إلى السقف فى توجس.

إنه سقف آخر غير سقف حجرتهم، سقف عجوز بلا أسنان من الممكن أن يقع فوقها فتموت.. دارت عيناها فى الحجرة كلها بدت معتمة أكثر من المعتاد .. قالت الجدة.

ـ هل تعجبك الحلوى؟

هزت الصغيرة رأسها امتصت قطعة السكر فتقطر فى فمها طعم لذيذ، مدت الجدة ذراعها لتحتضن الحفيدة، ارتد إلى الداخل جسد الحفيدة فزعا من الذراع الساقط فوقها وبهدوء رفعته عنها.

تململت البنت طاف حولها شبحا سناء وحنان، فى مثل هذا الوقت كانت تلعب معهما على السرير قبل أن يدهمهن النوم كانت تقوم لهما بدور الأم وهما بنتاها تأخذهما معها إلى السوق وتحمل هى السلة.. الآن لن يستطيعا الخروج إلى السوق، إنها أمهما وهما

يحترمانها ولا يعصيان لها أمرا، وعدتهما الليلة أن تصنع لهما الفطير فى الفرن.. تململت البنت، تحسست كيس الحلوى، رفعت رأسها ثم جذعها:

ـ إلى أين؟

ـ إلى ماما.

ـ ستنامين معى.

ـ أنام مع ماما.

ـ الليلة فقط.

ـ لا.

ـ لقد أغلقت الباب ولن تخرجى.

ـ سأخرج.

ـ إذن هات الحلوى.

ـ خذيها.

ـ ولن تخرجى.

استعدت الطفلة للبكاء أسرعت الجدة تربت على ظهرها.

ـ ستخرجين.. فقط هات حضنا.

ركبت عليها الطفلة وقبلتها الجدة. همت الطفلة بالهبوط من السرير أمسكتها الجدة.. استعدت الطفلة للبكاء..

ـ هل ستطيعننى؟

هزت الحفيدة رأسها موافقة.

ـ وتسمعين كلامى؟

هزت الطفلة رأسها موافقة.

نهضت الجدة فتحت لها الباب أسرعت العصفورة تجرى فى الظلام فى اليوم التالى نادتها الجدة.. تبعتها إلى الغرفة أخذت الحلوى وأعطتها حضنا.

ديسمبر ١٩٨١

الحل الأخير

كنت مستغرقًا فى القراءة حين وخذنى صوتها الغاضب :

ـ وبعدها معك..

نزعت عينى من الكتاب انتزاعا .. وقعت نظراتى على ذراعيها العاريتين، كانتا تحملان كمية كبيرة من رغاوى الصابون.. تطلعت إلى وجهها فبان لى الشرر المتطاير من عينيها.

ـ ماذا جرى؟

حدقت فى وبدا أن الغيظ يكاد يخنقها.

ـ خذهم عنى أرجوك.. لا أستطيع أن أتم عملا.

تخابثت كعادتى حين لايسرنى التغيير الذى يطلبه أحد منى.

ـ آخذ من؟

ـ الشياطين .. أبناءك.

ـ ألا ترين أنى مشغول؟

تنهدت.

ـ لست مشغولا.. أنت تقرأ.

ـ كتاب خطير.

مدت لى حبل صبرها المهترىء وقالت:

ـ عما يتحدث إن شاء الله..

ـ عن الجذور التاريخية لمشكلة الزنوج.

تلفتت فى كل اتجاه، أعرف من حركتها هذه، أنه قد فاض بها وتبحث عمن يجيرها ثم قالت وهى فى قمة السخط المكبوت:

ـ ألطم.

ويبدو أنها لم تستطع الاستمرار فى المناقشة، فربما أصابها ضرر بالغ إذا هى أنصتت لآرائى.

مضت على عجل، وهى لن تجد بالطبع من يجيرها منى ومن الشياطين أبنائى غير الله.

طافت بذهنى فى لحظة واحدة كل سنوات حياتها معى، ملخصة ومجمعة كلها فى قرص من التفكير المكثف.. ابتلعته.. أدركت أنها فعلا لا تتوقف عن العمل المتواصل من أجلنا جهد هائل ومرهق ما يحتاجه غسيل الملابس وطهو الطعام وترتيب الشقة وأكثر إرهاقا منه أن تطلب من الأولاد فى كل دقيقة التزام الصمت وترك الأشياء فى مواضعها والكف عن العبث، والأولاد ـ على الأقل أولادى ـ لاتمل هذه المشاكسة ولو استمرت أياما.. أشفقت عليها ولكن ماذا أفعل لهم.. أريد أن أقرأ .. أن القراءة متعتى الوحيدة وقد تخليت فى سبيلها عن كل المتع أو بالتحديد أغلبها.. وهذا الكتاب بالذات كنت أبحث عنه منذ زمن، أخيرا وجدته، على أن أرده لصاحبه المسافر بعد غد إلى سويسرا.

المسألة ليست تافهة كما تتصورها أم الأولاد، لم يعد العالم جزرا مستقلة كما كان قبل قرن من الزمان أصبح كلا واحدا، مشكلة من يعيش فى الفلبين لابد أن يهتم بها سكان البرازيل، وأنا لا أدعوه أن يحارب من أجلها أو يهجر فراشه تفكيرا فيها، ولكن لا أقل من متابعة أخبارها.. فلا بأس من معرفة أصل الحكاية وأطراف الصراع الدائر وألوانهم

وأهدافهم، ووجهات النظر المختلفة لحل هذه القضية والعقبات التى تحول دون تحقيق السلام لهذه الشعوب.

ومشكلة الزنوج ليست جديدة وليست بعيدة تماما عنا، ولكن أولادى يثيرون الشغب لأمهم بشكل يمنعها من القيام بمطالبهم الضرورية.. يتعين على إذن أن أتحرك لإبعادهم عنها كيف استدرجهم حتى يتبعونى .. أنا فى الحقيقة لا أريدهم أن يتبعونى .. أريدهم أن يناموا، ولكنى على ثقة بأنهم لن يناموا ألا إذا عم الظلام الكون كله واطمأنوا إلى أن كل أجهزة العالم قد توقفت وخاصة السيد المبجل التليفزيون، وأن الناس جميعا قد لجأوا إلى أسرتهم وأغلقوا أبوابهم وساد الصمت، بل هم لن يناموا إذا تحقق ذلك كله.. لن يناموا إلا إذا تهدمت أجسادهم وانطبقت جفونهم رغما عنهم وتقطعت كل علاقة لهم بالحياة.. ومازال النهار فى ساعاته الأولى والشوط المتبقى إذن طويل حتى نأمل فى أن يقترب موعد الراحة.

ثلاثة أولاد أكبرهم تبلغ السابعة وأصغرهم أتم عامه الثالث منذ شهرين، لكنهم كفيلون ـ بلا فخر ـ أن يشعلوا النار فى عدة شقق وأن يغرقوا شارعا بأكمله، وأن يكسروا أغلب محتويات فندق من عدة طوابق وإذا أتيح لهم بعض الوقت فقد يهشموا زجاج ومصابيح عدة سيارات.. قررت أن أساهم بأى نصيب، لكن الكتاب هام والوقت قصير، وتركه جريمة خطرت لى أفكار.. دفعتها جميعا عن رأسى، وبعد تردد رأيت أن أصحبهم إلى حديقة عامة... وأعلنت الخبر فهللوا فرحين.. أسرع أصغرهم فانبطح على الأرض وزحف تحت السرير وخرج حاملا الكرة.

سبقونى إلى السلم، وتأبطت كتابى سعيدا بالفكرة.. سأجلس تحت شجرة أقرأ وهم يجرون ويلعبون.. هناك جلست بالفعل تحت شجرة وانطلق الثلاثة يقذفون الكرة.. فراشات ملونة تتقافز أمامى فوق الخضرة والشمس تداعب أهدابهم.. نظرت إلى فلذات كبدى مليا قبل أن أنشغل عنهم تماما بالكتاب.. من جديد فرحت برجاحة عقلى، إذ التقطت هذه الفكرة التوفيقية التى تناسب الجميع.. قادر أنا إذن على أن أقوم بخدمة ولو بسيطة نحو العالم المسكين الذى يتعثر فى أمانيه.

قبل أن أفتح الكتاب، وقع الصغير، فأسرع إلى ضاحكا..

ـ لقد وقعت يا أبى ـ حسنا.. وبخفة ظله التى لم يأخذها عنى قال:

ـ لماذا لم تقل لى.. «حاذر أن تقع».

ـ أقول لك «حاذر أن تقع» فى الشارع أو على السلم، أما هنا فلا بأس أن تقع.. هذه الحديقة للقفز والجرى والسقوط..

تذكر الكرة فمضى عنى فتحت الكتاب واندفعت أقرأ ثم تبين لى أنى قرأت هذه السطور من قبل.. وأخيرا عثرت على السطر الذى وقفت عنده آخر مرة.. بدأت أتابع القراءة بعد أن تذكرت آخر فكرة جاءتنى الكبيرة تشكو لى الصغير :

ـ يستحوذ على الكرة ولا يعطيها أبدا لنا.. زعقت عليه ـ دع أختيك يلعبان معك.. الكرة لكم جميعا .. عدت إلى القراءة، ثم جاءتنى الوسطى شبه باكية وقد أحمر وجهها فبدت وردة تتألق بالنضرة لولا العيون المشتعلة بالحزن ـ أنظر يا أبى لقد اتسخ ثوبى.

ـ عندما تعودين إلى البيت ستلبسين غيره.

كانت هذه الوسطى ولو أنها عنيدة لا تميل إلى اللعب الجامح وتؤثر الهدوء، والصمت والغناء.

جلست إلى جوارى لحظات ثم مالت فوضعت رأسها على فخذى، رضيت بها أنيسة مادامت ساكنة.. بل شجعتها على البقاء بأن مددت يدى إلى رأسها وبدأت أصابعى تعبث بشعرها الناعم، وهى كالقطة تحب ذلك.

عدت أبحث عن السطر الأخير، وما أن وجدته حتى بدأت تغنى بصوت خفيض مقطعا من أغنية جميلة.. تابعت القراءة، ولكنها تدريجيا رفعت صوتها وبمرور الوقت أصبح عقبة فى سبيل استيعابى لما أقرأ.. فقدت التركيز.. نبهتها بدقات خفيفة فلم تصمت، قلت لها ذلك صراحة فسكنت ثم استدارت ناحيتى وأخذت الكتاب منى.. رجوتها أن تذهب لتلعب.. رفضت توسلت إليها.. أبت أن تبرح مكانها، تمنيت فى هذه اللحظة من كل قلبى لو كانت مثل أخيها وأختها تحب اللعب والشقاوة.. المهم أن تبتعد..

ـ لو ذهبت ولعبت سأحضر لك الحلوى.

ـ احضرها أولا..

ـ إذا ذهبت.

ـ اياك أن تكذب على.

ـ أنا أكذب!

ـ أقصد ألا تحضر الحلوى

ـ أنا إذا قلت كلمة فلابد أن أنفذها.. اطمئنى

ـ لأنك كبير؟

ـ هه..

ـ لأنك كبير.. أليس كذلك؟

ـ كل إنسان يجب أن يفى بوعده.. هيا.. اذهبى..

ـ متى أكبر يا أبى؟

ـ لماذا؟

ـ كى أفعل ما أريد..

ـ هل أردت شيئا ولم تحصلى عليه؟

ـ أظن .. أحياناً..

ـ مثل..

ـ الآن لا أدرى.. حين أتذكر شيئا سأقول لك..

ـ لاتشغلى بالك الآن.. هيا أذهبى.

بجهد شديد منعت نفسى من أن أقول لها، أنها الآن قادرة على تحقيق ونيل كل ماتبغى وكلما كبرت ستفقد جزءا من هذه القدرة وستحرم من بعض الحقوق.. صحيح أنها ستحصل على حقوق جديدة ولكنها تحمل فى طياتها مزيدا من الحرمان..

سعدت لأنها استدارت متجهة صوب أخويها دون أن تتذكر شيئا.. تركتنى هذه البنت الداهية أفكر فيها وفى المستقبل.. فقدت حماسى السابق للعودة إلى الكتاب.. صدت نفسى.. لكنى تعودت أن أهرب من مثل هذه الموضوعات التى أعرف مسبقا أنها بلا نهاية أو إذا كانت تمضى خلال طريق مسدود..

سلمت نفسى من جديد لصفحات الكتاب، ولكن الولد عاد يشكو البنت الكبرى.. ملأنى السخط فانفجرت وألقيت الكتاب بعيدا إلى أقصى ما أستطيع..

ابتعدوا جميعا عنى.. ذهبوا إلى آخر الحديقة.. استحسنت ثورتى وذهبت إلى الكتاب وأبديت له أسفى، فما فعلته لايقدم عليه مجنون عاودت القراءة.. قضيت لحظات ذهبية مع موضوعات الكتاب، بهرتنى الأفكار وانتظامها وتسلسلها ودقة التحليل ووفرة المصادر والموضوعية فى العرض بلا مبالغة أو غرور كانت الرؤية أمام الكاتب واضحة، وكان يسيرا على القارىء الاحساس بأن الكاتب خال تماما من العقد.. قطعت شوطا طيبا قبل أن يعود الشياطين الثلاثة «بربطة المعلم» يشكو كل منهم الآخر.. وضعت الكتاب، وكنت قد أصبحت جزءا منه وأصبح جزءا منى.. فكرت فى اجراء تطوير على وجودهم فى الحديقة لابد من تحقيق نظام يكفل استقرار اللعب بينهم حتى لايعودوا إلى ازعاجى .. قلت :

ـ أنت تعطى الكرة لها وهى تعطيها لأختها، وهذه تعطيها لك وهكذا.. بدأوا يلعبون.. من أول لعبة دب الخلاف، فحين تأخرت الكرة على الصغير انقض على أخته فعضها وصرخت.. طيبت خاطرها.. أخذ الكرة وظلت فى حوذته لايعطيها للكبيرة..

كان يعتقد إن هو أعطاها لها فلن تعود إليه.. غضبت البنتان وأنا لا أحتمل غضبهما الباكى لأن مظاهره تحطم القلوب.

لا أمل فى القراءة.. وضعت الكتاب، لن يرتاحوا إلا إذا قمت فلعبت معهم.. أذعت النبأ فهللوا فرحين.. قفزت بينهم وجريت. جروا ورائى.. وقعت على الأرض ركبوا فوقى.. تخلصت منهم ونهضت وأنا أضحك، وهم يضحكون سعداء باللعبة الجديدة..

قذفت الكرة وجريت، جروا ورائى.. لحقوا بى.. تعثرت فيهم.. وقعت فركبونى.. وركبونى.

وقائع المشهد المثير

عندما علمت بإختيار بلدتنا الصغيرة لينزل بها أعضاء المؤتمر الوافدون من كل دول العالم لبحث مستقبل مصر سنة ٢٠٠٠، كان صعبا أن أبقى خارج أسوار المناقشة، فطرقت كل الأبواب محاولا الحصول على دعوة لحضور الجلسات إلى أن حصلت عليها.

لم أتصور أن يأتى المؤتمر بكامل هيئته العلمية والعالمية مع مراسلى الصحف ورجال الإعلام والقيادات السياسية والشعبية إلى مدينتى دون أن أشارك ولو بالاستماع.

ارتديت ملابسى وقبلت يد أمى وهبطت الدرج. ألقيت جسدى إلى الطريق .. سرت سيرا آليا دون أن أهتم كعادتى بالحفر والأرصفة المتهالكة وأكوام الأتربة ومخلفات المبانى وبحيرات المجارى والشوارع المنتهكة بأطماع التجار وفوضى الباعة والقذارة كان على أن أمر على حسام بالفندق.. حسام صحفى متمرس وذكى، ولكن اجابته لم تشف غليلى عندما سألته:

ـ لماذا وقع الاختيار على بلدتنا ليعقد فيها المؤتمر؟

ـ لأن أكبر عالم مصرى فى القرن العشرين ولد بها منذ مائة عام.

ـ لا أظن أننا أوفياء لهذا الحد، واستشعر أن وراء ذلك رقصة إعلامية، ومثل هذا اللون من الرقص لم يعد يرضى أحدا لأنه رخيص ومفتعل.

ـ فما السر فى رأيك؟

ـ لا أعرف ولكنى سمعت رأيا لمسئول كبير فى المدينة قاله فى جلسة خاصة، هو أن المؤتمر يمثل ترضية لهذه البلدة التى تفتقر إلى الخدمات والمشروعات، هذه البلدة التى مازالت تصبر على كل مابها من تخلف، وسيكفيها طبعا أن تردد اسمها وكالات الأنباء العالمية ويذكرها الباحثون والعلماء على مدى الأيام، لأنهم يسمون المؤتمر على اسم البلدة التى انعقد بها، وهكذا تتحقق عدالة توزيع الأرزاق الحكومية.

على أنى انتهيت هذا الصباح إلى رأى لا أظن هناك خلافا عليه وهو أنهم اختاروا بلدتنا لأن بها أحدث قاعة للمؤتمرات والخطب وهكذا أصبح لبلدنا ما يميزها عن غيرها، ورغم ظروفها الصعبة ووضعها المتردى فثمة ما تفخر به.

كان حسام مايزال نائماً.

أزحت الستائر فاندفع النور إلى الحجرة. أطل فى ساعته وقال:

ـ عملت طيب.

ـ هل طالت سهرتك مع الفرنسية؟

ـ كلود لا تتركنى.

ـ سيدة ظريفة.

ـ لا تريد أن تضيع منها ثانية دون معرفة.

ـ أرجو أن يكون التصاقها بك من أجل المعرفة فقط.

ـ يارجل.. أنا لا أصلح لشىء.

ـ الآن فقط.. ولكن بعد الحمام ستصبح صالحا لكل شىء.

سمع نصيحتى ومضى إلى الحمام.

وقفت أتأمل المدينة التى كانت حتى وقت قريب تنتهى بالطريق السريع الممتد من القاهرة إلى الإسكندرية.

فى السنوات القليلة الماضية زحفت المبانى وتجاوزت الطريق واكتسحت فى طريقها المزارع ـ شيدت الدولة مبنى جديدا لمجلس المدينة به قاعة المؤتمرات ومبنى آخر للثقافة وفى ظهره مبنى مباحث أمن الدولة.

ظهر حسام مختبىء الرأس فى المنشفة السماوية.. وقف إلى جوارى ثم كشف لى عن وجهه المضىء.. تبادلنا تحية الصباح أطل على المدينة، فكرت أن أسأله من جديد عن كلود العالمة الفرنسية.. فجأة خلص رأسه من المنشفة وفغرفاه وهو ينظر إلى السوق المجاور للفندق.

ـ ما هذا؟

ـ سوق البهائم.

ـ أنا عندكم منذ عدة أيام ولم يكن موجودا.

ـ كان المكان الفسيح بالطبع موجودا، لكنه كان فارغا واليوم الاثنين هو السوق.

ظل يحدق رأى كميات هائلة من الحيوانات بقر وجاموس حمير وجمال وأغنام ناس وخيام سيارات نقل ونصف نقل وملاكى وأجرة جمهور كبير يدخل ويخرج باعة الفول والطعمية والكشرى والمهلبية والأساور والعقود والأقراط البلاستيك والألمونيوم .. أركان الشاى واليانسون والحلبة والقرفة.. الخراف الصغيرة والماعز تجرى بلا قيود، ولا حتى «سلب» وصبية السماسرة يعدون وراءها.

ـ لم أكن أتصور أن يكون فى بلدكم كل هذا الكم من الحيوانات.

ـ هذا يوم تجارتها.

ـ ولماذا نعانى إذن من أزمة لحوم!

ـ وهل تكفى كل هذه المواشى لأطعام شارع واحد من شوارع القاهرة؟

ـ وكيف يتم البيع والشراء ولا مكان لقدم.

ـ يفكر المسئولون فى نقل السوق كله من هذا المكان، أو نقل جزء منه على الأقل إلى الجانب الآخر من النيل.

ـ ولماذا لم يفكر المسئولون فى ذلك قبل أن يلتحم الجميع بالجميع؟

ـ ليست مسألة قبل أو بعد.. أنه طبع .

وقف مشدوها يتأمل السوق ـ ويبدو أنها كانت المرة الأولى التى يرى فيها سوقا للبهائم.

شبعت نظراته من السوق فتحولت إلى الطريق الذى كانت تتسابق عليه مئات السيارات.

قلت له : هيا بنا.. لابد أن الأعضاء قد مضوا.

استدار وارتدى على عجل ملابسه. علق على كتفه حقيبة مكورة وأسرع فتبعته.

فى الدور الأول، كان الجميع يجلسون وقد انتهوا من فطورهم طلب لنا حسام كعكا وقهوة باللبن وسلم لشفتيه سيجارة. طلعت علينا كلود بملامحها الحنون. عبرت عن فرحها بالصباح المتألق.

نزلنا مع الضيوف كان علينا فقط أن نعبر الطريق العريض مشيا على الأقدام لنصل إلى مبنى مجلس المدينة حيث قاعة المؤتمرات مسافة لاتزيد على مائة متر.

تقدم العلماء والباحثون والخبراء ورجال الإعلام، وما أن ساروا بضع خطوات حتى فوجئوا بعدد هائل من الحمير يطلع عليهم، ولما حاولوا أن يتعرفوا على آخر هذا الزحف ولم يجدوا له آخر، أسقط فى أيديهم واضطرب موكبهم، والحمير تتدافع مضطرة نحوهم.

التف رجال المرور حولها يبسطون أيديهم ليحولوا بينها وبين اجتياح الضيوف، وخشية الاندفاع نحو أرتال السيارات القادمة من الإسكندرية فى نزيف لا يتوقف.

لكن المسألة أفلتت إذ وجدت الحمير المدفوعة بتزايد الأعداد وبسبب الضرب النازل عليها من رجال السوق ثغرة بين رجال المرور فنفذت منها، فإذا هى تقطع الطريق على شلال السيارات.

شغلت الحمير كل المساحات لم يجد بعض رجال الشرطة حلا إلا أن ينهالوا ضربا على الرجال الذين كانوا يصحبون رحلة الحمير.

تراجع العلماء وقد بدت على ملامحهم علامات التقزز والحيرة والحمير تتقدم بجوانبها نحوهم. خطا الضيوف إلى الخلف خطوات ثم تمهلوا يبحثون عن طريق لم يكن ثمة طريق، كانت الحمير محتشدة فى غير نظام تتدافع وتتكدس..

بيضاء وقليل منها الأشهب والقاتم.. غلب اللون الناصع على المكان وألهب ضوء النهار.

وقع بعض الضيوف المسنين وتعثر البعض وثار البعض..

أغمضت عينى لحظات لأهرب من مشهد المصيبة.. أننا على حافة الفاجعة.

لم أستطع الأختباء بقاع نفسى طويلا جذبنى الحدث التعس رغم الاضطراب والارتباك والتداخل والضرب والجنون الذى شمل الجميع فقد بدت الحمير متداخلة وملتحمة وممتزجة. كائن واحد يتدحرج وتتلاطم أجزاؤه.. كانت متعانقة فى رضا وصبر.. تتراءى على ملامحها ظلال اليقين، والعيون بحيرات ساكنة يتراقص على سطحها الأمل فى الفرج القريب.

لم يكن ثمة ما يزعجنا رغم ذلك إلا زعيق السيارات وصراخها الحاد.. العريض والعميق والمدوى. لعبة سهلة لدى السائقين كانت آلات التنبيه توحى كأن الكون كله يبرق ويرعد ويئز ويجأر ويتلوى ويئن ويثور.. تصورت الدنيا كأن سكينا هائلا يمضى فى أحشائها ببطء وهى تتألم ألما خرافيا يفتت الكبد.. ألما يزلزل الجبال ويهيج البحار.

ليس فى الكون كله ازعاج يبلغ ازعاج سياراتنا.. أسرعت إلى أحد الضباط أسأله، وأنا أكابد ألما وأخفى خجلا مهينا.

ـ كيف ولماذا؟

ـ قررت إدارة السوق نقل الحمير إلى الجانب الآخر من النيل.

ـ ألم يكن ذلك معروفا لديكم.

ـ كان معروفا.. لكن.

زحفت علينا الحمير دون إرادة أحد، وأبعدتنى عن الضابط الذى لم يكن يستحق الشفقة، وأحاطت به كأنها تحميه منى، وعانى كثيرا فى سبيل التخلص من تلاحمها القوى.

آلات تنبيه السيارات مازالت تقطع فى لحمنا ولا تكتفى بالتنبيه قرر الضباط الذين تزايد عددهم أن يدفعوا الحمير نحو الساحة الأمامية للفندق. كان الحل الأنسب فعلا للتخلص من أصحاب السيارات المجانين. أن يتراجع العلماء مؤقتاً إلى الفندق ويحل محلهم الحمير ويسمح للسيارات باستئناف السير، فكل حمير الكون حتى لو نهقت جميعاً فى وقت واحد لاتساوى زمارة سيارة واحدة.

صعد العلماء إلى الدور الأول بالفندق قبعوا خلف واجهته الزجاجية وبدأوا يتطلعون فى انبهار، غيرمتصورين أبدا أن يكون فى الدنيا هذا الكم الهائل من الحمير، وقد أصبحت الساحة منتجعا لها.

كان المراسلون أول من أفاق من الصدمة الأولى للحدث المباغت، وبدأ المصورون فى تسجيل المشهد المثير.

تناهى إلى سمعى حوار بين الدكتورة كلود وحسام :

ـ لم أكن أعرف أنكم تقدسون الحمير لقد رأيت الجميع يحرسون ميسرتها، ويكاد البعض يحتضنها، أما الرجال فقد ضربهم الجنود بكل عنف.

رد حسام وهو يحاول انتزاع صوته من الخجل الملح:

ـ إننا فقط نحنو عليها.

ـ سمعت أنهم يفكرون فى سحب القداسة عن الأبقار فى الهند.

أجابها حسام فى ثقة وقد تخلص من آثار الموقف المخزى:

ـ تتغير المقدسات بمرور الأيام.

تكدست الحمير بعضها فوق بعض. الأعناق فوق البطون. والسيقان فوق الظهور.. تجاورت الحمير كقطع من الموج ارتمى منهكاً أمام الشاطىء.. لم يكن الصباح غريباً عنها.

وقفت بعض الحمير وصبت بولها على الأرض كأنها تفرغ نهراً تساقطت من المؤخرات كرات الفضلات، ما أن مست الأرض حتى انفرطت وتصاعدت منها الأبخرة.. شاعت فى الجو روائح غير محتملة. نهضت الحمير الواقفة، أما التى كانت ترقد فى استرخاء فقد استثار بعضها التلاصق الجسدى والأنفاس والهدوء النسبى فهبت واقفة. وتقافزت الحمير فوق بعضها. علا الموج وهبط وأفلت حيناً ثم استقر. تفتحت الشهوات واستنفرت أعصاب الجميع وتحمس المصورون لمستقبلهم الفنى والمالى، والعلماء مشدوهون بروعة المنظر، سعداء بالموقع الممتاز الذى أتاح لهم رؤية الطبيعة وهى تأتى إليهم وترقد تحت أقدامهم وتلعب أدواراً فريدة قالت كلود وهى تكاد تطير:

إنها تعبر عن ذواتها فى عفوية وبلا عقد، ولاشك أن أفكارها عن المجتمع السعيد غاية فى البساطة.. آه يا للجمال والثراء ستظل أفريقيا لقرون قادمة ميدانا رائعا للبحث والإلهام.

لاحظت أن كثيرا من العلماء بدأوا يدونون أشياء فى أوراقهم ويتحدثون ويصورون وقد بدأ أنهم نسوا المؤتمر وتوصياته التى يتعين عليهم إعلانها فى الجلسة الختامية.

سألنى حسام فى غير قليل من الغيظ :

ـ هل هذا الفندق ملك لمجلس المدينة؟

ـ لا .. بل هو ملك لأحد المقاولين.

ـ ولماذا بناه أصلا؟

ـ وما العجب فى هذا؟

ـ لأن أغنياء بلدنا ينفقون أموالهم فقط على النساء وزيادة النسل والاقبال على الطعام لدرجة انقطاع النفس وتتكفل أماكن اللهو بابتلاع الباقى.

ـ وهذا الفندق.

ـ أشار رئيس مجلس المدينة على أحدهم ببنائه ووعد بتقديم التسهيلات بل والزبائن أيضا فتشجع وبناه.

ـ ولكن الموقع غير مناسب.

ـ ومناسب جداً.. فسينقل سوق البهائم من هنا إن عاجلاً أو آجلاً، ويقام مكانه ملعب أو حديقة، وهكذا يطل الفندق من جهة على النيل ومن جهة أخرى على الملعب أو الحديقة وأمامه السيارات تمرق على الطريق السريع.

عدنا إلى الصمت، لا نتفرج مثلهم على الحمير، وإنما نرقبهم هم.. نبحث عن ملامحنا فى عيونهم وقلوبنا تدق بعنف.

مالت كلود على حسام أكثر من اللازم وقالت :

ـ هل يهتم أهل هذه المدينة بإجراء سباقات لها؟

ـ لا.

ـ أتصور أن بالإمكان الرسم على بطونها، فهذه الحمير المتألقة متناسقة التكوين، عريضة البطن.. أنظر .. أنظر حسام.

نظرت أنا وحسام وكان الجميع يتهللون فرحا عندما وقعت أبصارهم على جحش صغير تصور البعض لحظة أنه يرنو إليهم فحيوه، ولكنه سرعان ما مضى يقفز، يفر ولا يستقر حاصره ثلاثة من الضباط لكنه أفلت من بين أيديهم وجرى يوزع البراءة الجميلة.. تفادى البعض واصطدم بالبعض سعيدا بالنزق الجرىء وبالرياح وبالمكان المباح.

فتح باب الفندق وتقدمت سيدة وفى أثرها عجوز يحمل آلة تصوير على حذر خطت السيدة نحو الحمير الراقدة. مرت بيدها على جسد وديع حاولت أن تجلس عليه نهض الحمار فى عجلة، حاولت أن تجلس على آخر، بينما رجلها يستعد للتصوير، هب الحمار.. تأملنا جميعا.. أعجبها واحد أشهب متألق الصبا تقدمت منه.. واجهته.. أطلت فى عينيه، تأملت الرضا المزدهر فى المقلتين. بدا عليها أنها تفهم لغته. دعته أن يطل فى عينيها. دعته إلى ذلك بالحاح، وكأنها تبحث عمن يستمع إليها ويفهمها.. عانقته دست صدرها فى جبهته.. والتقط العجوز الأشيب صورا لها وهى تحاول أن تنفذ فى الحمار المستسلم.

قالت : كم هى طيعة.. لا تفكر فى العصيان أو الفرار.

قالت العجوز : ولا فى الانتحار.

نظرت إليه السيدة شذرا وكأنها تلومه على التلميح المستفز .

أخيراً أوقف رجال المرور أرتال السيارات وأمروا رجال السوق بإصطحاب الحمير بعيدا عن طريق العلماء.

تقدم الرعاة، فهبت الحمير جميعا وقد أدركت أوان الرحيل.. تحرك الكائن الواحد الضخم المتلاطم.. أكوام من الفضة تعكس أشعة الشمس وتتقلب تحتها.

مضت الحمير عبر الجسر إلى الجانب الآخر من النيل.. تتعثر بينها الخطوات فى الزحام الخجل دون أن تلوى أعناقها وفى مؤخرة الزحف الطويل، لوحظ الجحش الغرير يبحث بين الأجساد الملتحمة عن سبيل.

هبط العلماء من موقعهم الزجاجى إلى الأرض المبرقشة بالبقايا.. بدت الأرض كجسد ممتلىء بالقروح.

اتخذوا طرقا متعرجة فى محاولة لتفادى الفضلات اللعينة.. كتموا أنفاسهم وهم يعبرون المجال الجوى المسموم دون أن تفلح مشاعرهم الودية نحو المخلوقات البدائية فى محو الشعور بالتقزز.

ومن المؤكد أنهم عبروا الطريق السريع إلى قاعة المؤتمر تملأ نفوسهم صور الحمير المسالمة.

طالعتنا وجوه المستقبلين أمام القاعة بملامح منهكة وقلقة تريد أن تنفذ إلى الأعماق وتمحو الأثر.

سألت حسام : كيف ستنقل هذه الصورة إلى الجريدة؟

قال فى لا مبالاة : لن أنقل شيئا.

قلت فى دهشة أقرب إلى الفزع:

ـ ولماذا لا تذكرها ولو بشكل عابر

تنهد وقال فى ألم :

ـ أنسيت أنى على خلاف مع سكرتير التحرير بسبب نادية. وربما لاينشر حرفا مما سأكتبه عن المؤتمر.

أكتوبر ١٩٨٣

فرح التراب

امتدت يدى إلى المعزين تشكر سعيهم.. يتمتمون بالكلمات ولا أسمع، يحدقون فى ولا أراهم.

هذا العام حصد الموت كثرة من العائلة.. عمر العمدة وخالتى بهانة وأختى ثريا وعدد موجع من الأطفال.. وفى هذا الفجر أمى .. فى هذا الفجر.. أمى.

بعد أن تنتهى سهرة الليل مع الأحياء ويهم بالتخلى عن عرشه للنهار.. يموت من يموت.

كثرة رحلوا من العائلة ولكنها اليوم أمى.. أمى التى شافت المر وظلت تبتسم فى صمت وثقة. لاتفكر إلا فى الغد وبعد الغد. لازالت تقول لى وسوف تقول، وليتنى أسمع.. سأسمع.. ليتنى أسمع.

ـ لا تنظر وراءك.. هذا هو قانون الحياة.

لعينيها لغة فريدة.. أراهما بوضوح.. تتعلق بهما غيمة متوترة يداها المعروفتان تمتدان نحوى.. طرزتهما الأيام ببعض النقوش .. طلعت على الجموع المنتظرة وخلفها طريق طويل.

مضت.. وهذا الطريق بذيلها يمضى.

الأولاد يتقافزون فى ساحة الدار.. يتسلقون الأشجار كثرة رحلوا من العائلة.. عبروا السياج المنخفض.. لم تكن فى رياض عيونهم علامات الرحيل.. تفجر رحيلهم بين أيدينا وفى الفجر أمى..

قلت لها مرة ورأسى على فخذها تعبث فى شعرى بيد تعرف الهدف :

ـ أتمنى أن أكون سعيدا.

قالت : لا تطلب كثيرا من الحاجات، ولا تبث لأحد همك.

تعودنا أن نجدها فى كل مكان بالدار.. وبالدوار وبالبلد مع أنها غالبا ما تربض فى ركنها ساكنة، أو تتنقل بلا حس.. تشفق على الملائكة.

ذهبت وهى وحدها الجميع.. وخلت الدار.

جاءنى ولدى الصغير وحط فى حجرى.. تنهدت فى صدره.. قلت له:

ـ ذهبت جدتك.

قال بلا اهتمام : إلى أين؟

هززت رأسى فى شبه يأس.. قال :

ـ هل رأيت كراستى؟

ولم ينتظر اجابتى.. هب من مكانه، وقفز صوب الدار.. لم يغب غير لحظة.. طار عائدا وقال:

ـ انظر .. أخذت نجمة وعشرة على عشرة

ربت على ظهره سعيدا بشطارته.. قال :

ـ الأبلة خلت كل العيال صفقوا لى.

فرت الدمعة من عينى وسقطت على الكراسة فرت أمى.. وسقطت فى البئر.

أسرعت أمسح دمعتى من كراسة الولد، وأبعدها عن النجمة والعشرة على عشرة.

الأولاد يتسلقون التوتة.

هزوا الفرع.. سقط التوت بوفرة غريبة.. تلونت الأرض بالثمر.. فرح التراب بالثمر.. سكنه التراب.. هبط بعض الأولاد قفزا من فوق الأفرع العالية.

خفق قلبى لهم هللوا وداسوا على الثمر ثم جروا وعبروا السور.. صممت أن أزجرهم ـ لم أستطع.. تعودوا أن يلعبوا بيننا فى الدوار الفسيح.. يضجون بالصخب ويجرون.. لايتوقفون ولا يملون.

كثرة رحلوا من العائلة.. لماذا يتفجر من تحت أقدامنا الرحيل ولا يجيىء من البعيد.. هاهو شبح الرحيل يمضى أمامى عملاقا مهيبا أسود البشرة واليدين له عينان حمراوان ونظرة قاسية.. عليه عباءة سوداء يبسطها فتطير وتلف الكون.. يعم الدنيا ظلام متوحش ويسحق القلوب والعظام ـ يمضى فوقها بلا خشوع.. ثم يلم العباءة فى قبضته ويختفى.

دار الأولاد حولى يتسابقون والضحكات تجلجل فى الدوار الفسيح.

مايو ١٩٨٤

ليلة يهودية

عدت إلى الفندق مجهدا من طول المسير وامعان النظر فى كل أثر أو جدار من جدران الفاتيكان، حتى دهمنى الصداع.. قررت أن أتناول غذائى أولا ثم أنام.

فى ردهة الفندق فوجئت بكل النزلاء بعضهم فوق بعض فى كومة واحدة، أو هى على وجه الدقة دائرة بشرية ولكنها بدورين. تذكرت الحاوى فى بلدنا حين كان ببراعة ولباقة يعد قبل أن تمارس ألعابه سورا جماهيريا كثيفا على شكل دائرة، ثم يبدأ العمل محاولا أن يشرك الناس فيما يفعل، وهو فى كل حركاته يمسك بهم ولايتركهم لأنفسهم لحظة والا انفضوا من حوله ــ وخلال ذلك كله يحصل على انبهارهم وتصفيقهم.. وأموالهم.

لم أستطع أن أرى شيئا مما يجذبهم لأنهم كانوا جميعا طوال القامة، على الأقل الذين احتلوا الصفوف الخلفية.. دفست رأسى فيما بينهم. فلم أر شيئا من كثافة الزحام. اعتذرت للبعض وواصلت زحفى إلى أن طالعنى وجه السادات.. عاجلنى السؤال، وما الداعى أن يتجمع حوله كل هؤلاء الناس.. كان السادات يلبس حلة بيضاء مرصعة بكل نياشين وأوسمة العظماء.. والقمر الصناعى ينقل كل مايجرى إلى العالم أجمع.

حينما تبتعد الكاميرا عن وجهه، يستطيع المرء أن يميزه بوجهه المعتم الذى يشغل المسافة بين غطاء رأس ضباط البحرية والحلة البيضاء وتحتها الحذاء الأبيض.

إلى جواره بدا ضيفه الوحيد الطفل الإيرانى ولد الشاه..

تذكرت أن اليوم هو الخامس من يونيو ١٩٧٥ .. استقل السادات وضيفه الصغير لنشا بحريا بمناسبة اعادة افتتاح القناة ومن حوله عشرات الزوارق والسفن الصغيرة واللنشات تحمل الجماهير.. تتزين بالأعلام والورود ولافتات تهتف بعبارات التهنئة والترحيب.

كان الجميع يزغردون فى ليلة زفاف القناة، وكانت هى تتألق بصباها المديد ومجدها العائد. مهرجان كبير يستحق أن يتفرج عليه كل إنسان إلا أننى لم أجد فيه مايبهر، فالطعام الآن والراحة أجدى.

لم أجد أحدا فى المطعم ولاحتى الطهاة، خرجت وتناولت طعامى فى الخارج على عجل. ولم أتوقف فى الطريق الا لاطلالة، على الصحف والمجلات، وراعنى أنها جميعا تعلق صورة السادات على صدرها.

عدت إلى الفندق وتمددت على السرير فى انتظار النوم الذى يتعين عليه أن يداهمنى بلا رحمة.

منذ أن وصلت إلى روما لم يقع بصرى على امرأة عادية، أو غير ملفتة للنظر. كلهن جميلات وأكثرهن باهرات الجمال، قطع من النور والحيوية والتألق.. شموس صغيرة تتسكع فى الطرقات وتنتقل بين الأركان وتقف على محطات الترام.

كل الشوارع تحتشد بهذه المخلوقات التى ليست غير بطاقات دعوة للحب والفتنة، بل أنها دعوة للتفكير من جديد فى الاعتقاد الدينى السائد أن الإنسان مخلوق من طين، وهل هو طين واحد خلق منه كل البشر.

لم أعد استطيع السير بشكل منتظم نحو هدفى.. تحولت إلى إنسان آلى لايهمه سوى الجمال ويحرص على أن يطل فى كل وجوه النساء.. تجذبنى الجميلة إلى هذا الطريق فأمضى وسرعان ماتأخذنى الأجمل إلى طريق آخر.

سألت نفسى عن سر تبلد الرجال الإيطاليين فى هذه الأيام.. كيف يستطيعون التماسك بهذا الشكل الزائد عن الحد ازاء البهاء الذى يميز بنات روما، كيف لايصابون بالجنون أو حتى بالفشل والتدهور.

كان أجدادهم من الحرارة والصدق مع النفس بحيث أفضى الأمر فى عهدهم إلى سقوط الإمبراطورية الرومانية، ولعل نيرون نفسه أقدم على حرق روما لهذا السبب.. الحق أن الرجال لم يكونوا كلهم متبلدين لأن الشوارع كانت مطرزة بالفتنة والفتيات، يتلاثمون فى الأركان وعلى الحوائط وفى كل وسائل المواصلات وفى المقاهى والحدائق والميادين.. وفى المتاحف، ومثل ذلك فى البحر حيث الزوارق وتحت الجسور.. ومؤكد أن مثله يجرى أيضا فى الجو.

راجعت نفسى فيما أراه.. ألست مبالغا فى نظرتى؟.. أليس قدومى من ليبيا مباشرة إلى روما بعد فترة عمل صعبة فى صحاريها تجاوزت عاماً ونصف عام هو السبب فى انبهارى؟

أليس انتقالى من صحراء لازرع فيها ولانساء وحياة لاتعرف إلا الرمال إلى عالم مزدهر بالجمال والحب مفعم بالربيع مبررا قويا لدهشتى؟

لقد رأيت عددا قليلا من النساء فى بلاد البترول، لكنهن جئن فى الأغلب من بعض الدول العربية والأسيوية مع أزواجهن أو بدونهم طلبا للمال اللعنة.. وهل تسافر الجميلات سعيا وراء المال!

جئت إلى هنا لقضاء ثلاثة أيام ولابد أنها ستمتد لعشرة، ويبدو أن الأوضاع سوف تنزع عنى جديتى السقيمة، ولابد أنى مضطر أن أبحلق فى كل شئ، وليس فقط فى لمسات الفنانين العظام التى تحتشد بها المتاحف والكنائس.. على أن أرحب بكل شئ فيه اكتشاف للحياة، التى عشت طويلا أتحاشاها وأتجنب اغراءاتها مكتفيا بالكتب.

آمنت مبدئياً بأنى لست ملكا لنفسى تماما.. أننى ملك للظروف بدرجة كبيرة.

* * *

لما صحوت من نومى لم أشأ أن أذهب إلى أى مكان غير المقهى الذى رأيته فى ميدان فينسيا.. يمكننى من خلال موقعه الفريد أن أرقب الجميع.

الدنيا صيف.. المقهى مفتوح على الميدان.. الكراسى نصف شاغرة الشمس حريصة على أن تبعث بأرق أشعتها وهى توشك على الرحيل ــ نسمات ناعمة تصافح الوجوه المبتهجة، والوجوه كلها ـ لاأدرى لماذا ـ مبتهجة ومقبلة على الحياة.

طالما أنا فى المقهى لن أشبع من الفرجة، كل شئ جدير بأن أحدق فيه بعيونى الشرقية الظمآنة، وأفكر فيه بعقلى الشرقى المكمور.. أمامى مباشرة نصب الجندى المجهول، نصب ڤيكتور عمانويل الثانى.. مبنى أبيض رحب. تكاد جدرانه المرمرية تضئ وحدها ولو لم يمسسها نور الشمس.. مجموعات التماثيل التى تزين النصب وتتوزع على أربعة مستويات متدرجة تشكل عالما مكللا بالعظمة والجد.. التماثيل غاية فى الدقة.. أبدعها لاشك فنانوها بمزاج ومتعة وحب.. كل مجموعة على مستوى ماترمز لسمة من سمات ايطاليا التاريخية والدينية والسياسية، ومهما اختلفت المذاهب وتعددت الفرق فإن الكيان الفنى المتكامل يحتضن الجميع، وكما هو رمز لإيطاليا فى تشكيله الخارجى فإنه يمثل أعماق إيطاليا أيضاً فى محتواه، إذ يضم المبنى المكتبة والأرشيف والمتحف ومعهد التاريخ الإيطالى.

على اليسار مبان عتيقة تصطف على أسطحها تماثيل صغيرة، وعلى اليمين مبنى وقور، منمق فى حدة ـ أنه قصر فينسيا الذى كان مقرا للحكومة الفاشية حتى سنة ١٩٤٣ ثم أصبح متحفاً.

الميدان النظيف المتألق بكل مافيه صورة موحية بالفن والاحساس بالجمال، تحملك على أن تشعر بالخوف على كل هذا من أى اساءة، بل من أن تلمسه يدك.

بكل رهافة تمتد يدك وبكل رقة تنظر عيناك، وبكل الحب تفكر فيها وفيما سواها، وتنحنى، وتتضاءل، وتنسحب إلى داخلك حتى تلامس بطنك ظهرك.

تسلل إلى شعور بأنى فى حالة حب وأن سعادة غامضة فى الطريق إلى.. ألحت على رغبة متحمسة أن أطلب زجاجة بيرة.. يجب أن أتمرد قليلا، وأفسد بعض الوقت، أنا هنا وحدى، وقد جئت خصيصا لكى أعرف وأتذوق، لم أمتلك الشجاعة يوما لأجرب فى بلدى.

هل ستدور رأسى؟ وماذا لو تدور.. فلنجرب.. ليتنى ألاحظها وهى تدور، ربما يختل توازنى إذا حاولت الوقوف وقد أقع.. لماذا أتوقع أن يحدث كل هذا؟.. الناس يشربون أمامى أكثر من زجاجة ثم ينهضون كالخيول.. ولم أر أحدا ذهب عقله أو اختل توازنه.

أشرت للمتردوتيل ولما جاء طلبت منه زجاجة بيبسى كولا، كان المقهى يزدحم بسرعة.. على بعد منضدتين جلس رجل عريض الصدر، أصلع وكبير الرأس، على عينيه نظارة طبية بيضاء، ويبدو أن إحدى عينيه من زجاج.

كان ينظر نحوى. أطلت النظر إليه. انشغل بوضع سيجارة فى مبسم.. أشعلها وعاد ينظر إلى.

لم أشعر بارتياح لرؤية وجهه الضخم المستدير الأحمر، ونظراته المريبة المصوبة نحوى، داهمنى شعور بالقلق حين تذكرت فجأة تعرض بعض العرب للاعتداء على يد اليهود المتطرفين فى أوربا وخاصة فى أعقاب حرب ١٩٧٣.

شغلت نفسى بمص البيبسى من العلبة، إلى أن أشرقت على المقهى فتاة وأى فتاة.. آية فى الجمال.. سحر.. فتنة.. غواية، لو حكمت شعبا لعبدها بأكثر مما تعبد الشعوب المتخلفة حكامها. سبحان الخلاق الذى أبدع الجمال من الرأس إلى القدم.

شعر يتدلى على جانبى وجهها أسلاكا من الذهب، وجه مرمرى يتفجر منه الدم.. ملامح دقيقة ومنسجمة، عينان خضراوان واسعتان ترتدى بلوزة بيضاء فضفاضة، تتجمع عند الخصر الرهيف، على جانبى الصدر وردة صغيرة حمراء يحملها غصن أخضر يمتد إلى نهاية البلوزة وتنتشر حول الوردة أوراق نضرة.

تلفتت فى المقهى الكبير تبحث عن معقد، استدارت نحوى وتقدمت بخطوات رشيقة وجسد أبدعه الله بصبر، كانت إلى جوارى منضدة خالية، جلست بالطريقة التى تجلس بها الملكات[1] على العرش، وأين هى الملكة التى تفوقها حسنا وشبابا، يكفى أنها تبعث الأمل فى قلب كل من يرنو اليها وتدفعه للحياة.

تساءلت عن السر فى أن أحدا لم يكن ينظر إليها غيرى، لم يكن معها. غير علبة سوداء صغيرة وسلسلة مفاتيح.. تطلعت إلى الرعية فى بهاء، ثم فتحت العلبة الرقيقة السوداء. أخرجت منها سيجارة. تمهلت قليلا، وعادت ترنو إلى الرعية، كنت أقرب الجميع إليها.. أنظر إليها مشدوها.. قررت ـ مادامت قد جلست بالقرب منى ـ أن أخصص

(١) أنا لا أعرف ماهى هذه الطريقة، ولكنى أتصورها كذلك.

الليلة للتفرج عليها.. الليلة ستكون لها ولن أنظر إلى غيرها.. سأظل أحدق فيها، أزن كل حركة وأحلل كل نظرة وكل كلمة وكل إشارة.

نهضت فجأة وأنا معلق بها وأصبحت فوق رأسى، تقول بالإيطالية، والسيجارة فى فمها والعة.

ـ هه.

ـ ولعة.

نسيتها لحظة وأخذت ألعن كل من حذرنى من التدخين، ماذا لو دخنت عمرى كله لكى أسعد بلحظة كهذه، أظل نحو خمس ثوانى أنظر اليها عن قرب بينما أشعل لها السيجارة.. التدخين سلوك جذاب ويعرف بالأصدقاء.

اعتذرت لها فمضت عنى إلى الرجل الأصلع، انحنت عليه فأشعل لها سيجارتها.. قدم فى غيابها شابان وفتاة، جلسوا فى منضدتها، ولما عادت ترددت لحظة وقد رأت المنضدة مشغولة، ثم طلبت منى أن أسمح لها بالجلوس فأسرعت بالسماح، وقد أدركت أخيرا أننى برغم كل ظروفى من المسعدين..

اكتشفت أن التدخين فعلا أسوأ شئ فى الدنيا، فلو كنت أدخن لأشعلت سيجارتها وظلت عنى بعيدة، أما الآن فليس بينى وبينها غير سنتيمترات.

تطلعت إلى اللوحةالمتكاملة الروعة.. هى أمامى، وخلفها نصب عمانويل الأبيض وعن يمينها الطريق الفضى إلى الكلوزيوم الذى تبدو من بعد بعض جدرانه المتآكلة.

تحولت إلى وقالت:

ـ أنت لست إيطالياً.

فرحت بالمفتاح الذى التقطته لتبدأ حديثا معى، ولم أخجل لخيبتى قلت لها: كشفتنى لغتى المحطمة.

ـ ليست سيئة جداً.

ثم شردت، فخشيت أن يكون الحوار قد انتهى.. قلت:

ـ ولكنها سيئة.

قالت ببساطة وهى ترنو فى اتجاه الرجل ذى العين الزجاجية:

ـ شهور قليلة تمكنك من نطقها بدقة.

ـ لاحظت ذلك فعلاً خلال الأيام القليلة الماضية.

سحبت نفساً من سيجارتها وقالت قبل أن تنفثه:

ـ متى وصلت؟

ـ منذ أربعة أيام.

ـ هل ستبقى طويلا؟

ـ عدة أيام أخرى.

مالت نحوى وقد انتشر على وجهها مشروع ابتسامة صافية، ثم قالت ببطء: هل استمتعت بوقتك؟

من كل قلبى قلت: جداً.

ـ كيف؟

ـ لقد زرت أماكن هائلة الجمال، وكان يكفى أن أمر فقط بالميادين.. سواء أسبانيا أو ناقوتا.. منيرڤا أو كلونا.. رأيت فيللا بورجيزى ونافورة تريفى.. والفاتيكان معجزة بكل معنى الكلمة..و..

ـ كان الرئيس الأمريكى «فورد» هناك بالأمس.

ـ لذلك أجلت زيارتى إلى اليوم

ضحكت بصوت مسموع، وتفجر جمالها مع ضحكاتها، لكننى كنت مستفزا ويبدو أنها أدركت ذلك فقالت:

ـ صحة البابا لاتساعده أن يستقبل رئيسين فى يوم واحد فهمت وضحكت بلا حماس، لكننى كنت فى الحقيقة فرحا لأنها تضحك.

ـ هل قابلت «البابا» اليوم؟

ـ وهل هذا ممكن؟

ـ نعم ولكن طبعا بموعد

ـ إذا حدث أن قابلته فماذا أقول له؟

انفجرت بالضحك، وتبعثرت جلستها حتى كادت تنقلب على ظهرها.. التفت نحونا بعض الرواد. لمحت الرجل الأصلع يصب نظراته علينا.. نظراته ثابتة وملامحه جامدة.. بدا كتمثال شخص يستعد للانتقام.

أحسست أن هذه الحسناء تجد سعادتها ولذتها فيما أقول، ويبدو أننى أخرف.. تساءلت وأنا أنظر إلى علبة البيبسى، أيكون مابها خمر شربته دون تمييز.. فلماذا تضحك إذن؟

حسن أن أكون سبباً فيما نالته من ترويح، ولكن ماذا قلت؟ رنت إلى بطرف عين.. اكتشفت مابداخلى، أو كشفتنى ملامحى، كان شعورى مزيجا من الغضب والخجل والحيرة.. لم أحسم أمرى.. سكنت فجأة واعتدلت في جلستها، وكأنها ضبطت متلبسة بالخروج عن الأدب، أطفأت نصف السيجارة.. رفعت عينى إليها.. نظرت إلى باحترام وود.

سألتها: ماذا تشربين؟

ـ يكفى كوب من البيرة

حدثت نفسى.. لابد الآن من شرب البيرة، ناديت المتر وطلبت زجاجتين.. سألتنى: من أى بلد؟

عادت صورة الأصلع ذى الوجه المستدير تهاجمنى، وقد بدا وراءه بكل غلظة مبنى الحكومة الفاشية.. تذكرت من جديد حوادث اعتداء اليهود على بعض الشخصيات العربية.. الحرب.. السادات ومعه الطفل الإيرانى والإيطاليين الذين يتفرجون على صورة السادات فى التليفزيون وعند باعة الصحف.. ويتأملون لفترة طويلة وجهه على أغلفة المجلات.. يضحك وأسنانه بارزة، ما الذى يحاولون اكتشافه؟

أعادت سؤالها: من أى بلد؟

ـ من إيران.

ـ هل يمكن لأى شخص أن يسافر إلى إيران؟

وخشيت أن تحملنى الكذبة إلى مناطق مجهولة، فقلت:

ـ ولماذا إيران بالذات؟

ـ أريد أن أترك أوربا وأعيش فى بلد شرقى.

ـ نحن نترك بلادنا لنأتى إليكم، وأنتم تريدون الرحيل عنها، والعيش فى بلادنا.

ـ مهما طالت إقامة بعضكم فى أوربا فإنكم عائدون، والعودة دائما إلى الشرق أمنية حتى لأبنائه.

ـ الشرق فى معظمه تخلف.

ـ من قال هذا؟

ـ أنا.

ـ وأنا أقول لك لا.

ـ لاتحكمى على شئ لم تعرفيه.

ـ بل عرفته..

جاء المتر ووضع الزجاجتين وكأسين، ملأتهما وتجرعت كأسى ثم ملأتها من جديد وسألتها:

ـ هل ذهبت إلى بلد شرقى:

ـ ذهبت إلى إسرائيل.

تريثت لحظة وكأنى أسمع عن دولة لا وجود لها، لم يكن اسم هذه الدولة قد ورد بخاطرى على الرغم من أنها كفكرة ملعونة لاتبرح رأسى.. أدركت أن بابا جديدا فى الحديث قد فتحناه على مصراعيه وعلى أن أستعد.. لن أقرب هذه البيرة.. سألتها:

ـ ولماذا إسرائيل بالذات؟

ـ فيها أهلى وأقاربى.

ـ هل أنت يهودية؟

ـ نعم.

طارت منى نظرة إلى الرجل الأصلع، فوجدته كما عهدته.. تمثال لاينظر الا إلى. وكأنه جهاز مثبت نحوى، نظراته تدور حولى، ثم تلتف وتمضى داخلى بنعومة كالخدر.

زاد قلقى بنسبة وتوجست، اللعبة تتم بلا أسرار، أوراقها غير مقلوبة، وكلها فوق المنضدة.. استردتنى اليها قائلة:

ـ لم يكن هناك فارق كبير بين اسرائيل وأوربا، على العكس كانت المشاكل أكثر وعلامات الاستفهام بلا نهاية والجميع غرباء.. لم تدم اقامتى أكثر من خمسة أشهر.

ـ هل تكفيك شهور خمسة كى تكتشفى مالا يسرك؟

ـ أنا أكتشف بسرعة.

ـ ألست هنا مع أسرة؟

ـ لا.

ـ والعمل.

ـ فى شركة كوك للسياحة.

ـ ولماذا لاتكونين أسرة؟

ـ أجريت تجربة غير موفقة

ـ هل كنت تبحثين عن الحب؟

ـ الحب ليس مهما.. المهم توافق عناصر أخرى.

ألقت فى فمها كأسا من البيرة وملأتها لها.. أشعلت سيجارة وارتاحت فى جلستها أكثر.. بدت كأنها تتأمل العالم وتزنه، بينما تدخن بعمق ولذة، نظراتها شاردة.. احترمت حضورها المسافر. انتهزت الفرصة كى أتأملها.. لم تكن لدى الفرصة وأنا أحدثها، كنت مشغولا باللغة.. بالبحث عن الكلمات وتجميعها فى جمل.

كان شعرها يتمدد على كتفيها وصدرها، كأنه يقوم على حراسة الوجه الجميل.. فى وسط الوجه تتألق العينان والأنف المدبب فى شموخ كالمسلة المصرية فى قلب الفاتيكان.. والفم صغير وشامة إلى اليمين قليلا تحت الشفة السفلى.. فى دفعة واحدة ألقيت بجوفى كأس البيرة الذى انتظرنى طويلا.

دنت منى قليلا ونظرت إلى، فهمت أنها تدعونى أن أقترب ففعلت.. فتحت أذنى وعينى، قالت:

ـ هل تحب أن تقضى وقتا ممتعا؟

سألتها فى شبه ترحيب:

ـ كيف وأين؟

ـ فى الفندق الذى تقيم فيه.

ـ إنهم هناك يتفرجون على «السادات».

ـ هذا مناسب.

ـ لاأفهم.

حدقت فى وجهى بحدة وكأنها تلومنى، تمهلت قليلا ثم قالت:

ـ ألا تود أن تمارس الحب؟

الحب.. أى الجنس.. غير معقول.. هل هذه الفتاة النادرة.. يمكن أن.. مستحيل.. هذا الوجه المضيء الذى خلق للعرض.. فقط.. هذه التحفة التى يكفى النظر إليها كى تتحقق سعادة البشر المستحيلة تعرض على أن..

أدركت فجأة أن أيامى الماضية كانت مثقلة بالبلاهة والعفن والدخان، وأن هذه البلاد تريدنى وتراودنى. ترحب بى وتتشبث حتى لو لم تفهم ثرثرتى الفارغة، أما أنا فأفهم ولو بالجهد كلامها النادر. تجذبنى هذه البلاد إليها.. تفتح لى بابا فبابا.

ـ لم أفهم بالضبط ماتقصدين.

ابتسمت ونظرت إلى فى حنان.. فضحت ابتسامتها ونظرتها مافيها من الرثاء لحالى.. قالت: هل تعرف الفرنسية؟

ـ قليلاً.

ـ هل يمكنك أن تفهم بها؟

ـ ممكن.

ـ وهل تعرفينها؟

قالت بالفرنسية: هل تود أن تمارس الحب معى؟

فهمت بوضوح ماتقصد.. ياناس غير معقول ماتدعوننى إليه.. قلت لها.

ـ لم أفهم تماماً..

هل تعرف الألمانية؟

دهشت لهذه الثقافة اللغوية ولم أخف فرحى لأنها تحاول معى كى أفهم.. قلت:

ـ إلا الألمانية.

ـ الروسية إذن..

ـ وهل تعرفينها؟

ـ ما يفى بالغرض.

عادت تبحث عن إجابة، وقد بدا أن المسألة ليست عبثا كما أتصور.

ـ وأنا فى الروسية بالضبط كالألمانية.

ـ لم يبق غير الأسبانية والإنجليزية.

ـ لازالت هناك لغات كثيرة.

ضحكت على مضض وهددتنى بعينيها،فخشيت المرأة العالمية.

ـ لم تجبنى.

ـ لتكن الإنجليزية.

ـ إذا لم تكن تعرفها سأنهض.

ـ أعرفها .. أعرفها.

غرقت فى الضحك من جديد بينما هى جادة ومتربصة بى، لن تتركنى إذا لم أفهم، ولكنها ستنقض على وتخنقنى، وأنا «مزقطط» وفرحان باللعبة الغريبة، والدهشة فى الحقيقة هى أصل كل ما أنا فيه.. عالم غريب.. كل هذا الجمال يطلب إلى أن أوقع عليه بإمضائى والفضل لكأسين صغيرين من البيرة.

قالت ما قالته سابقا، ثم سألتنى:

ـ هل فهمت؟

أنقذتها من الضيق وأنقذت نفسى من فراقها.

ـ نعم فهمت.
ـ يمكنك أن تدفع ثلاثين ألف ليرة.
ـ أنا!
ـ لا .. أنا.
ـ المفروض ـ سأنهض.
ـ لقد كنت تضحكين منذ قليل وأنا.
ـ وأنت الآن تضحك.

تحسب أنى أستهين بها.. أنا فقط غير مصدق، كلما مضت فى تفاصيل الصفقة، كلما أسرفت فى عدم التصديق، وهذا سر ما يعترينى ـ لم أستطع أن أقول لها ذلك

ـ هل توافق على الثلاثين؟
ـ فى الليلة!
ـ كثير؟
ـ حتى الصباح؟

ضحكت هى هذه المرة، وبدا عليها أنها أخيرا تأكدت أننى أعبث، ولم تجد مايبرر ألا تعبث هى الأخرى.. سألتنى بعين متحدية:

ـ وهل تقدر؟

ـ لا.

ضحكت وعدت أضحك أنا أيضاً . لأنى تصورتها راضية بالحوار، فعلى افتراض أنها لم تعثر على زبون الليلة، فقد استمتعت بالحوار مع أبله لا يقدر قيمة النعمة التى هو فيها.. أخذت كأسا وأخذت.

كنت أود أسألها.. لماذا اختارتنى أنا بالذات لهذه المهمة .. ما الذى يرتسم على مظهرى حتى دفعها لأن تعرض على أنا دون رواد المقهى المزدحم أن أمارس معها الحب،

وأنا أعرف أن منظرى لا يغرى أبدا بذلك، هل هى مجرد مصادفة؟.. أو بحكم وجودى معها على منضدة واحدة.. من الذى اختار الآخر؟

أنا الذى يتعين عليه أن يجيب، لقد اختارتنى اليهودية.. ها هو الرجل الأصلع، وها هى ليلة حمراء يشعلها الدم.

قررت ألا أعود إلى البيرة. ما الذى يحاك ضدى.. علم ذلك عند ربى.. لكننى أريد هذه اليهودية مادامت لا تمانع.. فهل أريدها لأنها جميلة أم لأنها يهودية؟.. ماكل هذه الأسئلة؟.. انك لم ترد شيئا وإنما هى التى أرادت ورسمت، وأنت لاتملك إلا الموافقة.. لا .. أنا أوافق لأنى أريد.

أريد هذه اليهودية بالفعل.. لابد أن أريدها، وليس عندى الآن رغبة إلا فى هذه اليهودية بالذات.

ـ هل تجيئين كل يوم إلى هذا المقهى؟
ـ غالباً.

واستدركت: فهمت قصدك.. ربما لا تصدق اذا عرفت سبب قدومى.
ـ قولى سأصدق.
ـ أريد أن أتزوج.
ـ وهل تبحثين فى المقهى عن زوج؟
ـ التفاهم فى ممارسة الحب هو أهم سبب لنجاح الحياة الزوجية.
ـ هذا إذن التفاهم الذى كنت تقصدين.
ـ نعم.. لابد أن اختار زوجى بعد أن نتفاهم، ولا تشغل بالك بغير ذلك من عوامل، كالعلم والمال والأهمية الاجتماعية.
ـ رائع.. ولن تعثرى بعد على من يصلح زوجاً.
ـ لا.
ـ واذا حدث أن وجدتنى صالحاً.
ـ هذا لم يتحدد بعد.
ـ افرضى.

ـ أتزوجك.. هل تمانع؟

ـ أنا مسلم.

ـ لا يعنينى.

ـ وأنت يهودية.

ـ لا يعنينى.

لايزال يرقبنى بثبات غريب.. قلت لها:

ـ سيكون هناك دوماً من يعجبك، ولكنه يرفض الزواج.

ـ لست فى عجلة.. سوف ألتقى يوما بمن يوافق، وحتى لو لم أجد، المهم أن هذه هى الطريقة المناسبة.

مؤكد أن هذا الرجل الأحمر ذا العين الزجاجية له علاقة بهذه اليهودية..هذه اليهودية تلح بشكل مخيف ومرعب، وهى أيضاً جميلة بشكل باهر، والندم سيلاحقنى العمر كله لو انسحبت من التجربة.. الصهاينة لا تنتهى حيلهم.

كيف أقبل أن أسعى بقدمى إلى الشرك المعد، تلفت حولى كأنى أبحث فى الأفق عن دليل.. لقد انطفأ النهار، واشتعلت الأضواء بالفرح، وعمانويل الثانى يركب حصانه، وإيطاليا كلها حوله فى الموكب الأبيض، وأعلى النصب تتحفز أربعة جياد على اليمين، لجر عربة الوحدة وأربعة جياد لجر عربة الحرية على اليسار، وعلى كل عربة قائد ذو أجنحة.. من تراه يسبق الوحدة أم الحرية.. أم هما معاً.

كانت السماء لاتزال هناك.. معتمة وخالية من أى نجم، تحلق فيها سحب تأخذ أشكالا فنية رائعة وتلقائية، تتحرك فى نعومة وتعيد التشكيل بسحر خاص لا يسمح بالانصراف عنها.. بدت السماء كما لو كانت سقفا لكنيسة، وقد استعرض الفنانون عليها أجمل ابداعاتهم قالت:

ـ هيا بنا نذهب.

ـ إلى أين؟

ـ إلى الفندق الذى تقيم فيه.

تمهلت لحظة وسألتها:

ـ ألست تقيمين وحدك؟

قالت وعلى شفتيها بسمة مشجعة:

ـ الأفضل فى هذه المسائل أن يكون المكان لك..

دغدغتنى صراحتها فاندفعت قائلا:

ـ هل تلعب الأرض معى؟

ـ نعم.

عدت إلى الأصلع القمىء أو عاد إلى.. لابد أن أبتعد عن هذا الرجل وخروجى الآن سيحدد موقفه.. انقذتنى من أفكارى .

ـ هيا بنا.

نهضنا واقتادتنى إلى سيارة صغيرة جدا ومستديرة، قبل أن أنثنى وأدخل تطلعت ورائى.. كان الأصلع الضخم واقفا يصوب نظراته علينا.. ما أضعفنى.. بل ما أضيعنى!

دخلت السيارة كأنى يد تختبأ فى قفاز، إنها يهودية ولابد أن أمضى فى الشوط إلى نهايته، حتى لو لم تكن على هذه الدرجة من الجمال والعذوبة.

نظرت إليها فابتسمت.. كانت ملامحها توحى بأنها عادت بصيد ثمين.. بى رغبة خفية ومجنونة أن أعرف هذه اليهودية، ربما فضولى الذى يسحبنى كالثور إلى ميدان المصارعة.. لقد نزل الزورق إلى الماء الهائج والأمر متروك للموج.

لم تمنعنى خواطرى التعسة من المضى فى طريقى متعلقا بالعربة المندفعة دون أن أعبأ بالاتجاه المجهول.. الأمر يبدو كما لو كان مرتبا من قبل جهات عليا.. عليا جدا.. تدفعنا وتراقبنا.

بأناقة وثقة أشعلت اليهودية سيجارة.. أخذت نفسا عميقا ممتدا ومشتاقا.. نفثت كمية كبيرة من الدخان.

بعد عدة شوارع توقفت أمام ڤيللا مظلمة.

ـ هل تسكنين هنا؟
ـ نعم
ـ ولكنها ڤيللا عظيمة.
ـ وأنا أيضاً.

لم تقصد إلى البوابة الرئيسية المكبلة بالحديد، توجهت إلى باب حديدى صغير فى نهاية سور الفيلا.. ضغطت زراً فأضاءت لمبة وبدأت تخطو فوق ممر من الخضرة على جانبيه شجيرات تتوجها أزهار ملونة.. تبعتها .. مضى الممر بها وبى إلى ما وراء القصر الكبير، قبل أن يغيبنى القصر نظرت خلفى، لم يكن ثمة مخلوق.

نادتنى.. تبعتها.. ضغطت زرا فازدهر المكان بالنور.. كان هناك مبنى صغير، دخلت وأنا فى إثرها.. انحنت على الأرض والتقطت ورقة وضحكت.

ـ ماذا هناك؟
ـ صديقتى التى تقيم معى، لن تبيت الليلة هنا.
ـ هل تسكن معك أخرى؟
ـ أنا الذى أسكن معها، أنها زميلتى فى الشركة
ـ وهذه الڤيلا؟
ـ ڤيلا عمها وهو رجل أعمال كبير، جذبه العمل منذ سنوات إلى أمريكا وكندا، سمح لها بالإقامة فى هذه الدار الصغيرة.
ـ وهى سمحت لك؟
ـ وأنا سمحت لك.

فى أول كرسى قعدت.. كنت أشعر بحاجة ماسة إلى الجلوس، وكنت أشعر بالظمأ والبرد.

ـ هيا.. خذ لك حماماً ساخناً.
ـ لقد اغتسلت قبل لقائك مباشرة.
ـ سوف أعد بسرعة طبقين من المكرونة.
ـ كوب من الماء المثلج الآن أفضل.

جاءتنى بكوب طويل من الماء ومضت إلى الداخل.. أسرعت إلى باب الشقة فأغلقته بالمزلاج والمفتاح من الداخل، شعرت ببعض الراحة رغم ما كنت أجتازه من دروب مخيفة، وما كان ينتابنى من هواجس.. لطالما ألقيت بنفسى فى المآزق، ولكن كانت هناك دائما عناية الله.

وهى تعبر حجرتها إلى المطبخ فى بلوزة قصيرة وشورت قالت :

ـ استرح بالداخل وتخفف.

دخلت حجرتها أفرغت كل جيوبى من الأوراق والنقود ووضعتها على سطح الدولاب بعيدا عن أى يد أو عين.. تخلصت من الحذاء والجوارب.. تأكدت من أن النافذة مغلقة.

سألتنى من المطبخ : ما اسمك؟

لا يجب أن أذكره.. أجبتها بلا جهد :

ـ صادق.. وأنت.

ـ مارى.. مارى ويزل.

وجدت على منضدة صغيرة عدة كتب.. قلبت فيها، رواية لكاتب إيطالى اسمه دينو بوتزاتى ورواية يبدو أنها جنسية لكاتبة فرنسية اسمها مونيك لانج.. فتحت دولابها.. بعثرت نظراتى فيه بلا عناية .. أغلقته.. مضيت إلى الحمام.. تأملته وأنا أتخلص من البيرة .. مررت عليها بالمطبخ ودارت فيه نظراتى.. كانت تعمل بحماس ورشاقة وفخذاها المرمريان يتألقان أسفل «الشورت».

ـ تعال.

ـ لا أحب المطابخ.

عدت إلى حجرتها، وفى الطريق فتحت باب غرفة صديقتها، لكنى أسرعت فأغلقتها وتمددت على السرير.

لقد كان ثمة إلحاح يبقينى هنا فى قلب المعركة، على أمل أن أذوق طعماً خاصاً وفريدا للتجربة.

تقدمت إلى ساحة العرش الممتد بأبهاء روما، قلبى يدق، لكنى أتقدم.. قلبى يحدثنى بقرب النهاية المفجعة، هأنذا ألين لها وأستسلم.. فلتكن النهاية ما تكون.. يكفى أن أتخلص من اعتيادى لون الأيام الصدئة وطعم الأحلام الخرساء والدوائر المرسومة، لتكن النهاية ماتكون، لكنى أخشى على أمى المنتظرة من سيف الصدمة.

ـ اختفى ولا أثر له.

ـ ولدى.. كبدى.

ـ طفت جثته على النهر.

ـ روحى وضناى.

ـ وجدوه مقتولا بغرفته بالفندق.

لن تنطق حرفًا.. ستموت على الفور.. لا.. اطمئنى يا أمى ولا تقفى أمام الأيام المجلوة.. روما مرآة تعكس قلب الشمس.. روما كأس ذابت فيه تواريخ الكواكب.

مضت الأفكار تطارحنى التأمل..

تذكرت قريتى المسكينة التى تقبع راضية أو مكرهة على بعد من المدينة مقداره خمس كيلو مترات من التراب.. طال دورانها حولى والحاحها على.

أيتها القرية الطيبة..

يا أطيب قرى العالم.. أرجو أن تصرفى عنى الآن تذكاراتك الأثيرة.. اطمئنى فمنقوش فى صدرى إلى الأبد عرق حواريك المظلمة وصنفصافتى وأرضنا الصغيرة والبهائم وأكوام السباخ والطيور الوديعة والأشجار الحنون.

حصى السيجة وزفة المولد والعيش السخن ومقام سيدى أبو نوار.. حياء النساء وأسرارهن.. حكمة جدى وسيرة عنترة والهلالية وبيبرس وهوجة عرابى ومشية أبو قردان وتوتر الهدهد وقفز الأرنب وصوت الخفافيش فى الطاحونة المهجورة وزحام المتسولين أمام السيد والسيدة اطمئنى فما زالت بأنفى طيوب المساجد وأمام عينى الآن قدما أبى المشققة وديوكنا الرومية تتهادى فى صحن الدار وضحكاتها المتغطرسة تجلجل إذا الصمت ساد، وألفونس الذى كان فى رمضان يصوم معى.

يا صاحبة القلب المتأجج دوما بالشوق إلى الأحباب.. لاتخافي.. لن تحرضني البيضاء الجميلة عليك.. ولا تخشى على من دهشتي، أنا كما عهدتني أسلمها لله فسلميها.. خلى الآن ما بيني وبين التجربة. لن أقطع حبلى السرى، ولو حاولت لا ينقطع.

وجهك لا ينطمس، ولا تعلوه كتابة أخرى غير ما كتب الاله في الزمن الوليد فاطمئنى.. قد يكون في الرجوع إليك أمان من مهالك، ولكن فيه الندم، وأنا كما تعلمين لا أطيق الندم.

هذا أنا كما أردت، أنت صنعت بي ذاك الولد.. ساذج.. متوجس.. مرتعد.. يخشى على القلب من حرق الثياب..

(سمعت صراخ اللحم المستجير.. بلغت أنفى رائحة الشواء..) كيف حالهم في مصر.. أمي وأبي وأخوتي.. هل تراها آخر مرة يخطرون ببالي، لم أشتر بعد الهدايا الواجبة.

ظهرت أمامي فجأة تجفف يدها في منشفة ملونة، ابتسمت وهي تقول : أرأيت .. لقد انتهيت.

ـ برافو.

كان إلى جوارى دينو بوتزاتى.

ـ هل تحب القراءة؟

ـ نعم.

ـ أى لون من الكتب؟

ـ أى لون يضيف لى معرفة بالنفس البشرية.

ـ هذا ليس فى الكتب.

أيدتها وحسدتها على اجاباتها الجاهزة.. ولكن ماذا أفعل وأنا مغرم بالكتب.. تذكرت من جديد أنها يهودية.. وتمثل لى الرجل الأحمر ذو العين الزجاجية.

ـ دقائق فى الحمام وأكون بعدها معك.

مضت إلى الحمام وأسرعت أنا إلى المطبخ، فأخذت سكينا وضعته فوق سطح الدولاب مع الأوراق، لم أشأ أن أضعه تحت الوسادة فالعثور به سهل.

طلعت على فى قميص قصير شفاف، لاشيء تحته إلا الجسد المتألق.. كانت نظرة واحدة إلى الصدر المستبد كفيلة بطرد الأفكار المحمومة.. وكان لخطواها دمدمة وهزيم.. قفزت نحوها لأستقبلها.. دنوت منها.. سبقتها رائحة ناعمة ومتميزة.

ـ لقميصك رائحة المطر.

ـ قميصى قطعة من جسدى.

تفجر الشره المختزن فى دمائى منذ ولدتنى أمى، قبلتنى على خدى وأبعدتنى عنها.. هجمت عليها وأخفيتها فى صدرى.. غمرتنى رائحة لحمها الطرى الطازج.. برقة أبعدتنى.

ـ تمهل.

جلسنا على منضدة فى المطبخ نأكل دون أن أستمتع بطعم الأكل الذى كان ولا شك شهيا

ـ هل هذه الفتاة يهودية!
ـ ولماذا لا تكون، ما دخل ديانتها فى جسدها وجمالها.
ـ الصهاينة غيروا فكرتنا تماما عن اليهودية بوصفها دين.
ـ توقعت أن يكون لجسدها رائحة منفرة .
ـ هل حقا سيسلم له نفسه كل هذا الجمال الموغل فى الوحشية.
ـ هل كل أجسام النساء كذلك بصرف النظر عن الديانات والجنسيات.
ـ أظن أنها متشابهة.
ـ لماذا لا تأكل؟
ـ بل آكل.
ـ ألا يعجبك؟
ـ إنه..

انشق جسدى نصفين عندما سمعت جرس الباب، كان يرن فى عنف زائد.. ارتعدت كل خلية فى جسدى وتوترت كل أعصابى.. قست بسرعة المسافة بينى وبين الدولاب الذى يعلوه السكين، ثم تذكرت أن بيدى سكينا.

همت مارى بالقيام أشرت إليها محذرا من التحرك.

أطبقت على المكان لحظات صمت، حتى تصورت أن هذه الشقة نقلت من موضعها إلى أعمق أعماق الأرض. سقط قلبى فى قدمى وكاد يئن من الرهبة وسوء الظن.. بدأ الصمت كأنه يتحدانى، ولم أستطع أن أرى نفسى فى أى ضوء بطولى.. تأكدت الآن أن الطريق مفتوح تماما كى تتقدم نحوى موتة بشعة.

توجهت صوب الباب.. نظرت بالعين السحرية.. لم أجد أحدا.. ثم دوى جرس آخر.. تملكنى الرعب، وفتحت الشراعة بحذر ربع فتحة، فوجدت طفلا جميلا، ينتظر فى أدب أن يفتح له الباب أعدت الشراعة بنعومة شديدة، وأعدت كل قطعة فى جسدى إلى موضعها.

سألتنى .. قلت لها : طفل صغير.

ـ لعله باولو ابن جارتنا.. أنه حبيبى، لماذا لم تفتح له دنوت منها.

أبعدتنى بلباقة وقامت ترفع الأطباق غسلت يديها وفمها بالصابون مرتين : وغسلت أسنانها بالفرشاة، وتعطرت وصبت على عطراً رجالياً.

تأملتها وهى تتقدم نحوى فى هدوء، وعلى الشفتين ابتسامة مرحبة ومشجعة.. القميص الشفيف يرق على الجسد الرخامى الأحمر، فيبدو لحظة أبيض وفى لحظة أخرى فضى وفى ثالثة رمادى، ثم لا يبدو على الإطلاق.

داهمتنى رعشة.. لمحت الكتف العارى البض المستدير، كرة من الوهج المستعر.. دنوت منها.. بذلت جهدا خرافيا كى أبدأ فى هدوء .. قبلتها .. كان لشفتيها طعم البارود.. نفس رائحة حبش وإيطاليا الذى كان لعبتنا الأثيرة ونحن أطفال.. توالت القبلات فى احتدام وتأهبت لاجتياز العوالم الغريبة.

حين لمس جسدها العريان جسدى العريان، تكشفت بعض الأسرار الأسطورية، وقرأت بعض حروف من كتاب الخلق، وأتيح لى فى البداية أن أتذوق طعم اللحظة بكل كيانى.. أحسست بالحر الشديد فجأة وطرقت رأسى صورة الرجل الأصلع، فطردته بعنف وطردت كل شيء.. أطلقت لنفسى العنان واستسلمت للبحر العاتى .. نسيت الأصلع والسكين والقضية، ونسيت أنها يهودية، وأنى.

بدأت تتلوى كالثعبان، وتنقش على جسدى صورا لحيوانات مجنونة لا أظنها تعيش إلا فى أعمق أعماق البحر، وصورا لطيور بأجنحة فضية لا تكف عن الغناء.. هل يمكن أن تعيش هذه الطيور إلا فى السماء السابعة؟

شرعت فى الطلوع نشوتها الوهاجة وأنا مبهور أتعلم وبسرعة غريبة أتعلم.. هل كانت مهرة اليهود أم مهرة الغرب أم مهرة العشق.. أم تراها كانت الحكم الصادر باعدام السنوات المملة؟

تغلغل فى عطرها وضوئها والسحر الجميل.. تلاشت المسافات والكلمات وأوهام الذاكرة.. تكشفت لى أعماقى الخربة وجوعى للسرور الشجى.

اجتزنا ممرا إلى الليل المبارك وطلعنا منه إلى ربوة ووقت كسول.. هاهو النبع الذى تاقت إليه حقولى.

عدت أتأمل ـ حين أتيحت الفرصة ـ فى دراما الوجود وعبقرية الخلق.. هذا التشكيل الإلهى، وكيان المرأة اللطيف المسيطر وجسدها ليس فقط القائد السيمفونى البارع ولكنه فرقة موسيقية هائلة.

أحسست بعد حين بالمساء وتحلل الأشياء، وأبصرت دمى يتسرب من عروقى كدخان يعلو ثم يتلاشى، وتكسرت فى جسدى المرايا واعتم اللؤلؤ.. فى سكون تمدد النخيل ونام.

ـ استيقظ وشاهد جسدى المشوه، لن أصلح لشىء بعد ذلك.

صحوت دون أن أفتح عينى على قبلاتها تغمر وجهى، فتذكرت أين أنا، وأدركت أن لى جسدا محطما وجفنا ثقيلا.

ـ صباح الخير.

ـ أرنى يديك.. أنت بلا أظافر، فكيف نبتت بالليل لك المخالب فتحت أخيرا عينى، فداهمنى ضوء نهار جديد.. كانت عريانة يمتلأ جسدها بالبقع الحمراء.. هالنى مافعلت وما تخلف عن النار من رماد.. أسرعت بارتداء ملابسى. وضعت على المنضدة ثلاثين ألف ليرة.. سألتنى :

ـ إلى أين؟
ـ إلى الشارع
ـ ألم تقل أنك ستبقى عدة أيام أخرى؟
ـ..
ـ ما رأيك أن تبقى معى وسأقوم أنا بعرض روما عليك والذى ستدفعه فى الفندق، أدفعه لى، ولن تدفع شيئا فى الأمسيات ولا حتى فى الطعام، أما البنزين فعليك.
ـ سأذهب أولا ثم أفكر
ـ هيا إذن.. سأخذك فى طريقى.. أين الفندق؟

ذكرت لها اسم فندق قريب من الذى أنزل فيه، أوصلتنى بسيارتها المدورة، وقبل أن أنزل قالت :

ـ هل يسمحون لى بالعيش فى مصر.

أظننى كنت سأقع من طولى لو كنت واقفا، كنت لا أزال بالسيارة، نهضت لأكسب وقتا وأفكر.. انحنيت وسألتها : ولماذا مصر بالذات!

ضحكت ونظرت إلى نظرة ذات مغزى، ثم قالت:

ـ سأمر عليك بعد خروجى من الشركة.

دخلت الفندق حتى تغيب عنى وأغيب عنها.. استقبلنى بسرعة شخص أنيق.. سألته على الفور:

ـ هل تنزل هنا سيدة اسمها مارى ويزل.

بحث فى دفتره ثم قال : لا.

شكرته وعدته إلى الفندق.. أنهيت إقامتى فوراً وأسرعت بمغادرة روما.

يونيو ١٩٧٩

شــدو البلابل والكبرياء

صهيل المـــاء

كان على أن أعبر النهر الكبير إلى الغرب، حين بلغت شاطىء النيل، أغرانى النيل والصباح الجميل فتمهلت.. خشيت أن تسرع قدمى كما تفعل كل صباح وتلقى بى إلى الشوارع الصاخبة والزحام المجنون.. استدرت إلى وجه النهر عند منتصف الجسر الضخم، وتفتح صدرى للفرح الغامض.. توقفت أمام السور المعدنى الغليظ. رسوت بساعدى فوق صلابته الباردة. من أعمق أعماقى اقتلعت تنهيدة.. حومت نظراتى فوق الماء. لطالما تعلقت بهجتى بموكب المياه الذى يمضى فى جلال وثقة.. ظللت أتأمله وأصيخ السمع لعله يبوح.. كان الماء يتقلب فى حضن الموج ويتلوى يستحم وينتعش ثم يغوص ويحلم، ويطلع فى نعومة كأنه يبحث عن شىء حبيب.. ثم تفور وتزغرد قبلاته ويتألق سادرا فى سبيله بلا مبالاة.. وحيدا فى العالم يمضى.. وكان للماء صهيل وغناء.

تهادى النيل الأسمر بين الضفتين جملا بين أشجار باسقة، متشحا بالحنان والكبرياء.. رمتنى النسمات برذاذها المقدس أفاقت روحى وأبصرت أكثر.

انتشرت فوق سمائه طيور بيضاء لها مناقير طويلة، حومت وانقضت على الماء. التقطت الأسماك المطمئنة. صعدت دارت هنا وهناك، نقطا من الضوء المتناثر فى الفضاء الرمادى.. لم تطلع الشمس، والغمام شرنقة حول الأفق العريض. عادت الطيور وغمست رءوسها فى الماء وطلعت على المدى تحمل الأسماك.. كانت الدوامات الصغيرة تتلوى

وتحتضن بعضها وتكاد تنطق.. حاولت الدوامات الصغيرة أن ترسم شكلا، لكن الملامح لم تتحدد وكلما حاولت مع الشكل تبدد.

تنبهت أن فتى إلى جوارى يتألق الماء فى وجهه وينتصر.. ذابت روحه فى احتضان الوجد المتدفق تحت الجسر.

من بعيد قدم على عجل زورق كبير ذو محرك.. دمدم وزأر، دفع الماء متغطرسا صوب الجنوب، تبعه ثان.. دفع الماء أمامه ومضى مسرعا صوب الجنوب وتبعه ثالث ورابع بالهدير والجبروت.

استدارت المويجات فى سكون.. تحولت فى أثر الزوارق.. دارت الطيور حول نفسها حائرة.

بلغتنى تمتمات مبهمة، والماء القاتم وجه يختنق.. تشبثت بالجسر الحديدى.. سمعت الفتى يهتف: النيل يرجع.. النيل يرجع. لوت الزوارق عنق الماء النيل يرجع.

تحولت إلى الماء.. صوبت إليه نظرات مدققة ومتحفزة.. سرت فى جسدى قشعريرة لمحت بضع دوامات صغيرة تلتف حول بعضها وتتلامس وتدور، رسمت شكلا.. كان الشكل صورة للفتى الذى يجاورنى ويهتف، وكانت له عيون تبتسم.

سمعت جلبة وأصواتا مكتوبة.. اندفعت نحو الفتى أشباح مجهولة.. دهموه.. قاوم.. جروه، بينما كان وجهه يبتعد، ماتت فى أذنى وعلى دهموه شفتيه نصف صرخة، وسال فى القلب دمه سال.

دائرة للسقوط

في الثانية ظهرا بدأت حشود كبيرة من الرجال والنساء تخرج من أفواه العمارات حشود لا تنتهي، تمضى كلها صوب الميدان، وتقف أمام متحف الآثار، حشود هائلة تحمل الصحف والحقائب وتمسح العرق، تمشي وتجرى وتقفز وتتلفت وتفكر، تتلفت وتقرأ بإمعان أرقام السيارات الحمراء الضخمة، تتلفت وتفزع وتنفعل وتضطرب.

فيضان من البشر تجمع في موقف السيارات.. أرتال السيارات تأتى ثم يتوقف الجميع معا متداخلين ومتعانقين.. متلاحمين.. يختفى البعض في بطون السيارات ويبقى البعض ثم يخرج.. عالم غريب ومجنون.. كل ما فيه يفكر في الرحيل ويسعى بكل قواه ونقوده كي يعود إلى بيته، ربما قبل موعد محدد.

بعض الباصات الضخمة تتحرك في نعومة خارجة من الميدان أما العشرات القادمة إليه فإنها تهجم عليه مندفعة نحو مواقعها وكأنها المستقر الأخير أو الراحة الأبدية بعد عذاب قرون.

ينزل السائق والمحصل إلى كشك المفتش، ويظل المحرك في مكانه يزمجر، وما هي إلا دقيقة حتى يعودا ليأخذا طريقهما بمنتهى اللباقة والمرونة بين الأجساد المتحدة بعنف.

درت أبحث بين الناس المتجمهرين عن سيارة تحملني إلى البيت، ولم يكن هناك مكان ثابت يمكنني أن أقف فيه.. كان كل شيء يفر.. يجرى ويدور ويتلفت ويقع

فى وسط هذا الخضم الهائل انخلع فكرى لحظة وانطلق إلى متحف الآثار.. تطلعت إلى واجهته. هكذا أنا وهذه مأساتى.. أعمل فى شىء وأفكر فى شىء آخر وأنظر إلى شىء ثالث.. كانت بضعة تماثيل تجلس فى أدب، وتحدق فى الميدان المجنون سألت رجلا كان منى قريبا: لماذا لم يحضر أتوبيس ٩٩؟

لم يأبه ولعله لم يسمع.. سألته من جديد.. نظر إلى فجأة كأنه اكتشف وجودى وتلفت حوله، ثم انطلق بعيدا عنى.

بعد قليل جاء ٩٩.. أسرعت إليه لألقاه قبل الجميع.. لحقت به وهو يدور ليضبط مساره ويأخذ طريقه إلى حارته.. ألفيت العشرات معى تتدافع وتسد الباب.. حاولت أن أجد لى مكانا فى الباب الأمامى.. كان ذلك صعبا للغاية، عدت وحاولت العثور على ربع مكان فى الباب الخلفى.. كان ذلك مستحيلا.. تدافع الناس بعنف.. بكل القلوب والمناكب والمرافق والأظافر والنظرات الغاضبة بالأسنان والأحذية والإلحاح.

ولولت امرأة بعد أن أوشكت عظامها أن تتحطم وملابسها أن تتمزق ولحمها أن يفرم.. وربما تولول لسبب آخر..

ولولت مرة ثانية.. لكن ذلك لم يحرك نحوها عصبا أوشعرة.. زاد التدافع، والعنف تقدم وسيطر بلا كلمة.. بذل كل إنسان أقصى قوته ليدخل.. يدخل الأتوبيس.. بالغريزة وحدها أصبح البعض يمضى بين البعض كالدودة، يتقدم ملليمترا من هذا الجانب، ومللیمترا من هذا الجانب، يحرز مسافة، ثم يكرر الحركة بشكل دؤوب وفعال.. وهكذا يصبح للدود نفع.

أخيرا توقف الأتوبيس وأنا مع الزحام، آخر المجموعة المحمومة.. كنت ملتصقا بهم برغبة أكيدة، ولكنها كانت رغبة منفصلة عنهم وتبدو بالقياس لإخلاصهم باردة.. كنت محسوباً على المزاحمين لكنى لا أتقدم.. فظللت أحتفظ حتى النهاية بموقعى المتميز كآخر المحاربين.

أنهيت أخيراً حالة اللاركوب واللا إنتظار بإبتعادى عن الأتوبيس وحائزيه الذين تدلى

بعضهم من بابيه.

حولت نظرى إلى الطريق الذى سيأتى منه ٩٩ آخر، لمت نفسى لأنى كنت متخاذلا.. تصرفت كأنى لا أود العودة.. كان على أن أسرع قبل الجميع وأبذل جهدا زائدا مع صبر لا ينفد.. لابد من بعض العنف والنضال.. إلى متى سأظل هنا فى الميدان أشارك فى الزحام بالوهم فقط.

لابد من موقف آخر.. لابد من القبض على النتيجة..

تراءى لى من بعيد أحد الأتوبيسات يسرع قادما.. عرفت من ملامحه أنه ٩٩.. لابد أن ألقاه فى منتصف الطريق.. أسرعت إليه.. طرت فى الميدان.. قفزت فوق الأرصفة. تفاديت عشرات المنتظرين ونفذت بينهم فى رشاقة ومهارة.. كنت فى سباق من نوع جديد.. سباق الجرى والنفاذ بين عشرات الملتصقين.

اندفعت نحوه قبل الجميع.. أصبحت أمامه وجها لوجه.. كان مندفعا وكنت مندفعا لم أقدر المسافة التى بيننا.. سال عرقى على نظارتى وغيمت عليها أنفاسى.. تضاءلت المسافة حتى تلاشت فجأة وتفجر الجسد المنطلق.

سكون تام إلا قليلا.. كان ثمة طنين وأزيز.. وساد الصمت ورأيت كما يرى النائم جسدى يرتفع ووجهى إلى الأرض.. أرتفع ويبتعد الناس ويصغرون. جسدى كالورقة مطيعا وضئيلا فى كف الريح.

أرتفع ويبتعد الناس وتحصى عيناى العشرات من السيارات الحمراء تلون الميدان كأنها مظاهرة.. الناس يرفعون نحوى رءوسهم.. يفتحون عيونهم وأفواههم.

تراجعوا جميعا للخلف تراجعوا وانتظروا والتحموا.. والسيارات أفسحت الطريق.. تراجعت إلى الوراء.. ورسم الجميع دائرة كبيرة محكمة الإستدارة.. ميدان داخل ميدان.

الأسفلت الساخن يبرق تحت الشمس الملتهبة والدائرة تحتى تتراءى كالبحيرة المعتمة، مجهولة الأعماق.

لم أعد أرتفع وشرع جسدى يثقل تدريجيا.. الناس لا زالوا يرفعون رءوسهم ونظراتهم إلى.. تتعجل هبوطى.. وكانت التماثيل القابعة فى سكون واستسلام أمام المتحف تتفرج

على هؤلاء الذين رسموا الدائرة.. قرر جسدى السقوط.

اندفعت هابطاً نحو الدائرة الفسيحة.. كان هبوطي سريعا جدا كأنى صاروخ أطلقته السماء ليصيب الأرض ويدمرها.. ولم أكن خائفا من النهاية.. اجتاحتنى ثقة غريبة.. هل نحن نسقط وحدنا؟.. حتى هذا السؤال لم أسأله لنفسى ولم أقاوم، كنت فقط أحاول أن أحسب المسافة المتبقية.. لكنها كانت أسرع منى فارتطمت بالأرض ودوى فى الجسد انفجار جديد.

انسحقت عظامى وأعصابى وجزيئاتى.. انسابت دماء زرقاء كالمياه الجارية على أرض سوداء ببقايا هزيلة من الوعى أحسست أن أقداما تقترب.. العيون تحدق فى الجثة النظرات بلا معنى.. ثم بدأ كل شىء فى التضاؤل والإبتعاد.. خفتت الأصوات تدريجيا وساد الكون سكون ناعم.. تسللت إلى روحى المودعة، نسمات رضا مفتقد.. وسلام.

العصفور والريح

- ١ -

طائرا كان.. صغيرا وجميلا..

يجتهد أن يستنقذ من الريح بعض القش.. كلما جمع قشة اختطفتها الريح وابتعدت.. يسرع الطائر فى أثرها يضرب جناحيه بحماس.. يضرب ويجمع والريح بالمرصاد.. طال سعى الطائر والريح لا تهمد. بدأ التعب ينهش فيه والأنفاس تتراجع رويدا رويدا ثقيلة الخطو.. شرعت حركته تخفت، وأخيرا سقط الطائر صغيرا.. وجميلا كان.

- ٢ -

تمنيت قدحا من الشاى وأنا منجذب إلى إحدى «سوناتات» البيانو لبيتهوفن.. الأنغام تترى فى إيقاعات سريعة مضطربة كاهتزاز المرتعد.. تدفق اللحن بلا رتابة.. تمنيت قدحا من الشاى الساخن.. هممت أن أنهض.. أقعدنى البرد ولزمت الفراش.. تدثرت.. لكنى مع اللحن العذب نسيت البرد.. تغلغلت الأنغام فى جسدى.. تسربت كالدفء.. كالإطمئنان كالحب.

تغلغلت فيها.. تلاشيت.. اتحدت..

رأيت على الجدار صورة الطائر المناضل.. صغيرا وجميلا كان.. الإيقاع الموسيقى يرسم بكل نغمة جزء من ملامح الطائر الصغير، أجنحته المتوترة.. منقاره النشيط.. دوامات الريح.. تنبهت أن أخى يقول:

ـ ألا تسمعنى.. هل أصنع لك قدحا من الشاى؟

أشرت إليه بسبابتى رافضاً.

لماذا تمدد الطائر هكذا وتفتت.. كان يتمنى عشا صغيرا وجميلا.. صغيرا.. وجميلا كان.

ـ ٣ ـ

دقات واهنة تتسلل من خلف البعد.. من وراء القدرة البشرية على الإنصات تشير إلى أنفاس الطائر ونبض قلبه.. إذن فمازال حياً. انتظرت أن يهم الطائر من مرقده أن يرفع رأسه أن يهز جناحيه.. أن يفعل شيئا.. أى شىء.. آه.. لم يفعل ولم يمت.

ظلت الأنفاس بين بين.. تهمس وتعترف بالعجز.. لكنها تتمسك بالخيط الدنيوى العجيب.

متحفزا بقيت أرقب حالته.

تعالت الأنغام رويدا.. رويدا.. بعينى أستمع إليها.. رفع الطائر صدره عن الأرض.. بأذنى أراه على الجدار، نهض.. تحمله الأنغام المتصاعدة.. ثابتا وقف على قدميه.. تأمل الكون لحظة فى كبرياء أصيل.. تعالى النغم فى نقر سريع.. فجأة انقض على القش.. يملأ منه فمه ويجمعه بجناحيه وقدميه وبكل ما فيه.

أفاقت الريح.. تقدمت منه تزوم وتعوى.. من بين يديها انطلق الطائر إلى الفضاء.. وضع القش فى الركن الذى كان فيه عشه القديم فوق شجرة الجميز.. كانت العاصفة قد أطاحت منذ أيام بكل شىء.

مازال النغم يرسم الصورة بحنكة واتقان.. آب الطائر، هدأ اللحن.. التفت حوله الريح.. ثار النغم.. صعد الطائر وتعلق بغصن شجرة يرقب الريح الحائرة.

حشد عزمه وصلب عوده.. واندفع يجمع القش من جديد.. مع كل قشة ينفعل النغم ويتوتر.. تزداد الهجمات، وتعلو النقرات، تقوى إرادته.. ينقض وينقض يجمع ويجمع.. والريح تدور حوله متعثرة.

حين امتلأ بالقش فمه.. صعد إلى الفضاء وانطلق بثقة إلى العش.. فى أناة ووقع حنون بدأ يبنى على الجدار عشه ويسويه.. يجرب فيه صدره ويقيسه على جناحيه.. يقف ثم ينام.. يبسط رقبته إلى أقصى مداها.. هل ثمة خطر؟.. ما هو بالضبط الخطر المنتظر ومن أين؟ نهض.. مسح الأغصان والفضاء بنظراته.. من أسفله ومن أعلاه.. كل شيء تمام.. حط الطائر ونام.. ثم سكنت أصابع بيتهوفن فوق المفاتيح.

القتلة

وقفت على ضفة النهر أرنو إلى المدى البعيد. الشمس تتعلق بأذيال السماء، لا تود أن تفارق، يلون الأفق أساها بحمرته البرتقالية.. لكنها أخيرا غرقت فى آخر نقطة يمضى إليها البصر.. تدافعت العصافير عائدة.. استقرت فوق أعناق الشجر.

تسلل الماء فى موكب من الفانتازيا والشعر، ظللت واقفا أرقب اللحظات الفاتنة.. لحظات الوداع واللقاء. لحظات المجىء والسفر.

تنهدت فاتسع صدرى للكون الرحب، تسرب منى الجسد وذاب فيما بين إنطفاء الشمس وطلوع القمر.. أضاءت روحى نسمات الصمت الناعم.

زحف القمر إلى صدر السماء وسكب النور فوق الربوع الخضراء وبينها تهادى النهر شريطا فضيا تألقت صفحته.. بلغتنى ضحكات الماء الفرحان، يقلد الأطفال.

كنت جزء من النغم الكونى، من التشكيل الفنى للعظمة الإلهية.. لحظات من الجمال هائلة، جرعات من الصفاء والحب والتسامى والتجلى.. أغمضت عينى وسلمت واغتسلت..

أفقت على دبيب مكتوم وأشباح سوداء فى أيديها أسلحة تومض.. تبينت بعد تحديق أنها بلط.. تقدمت الأشباح من جذوع الشجر شقت البلطة الأولى الفضاء وخاضت فى

الجذع، آن الجذع وانخلع قلب السكون.. فرت العصافير مولولة، تضرب فى الفضاء على غير هدى.

توالت الضربات بلا رحمة، ثم سقطت الشجرة ودوت الضجة الآثمة.

تجمعت الأشباح فوق جثة الشجرة، دفعها إلى النهر، وقفز فوقها قاطعها..

سقطت شجرة أخرى. دفعوها إلى النهر وامتطاها قاطعها.

استمر الذبح والأشجار القتيلة تلقى فى الماء، والنهر كثعبان أسود هائل يتلوى ويندفع بين الإخضرار الكئيب.. القتلة يمضون والبلط الحادة فوق أعناقهم تومض، وأنا أحدق فى فزع، توغل الليل وأنا وحيد.. شعرت بالبرد فجأة.. أحسست بجسدى كله.. أدركت أن قدمى فى الأرض ساخت ورأسى طالت، من مناكبى برزت أغصان، سرعان ما أورقت.. تمايلت مع الريح وانحنت على الماء أسرعت نحوى العصافير الشاردة.. حطت فوق أغصانى واستأنفت أحلامها.

دنيا المخلوقات الرائعة

ـ ١ ـ

بكل جوارحى ولهفتي تأملته مخلوقا رائعا كان.. يداه لاتكفان عن ضرب الهواء وهو لا يزال ابن سبعة أشهر.. لم يشف غليله ضرب الهواء.. جاهد حتى تعلق بأعمدة السرير.. لكنه وقع وانطرح فى فرشته.. بان عليه الغضب.. ضرب الهواء لاعنا عجزه، وأنا أداعبه بأصابعى وشفتى ولسانى.. أستفزه ليعاود المحاولة.

ناضل من جديد حتى تعلق بأعمدة السرير لكنه وقع.. حاول مرة ثالثة ولما أحس أنه سيفشل أصر على البقاء ممسكا بأسياخ الحديد، ولم يسمح لجسمه بالسقوط، منتظرا أن يحل أحد هذه المشكلة.

مع صعوبة الحفاظ على موقعه المهدد فى منتصف المسافة بين الوقوف والسقوط بدأت ملامحه تكتسى حمرة قانية ثم تحولت إلى زرقة.. استعدت أصابعه للإفلات، وفتح الفم القرمزى الجميل، عله يشارك فى عملية الإنقاذ.

مددت له يدى وحملته فابتسم ومضيت به إلى الخارج.. نزلت السلالم الجانبية إلى الحديقة.. تأملته فى النور والهواء وتحت قبة السماء.

أبقيت رأسه فى مستوى رأسى ووجهه فى مواجهة وجهى.. فتحت عينى إلى أقصى اتساعهما فابتسم، أدرك أنى ألعب.. قبلته فى شفتيه، أعذب ما خلق الله وأبدع.. دلكت

أنفه الصغير بأنفي.. نطحته فتبرم.. نطحته من جديد فنطحني.. نطحته فظل ينطح وقد أعجبته اللعبة.

سافرت قبل ولادته بأسابيع.. كان لابد أن أسافر لكنى لم أشعر بتعاسة الغربة إلا فى هذه الشهور، ولم أشعر بالشوق إلى وطنى وأهلى كما شعرت به هذه المرة.

شوق مجنون ولهفة يومية رغم أن كل الأخبار كانت تبلغنى فى مواعيد مناسبة.. شغل هذا الولد كل فكرى قبل أن أراه.. ما طوله الآن.. ما عرضه؟.. ما وزنه؟ ما شكله؟ هل يأكل جيدا؟ هل يتعرض للبرد؟ لابد أن تحافظ أمه عليه.. الجو يتقلب بسرعة... الميكروبات.. أقاربنا سينقضون عليه بالقبلات.. اللفائف.. الأتربة فى كل مكان وفى كل يد.. وربما تأخرت أمه فى العمل.. وجدته سيدة عجوز تحكى الرسائل فيما تحكى أن أخواله وخالاته مولعون به ولا يبرحون الدار إلا بعد أن ينام.

كانت أمه تراقبنا من شباك المطبخ.. دغدغت جنبيه فتلوى وضحك. رأيت السنتين تضيئان عتبة حلقه الأحمر وتشاركان فى الضحك الجميل.

سألته: كمان؟

أومأ برأسه موافقا.. دغدغت له جنبيه فتلوى وضحك وتألقت فى وجهه بهجة الحياة..

أشرت له بإصبعى على العصفورة الملونة التى تصوصو «على العتبة» رآها وهى تطير. أشرت إلى الزهور الكثيرة التى أشرقت فوق أعناق الشجر والحديقة التى تغنى للجمال.

قالت أمه أصبح لك ولد.. وسقطت من فك أمى سنة قلت معابثا: ليتها ترميها للشمس وتقول لها: خذى سنة ال..

أسرعت تقول حتى لا أكمل: عيب عليك.. هى التى تقوم وحدها على خدمة ابنك.

أسندته إلى شجرة، فتشبث بها.. رجعت إلى الخلف ومددت إليه يدى وأنا أقول: حبا.. حبا.. مين يجينى.

أحس بضياعه فاضطرب.. كررت قولى مشجعا:

ـ حبا حبا.. مين يجينى..

تجرأ وابتعد عن الشجرة خطوات ثم وقع..

حملته ورفعته إلى أعلى ثم قذفته.. فتح عينيه وفغر فاه رعبا.. حاول أن يمسك بأى شيء.. اندفع هابطا إلى حضنى.. حاول أن ينفذ إلى صدرى هربا من المأزق الذى كان فيه.. كنت سعيدا لأنه لم يبك..

سألته: كمان؟

لم يرد وتشبثت قبضتاه بملابسى.. لاعبته من جديد، ثم أطلقته فى الفضاء.. تولته رعدة عنيفة.. لم يتصور أنه يمكن أن يبتعد عنا.. سقط فى حضنى معلنا غضبه.. أنزلته إلى الأرض، ثم حملته وقذفته بقوة إلى الفضاء أعلى من كل مرة..

تجلت أمارات الرعب على ملامحه وهو يرى نفسه أعلى من الجميع.. تصور أنه لن يجدنى فى استقباله، ودارت حدقتاه فى كل شيء قبل أن يهبط.. أحس بالخطر الأكيد والنهاية التى لا يعرف عنها شيئا.. كيف أحس بهذه النهاية المجهولة؟ ولماذا يخاف بعده عن الأرض؟.. هل تصور أنه خرج من نطاق الجاذبية؟ وهل يدرى شيئا عن المصير الإنسانى المبهم؟

ضممته إلى صدرى بشدة.. أجلسته فى حجرى استمتعت بملمسه اللذيذ.. تأملت عذوبة نظراته.. براءتها.. وشردت معها تأملت وسامته.. إرادته.. رغبته الملحة لممارسة الحياة وتحمسه للقاء كل ما فيها واكتشافه.. حرصه الدائم على ألا تفوته حركة أو همسة.

لاحظته وهو يتابع باهتمام طيران الذبابة وخطو القطة ونقيق الدجاج وعبث البط فى أوانى المياه وعراك الديكة، وحالة الإنبهار الشديد والتحفز عندما نفتح التليفزيون، وحبه للصحف التى يستمتع بتمزيقها بيديه ورجليه وفمه.. أما الراديو فلا يزال الشيء الوحيد الذى يغيظه ويسلمه لحيرة رهيبة متسائلا عن مصدر الأصوات التى تتحدث فى الحجرة حين تكون خالية من أى إنسان.

طفلى الأول.. مخلوقى الرائع.. تكمن فيه عصارة قلبى وأعصابى وعصبية أبى وهدوء أمى وغطرسة جدى.

.. سرت رائحته فى كل كيانى وكأنها المطر أو قطرات الندى.. رائحة من النقاء والطهر لا توصف.. أمسكت رجله من ركبته فبدت قدمه وساقه كالشاكوش.. ضربت بكعبه رأسى عدة مرات فارتج جسده كله من الفرح والدهشة للعبة الجديدة.

قالت أمه بحدة حنون: هات الولد.. ستربى له العصبى.

كانت جدته قد انتهت من صلاتها، وشرعت تعد عروسة من الورق وإبرة.. قالت أمه: تصور أنها ترقيه كل يوم.

رقته جدته من كل العيون التى رأته ولم تصل على النبى.. أحصت كل العيون.. وكلما ذكرت عينا ثقبت العروسة بالإبرة..

أخيراً أشعلت النار فى العروسة الورق ووضعتها فى الماء.. ألقمته أمه ثديها فتشبث به ودس رأسه فى صدرها، وسرعان ما أسلمه الدفء والشبع وكثرة الشغب إلى النوم المطمئن..

ـ ٢ ـ

بعد أيام اشتقت أن ألاعبه، أو ألعب به وهذه أفضل حالاتى وأسعد أوقاتى.. لحظات الفرح العظيم حين تنبع الضحكة من أظافر القدم وتمر على كل عظامى وتسرى فى كل عروقى.. ساعتها أكون أنا الحقيقى ولكن بدون العقل والخبرات المكدسة والمرايا التعسة.. أقترب منه روحا وقلبا.

رفعته إلى أعلى ومددت ذراعى إلى آخرهما.. هبطت به، وفجأة قذفته إلى السماء.

ارتفع وظل يرتفع دون أن تخلو ملامحه من الرعب، وحدقتاه توزعان النظرات المرتجفة والأسئلة على كل شيء.

ابتعد ولكنى كنت آراه.. تبعته وأنا متوجس خشية أن يمضى بعيدا أو تصعب على رؤيته، عيناى عليه وهو يرفرف بيديه، بدت ملامح وجهه بلا علامات تحدد مشاعره، ولكنه حين رآنى وهو يهبط خارج المدينة عندأول الطريق السريع برقت عيناه وأشرق وجهه بالطمأنينة.

اندفع نحوى بسرعة فتلقفته بين أحضانى، وتشبث بأظافره فى قميصى.. ضممته بقوة إلى صدرى.. أحس قلبى بإرتجاف الدم فى عروقه، نبض قلبه المنتفض.

ـ ٣ ـ

في عيد ميلاده السابع أو العاشر لا أذكر.. قلت له:

ـ هل تحب أن ترتفع؟

ضحك وقال: فات أوان ذلك.

قلت وأنا أمرر كفي تحت إبطيه.

ـ سيظل هذا دائما.

رفعته وأبقيته لحظات لآخذ نفسا عميقا.. جمعت قوتي وأطلقته للسماء.

ارتفع ولوح بيده.. حلق كطائرة من ورق وأمه تمنع صراخها، وهي تهتز على حبل مشدود بين السعادة والخوف.

كانت نظراته تطوف بالكون الرحيب.. برقت في عينيه الدهشة لرؤية الدنيا العامرة.. كل هذه العمارات.. كل هذه المزروعات.. كل هذه الأرض.. كل هذا الدخان والضجيج.. كل هذه المخلوقات من إنسان وحيوان.

ابتعد وتضاءل.. توقف عن التلويح.. اتسعت عيناه، وكبر رأسه.. لم نعد نرى إلا قطعة من قلوبنا حائرة في الفضاء اللانهائي.. أخذت سيارتي وتبعته.. خشيت أن يغيب تماما.. كان يمضي صوب الشمال. الشمال دائماً.. ظل يعلو ويبتعد إلى أن أصبح ضئيلا جدا.

نزلت من السيارة لأرى بوضوح.. دق قلبي بعنف.. أنا الذي قذفته.. لقد بدأت المسألة كلعبة.. كان صعبا ألا أراه مبتهجا.. لم يكن في الحسبان أن تتحول اللعبة البسيطة إلى مشكلة تسبب القلق، ولكنه الخوف دائماً.. الخوف هو الذي يدفعنا إلى كل فعل، وهو الذي يمنعنا من كل فعل.. اللعنة على كل شيء إذا لم يعد ولدي.

فكرت في أمه. إنها لن تغفر لي إذا فقدته بل إنها ستفكر في التخلص مني ومن نفسها.

ولكن ما الداعي للقلق. الجاذبية الأرضية أقوى من كل جاذبية سيرتد حتماً إلينا.. ولم أعد أراه.. هذه هي المشكلة سلمت أمري لصاحب الأمر.. نكست رأسي وأغمضت عيني لأريحهما من شدة التحديق في السماء المشتعلة بالنور.. ثم عدت أبحث عنه في

فضاء لا يعرف الحدود.. لمحته وهو يكبر ويكبر، وهذا يعنى أنه فى الطريق إلى.. كان لا يزال يتوجه إلى الشمال.. تبعته وعيناى من داخل السيارة لا تغفلان عنه لحظة..

أصبح فى إرتفاع عمارة من عشرة أدوار وأنا أتقافز من فرط سعادتى.. أخرجت ذراعى من السيارة ولوحت له.. لم يبد عليه أنه رآنى.. أضأت الأنوار وأطفأتها عدة مرات.. لم يبد عليه أنه رأى الأضواء.. عدت ألوح له حتى رآنى فتهلل.. لوح لى بثقة واندفع بسرعة.. كان إذن يبحث عنى.

خرجت إليه لأستقبله. كان فى الثوانى الأخيرة يهبط رأسيا.. ظل يلتفت ويحدق فى كل شىء غير عابئ بدنوه المتعجل من الأرض.

أخيراً هبط على صدرى.. وقعت به، انثنت ذراعى تحتى، وتحطمت نظارتى.. لكن ذلك لم يكن يساوى شيئا على الإطلاق.. كان المهم رجوعه إلى سعيدا وثقيلا. ما أروع هذا المخلوق.. إنه أسطورة حياتى.. سوف أتحدث إلى أمه لتتجنب غيره لأنه يقتلنى إذا ابتعد ويرفعنى إلى السماء إذا ابتسم.

ووقوعه الآن فوقى منحة إلهية.. كم هو ذكى ووسيم ومتألق كالشمس! ضمنى إليه.. كانت عظامه متماسكة وصلبة.. قال ونحن ندخل السيارة.

ـ هل اذيتك؟

قلت له على الفور:

ـ لا تشغل بالك. هل استمتعت؟

قال وهو يغلق بابه: نعم.

ونحن عائدان حذرته من شمس الصيف والبحر والزحام.. وحذرته من الليل والأصحاب والحشيش، وحذرته من النساء والحب المبكر.. حذرته من الأحلام والهموم وثورة الغضب.. ثبت بين حنايا أضالعه وصاياى الحميمة.

ـ ٤ ـ

فى عيد ميلاده العشرين أو الخامس والعشرين لا أذكر.. صممت أن أرفعه إلى السماء برغم رفضه الشديد.

قال:

ـ لم يعد فى السماء ما يغرينى.

قلت: وهل أرفعك إلى السماء لتجد ما يغريك؟

سألنى: لماذا إذن ترفعنى إليها؟

فقلت: فى ذلك سعادة لنا جميعا.

قال بحدة: لك وحدك.

انفجر الذعر بقلبى ولفنى بسرعة كالشوك.. عاودتنى نوبة الكحة التى أدمنتنى منذ سنوات مع نزلة برد عاتية.. لكنى صممت أن أرفعه.

لمحت أمه تهمس فى أذنه ببضع كلمات.. دنا منى وقال بحسم:

ـ آخر مرة.

انتشيت لتنفيذ رغبتى.. فهذا يعنى أننى مازلت فى البيت صاحب كلمة.. قلت: موافق.

وقف أمامى معتدلا كتلميذ أمام المعلم.. كان أطول منى.. خامرنى شعور خاطف بالندم.. تأكد لى أنى لن أستطيع حمله.. أدرك بسرعة حساسية الموقف، فثنى ركبتيه وهبط إلى الأرض.. بسط ذراعيه إلى أن أدخلت يدى تحت إبطيه ثم أعادهما.. سحبت نفسا عميقا وجمعت الباقى من قوتى.. نبهت كل أعصابى التى تسكنها السنين الصدئة.

هممت برفعه عن الأرض.. أوشكت أن ألوم نفسى على عنادى لكنى رفعته.. نعم رفعته عن الأرض أكثر من نصف متر ولم يلمسها حتى بعد أن بسط ساقيه تماماً.

ولابد أن أعترف بأن تصميمى فى البداية ما كان إلا اختيار لى.

وفى المرحلة التالية كان على أن أطلب العون من الله، وقذفت الولد فانطلق عاليا كالسهم الذى انطلق عازما على ألا يعود.

رقص قلبى وتمتعت روحى بالمجد الذى بلغته.. سعيد أنا اليوم بكل شىء.. وأولا بنفسى.. ها هو ذا يبتعد دون أن يلوح لنا.. لم يساوره أى خوف.. لم يتلفت حواليه ولم يعبأ بشىء.

فجأة نبتت له فى الجنبين أجنحة وسرعان ما ابتعد وتضاءل.

ركبت سيارتى وأسرعت فى أعقابه.. كان يتجه صوب الشمال.. ظل على ذلك فترة.. لكنه انحرف جهة اليمين قليلا نحو الشرق.. تبعته إلى أن تصورت أنى لا أراه.. توقفت ومسحت النظارات.. بحثت عنه من جديد فلم أعثر له على أثر.

نزلت من السيارة وتطلعت من جديد.. ألفيته يعود إلى رشيد آه البحر أمامى.. سماء ثانية على الأرض تمتد حتى يوم القيامة..

لا يزال الولد طائرا فوق الموج الوحشى.. بانت على ملامحه الدهشة حين وقعت عيناه على قاع البحر وبهرته أعماقه التى ترقص رقصتها الغامضة.

مضى صوب الشمال متواريا بين رفوف الغيم الأبيض وظل بعد رحيل الغيم سادرا فى البعاد.

ـ يا ولدى.. عد يا ولدى.

بعثر الصوت المنهوك أصداءه فى الفضاء. كان الأفق الأزرق الذى يمتد حتى يعانق سطح الماء المبهم خاليا من أى علامة، وصل القطار فيما يبدو إلى محطة الغياب.. محطة الفراق الأبدى. درت حول نفسى وناديت بجنون وهوس.. ناديت.. مع كل نداء أرسم جزء من صورة. حتى تجلت أخيراً مأساتى.. جلست على الشاطىء. كل ما حولى غريب يوحى بالضياع والذهول.

ـ غير معقول.. هل ذهب؟ ماذا أقول لها.. ماذا أقول لى؟.

تلفت حولى.. لم يكن غير الصمت القاسى والسماء تجثم فوق البحر والخلاء. لا أثر هناك لمخلوق.. إنس أوجن.. رحلت كل الأشياء.. من عينى فرت دمعتان.. انحدرتا ببطء إلى صدرى.. ثم انسابتا إلى البحر الكبير.. ابتلعهما الموج العاصف.

انكسر قلبى فإنهمر من عينى الدمع كله.. مضى إلى البحر مستسلما لنهايته الوحيدة كان الدمع قانيا كالدم وثقيلا كالزيت.. لم أجد قدرة على الإنزعاج أو الدهشة، ولم تكن نفسى مستعدة حتى للأسى.

سرى الخدر فى كيانى وتهاوى جسدى على الأرض كبيت من رمال.. رق وانتشر كبقعة من الماء المالح. جاءتنى الشمس.. ألهبتنى بحرارتها فتبخر مائى وبقيت فقط ذرات من الملح.. جفت وهشت.. طاردتها الريح من مكان إلى مكان ثم إلى لا مكان..

شدو البلابل والكبرياء

جاء رجاله بكرسى. حطوه فى الميدان الكبير وأحاطوا به. جلس وبدأ يتكلم.

ـ أنتم تعرفون عنى أنى رجل فعل. لا أتكلم بقدر ما أعمل ولا أعد إلا إذا كنت قادرا على الوفاء، وأنا قادر بإذن الله وعونكم، أن أحقق لمدينتنا ما لم يسبق أن تحقق لمدينة.

نهض ووقف خلف المقعد وأمسكه بقبضتيه:

ـ ستحصلون على الغذاء الوافر. ستجدونه فى كل مكان، وفرص العمل لن يطول بحث العاطلين عنها، لأننا سنبنى المصانع ونقيم المشروعات.. لن يكون هناك فقر.

أقبل المارة على الصوت الجهير، وقفوا وعيونهم على المتحدث.. الرجل فى الزى اللامع يضىء يتألق. وجهه الأحمر يشرق بالنضارة والعافية.

استنتج البعض أن رأسه الكبير يدل على التجارب العديدة والعقل المستنير.

طوح الخطيب ذو الكرش ذراعه فى الفضاء وهو يقسم أن الخير سيعم الجميع، إذا وقف الجميع إلى جوار حزبه، لأنه حزب الجماهير الكادحة، ويناضل دائما من أجلها.

تلألأ فى أشعة الشمس خاتمه الضخم، وومضت الساعة البراقة كانت نظرات المارة تدور فى الميدان، تقع على هذا الكائن المتلألىء والحلقة المحيطة به خامر بعضهم الظن بأن هناك سلعة ما من السلع المختفية يتداولها هذا الجمع.

أسرعوا بالإنضمام إلى الحشد. حدقوا فيه بعيونهم وآذانهم، بدأ كل فرد منبهرا بالرجل وبما يقوله، كأن ما يقوله لم يسبق لهم سماعه، أو كأنه قادم لتوه من كوكب آخر.

إنهم الآن فى حضرة رجل غير عادى بالمرة.

حاول الخطيب الغليظ أن يصعد فوق الكرسى، لم يعد يتمكن من رؤية كل الوجوه، والنظر فى كل العيون.. لقد تعود أن يستلهم من نظراتهم أفكاره، ومن ملامحهم موضوعات خطبه.

أسرع رجاله فأعانوه على الصعود وقفوا إلى جواره حطت راحته فوق كتف الرجل الأيسر. بقى الرجل الأيمن محروما من العطف، آثر الخطيب أن يحتفظ بيمناه حرة لتساعد لسانه.

استأنف الرجل المرتفع خطبته المحمومة، ثم توقف فجأة وطلب إلى الرجل الأيمن قليلا من الماء، بذلك أتيحت الفرصة له كى ينهى عهد الحرمان، بأن يسقى الظمآن العظيم.

قفز إلى أقرب مقهى ليجلب الماء لخادم الجماهير.

ساد صمت.

بلغت الأسماع موسيقى ناعمة أتاح لها الصمت فرصة النفاذ إلى آذانهم المشرعة. تسللت النغمات المخضبة بالشجن إلى صدورهم.. تلفتوا بحثا عن مصدر هذا اللحن الشجى.

كان رجال الخطيب يستمعون إلى الموسيقى كأنهم يقفون على المسامير، لن يستطيع رجلهم أن يتحدث قبل وصول الماء.

ـ هذه الموسيقى اللعينة.. لاشك أنها تثقبه.

كان هناك اتصال بين أعصابه وقلوبهم بين انفعالاته وأرواحهم ورغم أن عيونهم على الناس خشية وقوع أى أذى يمس مهابة الرجل الكريم، فإن جميع حواسهم، وكل شعرة فى أجسادهم تقشعر له وتحركها أنفاسه.

تأفف الخطيب وبان عليه الضجر. زعق الرجال يتعجلون الرجل الأيمن، تخلص بعض الواقفين من الزحام واتجهوا إلى مصدر الموسيقى.

كان العازف يحتضن كمانه فى عشق. يضع خده على صدره، كأنه ينصت لحشد الأنغام الذى يمور فى قلبه يحاول أن يتحكم برقة ودربة، وبأصابع مرتعدة فى الألحان المتأججة.

كان عليه أن يقبض على المكان هذه القبضة القوية الحنون، ورأسه يهتز كأن الأنغام تخرج من المكان وتجتاز عروقه ثم تنطلق إلى الآذان.

أما أصابع يده اليمنى فكانت تشفق على عصا المكان أن تتحطم برقة تحملها حملا وتدفعها دفعا ملتويا متماوجا، لتمر على الأوتار المشدودة.

بدأ الرجل يردد بفم نصف أدرد:

ـ الربيع جاء.. وقلبى من لحم ودم.. يشجيه شدو البلابل والكبرياء، والكبرياء.

الربيع جاء.

أحاطت به فئة قليلة. بعضهم جلس على الأرض، وأسند ساعده على الرصيف، وأسكن رأسه فوق راحته، أغمض عينيه وشرب بكل الروح والجسد غناء الرجل وموسيقاه.

دوى صوت الخطيب من جديد.

ـ سينال الجميع ما يحلمون به، سيشعر الأغنياء بالأمان. سيطمئنون على أموالهم، أما الفقراء فسيجدون الفرص للامتلاك والثراء سنقضى على الجشع والإستغلال على الرشوة والفساد.. لم يعد الناس كما كانوا من قبل خارج اللعبة السياسية.. أصبحوا هم أنفسهم اللعبة السياسية.

صفق الجميع لهذه البلاغة وهذا التمكن أخجل المديح والتأييد الزائد تواضع المرشح المفوه.. أشار إليهم بالصمت والهدوء.

علا صوت الكمان ملأ الميدان تسرب فى لحظات الصمت إلى الكل انتقلت الخطوات إلى الموسيقى الضئيل.

بدا الرجل صبا متيما، تكشف تقلصات وجهه وتوتر أعصابه عن وله عنيف وجوى.. متهدج الصوت، كأنه يوشك على البكاء ردد:

ـ الربيع جاء فهل تجىء؟ عودتنى.. تزورنى. إذا الزهور أينعت.

اتسعت الدائرة وازدحمت بالمنصتين المتلهفين للنغم.. لحديث القلب المكلوم.

أجهد الخطيب نفسه فى الزعيق والدق والقسم، بينما الدائرة الكثيفة ترق رويدا رويدا.. كان يكرر نفسه، ويعود إلى نفس النقاط يؤكدها، وكأنه على ثقة من عدم تصديقهم له.

رغم صوته العالي. بلغته الأنغام الحنون.. تأفف وتبرم، وتوقف بسببها عدة مرات، مع أن الموسيقى لم يرفع صوته، ظل كما هو لا يحس بأحد إلا مشاعر آلته، ولا يسمع صوتا إلا خفق قلبه الواجف.. كان يردد:

ـ أنا كما عهدتنى.. أعلم الحرف وأزرع القمح.. أنام جائعا ولا أنحنى.. أنا كما عهدتنى والربيع جاء.

ضغطت أصابع الخطيب على كتف الرجل الأيسر، وكان ضخم الجثة، مفتول العضل.

تقدم الرجل مسرعا، وقد أقسم أن يفدى بروحه رجل المبادىء والقيم.

اختطف الكمان من الضرير دفعه بلكمة فى الصدر فألقاه حطم الكمان وعاد يبتسم.

انطلق الخطيب بصوت أقوى وأعذب. رنت كلماته الفاخرة، ترفض الانهزامية والشللية والعمالة.. عادت الدائرة بجمهور جديد. ازدادت كثافة حول الطبل المدوى.

حط الرجل الضرير جسده على الرصيف مكسور الجناح ككومة من حزن وقهر، الناس حوله بين الدهشة والأسى ينفثون زفير الغضب، يتمتمون بكلمات السخط. حاول البعض أن يستعيد النغم.

ـ وقلبى من لحم ودم.. يشجيه شدو البلابل والكبرياء.. الربيع جاء.

أعادوا الغناء، وردد بعض آخر.

ـ الربيع جاء فهل تجيء..؟ عودتني تزورني.. إذا الزهور أينعت.. عودتني،ردد آخرون.

ـ أنا كما عهدتني.. أعلم الحرف وأزرع القمح.. أنام جائعا ولا أنحني.. أنا كما عهدتني.. الربيع جاء.

فوجيء الناس كلما رددوا مقطعاً من اللحن تحركت قطعة مكسورة من الكمان في اتجاه قطعة أخرى، كل قطعة تلتوى وتحتضن جارتها، تتشبث بها. والمنشد يصيخ بأذنيه السمع ويميل بوجهه، كأن حرارة الشوق المفتت في الأجزاء المتباعدة تبلغه، الشوق يدفع القطع ويسويها ويلصقها يرتها إلى موضعها والأفواه تردد.

ـ قلبي من لحم ودم.. يشجيه شدو البلابل والكبرياء.

هب الضرير إلى الكمان بادى الحماس، فحمله وقبله.. مسح على صدره ولمس الأوتار. كل جزء في موضعه.

لما نهض المنشد كان يمثل قمة الإمتزاج بين الشقاء والحب.

أقبل المستمعون للموسيقى يشجعون الكمان المجهد على النغم..

يذكرونه باللحن يتمتمون، فينطلق ويتجلى كما كان قبل الصاعقة.

فوجيء الخطيب المجلجل بالألحان تترى وتزحف عليه محملة بالعبق، كأنها أزهار البرتقال تزحف على المدينة العفنة.

ـ غير معقول.. هناك مؤامرة.. حطموه.. أدفنوه.. لا تبقوا له أثرا.

أسرع خدام الرجل المتلألى إلى منابع النغم.. تخصص بعضهم في ضرب الموسيقى سحقوا أصابعه التي تعزف قطعوا لسانه الذي ينشد ألقوه على الرصيف، كأنه بقايا إنسان معصور، ليس فيه أثر الحياة.. ميت من سنين.

تفرغت مجموعة أخرى للكمان حطموه على الرءوس وعلى الركب بعثروه في الأرض مروا عليه بالأقدام أعادوا سحقه بالكعوب الحديدية، ثم حفروا حفرة ودفنوا فيها ذراته أهالوا عليها التراب. مروا فوقها بالنعال.. دكوها تماما.. نفضوا أيديهم.. قال الجميع بفخر.

ـ الحمد لله.. الآن لا موسيقى ولانغم.

لم تتح للذاهلين المتحلقين حول الموسيقى فرصة للدفاع عن صاحبهم ولما أفاقوا أخذوا مذعورين يتفرجون على النهاية، ويدهشون للقسوة والعنف.. يتساءلون عن الحدث الفظيع:

– ما الداعى لكل هذا القهر؟ إنه رجل مسكين وهذه حياته..

حاولوا أن يتذكروا اللحن المغتصب.. بدأوا فى ترديده.. كشر خدام الرجل الملهم عن أنيابهم.. حملقوا بالعيون فتطاير الشرر. انتاب الأهالى ذعر، ماتت الكلمات على الألسنة.

عاد رجال السحق والتأديب.. إلى موضعهم.. كانت نظراتهم تقول:

ـ خلقنا للمهام الصعبة.. هل يمكن لأحد أن تسول له نفسه ألا يصغى أو أن يشوش أو يعوق.. نحن الحزب المختار.. نحن رجال الدولة.

زعق الخطيب.

ـ هيا نضع اليد فى اليد من أجل أمة جديدة متحررة من كل صنوف الهوان، ومن أجل أن يكون الإنسان إنسانا بمعنى الكلمة.

لقد صبرتم واحتملتم، وقد آن الأوان كى تصبحوا فى نظر المسئولين أهم من الكتب والآلة والروتين، وأهم من مراكزهم وبهجة لياليهم.

ضغط على كتف الرجل الأيمن فأسرع إلى أقرب مقهى يجلب الماء للظمآن المهيب.

بطرف عين عظيمة لاحت له فئة قليلة تذرف الدمع على الكمان المحطم.

ساد صمت:

لم تمض لحظات حتى تناهت إلى الأسماع أنغام خافتة، كأنها الهمس الجميل.. تلفت الجميع.. من أين تأتى الموسيقى.. المنشد لايزال كما هو كومة من الملابس الرثة ملقاة على الرصيف بلا حركة.

جاءت الإجابة من الأرض التى كانت تتشقق عن زهور ملونة، تتلوى وتتصاعد، تجاهد للخروج من قبرها. ومع كل تمايل تصدر نغمة.

رويدا رويدا شقت الأزهار الفضاء وعلت الأنغام.. أصبح الميدان كله موسيقى تصاحبها أزهار تتراقص فى لوحة فنية نابضة بالألوان بينما تلتف حولها أشعة الشمس وتتعامد عليها وتدور من حولها.

مهرجان بهيج من اللون والحركة والنغم.

تسلل عود من الزهر المغرد إلى الموسيقى المسحوق فأيقظه بعناء نهض حاول أن يردد اللحن، لكن لسانه كان مقطوعاً فتح فمه وبدا كأنه يتأوه.. رددت المجموعة الآسفة عليه مقاطع اللحن.

انتظمت الإيقاعات وتوالت كأنها فرقة مدربة، تغنى للإنسان الحائر فى الميدان الكبير.

تحول كل من كان حول الخطيب إلى المهرجان الغنائى.. بحثوا عن المايسترو الذى يوجه كل هذا الحفل.. لم يكن هناك قائد وإن كان غاية فى التآلف والإنسجام.

زعق الخطيب.

ـ لا يمكن أن نسكت على هذه الحرب، لابد من الإبادة الكاملة.. لابد أن يموت أعداء الوطن.

تقدمت الجرارات والآلات الثقيلة كأنها ديناصورات حديدية، تهز الدنيا وتزمجر. علا الصخب والعنف مع هدير المحركات، التى كان لها دوى كأنه طحن أنياب أسطورية.

بدت الجرارات كأنها تهديد بهدم الأرض وإعادة تشكيلها على نحو آخر امتلأت السماء بالثقوب من هوس الضجيج.

حفرت الآلات الأرض، وقلبتها اجتثت كل الزهور من جذور الجذور، سحقت كل شيء هدمت كل ما كان، ما كان فوق الجميع أصبح تحتهم، وما كان حيا مات، ومن مات أعيد موته.

حالت الدهشة بين المرء ونفسه، فلم يذرف دمعة.

وكان العمل غاية فى الوحشية والسخافة.. كل هذه السلطات والأجهزة تعادى آلة موسيقية ضئيلة لا تطمع إلا فى أن تعبر عما يجيش بداخلها، وليس لها من خطر يذكر؟

التصقت الجماهير بالجدران وجوههم باهتة ومعتمة، كأنهم صف من الرايات المنكسة.

لحظات وبدأ الخطيب يشرب كوبا كبيرا من الماء.. بدا أكثر قوة وحيوية.. ألقى نظرة رضى على الآلات الثقيلة، ومسح بالمنديل وجهه المزدهر. ابتلع ريقه.. بحث عن الموسيقى بنظرات خبيثة وجده واقفا هناك تعلو وجهه سكينة غريبة لاتتواءم مع ما يحيق به من مهانة.

كان وديعا باسما كأنه فى عالم آخر، يتلقى فيه الثناء الساحة شاسعة والميدان خال.. الناس هناك فى دائرة كبيرة.. ظهورهم إلى الحائط لاأمل لديهم.

وقبل أن يفتح المرشح فاه ليستأنف خطابه التاريخى الهام، أصم أذنيه قصف هائل يصل ما بين السماء والأرض.. صوت الجماهير تهتف.

ـ الربيع جاء، وقلبى من لحم ودم.. يشجيه شدو البلابل والكبرياء.. الربيع جاء.. الربيع جاء.

رائحة الوداع

قررت أن أعود ماشيا..

كانت رغبة قوية لم يصرفها الإغراء النادر الذى تلوح به السيارات الخالية.

شجعتنى النسائم العفية حملتنى على أجنحتها.. هزتنى.. نشرتنى.. طوحتنى.

بدا النهار أبيض مضيئا أكثر من اللازم، ولم تكن هناك شمس والسماء بلا سحب.. مجرد سطح رمادى شاسع، لكنه مصمت وصلد الملامح، يخلو من الحنان الذى تعودناه من سماء زرقاء لها عمق ورحابة.. بدت قريبه جدا منا كأنها تنوى أن تنقض.

سبح الأفق فى صمت كهربى محتشد، كأنه يترقب حدثا هاما على مستوى الآفاق كلها والخلائق.

مضت الريح تعبث بالأشياء فى غيظ مكظوم.. كانت دعابتها ثقيلة.. وكأنها تود لو تقرص أو تعض عضا مؤلما.. لم يحتمل الناس دعابتها ودفعها لهم فتعجلوا الاختباء.

فجأة.. استفز الريح شيء ما، وكأنها كانت تنتظر المبرر كى تهيج وتزمجر.. بدأت ترفع الأشياء وتخفضها فى قسوة.. اشتعل غضبها وتحول إلى هياج وحشى.. بدا واضحا أن الطبيعة ضاقت بالنظام والتقاليد الراسخة فقررت أن تتحرر بأى صورة غير عابئة بالمذعورين.

كل المخلوقات أحست بالغدر فبحثت عن مهرب، شرعت المنازل فى إبتلاع المخلوقات المهرولة، والأشجار التى كان يتعين عليها أن تبقى واقفة برغم كل شيء

كآخر معقل للمقاومة هاجمتها الريح بعنف، فاهتزت فروعها فى احتجاج صارخ، لكن ذلك كله لم يشف غليل الريح فواصلت الغضب، المجنون، إلى أن اقتلعت بعض الأشجار وخاصة الفارع منها، وأنشق الفضاء لهذه الأشجار المجتثة فى ربع دائرة عملاقة لتسقط على الأرض، وتحطم تماماً كل ما لحقت به.

حتى البحر لم يسلم من غضب الريح مضت الأمواج تحاول الإختفاء فى الأمواج، وتلك التى كانت تزدهى بأنها على السطح تتألق بالفضة فى أشعة الشمس اندفعت تحاول الغوص إلى القاع الآمن ولو ضمتها العتمة البائسة.

المطاردة على أشدها والثورة تجتاح كل شىء.. والناس يسرعون بالفرار بينما الأكف على الوجوه تخفيها، كأن الريح تفتش عن أحد ويخشى كل شخص أن يكون هو المطلوب.

عمن تفتش؟ لابد هناك ثأر ما أو جريمة.. خروج على قانون أو اعتراض على سلطة.

الرياح ماضية فيما قررته والشوارع تخلو تدريجياً من كل أثر للحياة وأنا مصر على البقاء.. يحفزنى التحدى الذاتى الذى يتملكنى أحياناً بلا مبرر إزاء الناس والأشياء.. شىء ما يدفعنى للمواجهة.. لم أعد أحتمل ما انتاب الريح من هوس.

كشفت لها عن هويتى لتتعرف على ثم اختفيت فى مدخل عمارة.. بدأت الرياح تصفر وتحمل الغبار وتهجم.. دفعت جبالا شبحية صفراء واقتحمت الأفق.. نفذت إلى الكهوف والأوكار.

تتقدم هذه الجبال العملاقة تسد كل المنافذ. تكتسح كل ما تمر به وتبتلعه مد أصفر يعلو حتى يبلغ السماء ويهبط إلى الأرض يمتد فى كل الجهات.. يكنس الشوارع ويلونها بذراته الصفراء.

لم أعد أرى شيئا.. ماذا يجرى فى الدنيا؟ هل نفخ فى الصور؟

هل آن أوان الرحيل؟

بدت الريح كأنها تنطلق من فم رهيب شفته العليا آخر السماوات وشفته السفلى سابع أرض.. تفح الهواء الأصفر فيندفع ويبتلع، ولديه قدرات خاصة تذيب المواد وتحولها إلى

ذرات صفراء لا وزن لها.. ولا تملك من أمرها شيئا، عليها فقط أن تتبع ذلك المد الأصفر الهلامى المسيطر.

تحللت العمارات الضخمة وانمحت معالمها المزدهرة التى كانت تبتهج للحياة. غدت أشكالا كالحة ثم أنشأت تطير وتسعى مع الزاحفين الصفر.

رويدا رويدا لم أعد أتنفس ورغم هذا لم أحس بالإختناق لاحظت أنى أخف وزنا وأرق حالا.. أسير فأجرى وأعلو.. أعلو وأنطوى وأذوب وأتحول إلى ذرات صفراء.. أمضى فى الموكب الأصفر جزء من الكون الأصفر وأشارك الكل فى اتجاهنا الصفراوى المقدس إلى النهاية المتعجلة.

قدر لى أن أدهش بآخر ما تبقى فى ذهنى من فكر بشرى وقبل أن أتبعثر إلى ذرات.. توصلت إلى أننا قد خلقنا من هذه الذرات، وها نحن نعود إليها.. ذرات صفراء لا يمكننى أن أرى من خلالها لأكثر من مسافة متر أصفر.

تتكاثف هذه الذرات وتحتشد.

تتقدم منى وتحيط بى فأبدو وحيدا غارقا فى بحر برتقالى.. أشم رائحة الوادع تفوح من قلبى وتمتد منه حتى جذور السماء.. ها أنذا أموت حيا.. أموت وحدى فى هدوء وبلا ضجة أو بكاء أو ندم. أين الروح الآن وأين الجسد؟ كلاهما ذرات برتقالية.. قمة الإتحاد الكونى لمعالم الوجود، لحظة وسوف ينتهى العالم بشكل لن يسمح بالإعتقاد أن أحدا عاش هنا أومر.. الكل عاد ذرات صفراء كما بدأ.

الليل.. لى

ـ ١ ـ

أغلق الباب واستدار إليها.. لاحت له فى رداء أحمر قصير. يبرق فى الظلام كعين شيطان. حدق لحظة كأنه يراها لأول مرة، ثم خلع الطاقية وكأنه بهذا قد تعرى، طوحها فى فضاء الحجرة فسقطت حيث لا يعلم.

كان يسعدها أن تراه فى هذه الحالة الجنونية بديلا عكسيا لحالة تعسة ويائسة تشمله أغلب ساعات النهار.

ألقى بنفسه فى بحرها ليستحم من أدران اليوم الموحش، ويغتسل بليلها الفضى الدافىء.

يمكنها وهو بين براثنها أن تطلب ما تريد، ولا تعرف إلا الطلب، فإذا وافق أغرقته وهذا ما يريده وإذا لم يوافقها أو لم يستجب ولو حتى بالوعد تدللت، وادعت ادعاءات يضطر معها أن يلعن أجدادها، إذ يكون قد وصل إلى نقطة اللاعودة.. أعلى ذروة فى الرغبة البشرية التى تتخلى عن البشرية والإنسانية دون أن تتخلى عن الجمال.. آخر الحدود التى تفرق بين الإيمان والكفر بين الإعجاب إلى درجة الإنبهار والسخط إلى درجة العصيان.. لا يكون لديه البديل فلابد من أن يعدها بالإستجابة.. وتعود هى بكل ثقة تتدلل حتى يقسم لها أن يبر بوعده، وأنه ليس كلام الليل بالزبد طلاه.

يجب أن ينسى تماما وهو معها طبيعته النهارية التى تتيح له الفرصة ليأمر وينهى.. يصول ويجول.. يسب ويضرب.. النهار لك والليل لى.. لما اطمأنت تماماً إلى أنه فهم وقدر أن لها أنيابا تمزق وسلطات لا نهاية لها.. وأنها أهم من في الوجود.. شرعت تعمل فى أناة وتمكن ومزاج.. لتؤكد له من جديد أنها تستطيع أن تحيى وتميت.

ـ ٢ ـ

تسربت لمسات الأنثى الرقيقة فأضاءت عروقه. امتلأ الجسد بالنور، فشف وخف وسما وتخلى، اقشعر جلده بالرغبة وهاجت أعصابه وخلاياه، وصحا الغول وتجول.. تمدد وتضخم وكاد ينفجر بداخله. ضاق هو عن احتوائه، أغمض عينيه فطالعه من المجهول تشكيل أسطورى له ملامح غول مضىء يجتذبه إليه.

اندفع نحوه وهو الممتلىء بالغول، اختفى فى الغول الضوء المرابط كسفينة ضخمة على الشاطىء تفتح بطنها لاستقبال المؤمن.

ضمه العالم السحرى، كان مغمض العينين بالنشوة يرى كل الأشياء وكل الألوان ويذوق كل الطعوم، ويسمع حشدا من الأنغام المجنونة.

كان يحس أنه لا يرقد ممتداً، ولكنه يدور فى فلك عجيب يحمله إلى كل الإتجاهات والزوايا ويطلعه على أخفى الأسرار.

ثم تدلى فى بئر جدرانه مرايا، تتبدى عليها صور متباينة لأشكال لا يعرفها ولا يميزها، ولكنه يتدلى إلى أن بلغ قاع البئر، فإذا هو على فراش وثير، وتلفت دون أن يفتح عينيه، لم يعد هناك أى سر.. تلاشت كل الأسرار. أحس بجسده مجرد كتلة محطوطة وثقيلة ومظلمة.. فسكن ونام.

الثلاجة

أعترف أننى كنت أغار منه، فمنذ أن تخرجنا فى الفنون الجميلة، وحتى أثناء فترة الدراسة، كان يبهرنا بخطوطه وألوانه، ويفاجئنا بمزجه الغريب فى لوحاته بين اتجاهات متعددة.. تتعايش منسجمة فى جمال أخاذ.

كانت بيوته تسيل واللون ينهار فيها على اللون، ودموع أطفاله خيوط من الضوء تمضى إلى السماء لتصحب رحلة المطر، ووجوه نسائه شعل من النار تتخللها أراض تزدهر فيها المحاصيل وتتدفق بينها قنوات الماء المبتهج.

والدهشة تتملكنا وتهزنا فى عنف وتظل وقتا تدب فى أعماقنا، حتى الأساتذة كان هذا العفريت يشدهم بلوحاته الخلابة وزواياه المتميزة ويسعدهم أسلوبه المتجدد، فكل ما يطلع به علينا جديد وغريب وممتع..

نحدق ونغوص ونتأمل.. نود لو نعثر على السر.. ليس سر الجمال المتفجر فى الصور، ولكن سر الإلهام الذى رمى هذه العوالم بين يديه، لا يجد غضاضة فى أن يرسم كوبا مقلوبا، ولكننا كنا نحس أن الكوب يخفى سرا، وأن له عيونا ماكرة تتوعد فى خبث إذا الكوب اعتدل.. وقد يرسم بابا مخلوعا، فتدرك إذا حدقت فى أنه باب شامخ.. واثق بنفسه حريص على كبريائه، رغم مسحة الحزن التى تشوب جوانبه، وتتصور أنه هو الذى قرر أن ينخلع من بيت عظيم وممل.. وله لوحة لطفل فلسطينى مشوه، لكن نورا غريبا وساحرا يشرق من عينيه ويمتد ليضىء اللوحة كلها.. والعالم.

تفرقت بنا السبل، وألقت بنا الغايات المتعددة إلى طرق مختلفة.. لكننى كنت دائم السؤال عنه، متوقعاً فى كل مرة أن أتلقى عنه خبراً مثيراً فى عالم الفن، هو جدير به.

علمت أنه تزوج فجأة من جارته لاأظن ـ حسب علمى ـ أنه كان يحبها ولا أظنه تزوجها نزولا على رغبة والديه، فهما لم يفرضا رأيهما يوما عليه.

فى أحد الأيام وبعد عودتى من الخارج، فأنا كثير السفر بحكم عملى، سألت عنه.. فعلمت أنه هجر «الأتيليه» ولم يعد يرتاد المقهى التى اعتدنا اللقاء فيها أحياناً فى محاولة للربط الدائم بيننا حتى لا ينفرط عقدنا.. وأنبأنى الأصدقاء بأنه ما عاد يشترك فى المعارض، وإذا ألحوا وافق على الإشتراك بأعمال قديمة سبق عرضها حتى حفظها الناس ـ وفقدت بريقها وطرافتها..

ما الذى حدث له؟ هل استحالت شهوته الجهنمية رمادا مبتلا!

قررت أن أزوره ـ لكن مشاغلى حالت.. وقابلته مصادفة يحشر أولاده الخمسة وزوجته فى سيارة أجرة، ويرتمى على المقعد بجوار السائق محتضنا أحد أطفاله.. وقفت أرقب السيارة كأنها اختطفته منى ولن أراه ثانية.

ماذا جرى له؟

كانت ياقة قميصه دائما منشاة.. لكنها اليوم كانت غريبة..، على الأقل بالنسبة له.. جناح منكس إلى أسفل وجناح مشدود إلى أعلى – كأنهما لا يريدان العمل معا فى قميص واحد ، وكان أشعث الشعر، مبعثر الهندام.. أما عيناه فكانتا ترسفان فى قيود غير مرئية.

تكثفت فى أعماقى تعاسة هائلة.. واعترتنى لحظات أسف شديد على هذا النابغه الذى ذاب كقطعة من السكر، ابتلعتها أمطار الحياة وجرفتها إلى حيث تصبه وتصب غيره.. أى تحول هذا وأى نهاية!

رغم أنى أعترف بفشلى، فلم أعد أنتسب إلى الحياة الفنية تماما، وأنا أقرب إلى رجل الأعمال منى إلى الفنان، فإننى أعشق الفن، وأريد أن يحيط بى فى كل مكان وأن يتسم به كل ما تقع عليه عينى وتسمعه أذنى وتلمسه يدى.. لابد أن يكون هناك من يبدع الفن

ويقدمه للناس حتى لو جاع وتشرد.. لابد.. لم أكمل ما بدأت وقد كنت «واعدا» كما يقولون.. ولطالما احتشدت فى نفسى الأحلام وأمتعتنى بحلاوة الطموح وأمانى المجد. لكن ظروفا أثرت وتدخلت.. أما هو فلا أسمح له ـ وكلنا لا نسمح.. ونأبى ضياعه أو سقوطه على أشواك الحياة.

كنا نحقد عليه ونغار منه ونظن به الظنون.. أما الآن فلا.. هو أحقنا جميعا بأن يعيش وينتج وينتمى لفنه ـ وينتمى فنه له ويصبح كأمثاله فرحة الأمة.

لابد أن أفعل شيئا من أجله ـ فلم أعد أشعر نحوه إلا بالعطف ـ وكأنه ولدى أهملته سنوات.. لابد أن يرتوى من جديد ويروى.. لو ضاع مثله من الذى يبقى ويضىء؟ إننا نقر بأن الفن له حقا ضحاياه، ممن تصوروا أنهم عباقرة.. أما هذا الفنان فهو عبقرى حقيقى..

دعوته ليشاركنى نزهة مغربية ـ فتململ واعتذر.. ثم انفلت منى.. لكنى عزمت أن أجلو الصدأ عنه.. اتصلت به واحتلت..

ـ بصراحة أنا أعانى أزمة نفسية ولابد أن أتحدث إليك ـ ولماذا أنا بالذات؟

ـ إحساس عميق يؤكد لى أنى سأرتاح إذا التقينا.

ـ هل ثمة علاقة بينى وبين سبب أزمتك!

ـ فى الحقيقة أنا لا أعرف السبب.. ربما هو الشوق إلى ماضينا البرىء.

ـ منذ متى كان ماضينا بريئا؟

ـ منذ كبرنا.

ـ أنت تخفى شيئا.

ـ إذا لم تكن لك رغبة فانس أنى دعوتك.

ـ يا رجل.. كيف أرفض لقاءك.. وبيننا أيام الدرس التقينا.. وكانت أنسام الغروب بعد يوم قائظ كفيلة ببعث الأمل فى نفس اليائس.. أنستنا سخونة النهار وإلحاحه الممضى كى نسأم الحياة..

ترقرقت الذكريات واندفعت تتدفق.. حدثته عن الجمال والإنسان.. عن الطبيعة والخلود.. عن سحر المعانى المثالية.. تماديت واندمجت ونسيت نفسي حتى دهشت لما قلته.. كيف قلته.. إلى أن تململ وبدا كأنه يحاول الفكاك فأفقت.

على أطراف الأفكار والذكريات تسللت من جديد فتألق وجهه تدريجيا مع كل عالم شفاف للفن تتجمع ملامحه على خاطرى فأرسمه له.. ثم عاد فتململ.. جفلت وغيرت الحديث.. لم أجد خيرا من أن أمضى به إلى أحد معارض الفن الحديث.

لما أصبح فى قلب القاعة.. رنا إلى فى عتاب، وكأنى وضعته فى مكان غير لائق.. سألتنى نظراته:

ـ لم لم تقل لى حتى أستعد؟

أجبته في نفسي:

ـ لماذا تستعد؟.. هل تستعد لدخول بيتك! تقدم يا أخى.. تقدم.

أومأت له برأسي مشجعا.

تنفس بعمق كأنه يتنفس لأول مرة منذ سنوات.. مضى يتأمل اللوحات.. يقترب منها ثم يبتعد.. يعبر بسرعة فوق الصور المستباحة، ويتمهل ـ تغمره السعادة ـ عند الغموض النبيل ـ فيجوس بحثا عن بعد الأبعاد.. إلى ما وراء الرحم الكونى الشفيف.

خلت أنه يتحدث إلى ولكنه كان يتحدث إلى نفسه.. عن النسب والتأثير اللونى الذى يولد الأضواء ويكشف فى الوقت ذاته عن التجريد الخفى الموحى.

انتشى بعد كآبة وزاد طوله ورحب صدره وبرقت عيناه، سرى فى دمه رحيق الأمل فملأه بالحياة.. تحرك رأسه فى عصبية وشرود.. أغمض عينيه لفترة طويلة وارتجف لحظات، هرب منها بمعاودة الفرجة.. وحين أتى على كل اللوحات تأبط ذراعى وسحبنى إلى الخارج، فمضيت منتصرا.

شكرت الله الذى هيأ الظروف كى أحرز هدفا. لقد وفقت ولاشك بدليل الحالة التى أراه عليها.

قلت له: هيا نجلس فى المقهى بعض الوقت.

رفض.. وطلب أن أدعه يعود إلى بيته ماشيا.

ـ المسافة طويلة عليك وحدك.

ـ أرجوك.

استدار ومضى دون أن يسلم.. تأملته وهو يجتاز على مهل وثقة مملكة الليل المتألقة.

علمت أنه بحث عن أدوات رسمه.. جمعها وأعدها للعمل.. أبدت زوجته دهشتها فلم يبال.. أزعجه الأولاد فلم يحفل.. استدرجوه لأحوالهم فلم يسلمهم قياده كما تعود وتعودوا.

انتبذ له ركنا فى الشرفة وراح يتأمل ما حوله، ويسبح بخياله المتكاسل.. يدفعه دفعاً نحو شيء.. غاص فى سراديب روحه المعفرة بتراب الكسل.. انزعج عندما لاحت له كمخزن «روبابيكيا».. مهملات مبعثرة.. أشياء تافهة.. أركان معتمة.. أفكار قديمة ومتهرئة.. «كراكيب» وأحلام لا يربط بينها رابط إلا خيوط العنكبوت والإستسلام والملل.

نفخ فيها.. ثار الغبار.. نفخ ونفخ.. انفتحت طاقة وأطل الأمل فى هالة من نور وبهاء.. بدأت قتامة الدنيا تستعد كى تنقشع من سمائه.

سألته زوجته المربعة: ما بك؟

دون أن ينظر إليها أجابها:لا شيء.

عادت تسأله: لماذا جمعت هذه الأدوات.. هل تنوى بيعها؟

رد بحماس وتصميم: بل سأرسم.

لم تفهم تماما ما يقصده: ماذا؟.

ـ سأرسم.

ـ حقا!

ـ نعم.

ـ وما الذى ذكرك؟

ـ كان يجب أن أتذكر.

قالت وهى تتأهب للذهاب.

ـ دعك من الرسم وتناول البطيخ المثلج.

ـ لا أرغب فى البطيخ.

ـ هل نسيت أنك تحبه؟

ـ اذهبى الآن.

تأملته لحظة.. فكرت أن ترد عليه.. كيف يقول لها: اذهبى الآن:

لم يسبق أن قال مثل هذه الكلمة.. أنه اليوم مختلف.. ماذا يا ترى جرى له؟ قررت ألا تهتم.. كثرة التفكير تعكر الدم.. تدحرجت بجسدها المدكوك وأردافها الثقيلة تسوق أولادها صوب حجرة النوم.. عادت تطمئن نفسها:

ـ سرعان ما يعود إلى عقله.. فلا داعى للانزعاج.

بقى فى الشرفة يحاول أن يكمل الصورة فى خياله.. يخشى الوقوف أمام اللوحة دون أن يكون قد استعد تماماً واحتوى الموضوع كله فى رأسه حتى لا يتوقف أو ينهزم وتفر الرؤيا الواحدة.. هذه عادته.. يمتلىء بالفكرة ويشحن بها عقله وروحه وجسده أيضا، ثم ينقض على اللوحة كالجائع فلا يتركها إلا وقد اكتملت أو كادت..

كلما تقدم من اللوحة عاد فتراجع.. يخشاها كأنها هى التى سترسمه وتكشفه عرياناً هزيلا.. وهيكلا نحيلا.. أجوف بلا أعماق، كأفرع شجرة تمكن منها الشتاء.

سبع سنوات أو أقل قليلا فى كسل فنى لم تمسك يده بالفرشاه، حتى تخشبت.. أما نظراته فقد فقدت لمحاتها وتكسرت أجنحة خياله.. منذ.. منذ أن تزوج وشغلته هموم الأولاد والمطالب.. دوامة حياته فجة أقرب إلى حياة البهائم بلا معنى ولا هدف ولاذكرى ولا عمق.. ولا.. ولا..

قال لنفسه كى يمنعها من لومه:

ـ كيف أطيق أن يكون لى أولاد محرومون!.. لا أستطيع احتمال احساس من هذا النوع لحظة واحدة.. مستحيل.. كيف أقبل أن يصفر وجه زوجتى حين ترى ثوبا وتتمناه ثم تكتم فى نفسها لأنها تعلم أنى عاجز عن تلبية ما تهفو إليه.. كيف؟

استطرد بغير حدة: وقبل ذلك كان لابد أن أتزوج، فهل أسكن مع أبى وأمى فى بيتنا الصغير الذى صبر علينا حتى كبرنا.. فى هذا الوقت عرض على العمل فى الإعلانات والدعاية.. لم يكن الأمر سهلا على، ولكنى حين تسلمت فى يدى مبلغا كبيرا دون أن أمسك قلما أو أمد يدى للفرشاة.. رضيت مؤقتا.. ثم توالت سلسلة الحلقات.. والآن..

ـ الآن لا شىء يسير إلى الخلف.

دار فى الشقة حائراً برأسه الخاوى الذى لا يستطيع القبض على الفكرة.. الأفكار كلها زئبقية.. لا تستقر على صفحة خياله لحظة.. وتهاجم بعضها فى عنف كأنها ذرات فى ماء يغلى.. لاتنسجم ولا تتآلف.. تهرب وتأتى غيرها مندفعة، ثم تفر ويلتقى الجميع فى خليط مزعج، ويصعب أن تتحد إحداها بروحه.

كلم نفسه طويلا.. واقترب من اللوحة.. أمسك الفرشاة ثم عاد فتركها.. أدرك أنه لم يتأهل بعد.. تجول متسكعا فى الشقة.. حاول أن يشغل نفسه بشىء تافه ليفكر من خلاله.. تعود أن يفعل ذلك.. وقد تكون محاولة لإهمال الفكر حتى يجىء وحده راضيا.. لكن هذا الأسلوب كان يحقق النتائج عندما كانت المخيلة فى حالة استنفار دائم ونار الفكر متأججة والموهبة مواتية.

تذكر البطيخ.. تمناه.. إنه فعلا يحبه كثيرا.. سعى إلى الثلاجة.. لما فتح بابها، طلع عليه عالم مضىء.. جذاب وحنون.. قفز طبق البطيخ إلى عينيه.. شقق حمراء متراصة منقوشة ببذور سوداء، تخفف من فداحة اللون الأحمر وإصراره..

البطيخ ذرات رملية حمراء متحدة بشدة.. تلمع وتكاد تسيل شوقا إلى شفتيه.. أغرته وتحدته.. بلع ريقه وشرع يحدق فيها.. ثم حول نظره إلى جوانب أخرى من الثلاجة الضخمة.. عالم مضىءورطب.. جذاب وحنون.. هناك أشياء كثيرة كلها تتنافس.. لكن البطيخ المثلج الذ ثمار العصر.

مد يده يتوجس وكأنه يخشى النتائج.. أمسك بشقة وأدناها من فمه.. فتح فمه إلى آخره واحتوى منها جزء كبيرا.. انقض على بقية الشقة فى نهم.. ذابت فى حلقه خلال ثوان.

أخرج من الثلاجة رفا كان يقسمها نصفين، فإذا الثلاجة تتسع لعملاق.. أمسك طبق البطيخ بيده، تسلل إلى الثلاجة.. أخذ يأكل ويرتشف شقة تلو أخرى، واحدة فى فمة وثانية يحدق فيها وكأنه يعدها لتلحق بالتى سبقت.. اندمج تماما فى التهام البطيخ.. كان الطبق يتناقص بسرعة.. لكن سياسته المفترسة لم تتغير، إلى أن فرغ الطبق فجأة، فألقى فيه نظرة عاتبة.

تلفت حوله.. فرح إذ وجد نصف «التورتة» التى اشترتها زوجته أول أمس لايزال على قيد الحياة.. أمسك الطبق وبدأ يذوق بإهتمام وإعجاب.. اعترف بأن فن الإنسان فى خلق أصناف جديدة من الطعام جذابة وباهرة لايتوقف.. كل يوم هناك جديد أجمل وأروع.. ومن المؤسف أن العمر لا يكفى.. والبطن أيضا.

أسعده أن الطريق إلى معدته مفتوح وشهيته على أفضل مما يرام.. لكن درجة الحرارة أقل مما يحتمل.. وتدريجيا تقل.. وتقل حتى بدأ يرتعش ويأكل على مهل.. وما أن أتى على التورتة حتى توقفت يده فى منتصف المسافة بين الطبق وبين فمه.

ثقلت جفونه.. كان يريد أن ينام.. ليته كان قريبا الآن من السرير.. جسده مهدود وكأنه قدم لتوه من سفر طويل.. لايستطيع أن يتحرك.. تصلبت أعضاؤه، فبدا عاجزا عن مد ذراعه ليدفع باب الثلاجة.. رويدا رويدا تيقن أن المكان الذى يضمه الآن هو كل العالم.. أصبح على ثقة من ذلك.. ثم لا شىء.. على الإطلاق.. البرد قارس.. قارس جدا، وهو يريد أن.. أن ينام.. وقد نام فعلا..

الغـدورة

بنت بنوت

وقف التاكسي أمام إحدى الفيلات، نزلت منه هالة تسبقها أصداء ملامحها الساخطة، تلفتت حواليها ثم مضت نحو الباب الحديدى الصغير، توقفت لحظة دون تدخل، حدقت شاردة فى السلسلة الحديدية التى يتعلق بها قفل أسود كبير، قبضت بيد عصبية على الباب وأغلقت عينيها لتقتلع تنهيدة عميقة.

مشت عدة خطوات بحذاء سور الفيلا، وانعطفت بعد نهايته إلى اليمن. تدافعت خطواتها كأنها تتدحرج من فوق جبل عال نحو سفح مظلم.

أخيرا بلغت بيتا قديما حائل الطلاء، دفعت بابه الخشبى بشدة حتى ارتطم بالحائط، فلم تتح له الفرصة ليئن أنينه المعتاد، هبطت ثلاث درجات قبل أن تصل إلى الأرض وتطالعها البلاطات الصغيرة المتعرجة، وتناهت إليها البرودة والعتمة الأبدية.

أسرع إليها إخوتها الصغار يرفرفون كالحمام صوبها، دفعتهم عنها، واندفعت إلى حجرتها وأغلقتها فى وجه القلوب المتلهفة.

سقطت على السرير، تأوه السرير وصبر، بقيت نائمة على بطنها تحاول أن تبكى، لكنها لم تبك رغم استدراجها للدمع وتشجيعها له، ضربت الوسادة بقبضتها عدة ضربات وهى تتذكر ما جرى من أنيس.

أحست بالحجرة تشع وحشه وظلاماً، الجدران تتقدم والسقف يهبط، صدرها لا يتسع لسيل تنهداتها نهضت وهي توشك على الانهيار تماسكت وتقدمت خطوات صوب المرآة قذفت فردتى الحذاء الجديد الذى أخذته من سوسن صديقتها لتزور أم أنيس.. طالعها في المرآة بملابسه الأنيقة وعوده الممشوق، دار حول نفسه ثم ضحك ضحكته الشهيرة المجلجلة ذات الذيول، تسلل إليها شعور حاد بالحقد عليه، جلست على الكرسى دون أن تتنبه وتعدل رجله الرابعة، سقط بها الكرسى، تغلغل فى نفسها الحقد على العالم أجمع.

خلعت الباروكة الشقراء ووضعتها أمامها على رف التسريحة وأطلقت شعرها الأسود، بدا غزيراً على غير العادة، وأحاط بوجهها كله وارتاح على كتفيها.

عرفته منذ ثلاثة أشهر فى بيت ناهد، جذبتها شخصيته وملابسه وكرمه «خلعت الجيبة» التى اشتراها لها خصيصا كى تلبسها وهى قادمة لزيارة أمه، تدللت فى البداية، لكنه حاصرها بكلماته الحلوة، تعرفت بكثير من الشبان لكنهم لم يكونوا أبدا مثله، هو شيء آخر، كلماته لم تسمعها من أحد قبله، كانت قادرة فى كل مرة على أن تحملها إلى سماوات بعيدة من الحلم والأمل، طائرة فى فضاء رائع ومثير، ثم تعيدها بعد رحلة لا تعلم مداها بنعومة إلى الأرض لتسير بين الناس، وإن ظلت تفكر فيه حتى تعود إليه.

تذكرت رغما عنها لمسة يده القوية الدافئة، ورحلة أصابعها بين أصابعه الطويلة الرفيعة التى أحياناً تكون خشنة، وأحياناً كثيرة ناعمة، لازالت راحتها تحتفظ بذكرى الحوار الهامس الذى دار بينها وبين أصابعه، واللحظات التى جمعت اليدين.. والكلمات الجديدة النافذة رغم رقتها التى كتبتها يده على يدها.. التقت الكلمات على يديها ودغدغتها، وتسربت إلى عروقها ولحمها المشبوب فتكشف أن قلبها المعلق فى صدرها يعلو ويدور بين ضلوعها ويتلوى ويتشكل من جديد، ولا يعود إلى موضعه إلا فى اليوم التالى عندما تصحو من نومها، تجد كل ما فيها كما هو وأن هناك شيئا رائعا لا تعرف بالضبط ما هو يسكنها ويطفو على وجه أيامها المقبلة.

خلعت البلوزة الخضراء المزروعة بباقات الياسمين وسقطت الوسائد الإسفنجية التى كانت تضعها فوق كتفيها لتبدو عريضة وممتلئة حدقت فى المرآة بعد أن تخلصت من أظافرها ومدت يديها بحذر فخلعت الرموش التى ألصقتها فوق رموشها.

وقفت فى قميص النوم اللامع تعيد النظر من جديد إلى جسدها، صدرها، خصرها، فخذيها، مررت يديها على كل معالمها قال لها أنيس.

ـ أنت رشيقة كعارضة أزياء، أو موديل رائع لرسام.

عادت تنظر فى المرآة لأنفها الكبير وذقنها المدببة كانت تدرك أنها غصة فى حلق جمالها خلعت قميص النوم واستأنفت تأمل معالم جسدها العريان إلا من قطعتين.

طالعها فى المرآة وهو يدعوها للدخول إلى شقته الجميلة.

ـ سيكون لزيارتك أثر كبير عليها.

ـ أمك هى أمى يا أنيس.

ـ اعذرينى لتأجيل الخطوبة حتى تشفى.

ـ هذه هى الأصول.

ـ لو كان تليفونكم شغال كنت.

ـ لاتحمل هما.

ها هى تمضى فى أبهاء الشقة، يغوص كعب حذائها فى السجاد الثمين، الأثاث الفاخر على جانبيها، التحف الرائعة متناثرة ببراعة وذوق رفيع.. فى الأركان وعلى الجدران، أغراها الهدوء والبهاء الذى يفوح من كل شىء بالتنفس العميق، وروى خلايا أعضائها الظمآنة للجمال والسكون الوديع.

استأذنها أنيس ليبلغ أمه بحضورها. مضى فى ممر يسبح فى الأضواء البرتقالية الخافتة ويمتد إلى حجرة داخلية.

وقفت تتأمل لوحة على الحائط تخطف النظر بدقتها وألوانها، أثنت على الفنان الملهم.. توقف الثور زائغ البصر يحدق فى الحلبة الشاسعة، يصك أذنيه هدير الجماهير التى تتلهف لمشاهدة الصراع المثير تزلزل أجسادها حمى الدم المنتظر.

فى مواجهة الثور كان المصارع يلوح بالعباءة القرمزية، تروح وتجىء.. تومض للثور بعينين يضيئهما اللهب الوحشى، والمصارع نفسه فى زيه الذهبى الموشى بالغرور يرقص رقصة غامضة لكنها مشاكسة ومستفزة يطول خلالها ويقصر، يتقدم ويتأخر يتلوى كالقدر

المجهول، دون أن يرى الثور يده الأخرى وهى تختبئ وراء ظهره قابضة على السيف المسلول.

عادت تتأمل كل ما حولها أحست بروحها تهيم فى أثر هذا الشاب الذى يوشك أن يصبح بما يملك ملكا لها، سبحت روحها فى ملكوت السعادة التى هيأها الله لها لينتشلها من الظلام والفقر، ما أروع أن تأتى لحظة الخلاص التى زرعت بذورها منذ شهور.

فى آخر مرة أوصلها بسيارته إلى الفيلا، أخذ كفها فى كفيه، ومضت عيناه الساحرتان تكشفان لها أسرار قلبه المشتاق ولوعته فى غيابها، ثم قبّل الكف بوله شديد، وحاولت أن تسحبها لكنه تشبث فأيقنت أنها انغرست فى عالمه.

نزلت من السيارة ولم تدخل الفيلا بقيت واقفة تلوح حتى ابتلعته الشوارع ثم هبطت إلى بيتها خلف الفيلا، وهى راضية تماما عن نفسها وعن الناس.

بعثرت حاجياتها فى الغرفة وارتدت جلباب البيت، غسلت وجهها خلصته تماما من كل ما كان عليه من المساحيق والألوان واللصقات الفضية بللت رأسها حتى تفيق من الصداع الذى يدق رأسها بقسوة، عادت إلى حجرتها، قبل أن تغلق الباب أعلنت بلهجة منذرة أنها ستنام ولا داعى لإيقاظها مهما كان السبب.

عادت إلى المرآة، لاحت لها ملامحها أقل جمالا من ذى قبل، ثم شكت فى رأيها المتعجل وأيقنت أخيراً أن المرآة هى التى تلعب معها لعبة قذرة، لم تر فى مرتين متتاليتين وجهها يشبه وجهها، فى كل مرة له صورة مختلفة، المرآة لابد رديئة.

فتحت إلى أقصاهما عينيها، قضمت أسنانها غيظا فوجئت به يهجم عليها وهى تشرع فى اجتياز بابها، حملها فجأة، أخذتها المباغتة، صرخت قبل أن يلقيها على السرير، روعت بشدة من طعنة الغدر تدحرجت ببراعة صوب الجهة الأخرى قبل أن يسقط فوقها تعثرت وهبط قلبها إلى قدميها استولى عليها رعب الدنيا كله رغم ذلك وقفت وتماسكت استعدت للدفاع باستماتة، قلبها يدق بعنف وتحس بساقيها غير قادرتين على حملها، كل بحار العالم هاجت وصبت مياهها وأمواجها العاتية فى الوعاء الصغير.

فى قفزة واحدة كان عند الباب يسد عليها الطريق، كانت قد أوشكت على الإفلات وها هو يقف بينها وبين النجاة، هى حتى الآن لا تدرى كيف صفعته على وجهه وضربته

بسن الحذاء فى ساقه ثم دفعته بكل قوة الغضب والفزع المشتعل بجسدها فألقته على الأرض بين التسريحة والسرير انطلقت نحو الخلاص الجديد وهى تشك فى إمكانية النجاة الحقيقية.

الآن فقط تذكرت أنها نسيت عنده حقيبة يد ثريا تمددت على السرير تنتظر البكاء الذى يبدو أنه لا يقتنع بالانفجار رغم محاولاتها لاستجداءه خامرها إحساس بالهزيمة والندم كانت تحس فى بعض مراحل المعركة بقوة غير عادية، فلماذا لم تخلص العالم منه.. إنها الآن تكرهه وتحمد الله لأنها أفلتت ولا زالت «بنت بنوت» عندئذ انخرطت فى بكاء يزلزل كل ما حولها، بكاء بدا كما لو كان بلا نهاية.

صاحب المقام الرفيع

بالليل ظلت عيناه لا تعرفان النوم.. وفكره ذاهب آيب تدور آلاته وتروسه بلا توان.

الكل نائم وهو يسأل الصباح.. متى تجىء؟

عندما يطل الصباح المنتظر ـ سيضع الختم بصمته الشريفة على الأوراق، سيئول إليه ميراث كبير.

ياله من ختم، الأوراق دونه بلا معنى وبلا شخصية، مجرد أوراق، هو لا يعرف شكله بالضبط ولا يستطيع أن يخمن، وما دام الصبح لم يطلع فلم لا يخمن؟ لعله بيضاوى الشكل أو مستدير، وربما مربع أو مستطيل، ولعله كبير الحجم لا يمكن للقبضة الواحدة أن تطبق عليه.

أيا كان الأمر، فلا ريب أنه ختم مهيب، له شأن كبير فى حياة الأمم والشعوب، مصائر الناس فى يده، الحل والربط، النجاح، والفشل، الغنى والفقر، الحزن والفرح، الحياة والموت.

الصباح رباح.

هل يطلع الصباح بلا ختم؟ أى هل يسمح للصباح بالطلوع دون أن يختم؟

هداه تفكيره إلى أن الصباح لا يمكن أن يطلع بلاختم، وإن لم يره أحد ومن غير المعقول أن يكون ختماً كذلك الذى ينقشون به اللحوم المذبوحة.

هل يمكن أن يولد الطفل دون ختم؟ هل يسمح لأى مخلوق ـ علا فى الدرجة أو هان ـ أن يموت دون ختم.. هل يتزوج الناس دونه أو يطلقون؟

هل هو ختم واحد، توزع منه نسخ لتسيير الأمور؟ أم أن هناك ختماً كبيراً للأمور الهامة والخطيرة وله فروع أو أبناء صغار يدبرون أمورا أدنى أهمية وأقل خطرا.

صوت المؤذن للفجر يجلجل فى الفضاء الساكن.

تمطت الحياة تنتظر في طابورها الطويل حتى يسمح لها بالحركة، لابد أن تقف مظاهرها المختلفة إلى أن تختم لها الأوراق فتجرى وتدور العجلات وتصبح هناك حياة.

ثقل جفناه وداهمه النوم، لكنه قاوم، وإن لم يفعل فالصباح سيفر منه، وإذا هو يعبر البكور إلى الظهيرة وساعتها يضيع كل شيء.

غداً الجلسة ولابد أن يقدم المستندات الدالة على أحقيته فى الإرث صب على رأسه الماء، غمر رأسه وقفاه، تدحرج إلى سلسلة الظهر، أفاق، سينتقل بعد ختم الأوراق إلى معانى الأثرياء، ستتبدل حياته من حال إلى حال.

لحق نفسه قبل أن ينطلق فى أثر الأحلام والآمال، كبح جماح خياله وطامن من غلوائه عليه أن يتريث وليس ثمة داع كى يفكر فى الحياة الجديدة.

ألقى بعض زملائه الرعب فى قلبه.. ليس سهلا ختم الأوراق، اهدأ ولا تتجاوز حدود الواقع.

بصعوبة طلع النهار، وقبل أن يبيض تماما جبين الأفق، وانطلق يحمل الأوراق تحت إبطه، موضوعة فى ظرف داخل ظرف.

يتدفق فى الشارع بقدميه، يقفز الأسوار ويخوض فى الممرات، لا يعبأ بالسيارات التى بدأت تصرخ وتؤكد أن اليوم بدأ بالفعل.

لا إلى اليمين ولا إلى اليسار ينظر.

ها هو المبنى الذى يقيم فيه الختم.

أمام المبنى يقف العشرات، أصابه الاضطراب، كان على ثقة أنه سيكون الأول فى الطابور أو الثانى على الأكثر.

على مضض رضى بموقعه الأخير، وسرعان ما جاء بعده الآخرون ولم تمر دقائق حتى تململ، اعتبر نفسه ينتظر من ضحى الأمس فهو طول الليل واقف، أى منتظر، والآن قد مثم لكن لا مفر.

الساعة الثامنة والنصف ولم يخرج أحد، لم يبدأ السيد المبجل عمله.

الحمد لله أنه يقيم هنا ولا يأتى من مكان بعيد، فربما عاقه الزحام عن بلوغ مكتبه ـ أو ربما تعطلت به وسيلة النقل.. فماذا يا ترى جرى؟

التاسعة ولم يخرج أحد، ولم يتحرك الطابور.

تململ، فالشمس بدأت تغضب، وتصب لعناتها وتستعرض قدرتها على الإحراق وأخيراً.. خرج رجل يحمل أوراقا، وعلى وجهه تتألق ابتسامة الظافر.

سألوه عن التأخير.

أجابهم: غاب الموظف المختص فأمر الرئيس بتشكيل لجنة لإخراج الختم وتسليمه إلى البديل لا يستطيع شخص مهما عظمت رتبته أن يخرج الختم من مكمنه إلا المختص ولابد فى حال غيابه أن يصدر قرار بتشكيل لجنة، يتكون على إثره فريق كامل من قدامى المسئولين ليوافقوا على خروج الختم وتسليمه إلى من يستاهل هذه المهمة وهى جسيمة، ويكون موضع الثقة وهى عزيزة.

ويحرر محضر ويزف الختم فى حفل جليل إلى منبره، فيطل من عليائه على الأوراق ثم ينحنى ويطبع على جبينها قبلته المقدسة فتحيا وتورق وتزدهر وتمتد لها الأجنحة فتطير، وتحمل أصحابها إلى آفاق غير محدودة.

الناس حقاً مقامات.. ياله من ختم.

الأمر إذن ليس سهلا.

لم يرد أن يتخلى عن موضعه فى الصف مد قدما وقال للمختوم:

ـ دعنى أراه.

من بعيد بسط أمامه الأوراق، مد قدماً أخرى وتفرج لم ير شيئاً حدق ودقق سقطت أشعة الشمس عليه، صورته العامة واضحة لكن التفاصيل الصغيرة والنمنمات لم يتبينها،

هناك ولابد كتابة: لكنها غير واضحة تماما حتى يقرأها، كيف يقرؤها؟ إنه لايستطيع فكل حرف فيها خلاصة أدعية وتراتيل مقدسة لها تأثيرها على المخلوقات، فما أن يقع نظر المسئول عليها حتى تبرق عينا الجن الكامنتين فيها، فيوافق على الفور، وتفتح الأبواب المغلقة يسمح بالممنوع ويباح الذى لا يباح.

على عجل طوى الرجل الأوراق ومضى، خشية أن يطير سر الختم مع الشمس أو الهواء. وماذا لو حقدت عليه القلوب المتلهفة والعيون المحرومة، فإذا به عند وصوله إلى داره يكتشف أن الأوراق بلاختم ولا تصلح أبدا لشيء.

لاتدع الآخرين يحدقون فيما تملك، احمله بعيدا عنهم حتى يصب خيره فى حجرك. هكذا قالت جدته يوماً لأبيه.

كانت أشعة الشمس قد سقطت على الجميع، دفعه الواقف خلفه إلى الأمام وتقدم الطابور وأصبح فى الظل اثنان فقط بينه وبين دخول المبنى نفسه.

البهو كبير.

لما دخل، برقت فى وجهه المرايا التى تكتسى بها الجدران تلألأت الثريات أما الأرض فلم يترك السجاد فيها ملليمترا إلا غطاه.

سجاد تغوص فيه الأقدام.

رطبت قلبه الصادى روائح عبقة.

لعلها التكييف الذى لا يعلم مكانه، لفح وجهه هواء بارد.

ياله من مقام.. مقام الشيخ ختم.

بدأ وزنه يخف، وملله يتلاشى، ورضى بالانتظار، فلديه فرصة طيبة للتطلع والاستمتاع.. وليس فى كل يوم أو شهر أو حتى سنة يتاح له أن يشم هذه الروائح أو تطأ قدماه مثل هذا السجاد.

تلذذت حواسه بما رأى وسمع وشم ولمس. تسلل الطابور إلى ممر جانبى، ثم صعد السلم المرمرى. من بئر السلم تطلع إلى أعلى.

غير معقول الطابور يمتد إلى أعلى دائرا مع السلالم، صاعدا الأدوار دورا فدورا إلى ما لا نهاية.

كل هؤلاء يريدون أن يختموا الأوراق، كلهم مثله سيرثون، سيزدادون ثراء وينعمون: كلهم سيبنون البيوت ويركبون السيارات ويتزوجون النساء ويقضون كل أيامهم فى الحصول على الأشياء.

اليوم هو يوم الأيام. هو مفتاح الدنيا الجديدة الختم هناك، فوق، فوق الفوق يحق له أن يكون عالياً وسامياً. يسعى إليه القوم تحفى أقدامهم وتهدم أجسامهم وتحنى جباههم حتى ينالوا شرف المثول بين يديه.

أخيراً. بلغ القاعة التى يقبع فيها الختم، دق قلبه وهو يتأمله، بحلق فى الموظف الذى حملته اللجنة مسئولية الحفاظ على الختم، ومساعدته فى عمله وتمكينه من تدبير شئون الناس.

الرجل ليس رجلا عادياً، قد يبدو عاديا، لكن ذلك محض وهم هو بالقطع ليس رجلا عادياً.

مد الأوراق وبسطها على المكتب توقف قلبه عن الدق ينتظر فى رجاء سيهطل المطر وتورق الدنيا.

رفع الموظف الختم إلى فمه، نفخ فيه من روحه، تألق وجه الختم دقه على الورقة الأولى والثانية والثالثة عاد إلى الأولى، دق على صورته التى فى أعلى الورقة إلى أقصى الشمال صفعها بالختم سقطت الصفعة فوق صدغه ورقبته وجزء من الجاكت الذى يرتديه فى الصورة عادت إليه أوراقه مختومة وقف يحدق فى الختم فرق كبير بين هذا الختم وبين الذى رآه على أوراق الرجل الأول. كان الآخر حائل اللون شاحب الوجه بلا ملامح كالقرش المسيح، أما هذا الختم فظاهر تماماً، الحروف والرسوم، والحواشى والإطار الهندسى الجميل الذى يحيط بكل ذلك.

زعق فيه المختص: ماذا جرى لك؟ أفسح الطريق.

اندفع خارجاً على الفور، لقد تجاوز الآن أصعب المراحل، لم يعد هناك ما يحول بينه وبين دنياه الجديدة.

خفيف الوزن هبط الدرجات، لا يحس بقدميه ولا يحفل بالناس الذين يحتشدون فى الطابور، ويحاولون النفاذ فى أوراقه لرؤية ختمه.

مذهولا هبط الدرجات، كان يحس فى قرارة نفسه وكأنه أفضلهم جميعاً، نبهه البعض إلى ضرورة مراجعة الختم على الأوراق قبل مبارحة المبنى.

ربما يكون الختم قد أغفل ورقة، الحق ما ادعوه.. وهو منشغل بالهبوط أطل فى الأوراق مرة ومرة، فجأة زلت قدمه، فانحط على السلالم المرمرية وبدأ ينزلق، درجة تلقيه على درجة.

رأسه يندق ودمه من الأنف يسيل.. رجلاه تصطدمان بالسور الحديدى. ولا يستطيع أحد أن يساعده أو يوقفه، لكنه بالرغم من كل ما أصابه حرص على أن يرفع يده بالأوراق بعيدا عن معركة الهبوط الضارية التى تجرى بينه وبين الدرجات.

الأوراق إلى أعلى إنها ـ بكل فخر ـ مختومة ولابد أن يحميها من إرادة الهبوط التى تلاحقه. لابد أن تظل حيث يجب أن تكون.. إلى أعلى ـ الناس لاتملك له عونا ولاسندا، كل هم العيون وشاغلها أن تطل فى الأوراق بحثا عن الختم المهيب، أما يزال بهى الطلعة وضىء الصورة واضح القسمات أم أن أنفاسه تقطعت، وشمعته قد ذبلت وربما بعد بلوغهم موضعه، يكون كل شىء قد انتهى.

هكذا يشعر الجميع دائما.. ودائما يعتقدون أنهم لن ينالوا شيئا لأن هناك من سبقهم، حتى لولم يوجد على الإطلاق.

توقف فى النهاية عنددرجة عريضة من السلم، تقدم منه بعض العاملين بالمبنى للإطمئنان على حاله كان محطماً أو يكاد، مفتوح العينين، ينظر إليهم ولا يجيب، حاول غير مرة أن ينهض لكنه كان عاجزاً تماماً.. وكانت الأوراق المختومة دائماً إلى أعلى.

أشواق زائر الفجر

ـ ١ ـ

ماذا كان على أن أفعل بعد انتهاء العمل، إلا أن أصعد هذا الجبل العالى، الممتد فى مواجهة البحر لمسافة تزيد على ستمائة كيلومتر، تنطلق تحت أقدامه السيارات فوق طريق رفيع ثعبانى أسود، كان علينا أن نحرسه من هجوم الرمال التى تتجمع أمام الجبل، تثيرها الرياح وتحركها فى اتجاه الطريق فتردمه، وكانت كمية قليلة من الرمال قادرة على قلب السيارات المسرعة، كلفتنا شركة الطرق ببناء المعسكر، اقمناه على ثلاثة أفدنة وأحطناه بسور عال، بحيث تكون البوابة فى مواجهة الطريق والجبل، والبحر خلف السور.. والمعسكر بين هذين الماردين.. كانت عيوننا منصبة فقط على الطريق الأسفلتى الساحلى، تمتد حدودنا مائتى كيلومتر مائه قبل المعسكر ومائة بعده، هذه المسافة هى منطقة اختصاصنا ومسئوليتنا لخدمة الطريق وحمايته، وقبلنا بمائتى كليومتر، يقوم معسكر آخر وبعدنا بمائتى كيلومتر يقوم معسكر ثالث.. وهكذا عند وصولى إلى المعسكر للمرة الأولى، هالنى ارتفاع الجبل ولفت نظرى ولما دخلت مسكنى وهو عربة متنقلة ومجهزة بكل ما يلزم، كان الجبل فى رأسى وأمام عينى، وتأملت وهو معى كل أدوات السكن، ثم خرجت إليه، فقد أحسست أن عيونه الهائلة تنظر إلى وتكاد تثقبنى وتغرقنى بنظراتها الصخرية، وقفت فى قلب المعسكر ورفعت رأسى إليه، تصورته أحد الآلهة العظام أيام الفراعنة أو اليونان القديم وأنا عبد بسيط طلبت الآلهة من الكهنة أن يحضر ليسمع ماذا

ستقول له الآلهة عن مستقبله، وماذا تطلب إليه أن يفعل.. كنت متأهباً للاستماع ومستعدا لتنفيذ ما تطلب هذه الآلهة التى تطل خلال الجبل.. وصلنى خطاب أمس من سامية تطلب فيه إرسال ثمن البوتاجاز الذى وعدتها به تأملته وهو ساكن وشامخ ومستبد.. مسحته من اليمين إلى اليسار، ومن اليسار إلى اليمين، بحثاً عن العيون التى يرى بها والأيدى التى يبطش بها والفم الذى يلتهم البشر الذين يتقدمون إليه فى صورة قرابين.. كان جهماً ومتغطرساً.. له رأس وكتفان وصدر رحيب، وعضلات كبيرة، طويلة وعريضة.. كيان مهيب بلا نهاية، له عيون تتطلع إلى السماء وعيون أخرى تطل على الأرض بمرور الوقت تبينت أنه لم يلفت نظرى فى الأيام الأولى فقط، ولكنه كان حريصاً على أن يظهر فى كل ورقة، ويقطع على كل فكرة، وينفذ إلى خيالى وذهنى وأحلامى، حتى وأنا أنطلق بالسيارة إلى أقرب قرية وهى تقع على بعد خمسين كيلومترا فى قلب الصحراء لأحضر اللحم والخضروات والفاكهة ومختلف مطالب المعسكر بوصفى المسئول المالى والإدارى، كان يتابعنى ـ منذ جئت ـ كرجل مباحث ضخم ذى شوارب، ونظرات حادة وغامضة، ويظهر لى فى أوقات غريبة، حريصا على الصمت والجهامة وسمت المتربصين.. لماذا أحس أن خطابات سامية أصبحت جافة، ومحددة وعملية، وكانت من قبل تسيل حنانا ورقة، عندما أفرغ من العمل، لا أحس رغبة فى القراءة، وأجد الجبل ينادينى فأخرج إليه من فورى وأنظر، كأنى أتحقق أولا أنه فعلا يريدنى، وأنى لن أقتحم عليه خلوته أو أعكر عليه صفو تأملاته أقف أمام البوابة وترتفع رأسى إليه فى ملكوته الفسيح، الذى يشيع دفئا، فأشعر بالحنان يغمرنى وأنا والكون بين أحضانه.. بعد لحظات تتسلق صخوره نظراتى.. ثمة إحساس مجهول وثقيل يؤكد لى ويضخ الدماء التى بالطبع لا تشبه دماءنا، ويبعث فى الجسد الكبير حياة بالطبع ليست كحياتنا، لكنه جسد حى يعيش ويتغذى ويتنفس ويفكر ويكبر ويتكاثر، ويحس ويتألم ويفكر، وأيضا يتضايق ويحقد وقد يغضب ويثور، أوقف أمام البوابة العريضة، المدخل الوحيد للمعسكر، والمخرج أيضا فالسور يحيط بالمعسكر من كل جانب، حتى من جهة البحر الذى لانراه، ولكن هدير أمواجه ينفذ إلينا بشدة خاصة أثناء الليل، وهو يحاول التحرش بالشاطئ الرملى، ويدفع الموجات العالية لتصفعه ثم تسقط، لترجع من حيث، أتت، ثم تقود غيرها فى محاولات لا تكف منذ خلق الله هذه الأكوان وإلى أن تعود جميعها إليه بودى أن أصعد إليك أيها الجبل. فكيف يكون الطريق

الأمثل؟ مد إلى يدك.. أفسح لى طريقا فى صدرك، أخشى صخورك المتعجرفة ونتوءاتها القاسية، ودروبك الوعرة.. ليتك تغيرين طريقتك يا سامية، اليوم هو الجمعة.. نصحو متأخرين فنصلى وينصرف الجميع للطبخ وغسل الملابس.. وأنا أبقى فى الانتظار حتى يجهز الطاهى التونسى طعام غدائى وهو الآن مشغول بتشكيل أطعمته الفرنسية التى يتحدث عنها دائماً بفخر، ولا استسيغها إلا احتراماً فقط لسنه وخفة ظله، وإخلاصه العميق والمؤكد لى.. ويعرف ذلك معظم العاملين لذلك لا يخلون على بالمدد بين الحين والحين يمكننى الآن أن اقضى معك بعض الوقت.. لن أكتب خطاباً لها اليوم.. تأخير الرد لاشك يفيد فى مثل هذه الأحوال. خطوات نحوه.. وضعت قدمى على أول صخوره.. رفعت رأسى إلى قمته واحتجت كى أراها أن أثنى رقبتى تماماً إلى الخلف.. فكرت فى المسافة التى تفصلنى عن القمة.. حاولت حساب الزمن فأفلت منى واختلط على.. فاستسلمت لدعوة الجبل.. نقلت قدمى فوق الصخور، استطعت أن أعثر دائماً على الصخرة التالية.. دائماً كانت هناك صخرة قوية ترفعنى مترا أو أقل أو أكثر وأنا فى مرة أصعد برفع قدمى فقط ومرات يتعين على التشبث بالصخور الأعلى بيدى.

التقيت وثعبانين فى طريق الصعود، أحدهما كان صغيرا، هرب منى، فأراحنى مبكرا من عذابى وخوفى منه، والآخر كان كبيرا، لكنه كان على بعد مترين إلى اليسار.. غليظا وقويا، وكان من العسير رؤيته إذ كان بلون الصخور، حتى أنى لم انتبه إليه فى البداية، وعندما وقعت عينى عليه، وكان ساكنا وملفوفا، تسمرت فى مكانى ولم أحرك حتى نظراتى وكتمت أنفاسى، ولم يصدر عنه ما يشى بأنه تنبه إلى وجودى، وربما أحس ولم يهتم، أنا متأكد أن أبويها وراء جفافها وكتاباتها الخاوية من العاطفة، والقصيرة.. بعد لحظات قررت الصعود فى إتجاه اليمين قليلا، وقلبى لا يكف عن الدق وبعد أن بلغت تقريباً نصف المسافة إلى القمة، وصادفتنى مساحة مستوية تمكننى من الموقف والدوران. رأيت أن أستريح، وكان جسدى كله يتصبب عرقاً. مدى إلى أذرع قلبك لتحملنى بعيداً عن صحراء المنفى الإرادى وتلقينى على شط حنانك، خلعت حذائى ونفضته، كانت بعض الحصبات قد نفذت إليه وآلمت بطن قدمى، أحس بى حيوان كالنمس ولمحته يهرب بعيداً، لعلها الورل، استدرت نحو المعسكر، فاستولت على نظرى مساحة البحر الشاسعة، التى تمضى فى الأفق بلا نهاية.. من هنا يتأمل الجبل البحر ولا ينتبه إلى تلك

الكائنات الضئيلة التى تسعى أمامه، وتثير ضجيجا تافها فى المعسكر وحوله تصورت جاليفر وهو فى إحدى رحلاته، عندما وصل إلى بلاد يسكنها أناس فى منتهى الضآلة، حتى إن الواحد منهم يحتاج إلى سقالة كى يصعد من شفته إلى أنفه.

كان المنظر من موقعى رائعا ومحزنا أيضا، وتساءلت عن وضع الإنسان لو كان أكبر مما هو عليه.. لو كان قادرا على أن يخوض فى الجبال وأن يسير على قدميه فى البحر.. وبسرعة أجبت على نفسى بأنه يفعل ذلك بالفعل، وضآلة الإنسان لم تمنعه من السيطرة على كل ما فى الطبيعة.

الجبل مثلى يحدق فى الصفحات البيضاء التى يفتحها الموج ويطويها وسط صحراء الزرقة اللامتناهية.. حركة دءوب، لا تتوقف لا شىء ساكن أبدا.. الجبل من تحتى يتحرك والسحاب فى السماء.. البحر يبدو كما لو كان يحيط بكل شىء ممتد بلا نهاية والجبل فى وسط جزيرة مهيبة طافية، وما الذى يحاول الإنسان أن يفعله وسط العمالقة؟ إنه لا يعرف، لكنه لا يكف عن محاولة التعرف على كل شىء والنفاذ فيه.. إهدأ قليلا أيها الكائن الصغير.. إهدأ واعرف حجمك، وطامن من رغبتك المجنونه فى الإمتلاك «هيا» حان وقت استئناف المسير وبلوغ القمة.

هناك سأضع قدمى على رأس الجبل وأحفر اسمى على صخرة، سوف أحفره بأى شىء، أسفت لأن الفكرة لم تخطر ببالى من قبل حتى أحمل معى مطواة أو سكينا أو أى آلة حادة.. على أية حال.. لن يحول أى شىء بينى وبين حفر اسمى.

تابعت الصعود وأنا أشعر بجفاف حلقى وشفتى، لا أثر هنا للماء ولا لنباتات يمكن أن أمضغها.. تنبهت فى آخر لحظة، أنى سحقت عقرباً وأن الشمس شديدة، لكنها شمس الشتاء المتقدمة فى حماس نحو الغرب لن تعرفى حلاوة حياة دون أن يكون قلبك هو صاحب القرار الأول «قلبك يا سيدتى اللامبالية.. قلبك».

أحسست بحبات العرق تنبت من كل مسام جسمى، وشعرت بسخونة أعضائى المتحفزة خلعت قميصى وربطته حول وسطى، واصلت الصعود.. فجأة التقيت بحائط صخرى عال.. كيف لم أتنبه له من قبل حتى أتجنبه.

لقد كنت لطيفاً حتى الآن أيها الجبل، ماذا جرى؟ أنت تعرف أنى لن أيأس، ولن أتوقف فى هذه المرحلة، لا تكن سخيفا.. لم يبق إلا عدة أمتار.. لماذا دعوتنى إذن؟ لا تنكر.. لقد دعوتنى وأنا لبيت لاحظت أنى لم أشاهد اليوم أى طائر، صغيرا كان أو كبيرا.

تأملت الحجر الضخم الذى يواجهنى، كان حائطا صلدا عريضا، يتجاوز كثيراً أى حجر من أحجار الأهرام، وليس به أى نتوء، أو فتحات أضع فيها قدمى، وأصعد.. وأنا أقف على صخرة لا تزيد على متر عرض ما العمل؟.. خطر ببالى فجأة، زملائى فى المعسكر، هل يا ترى افتقدونى؟ هل بحثوا عنى؟.. هل سيقلقون لغيابى؟.. أى غياب؟.. غياب مؤقت كأن أعود بالليل.. أم غياب تام ودائم لا أعود بعده أبدا.

الحرارة تهدأ تدريجياً ـ كلما مضت الشمس نحو الغرب، وسحابات قليلة تشبه الأفيال تسرع قادمة من بعيد، مررت بيدى على الصخرة الكبيرة أحاول البحث فيها عن فتحة، فلم أجد، كانت كأنما قطعتها سكين ضخمة.

أحسست بدبيب التحدى بسرعة فى جسدى، وقد تعودت عليه فى مثل هذه الظروف، كان الحجر طولى.. قفزت فوقه، وتعلقت بأصابعى فى حافته العليا ورفعت جسدى حاولت أن أرفع أكثر، فلم أقدر.. بقيت لحظات بلا تقدم، أخيرا.. نزلت والتقطت أنفاسى، ثم خلعت حذائى، وقفزت فوق الحجر من جديد، وتعلقت فيه، ودفعت بطن قدمى فى الجدار بحثا عن أى نتوء تعتمد عليه.

تكررت المحاولات إلى أن فوجئت بجانب قدمى يلتصق بالجدار، ويستند إلى شئ فيه، وفجأة أقفز إلى أعلى وأعتلى الحجر العقبة، ودون أن أتوقف لأستمتع بانتصارى وأبتهج بنجاحى، تقدمت صاعداً فوق الصخور، وقد أحسست ببعض الألم فى قدمى، لكنى كنت أصعد فى يسر وأتقافز بين الصخور التى غلب عليها اللون الأسود، وكانت من قبل بنية وحمراء، وكان من بينها ما هو زيتى.

ها أنذا أخيراً فوق القمة.. أنظر إلى البحر والسماء والشمس أمامى، والسحب فوق رأسى تتجمع من الشمس فى جسارة مجنونة، والمعسكر تحت الأقدام العملاقة وأنا فوق الجميع، وإن كنت حافى القدمين.. تنبهت أن بنطلونى تمزق، والدماء تنزف من بعض الجروح فى قدمى وركبتى أمسكت بالقميص ولوحت به فى الفضاء، كأنى أقذفه فى وجه

العالم.. أنا هنا يا خلق الله.. أنا هنا يا عالم يا صغير.. يا سفلي.. ناديت بعلو حسي على زملائي.. مبارك وراشد وخميس.. على وعبدالرحمن وموسى.. لم يسمع أحد ندائي.. ناديت سامية لم ترد لا تستطيع النسور أن تبلغ ما بلغت، لا.. ولا الأسود.. تنفست بأعمق أعماقي، ورويت أعضائي بالنسيم الرائع.. وزعت نظراتي على الكون.. كانت حولي جبال كثيرة وصغيرة، كأنها تلال من الرمال والرماد المحترق وكنت لحسن الحظ في أعلى قمة في هذه السلسلة.. رقصت رقصة لم أرقصها من قبل، لعل أصابع الفرحة غير المحتملة هي التي لعبت على مفاتيح البدن المشبوب بتألق الصعود فأخرجت هذه الرقصة، وتكونت عدة جمل إيقاعية تهدد بالنشوة والسعادة.. أنظريني الآن.. انظرى إلي بعيونك أنت لا بعيون الآخرين، أين رسائلك التي كانت عوني ومتعتي.. لبست القميص واستلقيت على بطني وبسطت ذراعي وأصابعي حضنت الجبل.. أحببته بدا لي كائنا طيبا وحنونا.. قبضت بأظافري على الصخر وضغطت جسدي على جسد الجبل حفرت فيه ملامحي وسقيته من روحي وعرقي وحتى لا ينسى أني كنت هنا.. أحببت الجبل والقمة والتفرد..

صعب أن أنزل عن هذه القمة، ولا يتعين أن أهبط مرة أخرى إلى السفح، لكن الشمس توشك، على المغيب، ليتني أبقى هنا أطول مدة ممكنة.. لماذا لا أعيش هنا؟ ما الذي يمنع؟.. للأسف لن أستطيع البقاء هنا أكثر من دقائق قليلة، بإرادتي صعدت ورغم أنفي سأهبط.. ها هي الظروف تتجمع لتقف ضدي وتدفعني للهبوط الحتمي، المعسكر المسكين ينكفيء على نفسه ويتعثر في ظلامه وضآلته كنت أحسبه أكبر كثيراً من مهمته التي يناط به أداؤها في خدمة الطريق، وإنقاذ من يتعرض من الناس لأية مشكلات، بينما هم ينطلقون بسياراتهم مسرعين.

عدت أنظر إلى الشمس وإلى السحب تتكاثر وتتجمع وتصطف، بدأت رحلة الهبوط بسرعة بعد أن ارتديت حذائي خامرني شعور أني أفارق شخصا عزيزا على قلبي.. أحببت الجبل، وأحسست بأنه فتح لي قلبه وكاشفني ببعض أسراره، وشجعني على الصعود إليه وارتياد عالمه العلوي الرحب.

وعدته بالزيارة ولو كل شهر مرة، ووعدته أن تطول المدة في الزيارة القادمة وأن أحمل معي بعض الفاكهة وآلة التصوير وكتابا ومنظارا، وربما مسجل، وسوف أحدثه عن سامية، المخلوقة التي ارتبطت بها، وهي الآن بعيدة.. بعيدة.

كان النزول سهلا فعلا مضى الوقت سريعا وأوغلنا فى المساء كان المعسكر يكبر تدريجيا ويتسع، وأنا أدنو منه وأشتاق لرؤيته عن كثب متصورا أنه لم يعد كما كان وأنه بالفعل أصبح ضئيلا، ومن يعملون فيه تحولوا إلى أقزام.. كائنات صغيرة لا تدرى شيئا عن العالم الحقيقى الذى هناك فى السماء.. هل تراهم سيدركون أنى إنسان جبلى.. وهل سيلمحون جبليتى التى من المؤكد سوف تبدو فى ملامحى.

طفت بالمعسكر كله، مررت بالزملاء الذين يعدون العشاء مجموعات مكومة حول بعضها.. عندما ظهرت بينهم وأنا أحييهم تحية المساء هبوا يسألون عن سر اختفائى من بعد صلاة الجمعة لحقت لسانى قبل أن يفلت منى ويقول أنى كنت فوق الجبل.. لا.. لن يعرف أحد ما بيننا أبدا.. قلت لهم أننى كنت فى نزهة مشيا على الأقدام وذهبت إلى مكان جميل على البحر، لا أظنكم تعرفونه.. وتمددت فيه ونمت.

مررت بالآلات وقد تصورت أن تكون قد تضاءلت أو قل حجمها لكن البلدوزرات الضخمة دى ٨ ودى ١٠ والقريدر والإسكريبر، كلها كانت على ما هى عليه.. ديناصورات متوحشة تقف مستعدة للعمل فى أى لحظة كل شىء كما هو.

تناولت عشائى مع إحدى المجموعات التى أصرت على دعوتى بإلحاح مصحوب بالقسم بالطلاق وشربت الشاى، طلبوا منى مشاركتهم فى الكوتشينة فشكرت وانصرفت، دخلت عربتى وانطرحت على السرير بملابسى التى كانت لاتزال تفوح بعطر الجبل.. كنت عائدا من لقاء حبيب بلغت معه أقصى ذرى الحب.. وكانت رسائلها عفوية متدفقة.. تكتبها بقلبها لا بعقلها.. عندما أفرغ مساء الغد، سأستمع إلى الشريط الذى أرسلته منذ شهور.

ـ ٢ ـ

انتفضت من نومى على طرقات قوية أزمعت كسر الباب، وصيحات عالية ومتلهفة، تصورت فى البداية أنه كابوس، ولكن الطرقات واصلت عملها فى إيقاظى، والصيحات تردنى للوعى بشدة فتحت باب الغرفة.. وجدت رجالا عراة السيقان، يخوضون فى ماء يصل إلى بداية أفخاذهم، والمطر يهطل ويصفع كل شىء، المعسكر تحول إلى بحيرة كبيرة، والظلام دامس إلا من أضواء البرق.

ـ أسرع يا أستاذ.. المعسكر يغرق.

انحنيت فرفعت رجلى البنطلون إلى ما فوق ركبتى واندفعت معهم.

ـ سيول عنيفة يا أستاذ.. لم نر مثلها.

ـ أيقظوا الجميع.

ـ الجميع خرجوا إلى الطريق.

لمحت الديناصورات تقف ساكنة كأن الأمر لا يعنيها أمرت السائقين بسرعة ركوب الآلات والسيارات وكافة المعدات وإخراجها من المعسكر إلى الطريق، قبل أن تصل المياه إلى موزعات الكهرباء الإسبراتير، والبوجيهات.

التفت نحو الجبل، لأرى حاله فى هذا المطر الذى تفتحت عنه كل بوابات السماء، راعنى منظر السيول المندفعة من فوق فى اتجاه المعسكر.. الأمطار تسقط عليه وتكاد تتجمع فى مخر واحد نحو البداية لتملأ المعسكر وتغرقه، الخطر ليس من السماء، ولكن من الجبل.

ـ أيقظوا المهندس رفقى بسرعة.

ـ المهندس رفقى سافر عصر الخميس ولا يحضر إلا مع الصباح.

ـ كم الساعة الآن؟

ـ الرابعة والنصف.

ـ هل أطفأتم مولد الكهرباء.

ـ سكت وحده بسبب الماء، والحمد لله أنه لم يتسبب فى حدوث ماس.

كان الوضع سيئا للغاية وأنا المسئول الأول الآن لغياب رفقى.

حاولت الجرى فى الماء، كان الأمر صعباً، أيسر منه الجرى فوق الجبل.. السيول تتوالى وتتدفق بلا رحمة وبلا أمل فى توقف قريب أو هدنة، كانت تهجم محملة بفتات الصخور ويرتفع منسوب المياه تدريجيا ولكن بسرعة.

ـ أين السائقون؟

ـ الكل فى الخارج.

لمحت بعضهم يقف فوق السور.. صرخت فيهم ليحضروا ويخرجوا.

هذه الآليات.. هذه ليست مناسبة للبرود والتبلد الذى يصم البعض... زعقت.

ـ إذا غرق المعسكر سوف نغرق جميعا، ولن ينفع أحداً وقوفه على السور.

كان نفع ابن نوح من آلاف السنين.. بسرعة يا مبارك.

ـ اجر يا خميس.

جريت فى الماء الذى علا حتى وصل إلى بطنى لمحت المراتب تخرج من الخيام الملاءات والطشوت الحلل تدور حول نفسها حسب دوامات الماء المتدفق باستمرار، بنطلونات وجلابيب ووسائد وأخشاب وأطباق وعلب سجائر تنتقل فى البحيرة حسب هجمة السيول.

زأرت الآلات الضخمة والسيارات واشتعل الضوء من مصابيحها ورأيت على هداه خياما تهاوت وركب الماء عليها، أشرت للسائقين بسرعة الخروج بعيدا عن البوابة والوقوف على الأسفلت.

ـ بسرعة.

معظم العمال هربوا وصعدوا فوق الأسوار حملوا معهم أهم ما يملكون خاصة أجهزة التسجيل والشاى والسكر والكبريت.. فتحت ثلاثة معسكرات وأسستها قبل المعسكر، ولم يحدث من قبل ما يحدث اليوم.. ما الذى يفعله بنا هذا الجبل المجنون.. المياه لاتزال تتدفق حمراء قوية وغاضبة، تكاد تقفز فوق الصخور وفوق الأسفلت، وتنوى أن تغرق كل شيء وتأخذ فى طريقها كافة البشر.. لماذا؟ لماذا أيها الجبل الطيب؟ لا شك أن عربة نومى الآن قد غرقت تذكرت أنى أغلقت الباب بعد خروجى، لى بها أشياء تستحق أن أستنقذها. ربنا يستر.

المياه تعلو وأنا أجرى فى كل مكان ـ أحاول إنقاذ أموال الشركة مجموعة من العمال تجرى معى وتقترح حلولا.. وتذكرنى بأشياء هامة.. أوتلفت نظرى لوجود أشياء خطرة، أنا أوجههم للعمل، لكن المياه تعطل تفكيرى نسبيا إنها ترتفع وترتفع، والسور محيط بنا، والبوابة شبكة حديد لا تمنع الماء، والجبل لا يكف، والسماء تبرق وترعد

كأنها فى حرب ضارية مع عدو لا يهدأ.. تأكدت أن هذا السور هو اللعنة الحقيقية فهو الذى يمسك بأيدينا ويقيد حركتنا حتى نتلقى لكمات الجبل وصفعات الماء.. السور الذى يحيط بنا من كل جانب، يحمينا ويمنعنا الآن من النجاة..

وصلت المياه إلى صدرى.. تذكرت الورشة أسرعت إليها.. بلغت المياه كل شىء نفذت من خصاص الباب وجانبيه ومن أسفله.. غطت المنجلة والمخرطة ووصلت إلى لوحات العدة المعلقة على الجدران، وتسللت إلى براميل الزيت المفتوحة.

خرجت إلى البحيرة الواسعة على زعيق العمال.. كانوا يحملون أحدهم فى اتجاهى جرى راشد ليخبرنى بأن حمدى الأشرم تعثر وهو يجرى فى وتد خيمة، وسقط فى الماء، ثم نهض فوقع ثانية وراح فى شبه غيبوبة، ثم قام وهو يكح باستمرار ثم سقط وكاد يغرق ولحقه الحسينى عبد الغفار وكامل الحمد لله، حصل خير.

تنهدت.. الوضع سيىء ولا يبدو ثمة أمل فى أن يتحسن تحولت إلى السور ثلاثة أمتار ارتفاع.. من ورائه البحر مباشرة.. المدير عصبى ومجنون عندما تضيع ورقة أو نشغل لمبة زيادة يشد شعيرات رأسه الباقية، وخصم خمسة أيام وعشرة أيام وقصص بلا نهاية تشل الحركة وتمنع التفكير إلا تفكيره هو.. فجأة لاحت فى رأسى فكرة، زعقت على مبارك الذى لا يكف عن السخرية حتى فى هذا الوقت، والعمال حواليه يستمعون لقفشاته، وقبل أن يتحدث يضحك أولا وتبدو سنته الذهبية.

ادعى مبارك أنه لم يسمع.. أسرعت إليه، فهذا ليس وقت الرؤساء والمرءوسين.. قلت له.

- افتح لى فتحة فى السور يا مبارك.

سكت لحظة ثم ضحك.. لا أعرف لماذا يضحك.. تمالكت أعصابى.

قال: لا أستطيع يا ريس.. المياه كما ترى.

- هذا أمر يا مبارك.. افتح السور من ناحية البحر.

بهدوء شديد ضحك مرة أخرى وقال: أهدم السور؟!

- بسرعة.

ـ مدير الشركة لو عرف..

ـ اسمع كلامى.. أنا المسئول.

ـ قل لخميس يا ريس.. أنا لا.. أنت تعرف أن موقفى فى الشركة أصبح على كف عفريت بعد الحوادث إياها.

تذكرت أنه كان قد ضرب رئيسه فى معسكر سابق، مرة اشتكاه زميل له إنه دائماً يحاول معاكسته بمناسبة وبدون، ومرة ترك العمدة عندما وصل إلى إحدى القرى، وراح يشرب كرسيين معسل، ورآه المدير.. وعذرته.

قلت لخميس.

ـ من عينيه يا ريس.

فرحت لأن الغمة ستنزاح أخيرا..

تململ وهو واقف.

ـ إذن أسرع يا خميس.

قال بهدوء: أكتب لى ورقة.

ذهلت..

ـ أين هو الورق الآن يا خميس؟

ـ أعذرنى يا أستاذ.

تذكرت الورق والمكتب، حمدت الله أنى أغلقت باب المكتب، لكن الماء لابد دخل، أسرعت وأنا أتميز غيظاً لأفتح الباب وأطمئن، وما إن فتحته حتى توقفت وأغمضت عينى من هول ما رأيت.

الماء بالداخل مساو تماما لما هو بالخارج وجميع الأوراق تسبح فيه.. الفواتير بمئات الجنيهات لم أسجلها، كانت تسبح وقد اختفت معالمها تقريبا ـ دفاتر القرارات الإدارية والموظفين وملفات الآلات وحركة الوقود.. كله.. كله غرق وباش.. أخذت أجمع وأنثر الماء ثم أرمى كل شىء فوق الدولاب حتى أفرغ له أو يغرق كل شىء ونحن أول الغارقين.

ناديت على موسى الميكانيكى وطلبت إليه أن يهدم السور من جهة البحر.. قال: منذ أن خصم لى المدير سبعة أيام من مرتبى لأنى أنقذت سيارة مقلوبة وقال لى مكانك الورشة فقط.. وأنا قررت ألا أفعل إلا شغلى وأنفذ أوامر المهندس رفقى فقط.. سامحنى يا أستاذ.. أنت تعرف أن المعسكر كله يحبك ويحترمك.. لكن.

ما الحل.. لا حل إلا الهدم.. الآليات خرجت ووقفت على الطريق النور يتسلل بحذر كأنه خائف من المطر وهدير البرق والرعد.. نور باهت حزين أنا.. أنا.. نعم أنا.. ليس غيرى أنا من سيهدم السور.. الجبل لا يزال غاضباً يصب الماء علينا، ومازالت السماء متواطئة معه على إقتلاعنا من الوجود.. المعسكر يغرق والخسائر تزيد كل دقيقة وسوف تكون أكبر لو بقى الوضع على ما هو عليه من السوء كل شيء يندفع نحو النهاية التى لن يتوقف هجومها إلا بالهدم، لدى فكرة متواضعة عن قيادة البلدوزر الصغير.. المفتاح مع خميس.

هات يا خميس المفتاح.

ـ قلت لحضرتك اكتب لى ورقة.

ـ هات يا خميس المفتاح.

هل آخذ منه المفاتيح بالقوة، هو أقوى منى وأطول. المسائل تتعقد. الجميع صعدوا فوق الأسوار، وقلة كانت لاتزال تستنفد لنفسها بعض ممتلكاتها وترصها فوق السور.

قال كامل: إن الله يعاقبنا.. أى والله.. هذا عقاب.

أيده نجيب وهو يمصمص شفتيه، وقال مبارك الذى يتميز ببرود شديد: خذوا المسألة ببساطة.. هذا تغيير جو. أحسن مما تكون الحياة نسخا مكررة من بعضها.

وقال راشد: يا عم ربنا لا يعاقب الغلابة.

تحمس كامل: الكل عند الله سواسية، والذى لا يعرفه ولا يتذكره يلحق به العقاب، لم أكن أفكر فى الله هذه اللحظة بالذات. كنت أفكر فى الحل، لا حل إلا بالهدم، ولا هدم إلا بالبلدوزر، ولا بلدوزر إلا بالمفتاح، والمفتاح مع خميس وخميس لا يريد، ولكى يريد لابد أن يضربه، ولكى يضرب لابد أن أكون أقوى منه!!

استدرت بسرعة ولكمت خميس في وجهه لكمة واحدة، مفاجئة وقوية.. سقط على الأرض مغشيا عليه وبهت الأخرون وقال مبارك.

لا يصح يا أستاذ ما فعلته.

وصاح أخرون.

ـ لا.. لا يصح.

قلت وأنا أكظم غيظي باقصى ما استطيع: ولا كلمة منك له.

قال كامل: «قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا»..

انحنيت على خميس، ونزعت المفاتيح كلها من صدره، واسرعت إلى البلدوزر قعدت عليه أدرته وضغطت بعنف على الاكسراتير، فزعق وتوقف لحظة لاختار قبل أن انطلق، هل أهدم السور من داخل المعسكر أم من الخلف فى المسافة الفاصلة بين سور المعسكر والبحر.

الماء ارتفع جدا.. واخشى إذا كان من الداخل أن تفسد المياه موزع كهرباء البلدوزر، وإذا هدمت من الخارج قد يندفع الماء المحجوز بعد فتح السور فيلقى بى وبالبلدوزر إلى البحر.. قررت أن أجرب أولا من الداخل، فإذا توقفت الأله.. ركبت آلة أخرى.. لن يعارضنى أحد.

خضت فى الماء واسقطت سكين البلدوزر إلى الأرض حتى يحمى الكهرباء مؤقتا، ويشق لنا طريقا فى الماء واقتربت من السور وقلبى يدق.. قلبى يدق.. الماء ارتفع كثيراً لقد أخطأنا ببناء المعسكر فى هذا الموضع السيىء، تقدمت وزدت الضغط، رفعت السكين قليلا لأضرب السور فى منتصفه العلوى بين عمودين، رأيت أن أهدمه على دفعتين المرة الأولى تسمح بسحب نصف المياه دون أن تدفعنى أمامها تكفى ضربة واحدة.. عاكستنى بعض الأدوات لكنى اكتشفت الصحيح من خلال المحاولات.. الحمد لله هذا ليس عملى ولاخبرتى.. ناهيك عن ثورة المدير إذا رأى شخصاً فى غير مجاله أو مكانه.. أسرعت المياه تقفز فوق السور بعد أن رأت البحر.. جرت إلى بنت عمها المياه المالحة، مشتاقة إلى الاتساع والعمق والصدر الكبير.

بقيت واقفا بالآلة، أحاول منع بعض الأمتعة من صحبة المياه المهاجرة.. انخفض الماء إلى ارتفاع نحو متر وهو الجزء الباقى من السور، تراجعت قليلا وانزلت السكين، ولمحت خميس يخوض بسرعة قادما نحوى، لم أعره التفاتا، وتقدمت فضربت السور بالسكين الضخم فسقط كله.

أسرعت المراتب والوسائد العائمة تحاول المرور، لكن البلدوزر احتجزها، وحاولت الأوانى الفارغة، والاطباق النفاذ من بين العجلات الضخمة، لكن السكين احتجزها ولم تسمح الا للماء.. كان خميس يواصل تقدمه، فجأة وجدته تعثر فى المياه المندفعة، وحالت الأمتعة العائمة دون وصوله إلى وأنا أقف فوق البلدوزر، أراقب المياه التى تجرى بسرعة عجيبة نحو فتحة السور واتفرج على خميس الذى يتعثر فى كل شىء وأضحك.

اكتشفت أن النور تجاسر وملأ كل الأرجاء، بعد أن هدأ المطر واختفى البرق وسكت الرعد.. وبدت الدنيا مبتهجة بعد الذى حدث فى الأرض والسماء.. جاء الفرج من كل مكان.. ورفعت رأسى إلى الجبل.. بدا أقل مما كان وكأن السيول أكلت من هامته، أو يكون قد هدأ بعد أن شفى غليل نفسه الغاضبة، الأرض فى دقائق قليلة جفت وبينما خميس يلمس عجلات البلدوزر.

كان الرجال يهللون:

انقذتنا يا أستاذ..

بقيت واقفا حتى وصل خميس وهو يسب، ويلعن، وأنا ابتسم وكان فيما يبدو قد هدأ قليلا بعد أن رأى الدنيا المبتسمة والأرض اشرقت بالنور والناس فرحة تلهج بالإعجاب.. حاول دفعى من فوق البلدوزر فامسكت به وعانقته وربت على ظهره وقبلته قائلا:

ـ سامحنى.
ـ أنا كنت ناوى أذبحك.
ـ أنت لا تستطيع أن تذبح فرخة.
ـ بس عملتك عملة خاين.
ـ قلت لك حقك على.

ـ لا، لن أسامحك أبدا.

تدافع الرجال نحونا، وأخذوا يصفقون. وفوجئت بخميس يحملنى عاليا.. ثم ينزل بى إلى الأرض.

وقال مبارك، ربما ليوارى خجله:

ـ طلعت ركيب يا أستاذ.. لابد نفطر سوا.. لابد.

ـ شكرا يا مبارك.

ـ خلاص ولا كلمة.

ضحك الجميع وبانت أسنان مبارك الذهبية، وأسرع العمال يجمعون حاجاتهم ويعيدون نصب خيامهم.

وتحولت أنا إلى الجبل، أنظر إليه نظرة عتاب، وكانت عيونه تتطلع إلى السماء.

صغيرة على الرسم

أخيراً انتهيت من وضع مذكرة تفصيلية عن نشاط الإدارة حسب طلب المدير الجديد للهيئة شرحت فيها كل شىء عنها.. ماضيها وحاضرها.. وأيضا خطتها للسنوات القادمة وأعترف بأننى حاولت استعراض ثقافتى وخبرتى فربما يتوقف على ذلك تغير ملموس فى مستقبلى الوظيفى.. لا عيب فى أن أصبو لذلك وأعمل له.

ساعات وأنا عاكف على المكتب تفككت أعضائى حتى لقد أحسست كأنى ها هنا منذ عام.. خطر الأولاد ببالى وشعرت بالرضا عنهم لأنهم احترموا انشغالى، لحظات من الرضا العزيز عن النفس وعن العالم.. حين يمضى كل شىء فى طريقه سلساً ومتدفقاً دون عوائق حينئذ ترفرف عصافير الأمل محلقة فى أفق فسيح.

لمحتنى ابنتى الصغيرة وأنا اتمطى واطقطق أصابعى لابد أنها كانت تراقبنى وأدركت أنى فى حالة تسمح باللعب.. فأسرعت إلى كأنها كانت فى مخبأ أثناء غارة حربية ثم أطلقت صفارات الأمان.

تقافزت من حولى كفراشة رقيقة ومضيئة تتألق فى كل جوانبها الوان متباينة للجمال والفرح.. سألتنى عما أفعل قلت:

ـ أكتب.

وضعت يدها الطرية على كتفى وسألتنى:

ـ ماذا تكتب.

قلت أكتب شيئاً للعمل.

مالت برأسها فى دلال محبوب وقالت:

ـ وأنا أريد أن أكتب.

ـ ليس الآن أنت مازلت صغيرة رجعت إلى الخلف خطوة وشبت على أطراف أصابع قدميها وبسطت فستانها قائلة:

ـ ألا ترى... لقد كبرت.

ـ لن تستطيعى أن تكتبى حرفا.

ـ سترى.

لمحتني واكتشفت من ملامحى تأهبى للرفض.. عادت تلف ذراعيها حول رقبتى وتقبلنى.. نسيت المذكرة والقلم وقبلتها سعيدا برضاها عنى.. مستمتعا بحنانها الذى كان يربت على قلبى.. دنيا ثانية تحملنى إليها حملا تلك الصغيرة عالم مختلف تماماً.. صاف وشفاف.

تسللت يدها وقبضت على القلم وأنا اتأمل ملامحها وهى ترسم خطوطا على الورق حاولت أن أبحث فى عينيها عما تفكر فيه.. أى شيء فى رأسها كيف يا ترى تفكر؟

أنفها الصغير ينبض نبضا كالهمس مع حركة أنفاسها كانت تركز على أعصابها فى يدها وعينيها تحولت لأرى ما هذا الذى سلبها منى.

الله.. رسمت وردة جميلة وغريبة تأملتها لحظات مبهورا وردة متفتحة بلا شوك وبداخلها قلب ولها يدان ضارعتان.. رائع والله يا ناس رائع.. قبلتها إنها لم تدخل المدرسة بعد.. من أين لها كل هذا؟ أحسن درجة حصلت عليها فى الرسم طوال حياتى كانت اثنين على عشرة وأمها لا تكاد تبقى معها فهى مشغولة دائما فى المستشفى كيف واتتها إذن القدرة على إبداع هذا التشكيل؟ لا يمكن أن تعى شيئا مما رسمت وهو ليس مجرد وردة جميلة وخيال حر.. آه.. يا لسوء الحظ.. رسمت الوردة على المذكرة التى حطمت عظامى طوال اليوم.. دقت الصدمة رأسى فاغمضت عينى من هول المأزق.. فى الثامنة

صباحا لابد أن تكون المذكرة أمامه.. إنه فيما يبدو رجل حاد ومتحجر وأنا الآن لا أصلح لشيء انفجرت ضاحكا لم يكن أمامى غير ذلك توقف القلب ماذا لو قدمتها إليه هكذا؟

ـ ما هذا يا أستاذ.

ـ المذكرة التى طلبتها.

ـ مذكرة عليها رسومات وشخبطة.

ـ ابنتى هى التى.

ـ أنت واحد من اثنين.. يا مجنون.. يا مهمل.

ـ ابنتى طفلة صغيرة.

ـ لم تعدها إذن؟

ـ لا... لن أعيدها.

ـ ستعيدها.

ـ مستحيل.

ـ ستعيدها ورجلك فوق رقبتك.

ـ لو شنقونى، سوف تبقى المذكرة برسم ابنتى.

.. ضرب المكتب بيده وفتح فمه ليصرخ فى ثم بقى كذلك لحظة وفوجئت به يقهقه ضاحكا ويكاد ينقلب على ظهره ويضرب كفيه.. وما لبثت أن ضحكت أنا أيضا فلم أكن أتصور إنه إنسان قابل للضحك مثلنا.

ضممت ابنتى إلى صدرى ربنا يحرسك ربنا يحرسكم تنهدت وسقيت روحى من النشوة والرضا.

كرامات قطوش

هزت الأم ابنتها الكبرى ونادتها بصوت خفيض.

ـ ثريا.. ثريا.

سمعت ثريا ورفضت أن تعود للوعى.. أسرعت تجذب الغطاء فوق رأسها لتواصل النوم المغمس بالدفء اللذيذ.

هزتها أمها من جديد.

ـ اصحى يا بنت.. النهار طلع.

فتحت ثريا عينا واحدة، فلم تر شيئا إلا السواد.. عادت تختبىء فى الدفء وهى تقول بحدة.

ـ بدرى يا امه.

انكتمى يا بت ابوك نائم.

صبرت عليها لحظة ثم جذبتها من ذراعها استيقظت ثريا وتثاءبت قالت أمها:

ـ قومى لتلحقى الشيخ قطوش.

كانت الخرقة القديمة تسد باحكام طاقة النور الوحيدة بالقاعة تقلب إسماعيل وأحس بما يجرى حوله فى الظلام الحالك.. فسأل.. حاولت أم ثريا أن تخفى عنه لكنه استيقظ تماما وقال:

ـ لقد سمعت اسم الشيخ قطوش.

حارت المرأة ماذا تقول، لكنها لم تستطع السير طويلا فى طريق الكذب.

ـ سنبيع له الجاموسة.

ضرب كفا بكف.. كانت تعرف ثورته التى تنفجر قبل أن يفهم، بسط كفيه وهزهما متعجبا: ستبيعين الجاموسة لرجل مات وشبع موتا.

كانت واثقة من خطتها حتى أنها قالت له: نعم.

فسألها: ولماذا تبيعينها له؟

ـ هكذا قال أهل البلد ما دام لبنها مرا.

هدأت ثورته نسبيا وتحولت إلى دهشة.

ـ الشيخ قطوش الذى سيجعل لبنها أحلى من السكر!

قطوش كان لصا يا ولية يامخبولة.

ـ صبحنا.

ـ نعم.. لص لص خطير، و العمدة لم يقدر على عمل شىء ضده لأنه قريبه لما فاحت الرائحة ربنا الهمه ان يعينه خفيرا.. كان طبيعيا أن يتوقف قطوش عن السرقة.

ـ لم أسمع أحداً قال عنه ما تقول.

ـ اسألى.

ـ سألت، وكلهم قالوا: هو الذى يشفى المحروسة، ويرجع لبنها كما العسل.

عاد يضرب كفا على كف.

ـ يا عالم يا مخاليل.

اكتشفت ان ثريا لاتزال واقفة فصرخت فيها.

ـ يا خبر أبيض.. أنت هنا.. امشى صحى أختك حمدية.

سحبت حمدية الجاموسة وخرجت من الدار، أما ثريا فكانت تمسك بيمناها ذيل الجاموسة وبيسراها سيخا من حديد يجرجر على الأرض هكذا قال أهل البلد.. كان النهار طالعا والشمس لم تظهر بعد.

للمرة الثالثة أوقفت الأم ابنتها:

ـ اوعى يا ثريا تتكلمى مع أحد حتى لو كان العمدة ذات نفسه... لا تسبى أحدا حتى لو لعن أمك ولا تضحكى.. اوعى يا ثريا.. خلى الحكاية تتم على خير.. أسبوع بطوله لم نهنأ بنقطة لبن واحدة.

ضاق صدر ثريا بما سمعت من النصائح.. فطمأنتها بحدة:

حاضر يا أمى حاضر.

مضى الثلاثة صوب المقابر حيث دفن قطوش ليبيعوا له الجاموسة.. هكذا قال أهل البلد.. أم ثريا لا تنام الليل منذ أن لاحظت مرارة اللبن.. اللبن روح البيت والجاموسة هى كل وجودهم، ولو فى يوم أكلت أقل قليلا من اليوم السابق فإن ذلك يعنى منتهى القلق وتشمل البيت كآبة.

تبخترت الجاموسة كأنها ذاهبة إلى عش الزوجية.. بنت تجرها وعروسة تحمل ذيلها خرج الثلاثة من حارة متعرجة إلى حارة أكبر متعرجة أيضاً حركة الناس لا تزال نادرة.. ومع ذلك قابلهم الولد ابن ترك.. دهشت ثريا لأن كل أولاد الأرض الآن فى عز النوم.. لكن هذا الولد بالذات لا مثيل له فى الشقاوة.. مات أبوه من سنتين، وكبر بسرعة فى هاتين السنتين ورغم أنه لم يتعد الثامنة لكن طوب الأرض يشكو منه.

لمح ثريا وحلا جداً فى عينيه السيخ الطويل الذى تجره وراءها... وبعد أن تجاوزها بخطوات عاد إليها.. انحنى ورفع السيخ ثم أخذ يجذبه وهى لا تنبس بحرف.. لونطقت لن يصبح اللبن حلوا، ولكنها ساءلت نفسها عن تأثير رفع السيخ عن الأرض... ربما تفسد المهمة بسبب هذا الشيطان.

رفعت ثريا رأسها إلى السماء من الغيظ ـ كانت السماء شريطا من النور الأزرق يطل من بين اسطح ضيقة ومستطيلة كالحارة التى تسير فيها.. استمر الولد فى اللعبة، وهو يرى ثريا ماضية فى طريقها دون أن تزجره.

ركب السيخ كالحصان وهزه.

- شى... شى.

فكرت ثريا أن تدفعه بالسيخ فى بطنه، لكنها لاتقدر حتى على هذا فقد يفشل المشروع كله.. حاولت أن تنادى على أختها حمدية التى تسحب الجاموسة لتتوقف فقد ينصرف الشقى الصغير لكنها تذكرت فى آخر لحظة أنه لا يجب أن تتكلم.. جذبت بيمناها ذيل الجاموسة بقوة لتقف، لم تقف الجاموسة كأنها لا تحس بالجذب، وربما كانت قوة خفية تدفعها بالحاح.

تكاد ثريا تتعثر من الحيرة والغضب.. لا تستطيع أن تفعل أى شىء عليها فقط أن تمضى فى أثر الجاموسة.. هذا الولد لو طعنها بسكين، لما قالت له شيئا ولو قذفها بحجر لن ترده إلى رأسه.

ظهر الشناوى فجأة عند ناحية الشارع الكبير وزجر الولد الذى يعاكس خطيبته، أضاء وجه ثريا بعد ظلمه ورقص قلبها لأنها تخلصت من الولد الشر والتقت بالشناوى لم تره منذ أيام.

تقدم منها متهلل الوجه فى بلاهة شاعرا بأنه انقذها من الوحش قال لها بنعومة:

- صباح الخير.

مضت فى طريقها دون أن ترد.. كانت تتمنى حتى أن تبتسم، لكن الابتسام فى هذه المهمة يغضب الشيخ قطوش.. وتنبهت حمدية إلى خطورة الشناوى، فالتفتت إليهما لحظات ثم اعتدلت حتى لا تقع.

اجتهد الشناوى أن يحييها مرة أخرى بصوت أحسن ولغة جديدة لا تجعلها ترتمى فى أحضانه.. وتنحنح وكح وسلك صوته ثم قال:

صباح... اللبن.. الحليب.. يا أرض انهدى.

بدا صوته بالفعل مؤثراً وانشرح له قلبها لولا أنه ذكرها باللبن المر، فتماسكت بقوة وارجأت على مضض تحيتها القلبية.. ومضت مرفوعة الرأس نحو الشيخ قطوش.. وإلى جوارها عاشق تتعلق حياته بردها: مالك يا ثريا.. الصباح لله.

صعب عليها.. لكنها لا تستطيع.. بعثت إليه فقط بنظرة حنون وشبح ابتسامه هى لا تملك أكثر من هذا.. وهو غير قادر على أن يفهم شيئا من هذا الشح العاطفى.. قال لها فى شبه احتجاج.

ـ يا بنت الحلال.. أنا سبتك آخر مرة وكنا زلابية كادت تضحك.. واضطر هو إلى الانتقال إلى درجة أخرى أكثر مواجهة وصراحة محاولا أن يثقب جدار الصمت الغريب:

ـ لابد أمك جابت سيرتى.. أنا أعرفها.. لا تسكت أبدا أوشكت أن تهز رأسها نفيا، لكنها تذكرت إن الإشارة كلام.

ـ ستقول لك: ماله الشناوى يدخل كل يوم علينا يد ورا ويد قدام.. لا تسمعى لها.. أنا أجهز المهر للجميل.

أخ.. نفسها تعبر عن فرحتها لولا الجاموسة.

برم شاربه وقال بفخر:

ـ شفتى شنبى.. على يوم الفرح سيكون آخر تمام.. لن يكون له مثيل فى الكفر كله.. شيخ الخفراء محروق منى بسببه.. رنت للشارب المسنون.. يا ناس نفسها تضحك.. نفسها تفرح.. نفسها تتكلم تنفس عن قلبها.. لكن الجاموسة تمضى بحماس صوب أمنيتها الغامضة..

لايزال الشناوى يتقافز حول ثريا ولاتزال حمدية قلقة، ولا تفيد فى شىء التفتت إليهما فقد أقسمت على المصحف ألا تتكلم هى الأخرى ولا تضحك ولا تشتم أحدا.

مضى الشناوى يحكى عن استعداداته ليوم اللقاء بها.. يوم الهنا يوم تقف البلد كلها على رجل لتشهد الفرح الحقيقى.. يومها سيقفل الباب عليهما فى واحدة من الحجرات الكثيرة فى دار أبيه.. وقد طلب أن تكون فى الدور الثانى بعيدا عن الزريطة.. حدثها عن نيته أن يعمل فى هذا اليوم ما لم يعمل أبدا، وثريا تسيل أعماقها حنانا وشوقا.. ولم تعد تحس بجسده الذى طار معها إلى عالم الحلم السعيد.

تريد أن تقول شيئا، تجعله يتحمس أكثر ويشعلل وهو فى هذه الحالة الرائعة من الوجد واللهفة.. تود لو يحملها ويصعد بها السلم ثم يضعها على سرير جديد عليه مراتب طرية

وقوية، وفرش يلمع ووسائد منقوشة.. وتكون لها فساتين تومض فى الليل مرصوصة فى دولاب بمرآة كبيرة ترى فيها نفسها من رأسها لساسها وتمتلىء رفوفه بقمصان شفتيشى وترابيع مشغولة بالترتر وزجاجة عطر ومكحلة وصباع أحمر دم الغزال للشفايف وشبشب عليه وردة قطيفة وطشت نحاس كبير، وصابون تشمه وتسقى خلايا جسمها من عطره قال لها فجأة:

ـ أحبك يا ثريا.. هل تحبينى؟.

تقلبت حدقتيها.. آه.. إنها تنتقل من عالم شفاف ولذيذ إلى عالم ملون وجميل.. انشال قلبها وانحط فى ضلوعها وارتجفت.. حذار..

.. الإشارة كلام.. تمنت فقط أن يطول الشارع وتبتعد المقابر حتى البلدة المجاورة ويظل الشناوى على حاله.

ـ هل تحبيننى كما أحبك؟ اخص عليك.. ردى لولا الجاموسة لقالت له:

ـ نعم.. نعم..

قال لها: عارفه لو لم تقولى أحبك سأقلع فى الشارع بلبوص، وقبل أن يكمل وقبل أن تدخل فى بعضها من الكسوف دوى فى الشارع صراخ أبيه ينادى عليه.

ـ ولد يا شناوى.

خرج الشناوى مضطربا من موكب الجاموسة وجرى إلى أبيه بعزم ما فيه، وانخلع قلب ثريا فقد كانت فى دنيا غير الدنيا، وحمدت الله أنها لاتزال تمسك بزيل الجاموسة ولم تفقد السيخ.. ولو كانت وحدها لضلت الطريق.

مضت تفكر فى المجنون الذى كان ينوى أن يتخلص من كل ملابسه ويمشى إلى جوارها عريان والناس تشاهده وتتعجب، لكنهم سيقولون كان الله فى عونه.. إنه يحب ثريا.

وصل الموكب إلى المقابر.. رددت ثريا ما حفظته عن أمها.

ـ سلام عليكم يا سيدنا.

ردت حمدية التى ستقوم بدور الشيخ قطوش ـ سلام ورحمة الله وبركاته.

ـ أبى وأمى يسلمان عليك.

ـ كيف حالهما:

ـ يريدان بيع الجاموسة.. هل تشترى؟

ـ اشترى.

أوشكت حمدية أن تضحك فقالت لها ثريا وهى تقاوم عدوى الضحك وتبدو متماسكة لتشجيع أختها على مواصلة اللعبة المصيرية.

ـ صلى على النبى.

قالت (قطوش) عليه أفضل الصلاة والسلام.

ـ سألته ثريا: كم تدفع؟

رد قطوش: مائة جنيه.

وابدت ثريا دهشتها: معقول.. ست العرايس تشتريها بمائة فقط.

ـ قالت حمدية معقول.

ـ إذا كان يناسبك ثلاثمائة.. الله يبارك لك.

ـ إذن مائة وخمسون.

ـ يا عم الشيخ عملنا احترام لمقامك وجئنا لك.

ـ مائتان.. آخر كلام.

ـ ربنا يبارك لك.

تقدمت ثريا ـ حسب الخطة ـ فحلت من رقبة ست العرايس حبل قصير معلق خصيصا لذلك.. وضعته على قبر قطوش وقالت له: اسحب.

فسحبت حمدية الجاموسة بعيدا على القبر.. وتعانقت الأختان فرحا، وغرقا فى ضحك وابتهاج حتى بديا فى حالة غريبة وهما ترقصان فوق المقابر والجاموسة ترقبهما فى دهشة.

علقت ثريا فى رقبة الجاموسة حبلا جديدا وسحبتها حمدية بينما حملت ثريا السيخ الحديد وتذكرت الولد ابن الترك فتمنت أن تراه... وأخرجتها حمدية من استعدادها للإنتقام قائلة:

ـ سيحلو اللبن.. إن شاء الله.

ـ وتزداد دسامته.

ـ وعدتني أمي أن تصنع لي من لبنها الفطير المشلتت.

ـ وعدتني بالقرص والأرز المعمر.

كانت أمهما على الباب تنظر، إلى أن لاح الموكب من بعيد وقرأت في عيون بنتيها نشوة الانتصار.. عانقت الجاموسة ومسحت على بطنها ولما دخلت دارها بخرت بسرعة من عيون كل الذين رأوها ولم يصلوا على النبي.

ـ اسرعي يا حمدية هات البرسيم.

ـ البرسيم أمامها.

ـ لا برسيم جديد.. جهزه أبوك في الغيط.

قررت أن تبقى إلى جوار حبيبتها طيلة النهار لتطمئن على أكلها وراحتها.. وهي تتمنى كل دقيقة أن يأتي الليل.. بعد صلاة المغرب وارتداء الدنيا كسوة المساء.. دخلت عليها وحلبتها.. تذوق اللبن في لهفة.. لم يكن مرا كما كان في الأيام التعسة لكنه أيضا لم يكن حلواً ودسماً كما كان في الأصل.. حمدت الله لأنه بدأ يتحسن، وعادت لأولادها وزوجها ترسم ابتسامة عريضة وهي تقول: سأعد الفطير.

هلل الأولاد جميعا فرحين بالخبر الحبيب.

فقال إسماعيل: ولو.. لقد كان لصاً خطيراً.

الزعيم

خلق كثير... كثير.

كلهم تجمعوا أمام الحرم الفسيح، حيث الزعيم، فى العيون يسكن الخشوع، والأبدان المترعة بالانتظار المرير تتهدل في استسلام.

الجميع يتمتمون.. يطلبون الخلود للزعيم بن الزعيم، يتمنى كل واحد منهم أن يكون ساعده الأيمن، أو عينه البصيرة لم لا يكون؟! عكازه القوى أو فليكن حساءه الشهى أو حذاءه الطرى.

يتمنى كل عبد من عباد الله أن يطول عمر الزعيم، فليس بعده أب حنون أو أخ كريم، وليس غيره عقل كبير أو عقل رحيم.

ولا يزالون يأملون أن تبلغه شكواهم وقد صاغوها شعرا ونثرا وغمسوها بالأسى والشوق الدفين، ويا ليتها تصله يوماً، آهاتهم أيضاً فربما استجاب وغير النظام الذى سّنه من أجل التعساء، ليته يشرق عليهم مرتين فى الشهر بدلا من مرة فهو ـ مد الله فى عمره وكرم وجهه ـ يعرف الأحوال، وال.

ها هم آلاف الآلاف يأتون من كل حدب وصوب، الواحد منهم يتحامل مهما طال الطريق ولايسمح للجسد المنهك أن يسقط إلا أمام المقر المقدس.

جاء البعض بالأطفال والنساء والبهائم، وبعضهم حمل القطط والكلاب لأنها أيضا مثلهم لها حق النظر والامتثال والتمسح بالأعتاب.

الجميع ينتظر، وعندما يحين الموعد الأثير، يطلع فى الأفق، وتضىء غرته القلوب.. أما لمسة يده فكفيلة أن تبث فى الميت الحياة، وتعطى الحى القدرة على الطيران والتحليق فى أعلى السماوات.

عندئذ تتقدم الجموع بلهفة وانكسار، ترنو لأيادى المنان الحنان.. تتعالى أياديه وتضع فى أكفهم ما ييسر الأمور، فيلهجوا بالدعاء والثناء، وتتلوى الذيول المبتهجة من شدة العرفان.

يتعانق البشر من فرط الهناء، ثم يتفكك الزحام ويرحل الحجيج يتركونه للتأمل والسكينة، وخلوة الاستعداد للقاء القادم.

تتفق الحشود على أن اليوم عيد، والابتسام يجب أن يكون بعرض الوجه وعمق القلب يتبادلون التحايا والعطايا والكلمات الورود، يقيمون ولائم الفرح، ويحق للجميع الغناء والرقص والعناق.

بعد صباحات وأمسيات قليلة.. قليلة.. تنتهى السكرة تنتهى... تماما تنتهى.. السكرة، ويبدأ كل شىء فى الأفول والخفوت لا تبقى غير أرواح خامدة، وأنفاس واهنة تتردد.. تتساءل عن موعد الزعيم، وليس أمامها الآن إلا أن تدمن الانتظار تحت أشجار الصمت الداكن.. متى تجىء يا زعـ يـــ م يا زعـ يـــ م ؟

متى تجيىء يا زعـ يـــ م يا زعـ يـــ م ؟

توابيت منصور

لم يتوقف القصف لحظة واحدة منذ الفجر كنا نثق أن ردا عنيفا سيبدأ مع أول خيوط النور.. منطقى أن يحدث هذا فى أعقاب الهجوم الشرس الذى قمنا به طوال نهار الأمس، وتقدمت قواتنا فى القطاع الشمالى الصعب نحو خمسة كيلو مترات عزيزة.. أما اليوم فموعدنا الخنادق، والوقوع بإرادتنا فى مصيدة البرد.

حين مددت يدى بالشاى لمنصور كان شارداً، ولم يرد قبل نداءين ولكزة.. قبض على كوب الشاى فى غير فرح، وكان من عادته أن يبتهج له ويحتفل مرددا بعض كلمات الترحيب والشكر لله الذى خلق هذا المشروب العجيب وخاصة فى أيام الزمهرير (ونضحك لإصراره على استخدام كلمة الزمهرير).. مؤكدا فى كل مرة أن كوبا من الشاى وسيجارة يكفيان كى يسود السلام كل أرجاء المعمورة (ونضحك لإصراره على استخدام كلمات مثل المعمورة).

قلت له: ما بك؟ تبدو خائفا على غير عادتك.

قال وهو لا يزال مكبلا بشروده: تطالعنى صورة أمى بشكل ملح وهى تضع رأسها على كفها وتبكى.

ساورنى القلق لغياب حيويته المعهودة.. لم أجد ما أقوله غير:

ـ قل لها ليس هنا مكانك.

سألنى: ما الذى يحدث إذا عرفت إحدى هذه الدانات العمياء طريقها إلينا؟.

زادت رقعة التوجس فقلت:

ـ لم تفكر فى هذا من قبل!

أجاب بلا تردد: الفرصة لم تسنح كى تفكر.

قلت :

ـ اليوم عطلة.. الفراغ ليس فى صالحك.

انطلق كالولد الشاطر المستعد للامتحان: عطلة من الجرى وراء الدبابات.. لكن التفكير.

حاولت أن أوقفه: التفكير أسوأ.

قال بحماس: مهاجمة الكلاب أرحم من رؤية أسنانهم الشرسة.

تأملته لحظات.. اكتشفت أننى أنا الذى أستفزه ليقول هذه الكلمات الموجعة.. لا شك أنها تؤرقه وتزعجه حتى بدون أسئلتى، ولكننى خشيت على نفسى منه.. يمكنه بسهولة أن يضمنى إلى عالمه، وأنا لا أميل إلى التفكير.. أنا هنا فى الحرب لأحارب، لا أفكر فى أمى وزوجتى.. السيجارة والشاى يكفيان الآن ليسود السلام كل أرجاء المعمورة.. قلت له ذلك.. فابتسم بطرف شفة.

عثرت على لوحين من الخشب، اسندتهما مائلين على حائط الخندق، وقفزت فوقهما بحذائى الثقيل، فتحطما، اشعلت فيهما عود ثقاب ورعيته حتى مضت النار الوليدة تأكل فى الخشب كالفأر، وبعد أن وثقت بقدرتها على الثبات فى وجه البرد والريح قمت فملأت البراد من جديد وأعددت الأكواب لمن يريد، ومددت يدى مثل منصور تقريبا داخل اللهب المتورد.

سألته بهدوء: ماذا بك اليوم؟

ـ قلت لك أفكر فى أمى.

ـ أختك معها وأخوك الكبير.

ـ سيطول الوقت قبل أن يجف دمعها وتهدأ ثورتها علي.

ـ أنت لن تموت.

ـ لا يعنيني يا أخي أن أموت.

أخذت نفساً عميقاً وبدا علي أني يئست من حالته.. قلت وأنا أمد له سيجارة.

ـ دخن واستمع إلى مطربك المفضل.. والق نظرة على صورة الفتاة العارية التي تخفيها في صدرك. ابتسم فاكملت عليه بزغزغة في جنبه، فتقلب ضاحكا.. لكنه عاد بسرعة إلى حالته وقال: أنا أفكر في شيء.

ـ قلت لك لا وقت الآن للتفكير إلا إذا كنت مثلي تفكر كيف تستحم.. هذا ما يشغلني.

قال: أريد عددا من صناديق الذخيرة.

ـ الصناديق تضرب الآن بكل عنف.

ـ الرصاص لا يسقط على الصناديق الفارغة.

قلت له: لن يسمح لك أحد بذ..

قبل أن أتم عبارتي ـ كان قد أسرع متجهاً إلى باب الخندق.. ناديت عليه بحدة.. لم يرد.. نادى عليه خيري ورجب وعلي.. لم يعبأ، لحق نجيب بساقيه بينما كان يصعد فوق أكياس الرمل خارجا، دفعه منصور دفعة قوية أعادته إلينا مقلوبا.

وقفنا نحن الأربعة على باب الخندق بحيث لا يظهر منا إلا أنصاف وجوهنا.. تابعنا حركته وهو يحاول أن يتفادى الدفعات المتلاحقة من دانات المدفعية.. ارتعد جسدي فجأه وأنا أطرد هاجساً أكيداً بأنه لن يعود.

خيمات الدخان تظهر وتنتشر ثم تختفي، وتعقبها أمواج الأتربة الساخنة التي تثيرها انفجارات قريبة ولم نعدنراه. ها نحن جميعا نعش في فرن هائل قادر على إحراق كل شيء تنهدت عندما خطر ببالي أننا وقود هذا الفرن.. الآن أرى على بعد أمتار وكانت المسافة بالأمس تمتد أمامي عارية إلى ما لانهاية.

القذائف اللعينة لا تزال تنقض على الأرض فتخرج أمعاءها وتطيرها إلى كل الإتجاهات ـ همست وأنا أمضغ أسناني:

ـ لقد ضاع المجنون أسندت رأسى إلى يدى وتمنيت أن يتدخل خالق السماوات والأرض.. فجأة.. دوى صوت انفجار شديد وجدنا أنفسنا على أرض الخندق، حدق كل منا فى الآخر برغم الظلمة التى سادت، وبقينا نرقب الوضع لحظات ومع انقشاع الدخان والتراب رأينا قدمين تهبطان إلينا.. كان منصور يحمل عددا من صناديق الذخيرة.

لابد فكرنا جميعا أن نهجم عليه ونضربه، ولكنى فكرت أن أحضنه وأقبله بشدة بعد أن ولد من جديد وأعاد إلينا الحياة.

بدا عليه الارتياح وكأنه أدى واجبا ثقيلا كان يجب أن يتمه.. سأله على دومه: لماذا أحضرت هذه الصناديق؟

قال رجب: سيصنع مطبخاً.

قال نجيب: لا بل مكتباً وربما مكتبة.

ثم قال خيرى: لا شك أنه سيصنع سريرا.

لم يعلق منصور ومضى بحذر يخرج المسامير مسمارا مسمارا والمثنى يعدله قطعة حديد.. كسر أحد جانبى صندوق وأحد جانبى صندوق آخر.. وضمهما معاً وثبتهما بالمسامير، ثم قلبهما وثبت فيهما قطعة عريضة من الخشب امتدت عليهما معا فصارت لهما قاعدة، واحدة، ثم عادلهما، فإذا الصندوقان صندوق واحد كبير.

دخل فيه منصور وتمدد وبقى ساكناً، منتظراً ما يحدث.. ثم رفع جذعه بعد قليل.. وابتسم لنا:

ـ ما رأيكم؟

نظر الجميع إلى الجميع.. أما أنا فقد انقبض قلبى.. نظرت إليهم.. لاحظت عدم الاهتمام.. مصمص رجب شفتيه وقال:

ـ أصحاب العقول فى راحة.

قلت لمنصور: أتعرض نفسك للموت كى تصنع تابوتا.

تحسس التابوت بيديه وتأمله، كأنه أعجوبة.. حصان طائر لم يفز به فى الجيش كله إلا هو.. هزه ليتأكد من تماسكه.

قال: لابد أن أعود إليها ولو جثة.. لا أستطيع أن أتحمل منظرها وهى تتلقى نهاية ابنها مجرد خبر..

ـ منصور تعيشى أنت.. لابد يا شمس من تابوت.. لابد.

أنشغل فى إعداد غطاء مناسب، وبعد أن انتهى منه، دخل فى التابوت وغطى نفسه.. سكن لحظات ونحن نتفرج عليه.. كأنه يقدم عرضاً فنياً صامتا.. تنبهت أن القصف توقف.

خرج وجلس إلى جوار التابوت، عاد يتأمله وقد عكر صفو بهجته أن الكل لا يشعر نفس شعوره.. لم يتحدث إليه أحد، وبقى هو على حاله.

بعد قليل جاء جنديان يحملان صندوقا به شيكولاته أعطيا كل منا قطعتين كبيرتين ثم غادرانا إلى خندق آخر.. انفتحت أفواهنا بسرعة واختطفت الشيكولاتة من أيدينا، كنا بحاجة إلى تغيير مرارة حلوقنا.. تسللت أصوات اللاسلكى واضحة إلى أسماعنا.. أبلغنا الملازم أمجد أن الأوامر قد صدرت بالصعود بعد نصف ساعة استعدادا لعملية هجوم سنقوم بها.. أشعل الجميع السجائر وكأنها يتنفسون آخر الأنفاس يتهيأون للنهاية بلا تفكير أو غضب كأن الأمر لا يعنيهم.

نظر على ورجب لتابوت منصور وأطالا التحديق، ثم نظر كل منهما للآخر.. دار على دومه على جنبيه دورتين فأصبح إلى جوار منصور.. جلس صامتا برهة، ومنصور ينتظر.. أخرج على الشيكولاته وقدمها لمنصور قائلا فى رجاء حزين:

ـ أصنع لى تابوتاً مثل تابوتك.

نهض منصور متهللا.. مبتهجا بأول صوت يؤيده، أخذ الشيكولاته وهو يقول:

خذ هذا يا على.. سأصنع لى غيره.

رقصت أسارير على فجأة، إذ وجد له تابوتاً جاهزاً.. وليس تابوتا عاديا وإنما هو «البكرى» احتضنه ثم دخل فيه وغطى نفسه كما فعل منصور.. خرج منه وجره إلى الركن الذى تعود أن يجلس فيه مع رجب.. شرع منصور يعمل فى تابوت جديد بينما غمس

على قطعة من القماش فى قاع كوب الشاى، كتب بها على الصندوق بالبنط الكبير «على دومه.. كفر سندنهور قليوبية».

أعجبت منصور هذه الإضافة لكنه لم يجد الوقت ليكتبها إذ أمرنا الملازم بالخروج فورا.. وقبلنا اختطف منصور سلاحه وتقدم الجميع، حين طلعنا إلى السطح استقبلنا سحابات راحلة من الدخان، أما الشمس فقد اختفت تقريبا ولكن الرؤية ممكنة.. كان مدهشاً هذا السكون الذى شمل المنطقة، ولو أن ثمة فحيحاً غريباً كان يتسلل بين عروق الصمت المرتعد وكأننا نجوس خلال أوكار الثعابين.. أو أن حيوانا أسطورياً يتنفس من حولنا.. آمنت أخيرا إنها أنفاس مدافع العدو المرهقة والتى لم تكف عن العمل طيلة النهار.

قمت بمهاجمة مواقع المدافع التى عانينا من قصفها.. لقد جرب قادتنا طريقة المعارك الصغيرة وأساليب حرب العصابات، وجدوا أنها أصلح الطرق لتأديب العدو المتغطرس، وتحقيق ضربات مؤثرة بأقل الخسائر.

أمدتنا دوريات الاستطلاع بكل أسرار وتجهيزات هذه المواقع التى كانت تنتصب كقلاع ضخمة تكاد تحمل السماء على كتفيها.. لذلك تقدمنا نحوها بلا وجل.. درنا حولها، وفى لحظة واحدة كنا بداخلها من خلال منافذ معينة عرفنا من قبل أنها الأضعف، فوجىء بنا أفرادها وكانوا يستعدون للراحة.. تفجرت فى ملامحهم كل علامات الرعب.. لم يكن أمامهم من سبيل غير الالتحام المباشر.. أكره ما يكرهون.. لقد سقطت عليهم القطط البرية وليس لديهم فرصة كافية لعمل شئ ذى قيمة «حصدنا كل أفراد الموقع فى دقائق، وعدنا بأربعة منهم ولم يصب منا إلا على دومه الذى أخذ ينزف بغزارة.

اصطحب الملازم ومنصور الأسرى الأربعة إلى قيادة الكتيبة وأعددنا نقالة سريعة لنقل على الذى كان أكثرنا شجاعة وخفة دم، وها هو الآن ينزف بلا توقف وأكثر مما ينبغى.

قاسية للغاية لحظة دخوله إلى التابوت.. تحدث البعض محاولا تخفيف الصدمة من حسن حظه، وأنه تنبأ بموته قبل أن يموت فعلا بنحو ساعة ها هو يعود ـ كما تصور وأراد ـ محفوظاً إلى تراب قريته، وفى حالة أفضل بكثير من غيره من الشهداء.

زرع منصور فينا ـ الله يسامحه ـ حكاية التابوت وضرورة عودة الجسد، وكأنه ما دام الجسد قد عاد للأهل، فإن الشهيد لم يفارقهم لابد أن يكون كل شىء متجسدا.. حتى

الموت، أما إيمانهم بالله الذى لم يروه فمسأله من الثقة بحيث لا تقبل النقاش، فمن تراه الذى غرس الفكرة فى رأس منصور ورواها؟.. وأيهما أرحم بالأهل.. الموت/ الخبر أم الموت/ الجثة؟

قال منصور بعد أن عاد واشترك بالحوار فيما تسبب فيه: الموت/ الجثة ينهى الحزن تماما بعد لحظات ويحقق طمأنينة داخلية وأبدية.. أما الموت/ الخبر فيظل مزعزعا كطير فى السماء لا يستقر يسمح بالتخيل والتصور والأمل والوهم.. وتبقى الهواجس إلى أمد بعيد تؤرق وتعصف.

لاذ كل منا بركن وإن لم ينقطع الحديث عن على دومة إلى أن جاء محمود سائق الجيب وأعطى منصور خمسة جنيهات وقال له:

ـ هى التى معى.

راقبناهما فى صمت، كان منصور يرد النقود ومحمود يلح، ثم أخذها وخرج مع محمود.. تشاغلنا بالشاى وبعض البسكويت وفتحنا الراديو.. قال رجب نكتة.. لم يضحك أحد.. ألقى ثانية.. لكنها لم تكتمل لأن الملازم رفع صوت الراديو.

عاد منصور بعدد كبير من الصناديق ووراءه محمود يحمل هو الآخر صناديق فارغة شرع يخلع المسامير ويعدل المثنى منها، ولفت نظرنا لأول مرة أن منصور يدق المسامير بشاكوش حقيقى بدا لى غبياً وهو يصر على الخوض فى هذا المستنقع.. جاء إليه جندى لم أر وجهه من قبل وأعطاه خاتمه الذهبى وجاء آخر وقدم البسكويت والشيكولاته، أما عبد المنعم الشاعر فقدم قصيدة طويلة كانت قد أعجبت منصور، واعتذر لأنه لا يملك غيرها.. فرح بها منصور وأخذ يتأملها ثم قال:

ـ خطك جميل يا عبده.

اهتز عبد المنعم بقامته الطويلة النحيلة وبدا عليه الخجل وهو يقول:

ـ وهناك أمر آخر.

سأله منصور بعينيه فقال عبد المنعم محاولا أن يتوارى.

ـ أنا كتبتها.. بد.. بدمى.

حدقنا جميعا في المجنون الجديد، إلى أن قال رجب:

ـ هو أنت فيك يا منيل.

بدأ منصور العمل ونسينا كل شيء.. إنها الحرب.. طلب رجب أن يحصل كل منا على أتعاب مقابل الضجيج.. وقال الملازم أمجد.

ـ أريد إيجار المحل.

فقلت له: ليس من حقك تأجيره من الباطن.

أما سمير الذي لم نسمع له صوتا ونحسبه بلا صوت فقد زعق فجأة قائلا:

ـ وحدوو..ه

جاء آخرون واتفقوا مع منصور الذى لم يكف عن الدق، وكان قد طور عمله فطلب من الذي يريد التابوت أن يحضر هو الخشب ويدفع لمنصور أجرة يده.. بعد قليل قال سمير الذي نسيناه:

ـ الدوام لله.

وسألت منصور:

ـ هل ستجعل كل التوابيت متشابهة، هناك من دفع لك خمسة جنيهات وهناك من لم يدفع إلا قصيدة.

ـ وهناك من دفع عشرة.

ـ إذن اكتب له عبارة خاصة على التابوت.

نظر منصور جادا إلى وسألنى.

ـ ماذا تقصد بعبارة خاصة.

ـ مثل يا ناس يا شر.. كفاية قر.

وضج الجميع بالضحك وأضاف رجب.

ـ متبصوليش بعين رضية.. شوفوا اللى اندفع فيه

وقال خيرى:

ـ يا ناس يا عسل.. الجميل وصل.

رنا إلينا منصور وتنهد.. ثم هز رأسه أسفا على سوء أخلاقنا.. تناهى إلينا غطيط بعض الزملاء فتذكرنا النوم الذى لم يزرنا منذ أيام قررنا ـ ما عدا منصور طبعا ـ أن نغلق الراديو ونختطف من النوم ساعات قليلة.

قبل أن أنام خطر ببالى خاطرا أجل نومى بضع دقائق.. لقد لاحظت أن كل من طلبوا التوابيت كانوا من الخارج، مع أن زملاء الخندق كانوا قد فكروا فى ذلك بعد أن حصل على دومه على تابوته.

قمت فزعا من نومى، ربما بسبب الهدوء الشامل، فإذا الخندق يسبح فى بحيرة من الضوء البنفسجى.. الجميع مثقلون بالنوم.. بحثت عن منصور إلى أن وجدته خلف أحد التوابيت.. دنوت من باب الخندق فطالعنى القمر المزدهر.. قرص كبير من الفضة المتألقة بدا لى فى حالة غير طبيعية.. شاركت فى ثلاث حروب كان القمر حاضرا فيها جميعاً قلبت المسألة قليلا دون أن أجد تفسيرا.. كان يكبر فجأة ويطلع كل ليلة ويبقى معنا دون نقصان إلى نهاية الحرب، وكأنه يحرض على عمليات الليل.. خفت على نفسى من التفكير.. آثرت العودة إلى النوم.. لكن الضوء البهيج والسلام اللذيذ اللذين سادا ونفذا إلى قلبى أغريانى باليقظة لاستقطار سحر اللحظات النادرة.. دون أن أدرى استسلمت للذكريات التى اطمأنت لوداعتى فتسللت إلى عبر المساء الفضى المفعم بالشوق الغريب.. إننا نمضى لاشك صوب المجهول خلال عمر قصير يمتد كسرداب معتم، لكننا فى بعض مناطقه وقبل أن نثور أو نيأس تمطرنا السماء بقطرات من الجمال والبهاء.

شن العدو هجوماً مجنوناً شمل كل القطاعات وكأنه قرر أن ينهى الحرب ولو بالخسارة.

كان كل شىء يشتعل وينفجر وينقلب تماما.. وبين الحين والحين كان هناك من يأتى ليسحب تابوتا حتى انتهت جميعا، ومنصور قابع فى ركنه شاحب الوجه يرقبها وهى تنفذ واحدا فى إثر واحد.. يحدق فى الجندى الذى يأتى، يسأل بعينيه فيشير إليه منصور

بإيماء مصرحا بحمل أحدها.. ينحنى الجندى ليحمل التابوت وعينا منصور عليه تتبعانه باهتمام حتى يمضى.

لما خلا الخندق تماما من التوابيت نظرت إلى منصور فألفيت الحيرة تروح وتجىء فى وجهه وأصابع يديه، الهجوم لايزال ضاريا رغم الغروب الوشيك وهو لا يستطيع أن ينهض ليحضر الصنادق.. قررت أن أهجم عليه وأضربه بعنف إذا أقدم على الخروج.

دنوت منه حتى لا يفلت منى.. سألنى خيرى عن علبة الثقاب فألقيتها له وعيناى على منصور، ورأيت أن اسأله حتى أسهل على نفسى المهمة، وكانت السيجارة قد سقطت من بين شفتيه: ـ ماذا بك يا منصور؟

قال وهو يبتلع ريقه وينظر إلى الخارج ويحك رأسه:

ـ ألا ترى.. إن القصف لا يتوقف.

ـ اطمئن سيتوقف بعد قليل.

ـ أحقا؟

ـ وهل سيستمر إلى الأبد؟

ـ تنهد وقال:

ـ شمس.. أريد أن يكون لى تابوتا.. لى أنا، ولا أبيعه أبدا.

ـ عمر الشقى باق.. أنت لن تموت.

ـ ولماذا لا أموت؟

ـ يريدك الله أن تبقى لتصنع التوابيت لغيرك.

تحول عنى وبدأ يقضم أظافره.. ثم قفز خارجاً طرت وراءه ولحقت قدميه وتشبث بهما وجرجرته إلى الخندق، فكرر المحاولة ولكنى وجهت إلى فكه لكمة قوية ألقت به على الأرض فغاب عن الوعى لحظة، ثم فتح عينيه ونظر إلى فى كراهية وحقد.

صرخت فيه بكل قوة: لن أسمح لك.. هل تفهم؟

أحاط به خيرى ورجب ومسحا نقطتين من الدماء أطلتا من شفتيه أما أنا فجلست أحرس باب الخندق متربصا به.

بعد قليل مر بى الملازم خارجا يستطلع، ثم عاد إلى الخندق واستمع إلى اللاسلكى لحظات..

ـ قُول من الدبابات سيعبرنا بعد قليل ولابد أن نتصدى له الآن، قبل أن ينهى الملازم كلماته كنا جميعا بالخارج، وكأننا نفر من سجن مظلم وخرب.

عزمت على أن أصيد أكبر عدد ممكن من الدبابات اللعينة.. لقد كشفت لنا توابيت منصور بمنتهى القسوة مقدار ما فقدناه اليوم من أرواح..

ظهرت على الفور الجبال المتحركة تتقدم نحونا خلال الدخان.. لقد خرجنا إليها في الوقت المناسب.. وبدأنا فى التعامل معها.. أصاب منصور واحدة فاستبشرنا، أعقبه رجب ثم خيرى وكانوا يسبقوننا بنحو مائة متر.

ـ الله أكبر.

لم تمر أى دبابة منهم، الدخان يرحل والساحة تنكشف.. كانت بعض الدبابات تهرب ببلاهة إلى الشرق لتدور من خلف التل.

بدت الدبابات وهى تحاول الفرار كالفيلة الهائجة فى غابة تحترق.. فجأة سمعت صوت الرصاص ينهال من مدفع رشاش على منصور ويثقبه فى كل موضع و الرجل يتقلب بعنف هيستيرى، ثم سقط كقطعة غالية من بناء مقدس.

انتفض جسدى كله كأنى أصبت بالحمى وكاد «الآر. بى. جى» يسقط من ذراعى، وتعثرت بأحد الكثبان الرميلة الصغيرة.. شيء ما ينهش قلبى.. منصور.. لا..

أحست بعض الدبابات أن الطريق أصبح مفتوحا.. هرولت مندفعة مرت إحداها على جسدى منصور.. آه يا منصور.. آه الكلاب لم يرضهم موتك بالرصاص.. هل سيتحقق لهم النصر إذا مزقت جسدك الشريف جنازير الدبابة؟ آه.. كيف أجمع الآن لحمك؟.. كيف اجمع الآن لحمى كيف ترى الآن وجهك أيها العالم؟

أفقت من إطراقة الذهول.. وجهت الصاروخ بنظرى المجرد لم حدقت من خلال المنظار فى المنطقة التى يلتقى عندها البرج بالهيكل.. قمت بعمل حساباتي بسرعة قياسية لم تستغرق خمس ثوان، وضربت.

انطلق الصاروخ كما رسمت.. وانبجس عمود اللهب من جسم الدبابة ثم سقط البرج فجأة. وهذا دليل النهاية التى لا تقوم للدبابة بعدها قائمة.. أسرعت إلى أخرى فأصبتها ولحق زملائى بمعظم الدبابات، وأفلتت اثنتان وتجاوزتا مواقعنا.. لكن تقدمها لم يستمر دقائق إذ فوجئنا بواحدة تنفجر وتعقبها الأخرى ويسرع طاقمها بالهرب ليعود إلينا فنتلقفه وكان معنا ثلاثة من أسرى الأطقم السابقة..

انتهت مهمتنا.. شعرت أنى وحيد وأجوف وجزء حقير من المأساة الإنسانية..

واجهنى منصور يبتسم فى رعب ويبكى.. تنتقل صورته كشظية فى إثر شظية تمزق قلبى وفكرى.. صورته بعد أن لكمته وطرحته أرضاً، وكان ينظر إلى أنا الصديق بكل غضب وقسوة، ثم صورته والدبابة تسير فوقه بعد أن انهمر عليه الرصاص.. تتكرر الصور والشظايا..

وأخيراً قال لى:

ـ كنت أريد تابوتا لى وحدى.. لا أبيعه أبدا

تقدم منى رجب وسألنى عن حالى.. بعد لحظات قلت له:

ـ أحفر.. لمنصور.

الغندورة

لم أعرف كيف انجذبت عينى لأعلى، وأنا فى الشرفة أطل على المارة والباعة والحركة الدائبة.

كانت تهبط من آخر دور فى العمارة العالية.. عمارة فى حينًا موشاة ومشهورة.

تابعتها ومثلى فعلت عيون كثيرة أخرجها الحر إلى الشرفات.. جذبتها جميعا للتحديق والتأمل.

شرعت تهبط وترتفع فى حركة إنسيابية لا يقدر عليها أبرع الطيور، تميل إلى اليمين ثم تندفع نحو اليسار وبعدها تستقر فى الفضاء وتتوازن.

كل العيون والأفكار تحاول أن تعرف من الذى أسقطها؟.. ولماذا؟ كانت الورقة الكبيرة مطرزة بالكلمات والرسم يشع منها ضوء يثير الانتباه ويلقى فى الروع الإحساس النافذ القوى بأنها ليست مجرد ورقة.

غيرت العصافير طريقها وكانت تندفع نحوها.. حطت على الأشجار الكثيرة ، وأخذت ترقب الطائر الجديد الذى لاشك قدم من كوكب آخر.

الغندورة البيضاء الرشيقة تهبط فى دلال وثقة ثم تجرى بعرض الميدان فى مسار أفقى كأنها مصوبة نحو شيء محدد، وبعد لحظة الدهشة التى تشعلها فى العقول تطامن فجأة من هذا الاندفاع وتعود من جديد تنظم رحلة هبوطها، والعيون تحرص ألا تفوتها أدنى حركة.

توقفت ثرثرات العصارى فى الشرفات وفوق أسطح البيوت وأصبحت الورقة موضع النظر والاهتمام، والمحرض على الصمت والتأمل.. أيقن الجميع أنها تسير وفقا لقوانينها الذاتية وإرادتها الخاصة وليست خاضعة لسلطة خارجية، وكنت قد تصورت فى البداية أن هناك من يسيطر عليها بخيط.. وبعد أن دنت. أدركت أنها حرة.

فجأة صعدت الورقة، فمن أين يأتى إذن الدفع والأمر. وكيف؟ عادت للهبوط بنفس طريقتها.. التمايل والدلال والحركات السكرانة.

عندما اقتربت من أعلى الأشجار، حاولت أن تعود للصعود، لكن ذلك فيما يبدو كان قد فات أوانه، وأنها لا محالة أصبحت فى حضن الأرض ومداها، ولابد من اللقاء ومن ثم.. النهاية.

من المؤكد أنها تعرف أن الأرض هى المستقر الأخير، والمزعج بالنسبة لها ليس الأرض نفسها، ولكن أقدام وأظافر الذين يسكنونها.

بدت كأنها تبحث عن مكان لائق، دارت حول نفسها فى حيرة، ولم يطل البحث، لمحت جنة صغيرة حولها سور عال، عدلت مسارها واتجهت فى أناة وحذر، وما أن دنت من السور حتى علت ملامحها كآبة، كانت الحديقة غارقة فى الماء، تراجعت وحاولت الصعود للبحث من جديد.

تراجعت، لكن الريح أسرعت إليها من بعيد البعيد، دفعتها بعنف حاولت الورقة المفزعة أن تقاوم، لكن الريح كانت قد قررت أن تنهض بالمهمة الحاسمة.

انقضت عليها وأسقطتها فى الماء فرح الماء وتسرب إلى خلايا الورقة تكورت الكلمات على نفسها وتقاربت من بعضها كأنها تبحث عن الدفء والحنان أو ربما الآمان.

تداخلت السطور حتى أصبحت فى الورقة مجرد بقعة سوداء أو خطوط غليظة بلا معنى.

عادت الريح تحمل الغبار وتلقيه عليها، تمضى مسرعة لتحمل الغبار وتهيله.. اختلط الغبار بالماء.. جاهدت الورقة لترفع أنفاسها الممزقة، والعيون ترقبها بلا كلل.

أخيراً رفعت رأسها واستقبلت أول أنسام الحياة من عبير الزهور ولمسات الخضرة الحانية.

عندما أحست بالوحل فكرت فى الرحيل، لكن النسيم الوانى عاد يسقيها من عبق الجنة.

تنفست وتنفست حتى امتلأت سطورها بالحياة وتألقت رسومها.. وأخيرا رضيت بالبقاء.

المواجهة

لم أكن أعلم أنه تغلغل فى كيانها إلى هذه الدرجة، وأنه استولى على وعيها ولا وعيها بصورة بلغت هذا الحد من الفزع.

فى عز الليل صرخت:

ماما.. ماما.

قفزت من الفراش بعد أن دارت فيه دورتين بحثا عن سبيل.. لحقت بها قبل أن تقع. لكننى لم أستطع وأنا مفزع ومندهش أن أحول بينها وبين الوقوع على ركبتيها وذراعيها، ورأسها يرتطم بالدولاب ولا أكف عن قولى:

ـ ماذا بك؟.. ماذا جرى؟

والحقيقة أننى كنت أبذل جهداً جهيداً لأمنع نفسى من الضحك، وأنا لم أتعود أن أمنع نفسى.

ظلت تصرخ:

ـ ماما.. آه يا ماما.

.. تذكرت أنى حذرتها عدة مرات أن تقول: يا ماما وهى فى الخامسة والثلاثين.. زوجة ولها أولاد وعلى ذمة رجل.

على نور السهراية الشاحب الذى يصلنا منهكا من الصالة عاونتها على العودة إلى السرير، وهى تشعر كأن سيارة مرت عليها.. لاتزال تضع يدها على وجهها فى محاولة لطرد آثار الحلم، وأنا أقول:

ـ خير إن شاء الله.. بماذا حلمت؟

ـ به.

ـ من هو؟

ـ ألا تعرفه ؟

ـ من هو الذى أعرفه وهل كنت معك فى الحلم؟

.. عادت تولول وتقول:

ـ آه يا ماما.

ـ يا ستى قولى.. ما الذى حدث ؟

ـ كان يجرى ورائى ويصعد على قدمى، وحاولت إبعاده عنى، لكنه صعد إلى صدرى ووجهى، فصرخت..

فهمت وأحسست بالخزى، جلست على السرير لأجمع أمرى.. ألهذه الدرجة أنا عاجز عن قتل فأر يعيش فى الشقة من عشرين يوما وأتركه يتحرك متى يشاء وكيف يشاء.

طعنة بالغة فى رجولتى أن تصل خطورة بقائه وأثره التعس إلى درجة أن تحلم به زوجتى، ثم تصرخ وتحاول الفرار منه وتسقط من الفراش وأنا إلى جوارها أنعم بالغطيط العالى.. كما قالت هى بعد ذلك.

سمعنا به لأول مرة فى المطبخ، فأخرجنا كل محتويات المطبخ قطعة قطعة وقضينا فى ذلك نحوالساعة ورأينا فقط ذيله فتأكدنا أنه فأر، ولكننا لم نستطع الامساك به أو طرده، واكتشفنا بعد ذلك أنه انتقل إلى حجرة الأولاد المجاورة، الحجرة مملؤة بالأثاث المكدس، ولا نريد التفريط فيه.. إلى جوار السرير وتحته توجد حلة السمن وطشتين غسيل وفوق الدولاب وضعنا حقائب بها ملابس الشتاء، وطقم صينى جهزته زوجتى للبنت وبعض الصور الكبيرة والأحذية التى لا يهون علينا أن نرمى بها مع القمامة، ونخجل أن نعطيها لأحد المحتاجين.

في يوم آخر عكفنا جميعا للبحث عنه في حجرتهم، نصف نهار دون جدوى، لأن الفرصة كانت أمامه كبيرة للتحرك والنفاذ إلى أماكن لا يدخل إليها أى طفل ولا أية أداة من أدوات الطرد.

بقى الحال على ما هو عليه.. يقضى نهاره فى حجرة الأولاد حتى منتصف الليل ثم يتحرك إلى المطبخ فيسهر فيه حتى السادسةوالنصف بالضبط..لم يخلف موعده يوما.

كان فى البداية يتنقل متخفيا، فأصبح يمر سريعًا أمامنا ونحن فى الصالة جلوس وبعد أيام قلت سرعته فى العبور ، إلى أن غدا يمضى متسكعا كأنه يتمشى على النيل أو فى بيت أبيه.

فرح الأولاد برؤيته وسَمُّوه : فِرفِر.

أخذ يتصنت ليسمع اسمه وهم ينادونه به، ويتبادلون التوقعات، ولابد سمع الصغير كريم وهو يطلب منى أن أربط له فرفر بحبل ليصحبه معه إلى المدرسة أو مركز الشباب.

لابد أنه سمعهم يتحدثون عن أوصافه. فمنهم من قال :

ـ لقد رأيت بطنه البيضاء..

وآخر يقول عن عينيه :

أما زوجتى فقد قالت :

ـ لم أر فى حياتى ذيلا بهذا الطول.

وقال واحد منهم وأظنه الأصغر :

ـ لقد رأيت أصابعه الصغيره.. إن يده كيد النونو.

.. منذ عدة أيام حدثتنى قائلة أنها اضطرت لإعادة صلاة الصبح مرتين عندما مر من أمامها عائدا فى موعده من المطبخ.

كانت قد انتهت من الركوع واستعدت للسجود، وكان هو بالضبط يمر فلم تستطع أن تهبط برأسها إلى الأرض، سلمت وخرجت من الصلاة واستغفرت ربها.

لما دخل إلى مقره النهارى.. عادت للصلاة، لكنها فوجئت بطيفه يعود إليها، وتراه من جديد وهو يمر مترنحا ثقيل الخطو، هل كان يعب من زجاجة «السبرتو» الموضوعة تحت الحوض!

لاحظت ذبوله وهزاله وتساءلت:

ربما لم يجد ما يأكله فى المطبخ؟

قلت:

ـ على أية حال أنا لا أقدر فى هذه الأيام أن أنفق عليه لدى الأطباء.

صاحت:

ـ أنا لم أفكر فى هذا.. إنك لا تأخذ الموضوع مأخذ الجد.

فاندفعت قائلا:

ـ ولماذا لم تتركى الصلاة على الفور وتضربينه مادام هذا حاله!

تراجعت قائلة:

ـ أضربه!

ـ كانت فرصتك للحصول على المجد.

ـ كيف أقترب منه وهو حى وأنا لو رأيته ميتا لَمِت رعباً.

تزايد التعاطف الأسرى معه يوم بعد يوم، ودفع إلى الظلام والتلاشى رغبتى فى التخلص منه سواء بالعنف أو باللين.

الأولاد يتحدثون عنه ويسخرون منه أحيانا أو يعجبون بمهارته ورشاقته، خاصة بعد أن أحضرت مصيدة ووضعت فيها الجبن والطماطم وهو يراها دون أن يعبأ وأحيانا يدخل إليها ويلتهم ما بها ثم يخرج دون أن تفلح فى القبض عليه، الأمر الذى يعد تواطئا خطيرا من المصيدة.

كنت قد عزمت إذا قبضت عليه المصيدة أن أشعل النار فيه ويراه الأولاد ليشهدوا مصير كل من يهدد حياتنا، ولكن ذلك لم يحدث.

وضعنا له سم الفئران فى كل مكان.. ودسسنا له التوكسافين فى الأركان ونثرناه على الأطعمة الجذابة، وهو يمر بكل ذلك مرور المتعفف، وقد يتذوق منها ما لا يؤذى المعدة أو يعكر المزاج أو يلوث الشفاه القرمزية، وما لايؤثر على الجسد الممشوق والحركة الرشيقة.

كل الحيوانات حتى أحقرها يعلو ويعلو.. يتعلم ويتثقف ويعتبر. إلا المسكين لم يكن ينقص هذه الفأر إلا أن يلبس بدِلَى ويتعطر بعطر زوجتى.

أتذكر حركاته وهو يمشى فى هدوء وثقة خاصة فى الأيام الأخيرة قبل الحلم مباشرة.. كانت لحركاته لغة الاعتزاز ومشيته مشية الجنود.. وكان كمونه كمون الواثق لا المتوجس أو المهدد ولا المستنفر..

وكان قعوده قعود المطمئن الذى لا يبالى، وكان ـ والحق يقال ـ ذا نظام مستتب كالليل والنهار.

من منا يا ترى تحت الحصار.. هو أم أنا؟

رأيته فى حجرة الأولاد على الجدار هائلا وعظيما.. يلبس تاجا ويرفل فى ثياب تبرق وتنبسط حواليه، وشواربه تطول حتى لايحدها الإطار، تتعلق بصدره النياشين والأوسمة ويده الصغيرة ترتفع نصف ارتفاعه لتحيى فى كبرياء الجماهير التى لابد محتشدة أمامه خارج الصورة.. دائما خارج الصورة وهى تتلوى من السعادة بطلعته وبهائه.

أحسست أنه سيعيش معنا إلى نهاية العمر وربما يتبعنى وأنا ذاهب إلى الجنة.

هل تراه ضل طريقه ولا يعرف بابا للخروج من المستنقع النظيف، أم أرسله الله خصيصا إلينا ليبدأ من بيتنا مشروعاً لتوحيد كل مخلوقاته ودمجها جميعا فى مخلوق واحد.. الغزالة والفأر وفرس النهر والعصفور.. الحمار مع البرص والإنسان.. الفيل والنمر والذبابة مع البلبل والسلحفاة.. الكل يعيش ويندمج ويتشكل تشكيلا جديدا واحدا متفردا، ثم تمر الأيام فيصبح أعزل وبائسا وضامرا وتغدو الطريق معبدة للتلاشى والفناء.. ما هذا الهراء، ما هذه العبقرية!!. لعنة الله عليه وعلى.

جاء بعض الأولاد من أصدقاء أبنائى بدعوة منهم طبعا لمشاهدة فأرهم.. فوجدوا صورة لفأر علقتها دينا على الحائط وقالت لهم:

ـ إن أبى يفكر فى أن يزوجه ليملأ علينا البيت.

وقالت نهى:

ـ لا أمل إلا بإحضار قطة.

نهى تحب القطط وقد أحست أن القدر يستجيب لرغبتها ويسهل لها الحصول على قطة، إذ بعث إلينا بهذا الفأر البارد الذى لا يحن إلى المناطق الخربة ولا إلى أهله، ويبدو أن له طموحات حضارية ساذجة.

نقل كريم هذه الصورة عن زيارة أصدقائهم إلى أمه، فترسب فى كيانها الموضوع كله كشىء استقر بيشاعته في حياتها، فكان حلمها الذى هزنى بعنف وأدهشنى أيضا لأنى تصورت أنه أصبح واحداً من العائلة أو على الأقل هناك رأى عام يوافق على وجوده.

وضعنى الحلم مباشرة فى مواجهة مع الفأر إما أنا وإما هو.. أنا لا أخشاه أبدا، بل إننى أستطيع التقاطه كما تلتقط الحرباء الذبابة.. لكن المطلوب فقط هو أن أراه، فاما أتضاءل تماما إلى أن أصبح فى حجمه وأبحث عنه فى حجرة الأولاد، أو أسهر طيلة الليل فى المطبخ أنتظره لنعقد الحوار اللازم.

الغريب أنه لم يفكر فى تغيير مقره الليلى أو النهارى ولا زيادتها وظل بعيدا عن حجرة نومنا.. حريصاً على عدم استفزازى وبذلك ضمن البقاء.

بعد حلمها المستفز وتأملى مرأة رجولتى قررت عمل أى شىء لبعث الطمأنينة فى السيدة حرمنا ذات القلب الخفيف، والتى رفضت أن تشاركنى المهمة ولو بصفة مراقب.

كانت الساعة تجاوزت الواحدة.. إذن هو الآن فى المطبخ.. أضأت النور وجلست على الأرض أمام بابه وفى يدى الشبشب وفى يدى الأخرى كوز ماء لإلقائه عليه حال خروجه لإعاقته عن الاندفاع فى الجرى، ثم الانقضاض عليه بالشبشب.. هذه هى الأفكار الحربية وإلا فلا..

أصحت وتسمعت وبعد نحو نصف ساعة من الصمت والصبر والتحدى وصلتنى أول إشارة إنه داخل البوتاجاز، بسيط أشعلت الفرن وجلست أنتظر وقد رفعت إلى أقصاها درجات الاستعداد.

سمعت ما يشبه حك الأقدام.. ومضت الدقائق والحرارة ترتفع ولا يوجد إلا طقطقة واهنة.. ومر نحو نصف ساعة دون خروجه.. الحرارة اشتدت.. أمعنت التصنت. ساعدنى صمت الليل على جلاء سمعى.. كل شعره فى جسمى وكل عصب يشاركنى الاستماع.

اكتشفت أن ما أتصوره حركة ما هو إلا تأوهات البوتاجاز تحت تأثير النار، أطفأته وانتظرت، ثم فتحت الفرن لعلى أجده مشوياأو حتى مقليا.. لكن مع الأسف.

ذهبت إلى حجرة الأولاد فوجدتها مغلقة بإحكام على غير العادة، إذن هو لم يستطع الذهاب إلى مقره الليلى، ولن أستطيع تحقيق الخلاص المأمول هذه الليلة.

دخلت حجرتى أفكر.. لماذا أغلق الأولاد الباب.. تواطئاً وحرصاً على حياته أم إحساسا بالبرد، أم سهوا.. هو بالطبع ليس تواطئا لأنهم إذا كانوا يحرصون على حياته فسوف يتركونه يذهب إلى المطبخ، حظه.

ألفيت زوجتى منكمشة ومنطوية على نفسها مفتوحة العينين فى انتظار الخبر، لكنها لم تسألنى لأنها لم تسمع طلقة واحدة ضد العدو.. استدارت وأعطتنى ظهرها.. تمددت إلى جوارها أفكر فى خطة جديدة لم يكتمل تفكيرى فيها.. لأنى نمت.

وفى الليلة التالية وحتى لا تروح على نومة ضبطت المنبة على الساعة الثانية وتأكدت أن الأولاد تركوا الباب مواربا ولو لبضع سنتيمترات.

انشق الوجود كله فجأة ومزقتنى صرخة زوجتى، فقفزت مرة واحدة فى خفة أسطورية إلى وسط الحجرة وتأملت الموقف.. شهقت زوجتى شهقة الموت، وأشارت بحاجبيها لابيدها وكانت قد أضاءت المصباح.

وجدت أمامى الفأر واقفا على قدميه وذيله، كانت له عيون خرزية أراها بوضوح حمراء لامعة وشوارب فضية وفم أحمر مدبب وصغير.. بطن بيضاء وظهر رمادى معتم.

تلفت نحوى ونحوها.. يا نهار أسود، فوق السرير بينى وبين زوجتى، ولابد أن مر عليها وعلى، وإلا لماذا استيقظت..

حاولت أن أتأكد أنه ليس حلما.. وتذكرت سريعا حلم الليلة الماضية لأزنه فقط.. تيقنت أننا نعيش فى الحقيقة.. الحقيقة البشعة بكل تفاصيلها وثقلها ووحشيتها.

تجمدت فى مكانى، ووقف هو يحدق فينا، ويتلفت ويعبث بيديه فى شواربه، ويفتح فمه الصغير الأحمر كأنه يتثاءب، فأرى أسنانه الصغيرة، ليزداد فزعى من هذا الصغر الغريب فى كل شيء وأنا أقبض يدى بشدة فتصرخ عضلاتى تحت لحم ذراعى وأرى يديه مربعة الأصابع بالغة الضآلة فيتعاظم رعبى من هذه الضآلة الشرسة.

كانت زوجتى قد تكورت، وجلست كلها فوق جزء صغير من الوسادة، ويدها على فمها تمنع نفسها من أن تغضبه بأنفاسها، وهو هناك فى طرف السرير وأنا فى وسط الحجرة متحفزا كما المارد ولكننى أنحنى قليلا لأستعد للخطوة التالية التى لا أعرف بالضبط ما هى.. كنت لا أزال أفتش عن عقلى وأعصابى، وقدمى لا أحس بهما وهما فى الأرض مغروستان.

هل كان يا ترى يدرك كثافة المصير؟

أم أنه يراه ويطمئن.

.. كانت ظلاله المهيبة تنتصب على الحائط التى وراءه، بينما كان يعبث فى شواربه ويمصمص شفتيه ولا يعبأ.

عيون الشيخ

ـ ١ ـ

الليل جدار أسود.. لم ينبت فيه قمر.. الأرض صماء كالولد الغبى حين يتعثر فى جواب أتفه الأسئلة.. النجوم مقطوعة الأنفاس.. ضوءها بخيل.

اتكأ الفتى على كومة من الضياع شقت عيونه صدر الفضاء.. يده تحت ذقنه.. أنيابه لا تستطيع إلا أن تأكل الأنياب، فى قبر صمت حزين، لم يبق له غير عيون مجهدة، ترنو للأسى محملقة وذراع.

الطريق أمامه مستدير، لايستطيل أبدا.. يبدو كالكف المعروقة.. مجرد مكان متسع خال من الأشياء والأحياء.. أقرب شىء إلى ناظره يمكن أن يراه، بعض من الحشرات الزاحفة القارضة.. أشبه بالجرذان.. خفيفة الحركة، صغيرة الحجم، لكنها بالنهم الغريب تهدم الديار وتقلع الأشجار وتأكل النبات والخضرة، حشرجتها.. حفيف حركتها يسودان الفضاء.. يملآن الآذان.. لها طنين يرهق الأعصاب.

الظلام يسود بكثافة لا ترق إلا هناك حيث تعشوشب هالات النور الشاحبة من بعيد.. لا يكاد يرى بعينيه شيئاً فى ظلال هذه الأضواء.. لا يستطيع أن يحدد الملامح.. لكنه يحس بكل ما يدور، إحساسا يئز فى روحه ويمور به جسده.. يتحرك فى داخله كفأر فى

قفص ينفذ في خفاياه كالأخطبوط.. يطل من أظافر قدميه.. من عينيه.. من ثقوب الشعر في جلدة رأسه.. من مسام عروقه، من قلمه.. من ألمه من صمته.. من دمع أمه الصارخ.. ما أقساه.

يحس بما هنالك عند الأضواء. بشر وجدران ومداخن وزهور وشفاه تأكل وتتحدث.. تلوك أيامه الماضية.. أيامه الآتية أصبحت ماضية.. أناس هناك يمسحون عرقهم، ونساء يجففن دمعهن، وأطفال يلملمون الثياب، ويجرون في صمت، أمهات يضمدن جراحاً غائرة تنزف بالدم، والدم أراه في الليل أسود.. لكن الضمادات بيضاء ناصعة..رغم الليل الداكن كأنها تلف الذراع تحت شمس صيف لا يحتمل.

هذا ما يراه هنالك حول الأضواء البعيدة، وهو هنا وحده، يحس حرارة ذاته، وغضبة أعماقه وعجزه.. شيئا ساخناً وبارداً صلداً يطيل ذراعه، يمتد أمامه، إنه سلاحه.. يوسع خطوته ويدعم نظرته، رفع عنقه،، لكنه وحده في الظلام.

النور هناك.. خطوته الواحدة تمتد لأمتار.. لكن البعد بعيد حجمه ضئيل واليوم طويل في استطاعته أن يعد أرقاماً حتى ألف ألف.. لكنه بدأ يعد منذ الأمس خمسة زائد خمسة تساوي عشرة.. أليس كذلك.

ـ ٢ ـ

كان يحث الخطى، تتقدمه أفكاره اليابسة، حين نفذ السهم في أذنه، لم يكن سهماً.. كان صوتاً حاداً يقول:

ـ من هناك..؟

تشبثت ذراعه بالصلب الدافئ في أحضانه.. سلاحه، رسخت أقدامه في الأرض، نظر تجاه الصوت.. للصوت نظرات تطل من ثقبين.. تتسرب عبر الظلام ملامحه.. تعشش في نظراته.. شعر كثيف في الذقن حتى البطن وفي الرأس حتى مادون الكتفين. رجل.. لا.. بل شيخ طويل القامة، مرفوع الهامة، عريض المنكبين مهيب النظرات، مدبب الأنف، طويل الأذنين، عيناه غائرتان في محجريهما، لكنهما واسعتان، ورغم ما يبدو عليه من السن

فالشيخوخة لم تنخر عظامه. لا يعتمد على عصاه التى يمسكها بيمناه رداؤه أبيض، لكنه ككل شىء فى الليل أسود.. وشعره كذلك..

أصداء صوته الهادىء تنبئك بأنه عاش طويلا.. يغترف صوته من الأعماق السحيقة.. كشجرة عريقة تمتص رحيق حياتها من أبعد الجذور فى الأرض.

ضرب الشيخ الأرض بقدميه كالجندى فى نوبة حراسة وقال بنبرات عميقة كأنه يعرف سر صاحبنا:

ـ من أنت؟

استدار الفتى نحوه.. حدد نظراته فيه.. لكنه لم يستوعب ملامحه تماما ـ قال له اعتمادا على أن كل أهل الحى يعرفونه على الأقل بسبب ما تعرض له فى حياته.

ـ ألا تعرفنى؟

اقترب منه.. تفرس فى وجهه وقال:

ـ لا أتذكرك يا بنى.. أحس أنى أعرفك.. ربما نسيت، وهذا لا يمنع أن تقول لى الآن.. من أنت؟

أحس الفتى أن لديه القدرة كى يقول له: تبا لك ولأمثالك تدعون النسيان تمالك نفسه وقال له:

ـ سأقول لك من أنا..

وقد بدت عليه مسحة من الضيق.

قال الشيخ الوقور فى هدوء وكأنه يحرص على ألا يثير غضبه:

ـ أنا لا أريد يا بنى أن أعرف من أنت، وإذا لم تكن تريد أن تقول، فلا أريد أن أعرف.

ـ سأقول لك من أنا.

- ٣ -

قال الفتى:

- ألم ترنى حين كنت أسكن هنا قبل الآن.. إلى جوار كوخى وحقلى وبرتقالى ونهرى وأشجارى، كان أبى وأمى يسعيان من أجلنا، والنهار يضىء من حولنا، والليل لا يطل علينا إلا وفى سمائه القمر يزورنا بالليل لما تحملنا أن تعشق الشمس غيرنا.

الصوامع ملؤها الغلال، والثمر كثير وزهر البرتقال يزين الطريق، وينعش الحواس.. الرضا تكوم فى الصدور.. وصعد إلى الشفاه.. وصار بعد العمل عند المغيب، ومع انكسار العرق على الجباه، لحنا فى مزمار الغاب، وسمرا صاخبا فى الليل إذا امتدت صحراؤه وهمس صلاة وتعبد إذا أوشكت نجوم المساء على الأفول.

هلى تدرى أن تلك الجرذان التى تجرى هناك فى حبور وفرح، كانت قبل ذلك سوسًا، لكن السوس تسرب فى الساق، نخر العظام.. قرض أعواد النور، فأظلم المكان.. غدا كالرحم أو كجوف القبر.. المغلق.. لم يعد الهواء يحمل معنى للأصوات.. صدأت أفواه الكلمات ضاعت بين فتات الوحل.. انشقت الأرض.. وغاض النهر، تعفنت الثمار على الشجر.. ترملت العيون وعقمت البذور.. ندبت حظها الألحان.. أخذتنى الرعدة والتفت الأجساد بالأثواب السود..

كأس دار علينا فجأة، وما كان الموعد معنا الآن كى نتجرعه شربنا السم ونحن نيام.. كان الوقت ليلا.. وكان يجب أن ننام، ليست غفلة منا أن أغلب النعاس على الأجفان.. لكن غدر السوس كان مفاجأة كبرى.

هل جزاؤنا: السم والبرد والضياع وبقايا المائدة.. ثم.. ثم اشتعلت أشياؤنا.. أسمالنا لا من حرارة الشمس ولا من نار الموقد.. لكن من لهب القلوب الغاضبة.. تفجرت أجساد الأحياء بالفزع الصامت، وتهشمت الصورة عند الباب المغلق.

ها هى الديار ساكنه تتأمل الخراب كالبهيمة التى تجتر فى الظل ما سبق أن أكلته حين لا تجد الطعام.

العيون تطل منها جامدة، النظرات يابسة، متناثرة.. تتابع الشمس حين تلوح هناك.. الأرامل فاقدات الزوج والابن والأخ والأب والعائل.. عويلهن صاخب مشروخ.. كعزف الرياح الحزينة فى الليل المقفر، لكن صدورهم تغلى وترعد كالسماء المشحونة بالغمام الممطر.

والآن.. هل تراك عرفت من أكون؟

ـ ٤ ـ

تمهل الشيخ قليلا ثم قال: لا يابنى.. لست أعرفك، فكثيرون هم الذين قالوا لى مثل هذا الكلام.. أناس آخرون سمعت منهم نفس الكلمات.. كلهم مهما اختلفوا متشابهون.. هذا حقا من الشرق وذاك من الغرب.. هذا من الشمال وذاك من الجنوب، وغيرهم فى شرق الشرق وفى جنوب الجنوب.. كلهم يقولون إنهم بلا ذنوب.

أخذ الغير حقوقهم.. اغتال الغدر أمانيهم، لكن من أنت؟ هل أنت مثلهم؟ إن كنت مثلهم فلا جديد، وإن كنت غيرهم، فقل لى من أنت؟ وإن لم تكن تريد أن تقول فأنا طبعا لا أريد أن أعرف.. يجب أن تريد أنت أولا.. من أنت إذن؟ وإن كنت لا تعرف من أنت! أو أنك تتعثر فى تلال الكلمات كفتى صغير يريد أن يثبت للناس أنه رجل، فلا تقل شيئا، واذهب فى حال سبيلك، ودعنى أكمل طريقى.. لأنى ذاهب إلى هناك، إلى هذه الأنوار التى تراها هناك، أم يا ترى غضبك اعماك؟

ـ بل أراها وأعرفها وأحس بها، وآمل أن أصلها يوما ما، أو يكون عندى مثلها لولا أن بينى وبينك مسافة لا تصل فى الأرقام إلى الألف، وأنا أعد حتى الألف .. وسوف..

ـ كفى يا بنى كفى..

ـ ألم تعرفنى بعد؟

ـ لا.

ـ ألا ترانى؟

ـ لا.

ـ سأصف لك نفسى، وسوف تعرفنى على الفور، أم أنك لا تريد أن تعرفنى؟

ـ بل أريد.. لكن يجب أن تريد أنت أولا.. صف لى نفسك وخلصنى..

ـ ٥ ـ

قال:

ـ أنا شاب لى عمل ولى أمل، ولا أهيم فى الخلاء متسكعا كالسحاب يدور فى السماء بلا هدف.. إخوتي مثلى شباب. جميعنا رجال.. ولسنا رجالا جوفا ولا أحشاؤنا من قش، ولا كذلك حشيت رءوسنا.. ولا يتوكأ بعضنا على البعض الآخر.

كلنا رجال.. حتى جدى المهشم رجل، وأبى المغتال رجل، وابنى الوليد رجل، وزوجتى التى لا ترانى وأمى وعمتى رجال.. حتى أختى الجميلة التى هى فى نظر بلدتنا أجمل من كل النساء هى الأخرى رجل، قوية البأس.. فى قلبها شجاعة لا تجدها فى قلب أعتى الرجال.. سواعدنا صلب، أسناننا تقضم الصوان.. ضمائرنا ليس فيها غير رب السماء وصلوات قلبية تتلوها الأطفال نعمل بالنهار والليل.. نطلب حقوقنا من كل مكان من كل إنسان.. نزرع ونقلع فيما تبقى لنا من الأرض الغالية.. ليس أغلى فى الدنيا من الأرض والماء لن نكف، لن تخمد الأنفاس، ستصبح الخيام أساسا لحضارات مقبلة.. سترتفع فى هذا المكان المداخن والحصون ستنبت الشجر والثمر.. لن نكف.. الأيام القادمة لنا.. انتزعنا شجيرات الخوف من أرض الصدور، وزرعنا الغضب والعمل طريقا للمصير والآن هل عرفتنى؟.

ـ لا.. مع الأسف يا بنى.

ـ أيها الشيخ الوقور.. سلام الله عليك.

مضى الفتى وفى أثره عيون الشيخ ترسل النظرات الشاردة.. ابتعد الفتى.. قفز فوق تل.. ألقى كلمة، ودوى فى المكان صداها وأشرق على وميضها النهار.. انكشف الستار وتجلى كل شىء.. تجلى رمل الصحراء الأصفر كحبات القمح المدروس، وتدلت من أشجار البرتقال ثمارها كالعقد الذهبى يزين جيد فتاة..

أشرأبت عنق الشيخ وعبث بشعر ذقنه الكثيف الأبيض كصوف الغنم.. وتراءى على شفتيه شبح ابتسامة.. ودون أن يدرى انطلقت كلماته كأنه أخيرا وجدها بعد افتقاد:

ـ الآن عرفتك.. قواك الله يا بنى.. وهداك.. لن يكشف لك طريق، إلا بالقوة والفكر والعمل.. فكر واعمل قواك الله.

الفئران الطائرة

أوقف الفأر سيارته الفارهة أمام محل الفاكهى، ولمحه البائع، تخلى عن الملتفين حوله والمتطلعين إليه.. أسرع يجيب رغبة الفأر.

توجه مباشرة صوب الحقيبة الخلفية.. ضغط القفل فانطلق بابها إلى أعلى فى حماس.. ألقى البائع فيها نظرة.. اطمأن على عمقها ورحابتها.. عاد إلى محله.. حمل قفصاً ومضى به.. حدق الناس الواقفون فى القفص المحمول، تضطرب فى نفوسهم مشاعر غير طيبة.. أطلت من ورقها الأبيض بعض حبات التفاح لامعة صارخة الاحمرار.

رفض البائع الاستماع إلى أى نداء.. أودع القفص بعناية فى بطن الحقيبة.. عاد إلى المحل ورفع قفصاً من البلح الأحمر.. تابعه الواقفون وراعهم بريقه كأنه بلح معدنى.. ابتلع الكل ريقهم وانشغل البعض فى تقدير وزن القفص وثمنه.. أخذوا يحسبون النسبة المئوية للثمن إلى مرتباتهم الشهرية.

عاد البائع وحمل قفصا من المانجو ثم قفصا آخر من المانجو واتبعه بقفص من الكمثرى أغلق الباب وتقدم إلى صاحب الجلالة الفأر.. كان يدخن وهو يستمع إلى صوت أحد المطربين السمان.. همس البائع فى أدب جم:

ـ تمام يا بيه..

تحركت السيارة الفاخرة، وقد تصورها الناس المبهوتون قصرا يجرى.. لم يكن باستطاعتهم أن يستحسنوا منظر الفأر القمىء مضت السيارة فى عكس الاتجاه.. اضطربت حركة المرور فى الشارع.. انزوت السيارات الصغيرة إلى أن يعبر القصر المتحرك بصق الفأر وانطلق.

تحول الواقفون إلى الفاكهى وانشغلوا بأمورهم.. تبددت من رؤوسهم حكاية الفأر ولم ينتبهوا إلى الحيرة التى ارتسمت على وجوههم إلى الأبد.

أمام الدار وقف القصر المتحرك وأطلق عقيرته الموسيقية المزعجة.

فُتحت الأبواب واندفعت منها عشرات الفئران.. توجهوا مباشرة إلى الحقيبة.. فتحوها وتعاونوا فى نقل الأقفاص، ألقوها وسط الدار.. أفرغوا ما فيها.. انقضوا على التل العظيم من الفاكهة الشهية وأعملوا فيه قوارضهم فى عنف كأنها مهمة لابد أن ينجزوها فى أقرب وقت.

بدأ هرم الثمار يهبط تدريجيا إلى الأرض وتفوح منه روائح متباينة.. أخيراً تمددوا ورفعوا رؤوسهم وأنوفهم إلى أعلى.. سقطت على شواربهم بقايا شمس راحلة.

شرب الفأر الكبير من كأسه واستسلم للرقاد.. بطرف عين لمح فريقاً من القطط يحوم حول الدار قهقه فى ازدراء، تسلل قط صغير إلى بقايا الطعام، عثر على حبة مانجو مأكولة أخذ يلعقها.. تركه أصحاب الدار تجرأ قط أخر.. فتقدم يبحث هنا وهناك جاء أكبر القطط منكس الرأس ينقب عن نصيبه.

رشف الفأر الكبير من كأسه وأغفى.. بعد لحظات ظنها طالت، ألفى القطط مازلت تلعق وتأكل.. قرر أن ينهى الوليمة.. كح فطارت القطط فزعة.. قهقه فى سعادة ونصر.

الدار الآن خالية من كل غريب. باستطاعته أن ينام.. يبدو أن القطط قد اختفت تماماً من الوجود.. أطل على الصغار كانوا يتقاذفون رزما من الأوراق الخضراء.. راح فى سبات عميق، عندما طلع النهار قال الصغار للكبير:

ـ نريد أن نخرج للنزهة.. تذكر الكبير أن اليوم عطلة، رفع رأسه إلى أعلى.. قال:

انظروا إلى السماء.. هل الجو صحو؟ أجابه الجميع: صحو جميل.

قال أحد الفئران المتطلعين إلى السماء: لماذا تطير العصافير ونحن لا نطير؟

قال الكبير: لا شيء مستحيل.

قال الجميع: نريد أن نطير قال الكبير: نحن بلا أجنحة

قال الصغار: والعمل؟

قال الكبير: لا شيء مستحيل.. سنصنع الأجنحة اضطجع الكبير وبرم شواربه وتمطى شرد لحظات إلى أن قال: ـ هاتوا رزم الورق جاءوا بها.. بها صنع الكبير الأجنحة.. ركب لكل فأر جناحين ابتسم الجميع فى فرح وقهقه الكبير فى انتصار.. فكرة بارعة يا كبير، لا شيء مستحيل دار أحد الفئران حول نفسه مبتهجا يجرب الجناحين: قال: عجيبة هذه الأوراق يا كبير ـ نعم عجيبه هيا بنا نطير، تجمعت الفئران ذوات الأجنحة أسرابا.. شكلوا جيشا زاحفا.. الأجساد الصغيرة بألوانها المعتمة والعيون الصغيرة تبرق كفقاقيع العفونة وعلى جوانبها الأجنحة الورقية الخضراء مشرعة ومصقولة. حين أشار الكبير إشارته.. أسرعوا بالجرى ضاربين الفضاء فارتفعوا، وصرخ الجميع فى انبهار ارتفعوا فوق المنازل والناس والأشجار.. أصبحوا فى قلب السماء.. رفرفت الأجنحة فى حماس واختفت فى بطونهم الأقدام الصغيرة.. الآلاف من الفئران على الأرض يشهدون هذه التجربة الفريدة، وبعد أن استقرت الأمور للفئران الطائرة وامتلكوا السماء، لم تستطع الفئران الأرضية صبرا فمضوا إلى الأوراق الخضراء وصنعوا الأجنحة، وارتفعوا وهللوا.

أدركوا فى سهولة أنهم أسعد أهل الأرض وأحقهم بالحياة إنهم الأذكياء والأغنياء والأقوياء إنهم فى الأرض وفى أجواء الفضاء قهقهوا فى إنتصار: ليس فى الدنيا مكان لم نبلغه.. آه يا لسحر الأوراق الخضراء.. لاشك أن الرسوم التى عليها تملك كماً هائلاً من التأثير والسلطان على بعض الأوراق مآذن مهيبة وصور تتألق فى عيونهم معانى المجد والعظمة، هناك أرقام.. وربما كانت تعاويذ.. حققنا بها هذا الإعجاز.. آه يالسحر الأوراق الخضراء روعت العصافير إذ رأت كل الدروب فى السماء مسدودة، وهذى الجيوش المعتمة تزحف هائلة العدد حتى لتحجب ضوء الشمس.. السماء تكاد تبكى من الغيظ، هبطت العصافير إلى الأشجار ترقب فى هلع ما يجرى.. ما الذى يجرى اليوم فى السماء؟ وما هذا المخلوقات الغريبة؟ من أى جنس ومن أى نوع ومن أى كوكب؟ لحق الإجهاد

بالفئران من طول مدة الطيران فحطت على الأشجار.. وجدت أمامها الأوراق مزهرة والثمار شهية فانقضت عليها تأكل فى نهم، كأنها لم تأكل قبل اليوم.. وقعت أعين البعض على العصافير المشدوهة فسال لعابهم ومضوا إليها.. فزعت العصافير وهربت إلى الأرض.. لاذت بالأركان.. وانغرس فى قلوبها الصغيرة نصل السؤال.. ما الذى يجرى؟ رأت القطط الهائمة أسراب العصافير تسرع إلى الأرض وتحط أجسادهم المنهكة بالتعاسة بدت كأنها فقدت القدرة على الطيران انقضوا عليها.. هربت العصافير إلى الجحور وقد تولاها إحساس واضح لاشك فيه أنها النهاية.. سكتت العصافير صامته تحيط بها الظلمة والقهر تنتظر شكل النهاية عادت الفئران إلى السماء.. قال أحدهم:

متعة خرافية كانت تحظى بها العصافير والنسور، ونحن هناك فى الجحور، لكننا سنطير.. سنظل نطير إلى نهاية العمر.

فجأة برق الرعد وقصف البرق وغامت السماء من تكدس السحب.. اختفت الشمس تماما ثم انهمر المطر غاضبا ابتلت الفئران وابتلت الأجنحة، حاولوا أن يدفعوا الهواء ـ لكن الأوراق تساقطت إلى جوارهم مستسلمة، كالأذرع المكسورة.. ماتت فيها الحيوية وأثقلها الماء واختفى تماما سلطان الأوراق الخضراء وسحرها.

بدأت الأجساد القاتمة تسقط، كانت الأمطار تدفعها أمامها بكل قسوة، فترتطم بالأرض والجبال والمنازل والأشجار.. ولا يكون فى قدرتها بعد ذلك أن ترفع رأسها أو تبدر منها أدنى حركة، نهاية جماعية لكائنات فريدة.. افترشت الأرض أجساد قاتمة وملامح قميئة ملفوفة فى أوراق مبتلة عليها رسوم وتعاويذ ووجوه عابسة.. صفت السماء وأطلت الشمس.. تسلل النور إلى الجحور.. تشوقت العصافير للحياة خرجت تتعرف من جديد على الكون.. عاد الأفق منتشيا بالنور والصفاء، حلقت العصافير وغنت للحياة: هذه هى الحياة.

زهـــرة البســـتان
قصص

إهـــــداء

من أرض النيل

إلي شجرات النخيل

في جنوب لبنان

قصصت سعفك المتوج بالخضرة والكبرياء

وأطلقته على جموع الفئران القميئة

الزاحفة نحوك.. ونحونا. تتأبط مدافع الغدر والظلام

فيا شجرات النخيل الملوكي

لا انحنيت للعواصف العاديات السداسية

ولا استطاعت أسراب السوس أن تنخر جذوعك السامقة

ولأنني أنتمي إليك يا قرى الكرامة

وأنتمي لكحل الليل الساهر في عيون أسودك، وأنتمي لدمائهم العطرة، وأنتمي للتراب الذي داست عليه أقدامهم الطاهرة

فلتسمحي.. لسطوري العابرات كنسمة باردة خجلى تقعي في قاع سفوحك أن تحيي رجالك ونساءك وأطفالك، فقد رسموا على خدك الجميل شامة، وزرعوا في قحط العروبة وردة.

ف. ق

القســم الأول

مـن هنـــاك

النقر على زجاج القلب

ما إن لمس «مهدى» الأرض حتى قفز فجأة، وأوشك أن يرتطم بالحائط. فقد شعر أنه داس عليه. الشقة غارقة فى الظلام، وهو فى غمرة النوم الثقيل نسى أن وحيداً يحرص على النوم إلى جوار سريرها.

وخز قلبه الألم مشفقاً على «وحيد» الذى لابد قد أصابه ضرر.. مضطرباً راح يبحث عن مفتاح النور. تبين أن الكهرباء مقطوعة.. تحسس طريقه إلى المطبخ فأضاء شمعة وأسرع عائداً يتخبط.

كانت راضية زوجته قد أفاقت على صوت اصطدامه بكراسى السفرة والثلاجة، ثم رأته عائداً يحمل شمعة نورها يلقى على وجهه وعلى الجدران ظلالاً مرعبة.

ـ خير يا «مهدى».

ـ «وحيد».

ـ ما به؟

ـ يظهر أنى دُست عليه.

رغم حجمها الضخم هبّت من تحت غطائها فى خفة عجيبة، ووقفت على الأرض تنظر إلى حيث ينظر.

.. دق قلبها وهى لا تكاد تصدق.. خطفت منه الشمعة وهبطت إلى الأرض تقلب فى «وحيد».. كان واضحاً أن المسكين تحطم.. خبطت «راضية» على صدرها وقالت بصوت تجذبه من نسيج قلبها المخلوع، صوت ينز بالأسى ويعبر عن خسارتها الفادحة:

ـ يا حبيبى يا بنى.. انت يا «مهدى» عميت.

لم يرد «مهدى»، كان قد تعوّد على أحجارها فى أيام السلم، والآن وهى فى عز المصيبة يحق لها أن تقول ما تشاء.. تهاوى إلى جانبها فقد كان يشعر مثلها بالخسارة ولكنه كعادته يغضب فى نفسه فقط ويتألم صامتاً وينفث سيجارته بسرعة.

أخذ منها الشمعة فى صمت، ووضعها على الأرض، تفرغت هى للتقليب بإصبعها الغليظ القصير فى أعضاء «وحيد» المفككة.. كلما رفعت ساقاً سقطت، ورفعت رأسه فسقط هو الآخر.. اندفعت فى نشيج متدفق وغريب..

.. بحر من الدموع لا يتوقف، ينتفض له جسدها بقوة

ـ يا حبيبى يا بنى.. يا حبيبى يا بنى.

كان «مهدى» متأثراً جداً ويشعر بالأسف لأنه لم ير «وحيداً» وحطم عظامه.

ـ أنا السبب.. امسحيها فىّ.

ربّت على فخذها:

ـ خلاص يا «راضية».. الدنيا كانت ظلاماً.

لم تكن مستعدة لسماع كلمة. قالت بضيق:

ـ أُسكت.. أُسكت.

استمر فى طلب العفو:

ـ حقك علىّ.. عمره انتهى وهذا أمر الله.

كانت فى عالم آخر:

ـ يا حبيبى يا «مدحت».

ـ «مدحت»!

ـ يا حبيبى يا «وحيد».

عاد يربت على فخذها وهى لا تشعر إلا بقلبها المحطم. و«وحيد» الذى انتهى وكان أنيسها الأوحد.. مضت تتذكر خفة دمه وذكاءه وحنانه.. طوال عمرها لم تر ولن ترى من له صفاته. أوشك «مهدى» على البكاء، لكنه تشاغل بالتحديق فى العظام المسحوقة، ثم صرخ قائلاً:

ـ إنه يتحرك يا «راضية».. انظرى.

بسرعة مسحت عينيها لترى إن كان فعلاً ينبض ويحاول الحياة.. كان رأسه يتململ، وكانت له عين مفتوحة بثبات كالموتى وعين مغلقة تماماً، ظل «مهدى» يرقبها لعلها تتخلى عن سخطها الزائد ولوعتها التى تشوه ملامحها.

إلى المطبخ أسرع «مهدى» بإلهام غير عادى فأحضر خرقة. مزقها شرائط صغيرة ثم فتح أحد الأدراج وأخرج منه قلم رصاص كسره نصفين.

رفع «وحيد» وطلب إلى «راضية» أن تمسكه من بطنه، وضع نصف قلم على ساق ولفهما بشريط من القماش، ووضع النصف الآخر على الساق الثانية ولفهما.. عادت الكهرباء واجتاح الشقة نور باهر.. ارتجفت منه العيون.. فرح «مهدى» بالفرج وأطفأ الشمع الذى كان قد أضاءه، ومضى يؤلف جبائر وأربطة للكتكوت الوحيد، محاولاً أن يصلب طوله ويجعله يقف كخيال المآتة.. قال لزوجته التى ذوبها اليأس:

ـ إن شاء الله سيعيش.

ـ كيف سيعيش يا فالح؟!

ـ ربما يصبح أعوراً لكن لا بأس.

ـ لقد سحقته يا رجل.

ـ ربما يحتاج هذه الجبائر طول عمره، لكنه سيعيش.

ـ ومنقاره الصغير نفذ فى اللحم.

ـ سأطعمه بنفسى.. لا تقلقى

ـ أنت تموت فى النكد.

ـ سيعيش.. اطمئنى.

لم يستأنفا نومهما.. بقيا إلى جواره يرقبانه وهو يجتهد للتماسك، ربما ليس طلباً للحياة بقدر سعيه لإرضائهما وتلبية رغبتهما الحميمة فى أن يعود للحياة واللهو والمؤانسة.

فتح «مهدى» بصعوبة ورهبة منقاره. حاول أن يعيد الشفة العليا لتكون فوق السفلي بالضبط. أخذ يلقى بينهما حبات الأرز.. في البداية لم يجد استجابة.. فنزل عليه الوحي.. أحضر قطارة العين ومضى يسحب بها ماء ويسقط فى فمه قطرات.. تنبهت أعصاب الكتكوت بعض الشيء.. فعاود الكرّة، وكلما نبض عصب ضئيل تجدد الأمل فى نفس راضية، وأوشكت أن تسامح «مهدى» الذى أساء إليها إساءة لا تغتفر.. طرقعت بإصبعيها الوسطى والإبهام مشجعة «وحيد» على مواصلة التعلق بالحياة.

أبدى «مهدى» عبقرية في الإصلاح لم تعرفها عنه إلا فى حالات نادرة، وأيقنت أن الطبيب البيطرى نفسه لا يفعل ما فعله «مهدى». ها هو ومن أجلها يحاول أن يعيد الحياة إلى الكتكوت الوحيد بعد أن فقدت عشرين كتكوتاً اشترتها منذ ثلاثة أشهر.. والغريب أن هذا الكتكوت لم يكن ضمن المجموعة التى اشترتها ولكنها طلبته من البائع هدية.. فوق البيعة.. نعم.. أشارت عليه هو بالذات وقالت له:

ـ هات هذا الكتكوت لـ «مدحت».

ـ لقد أخذت حقك.

ـ سآخذه لمدحت..إنه لمدحت لابد..

ماتت كل الكتاكيت إلا كتكوت «مدحت».. وهى لم تفكر طوال حياتها فى تربية الكتاكيت أو أى نوع آخر من الدواجن.. كان «مهدى» حريصاً على راحتها.. يشترى لها كل ما تريده جاهزاً. لكنها وجدت نفسها مضطرة لذلك بعد أن تزوج أبناؤها العشرة ولم يبق معها إلا أصغرهم «مدحت». كان «مدحت» قد أحب «وحيداً» مثل أمه وأبيه، وحرص أن يلاعبه كلما كان بالبيت، وإذا عاد من الخارج ولم يستقبله «وحيد»، سأل عنه.

كان «وحيد» إذا سمع جرس الباب أسرع ليستقبل القادم ويتبعه إلى حيث يدخل... إذا كان واحداً من العائلة دخل معه إلى حجرة السفرة أو النوم، وإذا كان ضيفاً اصطحبه إلى الصالون وبقى يرقبه بوعى وانتباه.

أصبحوا يقدمون له نفس المشروب الذى يشرب منه الضيف. ونفس الذى يأكله.. ولما أخذ «مدحت» «وحيداً» مرة لينام معه على السرير لم تقل له أمه: لا تأخذه معك حتى لا تسحقه، ولم تقل: دعه حتى لا يفسد سريرك.. بل قالت له:

ـ إن لك غطيطاً عالياً سيزعجه.

لكن الحب الجارف لـ «وحيد» لم يسيطر تماماً على «راضية» و«مهدى» إلا بعد سفر «مدحت» العنيد إلى الكويت. ولم يكن بحاجة لذلك، لكن أصدقاءه كان لهم فى كل شئونه تأثير بالغ عليه.

أصبح «وحيد» هو «مدحت» وهو كل الأبناء. خاصة أن «راضية» تبقى وحيدة معه بعد خروج «مهدى» إلى الورشة التى لا يعود منها إلا بعد الغروب.

بقى «وحيد» مخلصاً وتابعاً أميناً لـ «راضية».. إذا ذهبت إلى المطبخ تبعها، وإذا دخلت حجرة النوم كان قبلها.. وإذا خلعت ملابسها فعينه عليها، وهو معها إذا دخلت الحمام.. إذا أكلت يأكل وإذا شربت يشرب، وإذا لم تحضر له مثل ما معها نقرها فى قدمها الصغيرة المدورة.. عندئذ تعرف أنها نسيته وأنه غاضب.

إذا فتحت التليفزيون، تضعه إلى جوارها على الكنبة، لكنه لا يرتاح فى هذا الوضع ويسرع بالقفز ليضطجع فى حجرها مستمتعاً بالدفء الذى ينفثه فخذاها.. يتطلع مثلها إلى التليفزيون وهى تقزقز اللب وتضعه فى فمه. وإذا كانت البرامج المعروضة عبارة عن ثرثرة فارغة، أو معادة فإنه يؤثر النوم وتغطيه بطرحتها. وأحياناً تغلق التليفزيون وتبدأ معه حديثاً طويلاً. تحكى له ما يخالجها من مشاعر وأفكار. وتعترف له بأمور لا تصرح بها حتى لـ «مهدى» زوجها وأبى عيالها:

ـ ركبتى يا «وحيد» يا بنى. نشر جامد. الروماتيزم بعيد عنك. وأولادى لا يسألون. منهم واحدة بينى وبينها «خطوتين» لا تفكر فى أن تطل علىّ، والثانية المجرمة تقول لأخيها. أمى الآن لا تسأل عنا، إنها تُربى صرصوراً، وستكتب له ثروتها. أنت صرصور يا «وحيد» ؟..هم الصراصير يا حبيبى.. هات لماما قُبلة. قبلنى عِدِل يا وله.. شاطر.. هل تحب ماما؟.. يا حبيبى.. وماما تحبك.

أشرق الصباح وكل ساعة تمر تشهد تقدماً، والطبيب ما زال ببراعة يتفنن فى العلاج ويبتكر فى الترميم، وأهل المريض يتجول فى نفوسهم الأمل، ويطل من عيونهم التى خلت تماماً من الدمع، لولا الشك فى إمكان عودته للحياة بقوة كما كان..وكيف يعود وليس فيه عضو واحد سليماً.

فى الثامنة ذهب «مهدى» إلى الورشة دون أن يتناول فطوره المقدس وبقيت «راضية» إلى جوار «وحيد» دون أن تفكر حتى فى أن تدلى السلة بالحبل لبائع الخضراوات.. قررت ألا تطبخ اليوم.. سوف يأكلان أى شىء.

«وحيد» يتحسن باطراد وشجاعة. واستطاع بعد أيام أن ينقل بعض الخطوات لكنه كان يقع برغم أقلام الرصاص المثبتة على ساقيه ورأسه المحمول بجبيرتين مثبتتين طولياً على جانبى بطنه.

ظلت «راضية» حريصة على إطعامه بنفسها حبة.. حبة، وعلَّمها «مهدى» كيف تُقَطِّر له الماء، ولكنها كانت دائماً تفكر فى «مدحت» الذى لم يرسل أى خطاب منذ سفره، لم يرض أن يعمل مدرساً.. فضَّل الورشة مع أبيه.. وأظهر تقدماً فى تعلم الميكانيكا، واستطاع بعد أشهر قليلة أن يصلح أى عيب فى أى سيارة، لكنه سافر.. ركب الطائرة ورحل بعيداً بحيث لا تراه أمه ولا يراه أبوه.

ـ أصدقاؤه يا «وحيد» هم السبب، كان مطيعاً ولكنه بالتدريج بدأ يعصانى ولا يسمع الكلام. ولا جواب يا «مدحت». ربنا يحرسك يا بنى فى غربتك.

بعد أيام قرر الطبيب رفع الجبائر. وقف «وحيد» لحظات ثم وقع.. أنهضه «مهدى» وساعده على السير خطوات.. سار ثم وقع، وهكذا مضت المحاولات، لكنه كان يسير منحرفاً جهة اليمين تبعاً للعين السليمة ثم يصطدم بالأشياء ويقع.

ظل «مهدى» يرعاه بتأملاته وأفكاره، حتى تحسن، لكنه لم يكن قادراً على العودة لنشاطه القديم. غامت الرؤية وقل السمع وتراجع الجهد، وبدا مفتقداً لذكائه وخفة ظله وتأثرت إرادته بما اعتراها من الأسى واليأس.

صحا «مهدى» ككل يوم وبحث عنه محاذراً أن يقضى هذه المرة عليه تماماً.. بحث عنه ليحييه تحية الصباح ويقبله قبل أن يتوضأ.. لم يجد له أثراً.. لا تحت الدولاب ولا فى

المطبخ ولا تحت الأسرة.. أيقظ «راضية» التي انطلقت في حماس تتأكد أولاً أن كل الأبواب مغلقة وأنه لم يفتح أي باب ويخرج، وربما يسافر.. لماذا لم يرسل «مدحت» خطابات؟! لقد تحسن وأصبح يأكل وحده.. فما الذي جرى؟

أخيراً وجدوه مُسجّى على سجادة الصالون.. ممدداً في هدوء.. أيقظوه فلم يستيقظ.. رفعوا رأسه فسقط منهم مستسلماً للنهاية.. «مدحت».. دق قلب «راضية».

- يا حبيبي يا بني.. استر يا رب.

انفجرت عيناها بالدمع، بينما تسلل «مهدي» إلى الورشة دون فطور وقد خامره إحساس بأن صاحبة الجسد الذي ينتفض بالغضب والنشيج المحموم سوف تقبض على زمارة رقبته.

١٩٨٥

البكاء.. عرْيًا

كان لابد أن يجرى فى الشوارع عارياً.. إذا لم يفعل ذلك ربما انفجر ومات.

بعض من رأوه مصمصوا الشفاه، وذهبوا لحال سبيلهم، وبعضهم انطلق فى إثره، فقد كانوا يدركون أن هذا الذى يجرى عارياً، لم يصل بعد لنهاية المطاف، من المحتمل أن تقع أحداث أخرى أعجب وأغرب.

جرى «مرسى» عارياً، وكان لابد أن يتعرى وأن يجرى، فما حدث لا يترك العقل فى مكانه أبداً، ولذلك جرى وراءه جمع من الناس يتقدمه العيال.. العيال كانت نصف عارية حتى من قبل أن يتعرى «مرسى».

المعزة أكلت «مرسى» يا ولاد.. المعزة أكلت «مرسى» يا ولاد.

الجمع يتزايد، وهتاف «مرسى» المكلوم لا يتوقف.

كان «مرسى» للحق يرتدى اللباس، اللباس فقط، وكان يوشك أن يخلعه عندما جرى ما جرى، لولا أن أمه حضرت ورأته وهو يتخلص من هدومه قطعة وراء قطعة.. لم تستطع أن تحتمل المصيبة التى لحقت بولدها. «فقعت بالصوت».

اضطرب «مرسى»، وتوقف بالكاد وهو يهم بإنزال اللباس تجمدت يده. كان يخاف من أمه ويعمل لها ألف حساب، ولم يكن شاربه المبروم الذى يعتز به ينفعه إذا ثارت عليه.

في هذه المرة لم يجد حلاً إلا أن يجرى من أمامها، يختفى تماماً لأن كلماتها ونظراتها ستكون هى النهاية.

كان صعباً أن يظل أمامها عارياً، وكان صعباً ألا يكمل غضبه ويظل مقيداً باللباس ذى الدكة الطويلة، وكان الأصعب أن يستسلم لما حدث ويجلس واضعاً رأسه فى كفيه.

مضى يجرى عارياً وهو يندد بما فعلته العنزة.

«المعزة أكلت مرسى يا ولاد.. المعزة أكلت مرسى يا ولاد».

العنزة لم تأكله، وإنما أكلت قلبه ثم تقدمت نحو عقله وكبده ووصلت إلى عينيه وأذنيه فلم يعد يرى أو يسمع.

هو فى البداية حسبها زوجته التى لا تتوقف عن الأحلام والأمانى. كان واثقاً من ذلك فقد حدثته طويلاً عن نواياها:

ـ إن شاء الله أول ما ربنا يفكها عايزة أجيب غسالة.

ويدهش مرسى ويسألها:

ـ بالكهربا؟.

فتنفجر فيه قائلة: أمال بالجلة.

يتنهد «مرسى» ويضطر للقول محاولاً فى هدوء إنهاء الموضوع.

ـ ربنا يفكها.

فى مرة أخرى وهو يجلس أمام راكية النار يلف سيجارة بعد العشاء وينتظر الشاى حتى يغلى.. دنت منه فشم عطرها النافذ وكانت فى قميص نوم بحمالات.

قالت له وهى ترفع ذراعيها إلى أعلى.. تعرض عليه أبطيها:

ـ إيه رأيك.

سألها: فى إيه.

قالت فى شبه غيظ يعنى مش شايف. نضفتهم إزاى. تنبه فجأة فلعن كل أصناف البهائم.

هب فخلع جلبابه ثم تذكر النار فصب عليها الشاى وألقى فيها السيجارة.. اعتمت القوالب الملتهبة، وانطلق بركان الدخان وطلع عليه قبل أن تسبقه زوجته إلى سطح الفرن.

لما اطمئن «مرسى» أن الأولاد يأكلون الأرز مع الملائكة: توكل على الله.

ولما تخلص جسده من الشياطين الحمر، قالت له ستوتة:

ـ إن شاء الله لما ربنا يفكها عايزين نبيض الدار.

رغم سعادته الغامرة وهى فى أحضانه وإحساسه بالهناء العائلى الجميل.. زعق فيها:

ـ دار ايه يا ولية يا مخبولة أنت.

كان هو فى الحقيقة المؤرق بالأمانى والأحلام التى تنضج داخله فى صمت ولا يريد لمخلوق أن يهدد هذه الأمانى، إلى أن آن الأوان كى ينتقل من الحلم إلى العلم. ولم يعد قادراً على احتمال السر فى قلبه وهو يكبر ويكبر.

ـ أنا بقول بدل الفلاحة وهدة الحيل نشترى عربية ميكروباص اشتغل عليها بين الكفر والبندر، ترمى لها فى اليوم فوق العشرين جنيه.

بعد مناقشات وافقته «ستوتة»، فقد كانت تهيم غراماً بالسيارات، السيارات كما الخيل.. دليل عز، والسيارة لابد ستسهل لها شراء الغسالة وبقية طلباتها، ولابد أنها سوف تلبس ملابس أهل البندر لأنها طبعاً ستركب السيارة وتذهب مع «مرسى».

سألته بعد أن أوشكت أن تستسلم للنوم وقد تذكرت أن السيارة تحتاج ألوفات من الجنيهات، وأن ثمنها لا يقل عن ثمن فدان أرض، وهم والحمد لله لا يملكون شبراً واحداً من الأرض وأن «مرسى» يركب نصف فدان بالإيجار.

هنا العقدة.. عاد يكبح السر..

قال لها فى البداية: بكرة تفرج.

وأخفى عنها ما كان يفكر فيه، فقد كان يعلم أنها لن تفرط فيها أبداً، لأنها روح الدار، وأنها لم تفرح كما يجب عندما ولدت العنزة ثلاث عنزات فى بطن واحدة وعمرت الدار لكنها تفرح بمترد لبن واحد فى الصباح بملؤه ضرع الجاموسة، وتفرح أيضاً إذا ملأت لهم الأرض روثاً.

لكنه عندما احتشد بالفكرة ولم يعد ينام من إلحاحها، وأزف الوقت سلم أمره لله، وأعد كل أعصابه وعقله وقلبه لاستقبال رد الفعل عندما يقول لها أنه ينوى بيع الجاموسة.. هو على ثقة أن ردها سيكون عنيفاً، ومن الممكن أن يفضى لفضيحة.. كان يرى «ستوتة» وهى تقبل الجاموسة فى جبينها وتحييها عندما تدخل الزريبة فى الصباح قائلة لها:

ـ صباح الخير يا معزوزة.. صباح الخير يا ست الستات.

فتلتفت إليها «معزوزة» وتهز ذيلها..

تمسح «ستوتة» بدن «معزوزة» كله حتى ذيلها وبطنها، وتتأملها جيداً لتتأكد إذا كانت قد أخذت راحتها فى النوم أم لا، وتطل فى المدود لترى هل أكلت كل عشاءها أم أنها أبقت منه.. وإذا بقى منه شيء فهذا يدل على أن هناك ما يعكر صفوها.

تقدم لها البرسيم الطازج، وتقترب من الضرع، وبرقة شديدة تحننه وتتصاعد فى شدة جذبه تدريجياً حتى تسيل فى المترد الفخار أنهار اللبن، فيرقص قلب «ستوتة» للنهار الأبيض والخير الكثير.

ضربت صدرها بكفها وهى تنطق باسم: «معزوزة».

وكأن «معزوزة» عملت عمله، وكررتها مرة أخرى.

ـ يا خرابى ياولاد.. «معزوزة».

وضع أصبعه على فمه وهو يقول لها: هس.. اكتمى.. بلاش فضايح.. أصل يا «ستوتة» مفيش حل تانى.

أخذت بصوت خفيض تلطم على خديها: يا لهو بالك يا «ستوتة».. يا للى مالكيش بخت يا «ستوتة».

ـ انت ح تندبى يا ولية.

ـ لا يا خويا لا.. كله إلا «معزوزة».

دام الحوار طويلاً.. هى تحب «معزوزة» جداً ولا تتصور أن يأتى يوم تفارقها فيه، وهو روحه معلقة فى السيارة ومقودها وعجلاتها وركابها أيضاً.

هى تشد وهو يشد إلى أن خطرت على باله مخدرات الوعود.. حلف لها أن أول ما يشترى من حنفية الخير سيكون غسالة لها وأساور وحلقان وعقود من الذهب.. بل وتعبان وكردان.. لا.. هذا لا يكفى سيشترى لها جاموسة أخرى واسمها «معزوزة».

هدأ قلبها قليلاً، وكان الفجر قد بدأ يستعد للخروج من عتمة الليل وهو ينفث أدخنة النعاس ويدفع بها إلى الجفون حتى لا تراه وهو يتسلل إلى الدنيا. استسلمت «ستوتة» للنوم والوعد الجميل، ورضى «مرسى» عنها وعن نفسه وعن الغد الذى سيكون مختلفاً تماماً بعد أن يسلم الأرض لأصحابها.. بلا وجع دماغ.

بعد أن نضج القمح واصفر، وجف ونوّر فى الفضاء نصف فدان «مرسى» بالذهب.. نزل الأرض ومعه «ستوتة» وأولاده الخمسة حتى الرضيع، وهات يا حش.. وفر أجرة الحصّادة وقد قرر أن يودع الزراعة بيوم مجيد.. حاول «مرسى» أن يُذكر الأرض به، مع أنه لا يريد أن يذْكرها بعد اليوم.. يريد أن يطلقها بالثلاثة، وتختفى تماماً من أمام عينيه وذاكرته أيضاً.. لكنه كان فرحاً بالمحصول الذى طال انتظاره.. زرعة لم تحدث فى الكفر كله.. هكذا قال الجميع.

ـ غلة«مرسى» صحت تمام.

السنابل ذهب، وبرغم الرياح التى هبت فى الأيام الأخيرة لم ينكسر عود.. أصلب عدوك يا «مرسى». لا تنحن.. زرعة تفرح صحيح، لكن كلّ هذا البهاء لن يردك عن قرارك.. الرزق مقدر ومكتوب.

السيارة رزق يومى. كل ساعة تقبض الجنيهات وتصرف أيضاً الجنيهات على البنزين والإصلاح، لكنك ستدخل بيتك مع الغروب والسيالة عمرانة.. لارجل مشققة، ولا يد مقشفة.. ونزّل يا ولد من شنطة العربية ما تشتهى الأنفس، من أول الجبن الرومى والزيتون الأسود أكل الذوات إلى البسطرمة واللانشون والمربى والعيش الفينو أكل الإفرنج وراح زمان الطعمية والحلاوة الطحينية فاكهة يوم السوق، وطوال الأسبوع مش وسريس.

ـ حش يا واد حش.

تكومت ربطات القمح، شالت «ستوتة» على رأسها وشال معها الحمار الذى أجره «مرسى» من مليجى. حط الحمار وحطت «ستوتة» الحمايل الذهبية فى الجرن. جاءت

الدراسة. تكتكت وفصلت الحبة من غلافها وكسرت العيدان فتافيت فتافيت.. تطيرها النسمة.

ـ اتفضل يا «عم خليل» أرضك تعيش وتزرع فى مالك وأنا مالى على الله..

سعادة «عم خليل» أحس بها سكان الأرض والسماوات.

لما خزن «مرسى» القمح وانفض المولد، سحب «معزوزة» وطلع بها على السوق، وفى بحر ساعة كان باعها لصاحب النصيب، وقبل أن يلتقطه صيادو المحافظ.. لصوص الأسواق.. أسرع وهو قابض على صدره المنتفخ بالعشرات إلى شركة السيارات التى وعده صاحبها بأن يسلمه سيارة جديدة، يدفع ثمنها بالأقساط. والدفعة الأولى ١٥٠٠ جنيه.

تاهت ووجدناها.. الـ ١٥٠٠ جنيه فى المحفظة الجلد أم أربعة جيوب التى ورثها عن أبيه، وهى فقط التى ورثها عن المرحوم. ربطها «مرسى» بخيط مجدول غليظ فى الصديرى ويده فوقها لم تتركها ثانية، فهناك عيون ترى جيداً ما بداخلها وهناك أياد تسرق الكحل من العين.

لم يجد الرجل، قال نائبه أنه ذهب إلى جمرك الإسكندرية يفك حبس سيارات جديدة وارد ألمانيا واليابان وبلاد كثيرة لم يرد اسمها يوماً فى كتاب.. يصل بمشيئة العلام يوم السبت عليك وعلينا الخير.

رجع «مرسى» وقلبه لا يستقر بين ضلوعه، يريد أن ينام ويصحو فيجد نفسه فى يوم السبت.

لن يمس أحد مليماً من هذه النقود، ولن يسمح لـ «ستوتة» التى لا تتوقف عن الزن أن تطول منها شيئاً.. ليته يأخذ منوماً، يدفنه فى قبر النوم ولا يضيع أثره إلا يوم السبت.

كيف ستمر هذه الأيام.. بدون أرض وبدون جاموسة، وكيف يحافظ على نقود ليست له ومعه سبعة أفواه وعيون «ستوتة» وأفكارها وكلام الناس وقائمة طويلة من الدبابيس التى توخز روحه، ليته يسافر فى أى مكان.. للأسف لا شىء من ذلك كله يمكن أن يحدث، وعليه أن يواجه هذه الأيام بأى صورة.. يا مهون هون.

المشكلة الآن هى.

أين يخبىء النقود.. أين يخبىء النقود؟

ـ تخبيها فين يا واد يا «مرسى».. تخبيها فين يا واد يا «مرسى».

لا داعى لوضعها فى الطاقة، فقد رأى فيها فأراً مرة، ولا داعى لدفنها فى الأرض، فقد أكلت نقود الحاج «طه» العام الماضى، ولن يدفسها فى مرتبة السرير لأن اللصوص والمباحث يبدأون دائماً البحث بها.

وبعد قرر أن يلفها فى قطعة من القماش ويقلب عليها ماجور العجين القابع فى ركن من «بحراية» حجرة الفرن التى ينام فيها، ويقضى بها معظم يومه وكل ليلة خاصة بعد تسليم الأرض، لا يتركها إلا ساعة الغروب ليجلس على المصطبة أمام الدار.

قرر ألا يغادر الدار مهما حدث.. سواء مات أحد أو مرض أو تزوج أوعمل أحد ليلة لطهور ولده، ولو جاء الشاعر «فتحى سليمان» نفسه وهو مغرم به جداً فلن يذهب.

لن يبرح الدار حتى إلى المسجد ساعة صلاة الجمعة.

ـ ما جتش على ركعتين الجمعة، وربنا غفور رحيم.

بتاتاً ومطلقاً وأبداً لم يترك الدار حتى لو أرسلت له أمه تطلبه كعادتها للحضور فوراً، وعندما كانت تطلبه كانت اللقمة تسقط من يده وهو يأكل، ويسرع إليها ولو كان حتى فى بيت الراحة.

أقسم بالطلاق بينه وبين نفسه على ذلك حتى يكون ملزماً بالتنفيذ..

أليست مسألة غريبة أن يجد نفسه نائماً طيلة النهار والليل مع أنه لا يعمل أى شيء.. لا يناول العنزة وأولادها عود برسيم ولا يجهز راكية النار أو يسقى نفسه شربة ماء. مسألة غريبة لأنه كان أيام الأرض، يعمل طيلة النهار حرثاً ورياً وبذراً وعزقاً.. لم يكن ينام إلا ساعات قليلة من منتصف الليل حتى الفجر، وساعة تحت التوتة عصراً وإلى جانبه «معزوزة» تهش الذباب بذيلها عنه وعنها.

استيقظ عصر الجمعة على حركة أقدام.. تلفت وهو فوق الفرن لم يجد أحداً. الباب موارب كما تركه.. يفسح له مستطيلاً رفيعاً من النور يربطه بالدار والوقت، حاول أن يرتد إلى حضن النوم فلم يجد ترحيباً.

تقلب فى فراشه لحظات ثم نهض. هبط من الفرن وتمطى. فتح الباب وتثاءب كأنه لم ينم منذ أسبوع، جذبت نظراته قطعة قماش على الأرض. دق قلبه لمرآها. حدق فيها ثم رجع بعينيه إلى الماجور الذى كان فوق مصطبة صغيرة فى ركن البحراية، رفع الماجور لم يجد شيئاً زعق بعلو حسه:

ـ جاى. يا بنت الكلب.

رفع المرتبة بسرعة وسحب سكيناً جديدة كان قد اشتراها يوم السوق..

ـ عملتيها يا بنت الكلب.. النهاردة آخر يوم فى عمرك.

انطلق يقلب الدار كلها على «ستوتة»، لابد هى التى أخذت النقود.. صعد السطح فى قفزتين. لم تكن هناك.. دخل الكرار.. لا حس ولا خبر.. اندفع إلى الزريبة.. لم يعد فى الزريبة حى ولا ميت. إذن سافرت الفاجرة. راحت البندر تفقد فلوسى. نهار أبوها أسود.

قبل أن يخطف البلغة فى قدميه والسكين فى يده لمحها تخرج من بيت الأدب.. ترك البلغة وهجم عليها.

ـ عملتيها.. يا بنت الكلب.

دفعها بيده اليسرة دفعة قوية. سقطت وسقط فوقها. صرخت ببقايا ما عثرت عليه من عافية، وقبل أن يرفع يده بالسكين سمع صرير الباب الخشبى الكبير يفتح نصف فتحة وولده الأوسط ذو السنوات السبع يقول له:

ـ الحق يا با. الحق.. المعزة بتاكل فلوس.

تجمدت اليد والسكين وفم «مرسى» مفتوح على آخره، وهو بعزم ما فيه يستعد لفتح بطنها، ويده اليسرى فوق صدرها تدق الفريسة فى الأرض وتجهزها للذبح.

ـ المعزة!.. الفلوس!..

شرد لحظات وارتجف جسده، يخشى إن هو صدق الولد أن تفلت لحظة الانتقام التى اكتملت ولم يبق إلا غمد السكين.

تراجع من فوق «ستوتة» وأعاد سؤال الولد، فأكد له أنه رأى جنيهاً أحمر كبير فى فم العنزة.

أسرع وراءه كانت العنزة أمام الباب تقضم ورقة بعشرة، وإلى جوارها قطع صغيرة مبللة من ورقات أخرى.. توزعت نظراته فوجد فتات الورق الأحمر والأخضر متناثرة وسط الدار.. هجم بالسكين على العنزة بدأ ببطنها.. طعنة بعد طعنة. ثم رقبتها وظهرها وجنبها حتى أفخاذها نفذ سكينه فيها.

غرقت المصطبة بالدم وانحدرالدم إلى الدار الهابطة وغرقت جلباب «مرسى» وهو لايزال يذبح فيها ويسلخ ويخرج الأمعاء بحثاً عن النقود ويقطع الرقبة ويفتحها بالطول. مفتشاً فى سكة الطعام والشراب يجد الفتات فيتحمس لمزيد من التمزق والذبح والسلخ حتى غدت العنزة قطعاً صغيرة وهو لا يجد فيها إلافتات الورق المبتل بالماء والدم وملوثاً بالقاذورات وبقايا الطعام واللعاب وعصارات الهضم.

أخرج كبريتاً من جلبابه ثم خلع الجلباب وأشعله. خلع الصديرى والمحفظة والفانلة ووضعهم فى النار، أخذ يخلع فى عصبية واضحة وكأنه يتخلص من قيوده وعاد يردد:

ـ عملتيها يا بنت الكلب.. كلتينى.. كلت مرسى.

وعندما شرع فى إنزال لباسه صرخت أمه عليه وهى قادمة من رأس الشارع.

ـ ولد يا مرسى.

دق رأسه فى الحائط وجرى عارياً.. جرى عارياً وكان لابد أن يجرى عارياً.. ولو وقف ربما انفجر ومات..

ـ المعزة أكلت مرسى يا ولاد.

الجمع يتزايد من ورائه، يتقدمه العيال، حتى طلع عليهم «مليجى»، جره بقوة إلى داخل داره وأوقف الزحف.. هب فيهم، وقفوا بعيداً جوار الحائط المقابل ينتظرون الفصل الأخير، ولا زال لديهم إحساس مؤكد بأن القصة لم تنته.

غط رأسه فى حوض الطلمبة التى فى وسط الدار.. غطه عدة مرات ثم ألبسه جلباباً وأخذه فى حضنه.. وهو يهمس فى أذنه: الله أكبر.. الله أكبر و«مرسى» لا يزال يقول:

ـ المعزة أكلت «مرسى» ياولاد.. المعزة أكلت «مرسى».

تدريجياً بدأ الجسد الثائر يهدأ والعظام المتخشبة تلين وتتداعى وانخرط فى البكاء.. هز البكاء الجسدين العملاقين.. «مرسى» يجهش بالبكاء و«مليجى» متشبث به ولا يزال يقول له: الله أكبر.. الله أكبر.. استغفر الله العظيم.. استغفر الله العظيم..

عندما أعاده «مليجى» إلى داره.. سألهم «مرسى» بصوت هارب:

ـ فين المعزة؟

قالوا جميعاً بغيظ: رميناها للكلاب.

تمتم: عملتها بنت الكلب.

وسأل ««مليجى» أم «مرسى»: ليه يا حاجة.. كان ممكن تاكلوها.

قالت «ستوتة» من بين دموعها: ما جتلوش فرصة يكبر عليها.. أو يسمى.

مفيش نصيب.

لم ترحمه أمه.. قالت له: عملتها يا فالح.. ضيعت الحليبة والرايبة.

تسلل إلى حجرته وأخفى رأسه فى الوسادة الباردة العطنة. تذكر أنها المرة الأولى التى أقدم فيها على عمل دون أن يأخذ رأى أمه.

١٩٨٦

من أجل فردوس

جلس مع عمه وأولاد عمه بعد الغروب، ينتظرون العشاء. خيوط البرد تتسلل من تحت باب القاعة المغلق.. نظره معلق بعمه وفكره كله مع «فردوس».

عمه يقبض بيده المعروقة على عود الغاب. يصوبه نحو فمه ويبلع ريقه ثم يسحب نفساً.. يكركر الماء فى بطن الجوزة الزجاجى كأنه يغلى.. تضىء القوالح المشتعلة كلما سحب نفساً، والصبى يدهش لأنفاس عمه الممتدة بشكل غير عادى، وحين تبتعد الغابة عن فم العم يهدأ الجمر المستفز. يستعد الجميع ليتفرجوا على كمية الدخان التى سوف تخرج من فمه وأنفه، يرقبوا ما يحدث لها إذا هو تكلم. الدخان الكثيف يتلوى مع الكلمات، ثم يرق ويتصاعد ويبدأ عمه فى الكح بقسوة، والصبى يتأمله فى إشفاق وجزع. بعد لحظات يفيق العم وتصفو صفحة وجهه، ثم يسخر من نفسه، ويضحك الأولاد.

يعود الصبى إلى قضيته الكبرى. «فردوس» «نفْسها» فى قطعة من الزبد، وهو لا يستطيع أن يرفض لها طلباً، زوجة عمه التى تعود أن يناديها «عمتى» تعد العشاء، وهى تسد عليه الطريق إلى «الكرار» حيث يخزن الزبد فى «المحالب» الفخار.

تدورالأفكار فى ذهن الصبى كالماء الذى يتقلب مجنوناً فى الجوزة، كيف يحصل على قطعة الزبد التى تتمناها «فردوس».. قال لها: انتظرينى على ناصية حارتكم.. لن أتأخر.

سحب عمه نفساً.. تراجع لحم خديه إلى الداخل.. تقلصت ملامحه وبدا كالشيخ المريض الذى يتسرب من جسده ماء الحياة نقطة نقطة.

تذكر صورة أبيه قبل أن يموت، كان يشبه بالضبط عمه وهو متوتر الأعصاب أثناء أدائه طقوس حبه الأثير.

فوجىء الصبى بعود الغاب يتوجه ناحيته كأنه بندقية ويتوقف أمام فمه، قال له عمه:

ـ خذ لك نفس يا ذيل القط.

ضحك ضحكة عالية وهو يرى ولد أخيه يدخل فى بعضه وأعقبه أولاده ضاحكين. أبعد عمه البندقية عنه وقال:

ـ لا تشرب الدخان أبداً يا ذيل القط.. الدخان هو الذى ضيّع أباك.

ظل فى انكماشه وقد تذكر أنه حتى الآن لا يعرف لماذا اختار له عمه هذا الاسم: ذيل القط.. تشاغل عن الاسم بـ «فردوس» التى تنتظر الزبد، وهو هنا مغلول بقيود لايستطيع الفكاك منها.. عمه وأبنائه والليل.. وعمته التى بالداخل تقف فى منتصف الطريق إلى الكرار وبإمكانها أن ترى المتجه إلى الباب الكبير، وهو مربوط أيضاً إلى وتد العشاء الذى لابد أن يتناوله معهم وإلا فلن يراه بعد ذلك.. حدّق فى الجمر المشتعل وعمه يقول لابنه «مجاهد».

ـ اكبس يا ولد.

يمسك «مجاهد» الماشة ويضغط على الجمر، يجتهد أبوه فى تقليص ملامحه والقبض على ماسورة الغاب والشفط بقوة. يتقافز الماء فى اضطراب ويتألق الجمر حتى يبيض، ويخرج الغاب بعد مدة من بين الشفتين اللتين كانتا تعتصرانه.

حرص الأولاد هذه المرة على مراقبة الدخان الذى توقعوا أن يفوق كل المرات السابقة، وفعلاً فاقها حجماً وكثافة حتى اختفى وجه العم وظهرت «فردوس» من بين سحب الدخان منتظرة على رأس حارتهم تتلفت وتتململ.. شعرها الأسود الطويل يتدلى إلى آخر ظهرها. يصيبه الملل هو الآخر ويتلفت معها بحثاً عن الصبى الذى طال غيابه.. يخامرها اعتقاد بأنه نسى، فتلملم نظراتها الأسيانة. وسرعان ما تشف وتتفكك قطعاً مع الدخان المغرم بالتلاشى.

ارتعشت «فردوس» بداخله فانتفض. خرج من القاعة ووقف إلى جوار عمته يشاهد القدر التى تغلى، والدخان يحاول النفاذ من الحافة الدائرية للغطاء المعدنى، ويتمكن بمحاولات متتابعة وإصرار أن يرفعه رفعات خفيفة تحدث طرقاً رتيباً لا يتوقف.

أمسكت زوجة عمه خِرقة وقبضت بها على أم الغطاء، وعندما رفعته وأخفاها الدخان المكبوت، قفز الصبى فى خفة إلى «الكرار» حيث وجد نفسه فى حجرة باردة تخفى معالمها فى ظلام كثيف. صمت لحظة، ثم اكتشف أنه نسى إحضار طبق أوعلبة ليحمل فيها الزبد لعن غباءه وعجلته. وما لبث أن طمأن نفسه بأن الزبد سيكون متجمداً لأن الدنيا برد ولن يحتاج إلى طبق أوعلبة.. لم يُضعْ وقتاً وانحنى متحسساً المحالب واختار إحداها.. مد يديه إلى الحبل الذى يلتف حول الخِرْقة التى تسد فوهة المحلبة.

عملت يداه وحدها فى الظلام.. كانتا تتلمسان بلباقة رأس العقدة وتبحثان فيها عن خط سيرها.. تصارعت يداه والعقدة المحكمة طويلاً.. أخيراً حلّها بيديه وأسنانه.. أدخل يده فى بطن المحلبة وغرف ملئها. لحس الزبد بلسانه.. كانت متجمدة، فقضم منها قطعة.

تذوق بكل أعصابه حلاوة الزبد البلدى الذى ذاب فى فمه. حاول أن يتصور فرحتها والسعادة التى سترقص على خديها وفى عينيها: ستفرح، وربما تقبلنى.. ستحبنى أكثر.. ولن تلعب أبداً مع أحد غيرى.. غدا فى الصباح سيحسون بذلك حتى الولد ابن «نجية»، و«سعداوى» ابن شيخ الخفر.. مهما فعلوا سوف تتركهم وتلعب معى.. ولن تهتم بابن العمدة الذى يحاول إغراءها بالبسكليته.. بسكليته قديمة ودائماً فيها عجلة «مهوية».. «فردوس».. القلب الطيب والعيون السود. «فردوس» أمى وأبى وأخوتى وكل الدنيا.

لف الحبل من جديد على رقبة المحلبة.. دنا من باب الكرار.. طالعه ظهر عمته العريض كزكيبة القطن وهى تقف وسط الدار أمام الموقد.

فرح للفكرة التى نبتت فى رأسه.. لن يمسك به أحد.. أخفى قطعة الزبد تحت الطاقية وتسلل بخفة فإذا هو إلى جوار عمته. لمحته فقالت وهى تفتح نفس وابور الجاز فبدأ يرتاح من الهواء الذى ملأ بطنه ساعات طويلة.. ويختفى معه الضجيج تدريجياً..

ـ هيا ادخل.. العشاء جاهز.

اضطر للدخول.. قال له عمه:

ـ أين اختفيت يا ذيل القط؟

قال الصبى: عمتى تقول إنها جهزت العشاء. أسرع الأولاد يحملون الطبلية المستندة إلى أحد الجدران وينصبونها أمام أبيهم الذى لا يقدر على فراق الجوزة.. أحضر «مجاهد» الخبز من «المشنة» و«بشندى» القلة الكبيرة و«نافع» جاب من الطاقة طبق الفلفل المخلل وبرطمان الملح.

ظل الصبى واقفاً يتلفت دون أن يفعل شيئاً.. أمره عمه بالجلوس. قال له: سأذهب إلى بيت الأدب.

كان البحث عن طريقة للخروج هو الذى يجعله كالدجاجة الحائرة تبحث عن موضع آمن لتبيض فيه.

لم يتجه إلى بيت الأدب ولكنه استدار يساراً صوب الباب الكبير. نادته عمته، إلى أين؟.. هذا وقت العشاء.

دخل الغرفة مرغماً وجلس بينهم وبكل عقله يفكر فى الزبد الذى تحت الطاقية وقلبه يناشد «فردوس» أن تنتظر، فهو قادم.. حتماً قادم.

أخرجه عمه من موكب أفكاره.

ـ أنت عرقان يا ذيل القط والدنيا برد.

دق قلبه.. آه.. الخوف نزل الملعب وشرع فى أداء حركات تمهيدية. الزبد محاصر بالغرفة الخانقة والصبى.

زعق فيه عمه:

ـ ما بك.. رد.. أنت مريض؟

قال الصبى وهو يعالج صوته الذى لم يجده إلا بصعوبة:

ـ أبداً. لا شىء.

مد «مجاهد» يده ومسح العرق الذى يسيل على صدغ الصبى.. أطل فى أصبعه ثم لحسه وصرخ:

ـ سمن.

هتف أبوه دهشاً: سمن.. ابن أخى يعرق سمناً.. طار «بشندى» وخطف الطاقية من فوق رأسه.. كل شيء تم فى ثانية وهو مذهول.. قلبه يدق بشدة.. الدنيا كلها تدق طبولاً هائلة، القلوب كلها تدق فى أذنيه وهو يهبط ويتضاءل ويسيل كالزبد.

دنا منه «نافع» الصغير وأمسك قطعة الزبد التى فوق رأسه.. رآها الصبى صغيرة جداً لا تزيد عن حجم حبة الفراولة، لام نفسه لأن القطعة التى كان سيحملها إليها صغيرة جداً.

دخلت عمته بطبق كبير.. قال لها زوجها:

ـ تفضلى يا ست هانم.. ابن أخى يسرقنا.

حطت الطبق على الطبلية وفغرت فاها،أخذت تنقل نظراتها بين الصبى والزبد.. تفجر الغضب فى عينيها.. خرج منهما مثقابان من نار ونفذا فى جسده وبلغا عظامه التى تأهبت للسحق.. قالت:

ـ كله إلا السرقة.

كان ينوى أن يقول: إنها أول وآخر مرة، لكن عمه لكزه فى جنبه لكزة قوية نفذت إلى بطنه فتألم دون أن ينطق.. قال عمه كلاماً وقالت زوجته.. كان غائباً عنهما يتتبع بأعماقه الألم الذى طواه.

لم تتح له الفرصة كى يتذكر ماضيه، منذ مات أبوه، وأمه بعده شهور قليلة.. لقد كان يحاول أن يعيش بينهما على الصراط المستقيم، ويجتهد أن يحظى برضاهم جميعاً من عمه إلى «نافع»، بل إلى الحمار والعنزتين.

فوجىء بعمته تجره وتقول له: اخرج وابق فى الزريبة عقاباً لك. لم يكن خروجه عقاباً له.. كان خلاصاً من موقفه المهزوم، وإنقاذاً لكرامته التى تتمزق تحت نظرات أبناء عمه. فى الزريبة يمكن على الأقل أن يتنفس هواء نقياً.

أحست البقرة به والحمار والعنزتان.. لم يبد على العجل الصغير أنه أحس بالزائر. لعله أحس ولم يهتم فقد كان متفرغاً للرضاعة مجاهداً فى شد عوده النحيل، بينما كانت أمه تمضغ فى تلذذ واتقان عيدان البرسيم، أما الحمار فلم يستطع منع الصوت العالى الذى

تحدثه أسنانه وهو يجرش الفول، وجبته المسائية المفضلة، ولم يجد داعياً للتوقف واكتفى بمراقبة الضيف بعينين مرحبتين.

كان الصبى قريباً من البقرة ودون أن يدرى أسند رأسه على بطنها الدافىء.. وجرفه الانفعال إلى طريق الدمع فبكى بقسوة زائدة. كان يبكى كل الأشياء التى أحزنته منذ رحيل أبويه.. مدت البقرة ذيلها وخبطته بحنان، ثم مدته مرة أخرى وأحاطته به، توقفت عن مضغ البرسيم لما علا النشيج وتزلزل الجسد الصغير الذى يستند على بطنها.

مضى فى بكائه إلى أن بلغ مسامعه صوت رقيق يهمس باسمه فى حنان. تطلع فإذا «فردوس» تنزل من السماء فى ثوب أبيض به نجوم متلألأة وشعرها الأسود الذى يحبه يطير خلفها ويومض، وهى تهتز اهتزازات ناعمة كأنها تطفو فوق سطح ماء يتراقص. ابتسمت بسمتها التى يعرفها فأضاءت جوانحه.. استطالت يدها الطرية فمسحت دموعه وربتت على ظهره ثم تراجعت صاعدة وهى تودعه إلى أن غابت تماماً عن عينيه.

رفع رأسه. كان الظلام يطبق على الحظيرة.. مسح دموعه بكم الجلباب المشقوق إلى نصفه وخرج.. دنا بحذر من باب القاعة المغلقة.. كانوا يتكلمون ويأكلون. لم يجد نفسه بينهم على الإطلاق.. غالبه شعور بالوحدة والخوف، «فردوس».. الزبد.. لابد إنها ستيأس ولن تنتظرنى.. لا.. إنها لن تذهب.. لابد إنها هناك.

ذهب إلى الكرار وأخذ قطعة زبد كبيرة، كوّرها وأسرع إلى «فردوس». زعق الباب الخارجى كثور جائع.. لم يهتم.. سيكون فرحها كبيراً.. ستطير.. خرج إلى الحارة. استقبله عالم آخر.. وشوشت فى أنفه رائحة المساء نقية ومعطرة بأريج الخضرة والانطلاق.. كانت البيوت قابعة كالمقابر، يطل عليها ضوء مختنق تعكسه مرايا القمر الذى تحاصره الغيوم.. يمكنه أن يرى لمسافة تكفيه كى يجرى دون أن يصطدم بأحد.

أسرع «وحيداً» فى الحارة، تسبق اللهفة خطواته القصيرة، تقاومه الريح التى تعدو صوب عمه، وهو يشقها مندفعاً صوب «فردوس» دفعت الريح أمامها كل خوفه وتركته مشتاقاً بلا خوف.. نسى تماماً ما جرى فى بيت عمه.. نسى عمه نفسه وكل أتباعه.. تلاشى تماماً عالمهم مع الفرحة التى توشك أن تنبثق فى كيانه بعد لحظات.. حين تلتقى الزبدة بالفم الجميل وتسيل فيه نهراً من عسل. لم يجدها.. لم يجدها.. لم يجدها.. آه.. لم يجدها.

انطلق إلى بيتها.. فتحت أمها.. سألها.. قالت: نامت.. انكسرت رقبته وسقطت رأسه على صدره.. غامت الدنيا.. ارتعش جسده وأحس بالبرد الذى لم يحس به منذ بدأ موسم البرد.. سقطت من يده المتهاونة قطعة الزبد.. لمحتها «أم فردوس» وهى تتمرغ فى التراب..

هتفت: تعال.

دخل وهو يُمنى نفسه أن تكون «فردوس» نصف نائمة، أو تتاح له الفرصة كى يراها وهى نائمة، ويضع يده على جبينها يسوى شعرها الذى تعود أن يقف فوق عينيها.

ليته يستطيع أن يتأملها وهى مغمضة العينين ويشاهد أنفها الجميل، وفمها الأحمر المنمنم.. ليتهم يسمحون له أن يجلس إلى جوارها ليدفع عنها الذبابة الملحة والناموسة التى لا تكف عن الطنين وتحاول أن تقرص جلدها الطرى.

تصور نفسه وقد تركوه إلى جوارها يرعاها حتى ثقلت جفونه، فوضع رأسه على نفس الوسادة التى عليها رأسها. ربما يستطيع أن يسافر معها إلى عالم أحلامها. بعثر نظراته فى كل اتجاه.. سأل أمها من جديد وقد تأكد أنه بالفعل يتيم: هل نامت حقاً؟

ردت أمها: إنها الآن تأكل الأرز مع الملائكة.

تقطرت الكلمات فى قلبه حرفاً.. حرفاً.

ـ تأكل الأرز مع الملائكة.. بدونى.. أرز مثل أرزنا؟

يا رب قل للملائكة أن تضع لها على الأرز زبداً من الذى تحبه. لقد وقعت قطعة الزبد على الأرض.. حقك علىّ يا «فردوس».. سأحضر لك غيرها، فى الصباح ستكون معك الزبدة ونلعب بعدها معاً.. أنا وأنت فقط..

أحضرت له أمها الطعام، لم يلتفت إليه ولو من باب حب الاستطلاع.. كان لا يزال يتسمع الأصوات بحثاً عن حركتها.. لم تبلغه غير هجمات الريح على الأبواب والنوافذ.. ألحت عليه أمها كى يأكل.. كسر لقمة ووضعها فى فمه.. مضغها طويلاً وحاول بلعها.. لكنها لم تمر.. أبداً لم تمر.

١٩٨٥

الرقص بالملابس الممزقة

لم يعد أى واحد من أهل القرية يحاول حمايته من الأطفال.. تعود الناس أن تقع عيونهم على هذا المنظر دون أن يتحرك أحدهم لمنع الأولاد من قذفه بالطوب. لم يعد أحدهم حتى بلسانه يردهم عنه، والأدعى للدهشة أنهم ما عادوا حتى ينظرون إلى الأولاد وهم يجرون وراءه، وهو يمشى بينهم كالجمل بجسمه الضخم، ولا يصرخ فيهم ولا يكشر عن أنيابه، ويكتفى برفع ذراعيه ليحمى رأسه من الطوب الذى يمطرونه به، ومنهم من يصوب على قدميه الحافيتين الكبيرتين. ورغم عشرات القذائف الموجهة إليه، لم يفكر «رجب» فى الركض بعيداً عنهم، بل كان يهرول هرولة خفيفة أقرب إلى المشى فى المكان.

الغريب أنه إذا التقى رجلاً، يتحول إليه ويدنو منه محاولاً الاختباء خلفه، ما يلبث الرجل أن يصرخ فيه مشيحاً فى وجهه.

ـ غور يا ابن القديمة.

وغير ذلك من الشتائم التى لا نهاية لمعجمها.. يُترك «رجب» فى العراء ضحية للأولاد الذين لا يجدون فى قريتهم الفقيرة ما يلهون به، وكيف يقضون أوقاتهم طيلة النهار الذى يبدأ من شروق الشمس حتى غروبها، والبلدة خالية من أية وسيلة أو أداة للعب والتسلية.. وليس بإمكان جيوب الأهالى أن تشترى لأحدهم ما يلهو به ولا حتى تكاليف

صنع طائرة ورقية.. ناهيك عن دراجة أو عروسة تقول بابا وماما.. ولا بندقية تطلق من فمها فلة بخيط، بدل الرصاصة.. وليس بالإمكان أن يوفر أحد الآباء لولده إنساناً آلياً أو قطاراً يجرى على القضبان، يطلق صفارته أو تسطع أنواره عند كل محطة.

يكفى الأهالى بالكاد أن يوفروا الخبز وعلى البهائم أن توفر الجبن، وما عدا ذلك.. أمورهم البركة فى الغيطان، وعلى الأولاد أن يتحايلوا لتصريف أمورهم.

يتساءل بعض العقلاء دون أن يفعلوا شيئاً.. ألا يدل سلوك الأولاد إزاء «رجب» على عدوانية متأصلة فيهم ورثوها عن الآباء والأجداد؟ ويجيبون بنفس الدرجة من اللامبالاة.. ولماذا لا يكون الأمر كذلك وآباؤهم لا يرحمون «رجب» ولا يبلغه منهم أدنى عطف أو رحمة.

يتساءل آخرون: لماذا لا يكون هذا الهجوم العيالى على «رجب» دلالة على شعورهم نحوه.. الاحتقار مثلاً أو استنكار قذارته؟ وليس بسبب طبيعة شخصيتهم التى يصفها البعض بالعدوانية، لماذا لا يكون تعبيراً عن نقص فى مكوناتهم الشخصية وحاجاتهم النفسية؟. إن سلوكهم هذا يدل على أنهم هم المقهورون المحبطون الذين يبحثون عن الانتقام.

أسئلة كثيرة تعبر ساحات العقول كما تعبرها الرياح فتنثر الغبار هنا وهناك.. لكن لا شىء يتغير، ولم يسمع أحد أن شخصاً واجه الأولاد ومنعهم من إيذاء «رجب»... والأغرب أن بعض الرجال، قال فى مرة: لقد ولدنا ونشأنا فى طفولتنا ونحن نرى الأولاد ـ الصبيان بالذات ـ يجرون وراء «رجب»، وقيل إن هذا يحدث من زمن بعيد.. قد يكون «رجب» هذا نفسه أو «رجب» غيره.

لم يكن «رجب» مجنوناً ولا أبله، إنما كان طيباً جداً وخائفاً جداً ووحيداً جداً.. وهذه الصفات الثلاث كفيلة أن تصنع شخصاً أقرب إلى الجنون والبلاهة.

إذا مرقت فوق «رجب» عصفورة.. انحنى رعباً كأنه يتفادى رصاصة..

مات والداه وكانا مثله طيبين وهو لايزال فى الرابعة، وكفله عمه سنة أو سنتين، ثم أهمله تدريجياً.. مشغولاً بزوجته وتجارة الأقمشة والدوران بها فى الأسواق.. متنقلاً بين المراكز والقرى.. حاملاً على كتفيه «أتواب» القماش.

ارتمى الولد هنا مرة وهناك مرات. لم تسأل عنه أى من الزوجتين.. ناوله أحد الفلاحين رغيفاً، ألقى له آخر برتقالة، يجلس على الأرض فى ظل البيوت يراقب النمل و«حرامى الحلة».. يمد لها أصبعه فتصعد عليه وتتمشى على ملابسه وتنفذ إلى بدنه.. ينهض عن الأرض إذا اكتشف أن الشمس تكويه بنارها، ويتمسح بالجدران يتوقف بالقرب من الأبواب. فى النهاية يأوى إلى بيت أبيه المهجور.. المفتوحة دائماً حتى أغرى البعض بسرقة ما فيه قطعة بعد قطعة.

لما طالت سياحته فى الشوارع والطرقات ونومه فى ظلال الشجر وعلى حواف الترع، تراكم فوقه الغبار والهباب والندى، تواطأت ضده الرياح وأسرفت فى رميه بالتراب. واستقبل شعره الذى طال واخشوشن الكثير مما تلقيه الرياح، وكذلك رموش عينيه وأذنيه وأنفه ورقبته وقفاه.

استشعر الأطفال حجم قذارته فلفظوه، وطاردوه حتى يبتعد عنهم ولا يشاركهم ألعابهم.. أحياناً يلوحون له بأيديهم ليفارقهم وأحياناً أخرى يحرضون عليه الكلاب.

تزايد لديهم بمرور الوقت حس المطاردة والرفض.. أصبح التخلص منه سلوكاً آلياً يتم بلا وعى ودون قصد، ما أن يراه أحد حتى يدفعه أو يكشر فى وجهه، أو يلقيه بأقرب شىء إلى يديه.

لم يجد الولد صدراً حنوناً حتى من أقرب الناس إليه.. أدرك ببطء ذلك، ولعله فكر فيه.. ولابد أن غيبته عن القرية أكثر من أسبوع كانت بحثاً عن غيرها، حيث يلقى الود والرحمة.. لكنه فيما يبدو لم يجد شيئاً من ذلك، بدليل عودته ثانية.. وفرح الأولاد به بعد أن استأوا لغيابه وفتشوا عنه فى كل مكان.

ها هو الآن يعود لهم، فيرحبون به الترحيب اللائق، ويعوضونه عن تقصيرهم فى حقه طوال أسبوع، انهالوا عليه جميعاً رمياً بالطوب وبكل ما بلغته أيديهم من الحصى والزلط والقاذورات.. ومنهم من كان لطيفاً فاكتفى بأن يصفعه على قفاه العريض، وهو يسأله:

ـ كنت فين يا منيل.

ويرد آخر على السائل بأن يصفع نفس القفا قائلاً:

ـ كان عند عمه الباشا.

ويتوالى الترحيب، ولا يبذل «رجب» جهداً للتخلص منه، بل إنه يبتسم ابتسامة، لاتعبر عن الإحساس بالغيظ، فهى أقرب إلى الرضا وقد تصعد إلى درجة العتاب.. على أنه يأمل فى كل الأحوال أن يعقب هذا الضرب رغيف أو خيارة.

الرجال يستهويهم أحياناً أن يضربوه مستمرئين لذة الدهشة لتحمله. فأقوى الكفوف التى تصفع قفاه لا يشعر بها، وأشد اللكمات التى تنزل على ظهره كالصاعقة كفيلة بأن تهدم حائطاً، لا ينحنى لها ولا يتألم.. يدهشون لتحمله لأنهم يعلمون أنه لا يتناول ما يكفى هذا البناء الضخم من الغذاء، فلا يكاد يزيد ما يأكله فى اليوم عن ثلاثة أرغفة دون أن يصاحبها أى طعام مطبوخ أو نيىء، ولا أصغر قطعة لحم.. وقد يمن عليه أحدهم بجزرة أو عودين من الجرجير أو ثمرة واحدة من ثمار الفاكهة فى أحسن الأحوال.

ما أن يلتقط الثمرة فرحاً بها، ويمسكها بكلتا كفيه ويقضمها بنهم وسعادة، حتى يخرج له من تحت الأرض ولد لا تبلغ رأسه ركبة «رجب» يجتهد فى ربط ذيل طويل من الورق أو من قصاقيص القماش فى جلبابه.. يتجاسر ولد كبير نسبياً ويلقى فى قفاه ضفدعة.. ولما يشعر بها «رجب» تتمشى على لحمه.. تحاول استكشاف البيئة الجديدة، يتلوى يميناً ويساراً ويتقافز محركاً ضلوعه فى كل الاتجاهات حتى تسقط الضفدعة، والطريق سهل إذ لا شىء بالداخل تحت الجلباب إلا بقايا فانلة.

قد يلقى العيال عليه فأراً ميتاً أو بعض الأسماك الصغيرة التى يصيدونها ولا تستحق أن يحملونها إلى المنازل، ومنهم من يتربص به فلا يلقى عليه ما جمع من القاذورات أو الحشرات الميتة إلاعندما تمر إلى جواره سيارة.. وفى كل الأحوال تتساقط عليه الحجارة، وكثيراً ما تُجرح له جبهة أو أذن رغم محاولاته الفاشلة لتجنبها.

لكن «رجب» مع ذلك يشارك فى عزاء أهل الميتين، ويتمنى الشفاء لمن يصيبه المرض، ويحاول أن يرقص فى أفراحهم، ويدور حوله الأولاد ليضربوه، والجمهور الكبير يضحك وهو سعيد لأنهم يضحكون وتهلل النساء والبنات اللائى يجلسن فوق الأسطح، ويزغردن.

وإذا رأى «رجب» من يحمل حملاً ثقيلاً أسرع إليه وأعانه ويضطر البعض إلى طلب معونته إذا اقتضى الأمر، وما أن يتم عمله على نحو يرضيه، يكافىء «رجب» قائلاً:

ـ ما أنت منك فايدة أهو يا بغل.. يللا غور.

بعد أن عاد من غيبته المرية واستقبله العيال بالطوب وطاردوه حتى الترعة، تناهى إلى سمعه صراخ. أسرع إليه فإذا ولد يغرق.. نزل إلى الترعة ماشياً على قدميه خائضاً بجلبابه فى المياه التى بلغت رقبته.. ورفع الولد من ظهره بيد واحدة وعاد ماشياً.. وقبل أن يضعه على الأرض، كانت أيد كثيرة تتلقف الولد فى أحضانها، ولم تنتبه لـ «رجب» الذى تسلل عائداً دون أن يحس به أحد.

اشترك «رجب» كثيراً فى مناسبات الناس.. البناء والنقل.. الدهانات والحصاد جنى القطن وتحميل الفاكهة على اللوارى. سحب البهائم والحمير إلى الأسواق، لكنه ظل محروماً من لمسات الأيدى الحانية والقلوب الرحيمة.. وظل أهل بلده يعاملونه باستهانة وكأنهم يعوضون ما عانوه هم من هوان، أو كأنهم يؤكدون لأنفسهم أنهم ليسوا ذيل القائمة وأن من البشر من يأتى بعدهم أو تحتهم، وهم فى مستوى أعلى.. يمكنهم أن يصدروا الأوامر لمن هم دونهم، ولذلك فقد بالغوا فى أن يجعلوا من «رجب» كل الطبقات الأدنى، وهو كل الناس الذين ينتمون لهذه الطبقات.. وهكذا بقى دائماً خارج عالمهم، غير محسوب فى تعدادهم، هو المطرود.. والمعزول والمستبعد.

لم تفكر واحدة من نساء القرية أن تغسل له جلبابه الذى يبدو كأنه لم يصنع ككل الجلاليب من القماش، ولكن من الجلد من كثرة العرق والأقذار وتعرضه لكل عوامل التعرية. لم يعد باستطاعة أحد تحديد لونه، هل هو البنى الغامق أم الأسود أم الترابى أم الفيرانى أم البترولى، ولعله كل هذه الألوان مجتمعة.

فجأة ظهرت كلبة بصحبة «رجب».. كلبة ضئيلة. نحيلة. جربانة عدمانة.. جلد على عظم لا يكاد يبين لها لون، فهى صفراء وبنية ورمادية حسب مساحات الظل والنور، لكنها فى كل الأحوال كالحة. كان نصيبها من الأولاد نفس نصيب صاحبها.

حين يصحو الولد فى البلد من نومه ينطلق ركضاً إلى الشارع بحثاً عن إخوانه، وأول الكلمات التى ينطقها عند كل لقاء هى:

ـ ما شفتش «رجب».

يرد عليه أحدهم: لا.

فيسأل: ولا كلبته.

فيسأل: ولا كلبته.

ـ لا.

ويكون الاقتراح الذى لا اقتراح غيره. يلا بينا ندور عليه.

ويكون هذا الاقتراح إيذاناً ببدء رحلة البحث وانطلاق دورة الألعاب اليومية.. يبتكر المشاركون فيها صنوفاً جديدة للعبث بهذا الكائن الضخم وصاحبته الجديدة التى لم تكن تنبح ولا تعدو بعيداً عنه أو عنهم. تكتفى بالدوران حوله على عكس اتجاه الهجوم.. هرباً من الزلط والمقذوفات المختلفة التى يلتقطها الصغار على عجل وخفة ويوالون قذفها عليهما.

من «التفانين» الجديدة التى ابتكرها الأولاد لإلحاق الأذى ومطاردة «رجب» وكلبته، أحدهم يعلق كيساً فى رقبته أو كتفه، يملأه بالحصى والحجارة قبل البحث عن «رجب».. هذا الكيس بالطبع يسمح له بمواصلة القذف دون انقطاع، تتوالى حركة الأيدى المتعجلة، تغترف من الأكياس صواريخ موجهة فقط إلى هذين المخلوقين البائسين.

لم تتحمس الكلبة مرة وتفتح فمها وتكشف عن أنيابها للأولاد الجبارين الظلمة.. لم تنبح فى وجه أحدهم، لم تعض أحدهم.. لم تأخذها النخوة وتقبض على طرف جلباب، ولا صرخ الدم فى عروقها وركضت وراء ولد لعله يرتدع فيهرب الآخرون عندما يرون العين الحمراء.. أبداً لا شىء من ذلك حدث.. لقد ظهرت الكائنة الملحقة بـ «رجب»، مقطورة صغيرة وتابعة تافهة، وسواء كانت قبل ظهورها طيبة وخاملة أم لم تكن فقد أصبحت كذلك وهذا حالها منذ التقطها «رجب».

لا يذكر أهل القرية أنهم رأوها من قبل، إلا واحداً هو الذى قال:

ـ شفت الكلبة دى بتجرى على الكوبرى داخلة البلد.. جاية من عزبة الملايجة ومفيش ساعة لقيتها بتجرى ووراها عشرة من كلاب البلد، قفلوا عليها الكوبرى. نطت فى الترعة.. عامت لما عدّت الناحية التانية.. نفضت بدنها من المية وفضلت تجرى لما غابت عن عينى.. وآخر النهار لقيتها فى حضن «رجب» قاعداً تحت الجميزة يمسح جسمها

ويقولها: ما تزعليش..حقك عليّ.

في يوم ظهر سمّام الكلاب.. مر في كل أنحاء القرية.. دخل كل شارع وكل حارة، ووقف طويلاً في الجرن وفات على رءوس الغيطان وبقى متربصاً طويلاً تحت الشجر، وكلما رأى كلباً تقدم منه بهدوء وحذر وأطلق عليه رصاصة قوية مدوية، لها صوت غليظ عال لكنه مكتوم وشبعان.

منذ اللحظات الأولى لوصول سمام الكلاب الذى لا يزال الناس يذكرونه باسمه القديم حيث كان يقتلها بالسم، لاحظ أهل القرية أن «رجب» يسير وحده، وسأله البعض عن المحروسة، فلم يجبهم وابتعد عنهم.

أرسل الرجال أولادهم يبحثون في كل مكان عن كلبة «رجب» بالذات، فهى من دون الكلاب لازم تموت.. بحثوا فى كل ركن حتى بيته الذى يشبه خرابة مهجورة، تعبث فيها الفئران والعِرس والقطط وكل حيوانات الأرض وحشراتها.

كانت حصيلة القتلى كبيرة هذه المرة، بلغت ثمانية عشر كلباً، هى تقريباً كل كلاب القرية.. عند الظهر وصلت عربة نقل. حملت كل الجثث ومعها السمام ومساعده.

ما أن غادرت العربة حدود القرية واختفت عن الأنظار، وسحبت وراءها الغبار، وصفى الجو حتى ظهرت الكلبة تتسحب وراء «رجب» الذى كان يمسك بعود قصب، يمص عُقَلَه فى نهم ويرتشف الرحيق الذى أغرق شفتيه وذقنه، وتساقط على صدره العارى المطل من رقبة جلبابه المفتوحة حتى بطنه.

ما أن رأى الأولاد «رجب» وكلبته حتى أسرعوا بالعدو وراءهما وقذفهما بالحجارة.. و«رجب» يضحك ويخرج لهم لسانه الأحمر الكبير فرحاً بنجاة كلبته وهى تحاول الاحتماء به.

فى نفس اليوم وقرب العصر كانت سيارة نصف نقل تقف أما ڤيلا «رشاد الحلوانى»، و«رجب» يتفرج على الكراسى الكبيرة المرسوم عليها ورد ملون. ينقلها العمال من السيارة إلى الڤيلا.. كل منهم يحمل كرسياً مقلوباً فوق رأسه.. ولما انتهى العمال، ركبوا السيارة وقدم لهم «رشاد بك» حبات من البرتقال. لمح «رجب» فرمى إليه برتقالة. سقطت البرتقالة فى صندوق العربة الذى كان يستند إليه «رجب». حاول عدة مرات الصعود إلى

الصندوق ليأخذ برتقالته حتى نجح أخيراً.. لما صعد وأمسك بها، انقض عليها وهو فى الصندوق، وما لبثت العربة أن تحركت، فوقع «رجب» على ظهره، وحاول مرات أن يعتدل إلا أن اهتزاز العربة وسرعتها حالت دون ذلك.

أفلح بصعوبة أن يمسك سور الصندوق، ونظر حوله. وجد القرية تبتعد وهو فى السيارة التى تجرى على الأسفلت، ورأى كلبته تعدو بكل قوتها لتلحق به.

الكلبة تنشال وتنحط لاتكاد تلمس الأرض أقدامها، وعيناها لاتفارقان وجه صاحبها.. لاحظت أن المسافة تتسع بينها وبين السيارة و«رجب» ينظر إليها ويضحك فرحاً بالهواء الذى يهب عليه، وفرحاً بالبرتقالة الكبيرة التى انشغل بقضمها ورشف رحيقها، وفرحا بالقشر الذى يلقيه لكلبته، لكنها كانت مشغولة عن كل برتقال العالم تواصل العدو بأقصى ما تستطيع حتى تقطعت أنفاسها وشرعت فى تخفيض سرعتها، عندما أيقنت أن صاحبها قد ابتعد جداً ويوشك أن يختفى،وليس فى المقدور ملاحقته إلى آخر العمر.

توقفت الكلبة ونظرت وراءها، فلم تجد القرية ولا ناسها، ولا حتى العيال الذين يقذفونها بالحجارة.

طأطأت رأسها فى انكسار واضح ويأس، ولما رفعتها لتعاود النظر آملة أن تجد أى شيء، كانت فى صفحة العينين نظرات حائرة تسيطر عليها مسحة من الذل.

مالت الكلبة عن الطريق ودنت من شجرة. أقعت على قائمتيها الخلفيتين، ورفعت رأسها على قائمتيها الأماميتين،أشرعت أذنيها.. طردت بسرعة نظرات الانكسار، بدت كأنها تستعد لحياة جديدة.

لا صوت يبلغها ولا حركة ولا أحد يمر.. إنساناً كان أو كلباً أو حماراً أو حتى ذئباً أو دجاجة.. صرصار أو ذبابة.. ليس غير الغيطان الممتدة يميناً وشمالاً.. الأفق الأزرق البعيد يميل على الأشجار الباسقة شديدة الخضرة، وأمام الأشجار وإلى حيث تقع الكلبة يمتد بساط الخضرة الشاسع إلى كل مكان.

فجأة التقطت أذنا الكلبة صوت نباح.. ربما لم يكن هناك ثمة صوت على الإطلاق، لكنها اعتدلت وأنصتت باهتمام، إلى أن جاءها النباح من بعيد، تساءلت وهى تتلفت عن مصدر الصوت.. أدركت على الفور أنه يأتى من الجهة الشرقية، عزمت على أن تتوجه

بسرعة نحو هذا الكلب حتى لو كان تحت الأرض أو فى أعماق البحر.

كانت الترعة أمامها تفصلها عن الغيطان الشرقية. حاولت أن تقفز فوقها.. فشلت عدة مرات، وأخيراً قررت السقوط فى الترعة، واندفعت تضرب الماء سابحة حتى بلغت حافة الجانب الآخر، أسرعت تمرق بين شجيرات البامية والباذنجان بينما كانت ذرات الماء الشفافة تتناثر من بدنها المنتفض، لتحتضن أشعة الشمس فتتألق وتتساقط كنجوم صغيرة متفجرة، تتراقص فيها كل الألوان.

كان النباح لا يزال يتوالى ويقترب منها وتشعر أنه يشدها، فتندفع نحوه.. حتى بلغت حديقة عامرة بالجوافة والمانجو والمشمش مسورة بالسلك الشائك لما تأكدت أن الكلب بداخلها، مضت تبحث عن فتحة تنفذ منها.. اضطرت للزحف تحت السلك الذى كانت به بعض العقد المسننة.. لم تستطع أن تتفاداها تماماً، ولم تتوقف عن الزحف وهى تشعر بأسنان السلك المعقود تمزق جلدها.

بخفة تنفذ بين الأشجار الكثيفة، والصوت يأتيها قوياً وحاسماً يدل بصورة واضحة على شخصية صاحبه.

توقفت أخيراً عند بيت صغير وسط الحدائق، أبوابه مغلقة ونوافذه.. النباح يأتيها من الداخل أكثر حماساً ولهفة.. هذه هى المحطة الأخيرة.. لقد ضاع صاحبها ولم يعد لها من أنيس.. سوف يكون هذا الكلب أنيسها.

دارت حول البيت تبحث عن منفذ بلا جدوى، لم تيأس.. دارت من جديد تفتش عما يقربها من البيت.. صعدت إلى أقرب شجرة وقفزت من بين أغصانها العالية إلى سقف البيت، ومضت كالتى تعرف الطريق إلى فتحة السلم.. نزلت بسرعة إلى الكلب الذى كان مقيداً من رقبته بسلسلة.

توقفت على بعد ثلاثة أمتار. نبح الكلب الكبير بقوة.. بدا كمن يحاول أن يلقى الرعب فى قلبها. وهو لا يعلم أنها ذاقت الأمرين كى تصل إليه، كما أنه بالطبع أدرك حجم معاناتها فى حياتها التعسة مع أبناء القرية.

ارتعدت فرائصها عندما رأت أنيابه.. لكنها بعد هذه المشاق والسفر الطويل كانت قد

قررت أن تجد السكن الملائم، وها هى قد وجدته.. سيتطلب الأمر أن تصبر قليلاً.. عليها أولاً أن تلتقط أنفاسها، لن تعبأ بهذه الضجة التى يثيرها.. ولن تسىء فهمه.

جلست أمامه ثم أدارت له بعد لحظات ظهرها.. حركت ذيلها.. تمددت وتمرغت.. توقف الكلب عن النباح.. شرع يحمحم ويزوم.. دنت منه.. مضى يزوم بصوت أهدأ.. دنت منه أكثر.. دارت حوله. هز ذيله.. وتدلى لسانه الأحمر الطويل.. قاست جسمها على جسمه. شمت لحمه.. حطت رأسها على شعره الرمادى الغزير.. أحست بنبض قلبه وتوتر أعصابه.. كان بدنه ساخناً ومحموماً. بقيت معه بعض الوقت، يجالسها وتجالسه.. يلاعبها وتلاعبه.. لم يمنعه القيد الحديدى من أن يكون لطيفاً ومهذباً.

تنبهت أن الظلام يوشك أن يفرش على الدنيا خيمته السوداء.. تذكرت فجأة صاحبها القديم.. خامرها إحساس بأنه قد عاد ولابد أن تكون إلى جانبه فهو الذى آواها من ظلم الجميع، ولا يتعين أبداً أن تتخلى عنه.

قبلت الصديق الجديد ويبدو أنها وعدته بالزيارة مرة أخرى. قفزت السلم صاعدة إلى السطح ومنه إلى الشجرة ثم الأرض، زحفت تحت السلك الشائك، تجنبت أسنانه. انطلقت تجرى بين الخضراوات والأوحال وحواف الترع عائدة إلى القرية.

توجهت مباشرة إلى بيت صاحبها وكان ما توقعته.

يجلس أمام البيت استقبلها فى أحضانه ولامها على غيابها وردت عليه لومه بلوم أشد.. قدَّم لها دجاجة ميتة. أكلتها بنهم وشهوة. تمددت إلى جواره وسرعان ما استسلمت لنوم لذيذ كما استسلم «رجب».

فى الصباح استيقظ «رجب» فلم يجد الكلبة. وبعد أن ذهب الفلاحون إلى الحقول، وخرجت النسوة إلى النهر يملأن جرارهن ويغسلن الأوانى والملابس، رأى «رجب» كلبته تجرى عائدة من طريق الأسفلت المتجه إلى المدينة.. دفعها بقدمه دفعة هينة فى مؤخرتها، وهو يسألها عن المكان الذى كانت فيه، تقدمت منه ودفنت رأسها بين قدميه..نزل إليها فقفزت إلى أحضانه.. قال لها:

ـ شغلتينى عليك.

ثم انطلقا إلى الشوارع ليبحثا عما يأكلاه.كان الفرج كبيراً فاليوم هو الخميس. يوم

زيارة المقابر. لبست النسوة وحملت الصوانى المملوءة بقرص الرحمة.. تبعهن «رجب» وأكل الكثير من الكحك المخصص للراحلين.

فى أحد الأيام وبعد شهور قليلة ظهر «رجب» ومعه كلبته، وخلفهما ستة جراء.. رأى الأولاد الجراء تجرى وتتقافز.. صغيرة وجميلة وسمينة تلعب وتدور وتتقلب على الأرض أسرة منسجمة ومتكاملة.. تمشى بثقة وهناء تشعر بالرضا عن نفسها وتملأ الشارع وتلفت الأنظار.. الكل يتفرج على الموكب الفرحان.. الشكل مختلف عما كان عليه من قبل.. الأولاد أيضاً يستشعرون إحساساً مختلفاً.. فرحوا بالجراء.. لم يمنعوا أنفسهم من السؤال عن السر فى أن هذه الكلبة الضامرة الهزيلة تنجب جراء ملونة وسمينة ونشيطة فيها حيوية وجمال.. أما طفولتها فتدفعها إلى القلوب مباشرة وتهمس فى النفوس التى تتوق لاحتضانها وعناقها.

تمنى كل ولد أن يمتلك جرواً منها كلهم دون سابق اتفاق قرروا ذلك وكلهم دون سابق اتفاق قرروا ألا يقذفوها بالطوب كما كانوا يفعلون مع أمها ومع صاحبها.

بينما كل منهم يفكر فى الجرو الذى سيختاره، وكل منهم يود لو يحصل لنفسه على كل الجراء فهى جميلة ولطيفة ويشتاق أن يضمها كلها فى أحضانه إذا نام، وأن تجلس معه على الطبلية، إذا حان وقت الطعام، وأن يصحبها جميعاً معه فى الطريق وأثناء الجولات إلى كل مكان، وعندما يذهب إلى المدرسة، لابد أن تكون الجراء معه. بينما التمنيات والوعود تطوف بالعقول والأرواح، كان البعض يتساءل عن السر فى أن الكلبة قد أنجبت وكيف تنجب دون كلب، والقرية كلها لا يوجد بها كلب واحد.

سرعان ما خلّص الأولاد أنفسهم من البحث عن سر الإنجاب وعادوا إلى متابعة الجراء وهى فى عالمها الطفولى تلهو وتلعب، و«رجب» أمامها يسير مطمئناً لأول مرة والكلبة مثله لا تختبىء ولا تتلفت مرعوبة، ولا تدور حول ساقية.. الجراء تركض ركضاً وديعاً على أطراف أقدامها الصغيرة وتنطلق بعرض الشوارع،والناس تتفرج على المشهد الجديد.. تمتزج فى نفوسها مشاعر الفرح بالدهشة.

أما الجديد حقاً والذى أثار انتباه الجميع وغيَّر أفكارهم تماماً، فقد حدث عندما اقترب طفل وانحنى ليلتقط جرواً، رأته الكلبة الأم بطرف عينها. دارت نحوه بسرعة ونبحت بشدة.. نبحت نباحاً رفيعاً غير منتظم. نباح من يسلك حلقه ويدفع بصوته المتحشرج..

ليس نباحاً تماماً بقدر ما هو غضب وانفعال ورفض، ورغم ضعف رد فعل الكلبة فقد وقع الجرو من يد الولد، وانتفض مرعوباً، ودهش الأولاد..

لم يحدث من قبل أن نطقت الكلبة ولا فتحت فمها ولا رأى أحد أنيابها. كان الأولاد يمزقون جسدها بالحجارة والزلط. ومنهم من ضربها بحذائه في مؤخرتها ضربة طارت بها أمتاراً عدة.

اقترب ولد أكثر جسارة وحاول أن يلتقط جرواً آخر، فسمع نباحاً أقوى وأشد، وحاول ثالث، فلم يسمع نباحاً واضحاً فحسب، بل تعرض لهجوم شديد من الأم، ووقع على الأرض، وكان يمكنها أن تقفز فوقه، لكنها رأت بحكمتها أن ذلك يكفي على الأقل في أول يوم.

عندما فشلت كل محاولات الأولاد لامتلاك أحد الجراء، قرروا العودة إلى الطوب، ومع أول طوبة، نبحت الكلبة ونبحت الجراء الصغيرة نباحاً صغيراً وطيباً، ثم عاد الأولاد الذين لا يعرفون اليأس لإلقاء الطوب، فجرت وراءهم الأم ونبحت.. لبعتها الجراء تجرى وتنبح، فر الأولاد.. ووقفوا بعيداً وقد شملتهم الحيرة.. تبادلوا النظرات. ماذا سيفعلون؟

هل انتهت اللعبة؟ لم يكن يسيراً تقبل الأولاد للأمر بهذه الصورة المفاجئة والغريبة.

مضى ولد إلى إحدى الأشجار وألقى الطوب المتبقى على العصافير الساكنة على الأغصان.. تبعه الأولاد.. تخلصوا من حمولتهم التى لم تأخذ طريقها المعتاد ولم تجلب لهم التسلية المطلوبة.. فماذا يفعلون؟

تسكعوا فى الشوارع بعض الوقت ثم عادوا إلى منازلهم يتأبطون الكثيرمن الملل. مضت الأيام. والقرية لم تعد تدهش وهى ترى الأسرة الصغيرة تمشى فى اطمئنان لا أحد يصك قفا «رجب»، ولا يدفعونه لاعبين به ولا يسخر منه أحد، وها هى الكلاب تكبر، وإذا دنا منها أحد نبحت، ولم تعد الأم تنبح فلديها من يقوم بهذه المهمة من أبنائها البواسل، إذ لا أحد يجسر على إيذاء أحد أفرادها مهما كان طيباً ومسالماً.

وفى يوم من الأيام تذكر واحد من الأهالى أن اليوم هو ٢٧ رجب يوم أسرى بالنبى محمد صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس وعرج به إلى السموات السبع، كل الناس سوف تطهو وتغرق فى الحساء، إلا «رجب».. ما الذى أنبت صورته فى رأس هذا الرجل؟

ما الذى دعاه أن يتذكر اليوم فقط بعد أعوام طويلة أن «رجب» سوف يكون الوحيد فى القرية الذى يأكل طعاماً بارداً وتافهاً.. أخيراً أطلت الرحمة من نافذة القلوب الغافلة.

نادى أحد أبنائه وأمره أن يحمل الفت واللحم إلى «رجب»، وتبعه آخرون، فى ليلة النصف من شعبان وفى رمضان وفى العيدين.

فى يوم اصطحبه جاره إلى الترعة فى الفجر فحممه بالليف والصابون، ودلكه نحو عشر مرات ثم ألبسه جلباباً من جلابيبه، وقدم له جار ثان طاقية ومرآة مكسورة، وزاره ثالث وترك له حذاء، وزاره رابع وسلمه بطانية نصف عمر، لكنه هو الذى طلب من النجار أن يصنع له كنبة، سرعان ما أكرمه شيخ البلد بمرتبة ووسادة وزير صغير ووابور جاز.

وبعد عدة شهور تنازل له أحد أقاربه عن قيراطين أرض من طرح النهر، وعلّمه كيف يزرعهما، وظهر عمه أخيراً ليطلب إليه أن يساعده فى حمل الأقمشة والتنقل معه فى الأسواق إذ لم يعد قادراً على حملها، لكنه أبى واكتفى بالأرض، ولأول مرة عرفت قدماه الطريق إلى المسجد، وكان فرحاً كأنه طفل يذهب فى أول أيامه إلى المدرسة.

فجأة.. فكر «رجب» فى الزواج واختار من يرغب الزواج بها.. وعَلِم القاصى والدانى باسم الفتاة التى يريدها «رجب»، ضجوا جميعاً بالضحك وقالوا: أول ما شطح نطح كانت «مها» أجمل بنات القرية والقرى المجاورة.. ابنة شيخ الخفر الذى يكتب الشباب فيها الشعر الملتهب.. تدخل بعض الرجال الذين يعنيهم أمره لينسى «مها».. لأنها فى العالى ولا يليق بها أن تتزوجه.. وطال النقاش وهو راكب رأسه، وأخيراً تضاءلت الأمانى حتى رضى بالزواج من إحدى خادمات الدار، فقد يكون من الممكن عن طريقها رؤية أجمل الجميلات.

أصلانة

ممعن فى الغياب.. سابح فى غير بحرنا.. ساكن تماماً هذا الجسد الوديع الذى أبداً لم يعرف الوداعة ولا السكون.

كان الضجيج والحركة والعمل الدائب حتى فى عز الفجر.. يجرى.. يسافر. يعزق الأرض.. يبنى ويتاجر، ينظف البيوت ويربى الحمام ويحيك الملابس. وينقى الأُرز والقمح، يزغط البط، يسلك دورة المياه وينشر الخشب، يكنس الشارع أمام بيتنا ويشترى من السوق كل شىء.. كل شىء.

يصلى ويقرأ القرآن بصوته العذب الرخيم، ويسب الأولاد المزعجين الذين يثيرون الضوضاء ويعفرون البيوت بالتراب ويزور كل العائلات التى غاب عنها الرجال ويحمل البسبوسة إلى أمه العجوز فى البلدة القريبة.

ها هو أمامى رغم المرض الثقيل، يرّقى أخى المحسود، يتلو الآيات ويشكشك العروسة ويتثاءب عدة مرات، ويعلن قوة الحاسد.

أبى.. ممدد وحوله الأهل الكثير، لا يتصورونه ساكناً، وغير مستعدين أن يغادر. أدهشهم هذا السقوط المفاجىء.. يتحدثون عن نشاطه وحيويته ويتذكرون الحال المائل الذى لم يكن أبداً يعجبه.

الأطباء فى طريقهم.. يأتون ويذهبون، يحررون قوائم الدواء والأهل يرقبون، يبحثون عن رحمة الله.. يتمتمون بالأسى واليأس من اصفرار الوجه والغيبوبة الطويلة.

الأطباء يلوحون بالأمل ويحشون الكلمات بفلسفات متهرئة عن حال الدنيا وضرورة أن نقبلها.. ليس لنا من الأمر شيء.. أنا وأخوتى نقاوم أشباح الفراق.

ساد سكون.. كان ثمة نمل يمشى على جسدى، وفى أعماقى وعيونى.. نمل هائل العدد، يمضى فى كل أعضائى وأنا ساكن كجندى يترقب هجوم العدو.

تذكرت أننى فعلت كل شيء لأبى إلا أن أقرأ القرآن.. إننى لاشك أعمى.. كيف فاتنى أن أفعل وكان أنيسه القرآن.

شرعت أتلو منه.. الصوت متحشرج.. دفعته دفعاً.. ظل خشناً لمسافة آيتين.. رويداً رويداً تمكنت من أوتارى وسيطرت عليها.. بدأ الصوت يصفو وينطلق لما نسيت أبى. استغرقنى الإبداع اللغوى الرفيع واستدرجتنى الموسيقى إلى حضنها السلسبيل.

أصغى الجميع وارتاحوا لذلك.. كلما مضيت فى القراءة تخلت روح عن جسد، وتلاشى جسد فى إثر جسد.. تلاقت الأرواح، ودنت من بعضها.. انسجمت وامتزجت.. أصبحت الغرفة بللورة كبيرة وشفافة، تدور بهدوء وثقة.

فجأة زعق أبى:

ـ أصلانة.

صوت عال جداً، ينادى أمى.. سَكَتُّ وبُهت الأهل كلهم.. قال الجميع فى نفس واحد:

ـ لقد نطق.. الحمد لله.

وتساءل البعض:

ـ لماذا أصلانة؟.. لقد رحلت منذ سنوات.

لما سكتوا.. قال أبى بهدوء:

ـ قولى لهم كفاية.. أريد أن آتى إليك.

أجهشْتُ بالبكاء وبعدى النساء.

عاد أبى يقول بنبرة حنونة:

ـ أصلانة.. أريد أن آتى إليك.. ولدك فؤاد لا يريد.. قولى له ن يتركنى.

لم أحتمل.. ولم أر ماذا حدث بعد ذلك.

١٩٩٣

مريم

ممدد على الفراش، الصمتُ ملاءاتٌ بيضاء تُكَفّن الهواء والغرفة.. تتعلق بالجدران وتمشى نحو روحى.

أبى

مغمض العينين، لا ينطق بحرف. القلب يدق بلا وجل. يدق رغم أنف الجسد الهزيل، الأعضاء تذوى كل يوم وكل ساعة تتراجع تدريجياً وبدقة عجيبة.

شهر وهذا الوجه يسكن اللحظات الأخيرة. الأنفاس لا تبرح الرئتين والروح لا تود أن تغادر،تمر على كل مساحات الجسد وتطمئن فيها على الحياة.. كلما لمس الأطباء موضعاً سعت الروح المنبثة وأنبأتهم بأنها لا زالت هناك.. تواقة للبقاء.

يأتون ويذهبون.. يمطون الشفاه.. الحالة متأخرة جداً غريبة.. الضغط عادى، والنبض منتظم.. علقوا الجلوكوز، يبتلع كل السوائل فى طاعة لم تتوافر له من قبل.

قلت لأبى: تحدث إلىّ.. كلمنى يا أبى.. صلِّ على رسول الله.. ظل شارداً فى ملكوته.

جاءت «مريم» الممرضة بخطوات الفراشة، تطل برأسها من الباب الموارب.. تتبدى لنا ملامحها الدقيقة.. أدعوها إلى الدخول.

وقفت إلى جانبه.. حدّقت فى وجهه. تحسست بأناملها الرقيقة يديه وذراعيه بحثاً عن عِرق يتسع بالكاد لأصغر إبرة.. كان أغلبها قد شبع خرْقاً ولقْباً حتى التهبت عروق، وتهرأ جلد، وأزرقت مواضع، وتورمت أخرى، ونزف دم.

لم تعثر «مريم» على عرق يصلح.. نظرت إلىّ حائرة مشفقة وقالت هامسة: كلها تهرب.

قلت لها: امض.. لابد من تعليق المحاليل.. لم يبق له إلا هذا السائل الغذائى.

قالت وقال من حولى: ارحمه.

قلت: لن أتركه دون غذاء حتى لو تحول كله إلى مجرد عرق.

قال كبيرنا: ياولدى.. هذا حرام.

تنهدت من أعماقى جاذباً أنفاساً أثقلها اليأس.. قلت لـ «مريم»:

ـ ابحثى يا «مريم».. لابد أن نعلق الجلوكوز.. قلّبى فيه حتى تجديه.

عاودت البحث فى قدميه وساقيه.. ببطن أطرافها تتحسس. بقلبها تتسمع.

أخيراً عثرت بالعرق، مدت إليه الإبرة بحساسية شديدة ورقة. نفذ السن، ولما فتحت الصمام جرى منه الدم فأغلقته.. فرح الجميع وتنهدوا وكانوا قد كتموا الأنفاس حتى لا يهرب العرق أو يتوتر.. ساعتان ونحن نبحث عنه.. أخيراً عثرت عليه أصابع «مريم» المرهفة.. بدأ السائل يتقطر فى الخرطوم الرفيع.. يأخذ طريقه إلى عروقه الرقيقة المنهكة.. نقطة نقطة.

ابتسمت «مريم» وهى تحكم لصق خرطوم الجلوكوز على ذراع أبى حتى لا يتحرك أو يهتز. عاد إلى وجهها هدوءه وعذوبته بعد التوتر والقلق.. أرادت أن تمشى. طلبت إليها أن تبقى دقائق.

قالت أختى لها: اشربى يا «مريم» هذا العصير.

قالت: شكراً.. لقد أغلقت على ولدى «چورچ» الباب ولابد أن أعود إليه.

قلت: أرهقناك معنا.

فرغت وقالت: لا تقلها أرجوك.. إنه أبى.

ذهبت «مريم» وهى لاتكاد تلمس الأرض، وأبى برغم المحاليل والأطباء يتوجه صوب الملكوت الآخر.. يصر فى ثقة ودون اعتبار لكل القلوب المعلقة بهزة شعرة واحدة من رموش عينيه.. أن يمضى.. أن يخرج من الصفوف المزدحمة.. وفى ضباب المسافات بين الهنا والهناك يصلى للفراق.. يطقطق حواليه زمن خريفى.

لم تكن على ملامحه أية علامة ندم أو ألم أو خوف، بل رضا وامتثال، والأهل مزروعون كما النخيل فى وسط صحراء شقية.

تمتد يدى إلى زجاجة العطر. تصب فى راحة الأخرى وتنثر عليه.. هذا الوجه المُودِّع ساكن، وقد أعلن التخلى.. يداه مبسوطتان، والجسد المسجى تمدد واستسلم بعدما امتطت الروح جواد الارتحال.

ابتلاك الله يا أبى بالتعب كما ابتلى جنس آدم، والصبر كان قنديلك. خُضت بحرالحياة بسيف عرقك وإيمانك.. خضراء ياأبى مواضع أقدامك.

١٩٩٣

العِرقْ النبيل

أشرقت الشمس ونحن ندنو من المقبرة. زوجتى فى أعقابى تسير بثيابها السوداء معصوبة الرأس. نحمل سلة كبيرة بها ثمرات البلح والرحمة.

تتقدم موكب النساء الذى يزحف كقطع من الليل التعس فى أيديهن المناديل البيضاء، جاهزة لتجفيف الدمع القريب.

كانت العيون بحيرات صغيرة من دم حزين. حولها جفون متهرئة وكانت بينهن ابنتى فى فستانها الأبيض كلؤلؤة. أصرت أن ترافقنا.. لم تكن قد أتمت عامها السادس.

جلس الجميع حول القبر المهيب يحدقون فى الباب المغلق. خلفه يتمدد جسد أمى.. ارتحلت عنا وأقيم بيننا وبينها سد منيع.

بدأت الدموع تتفجر فى العيون مخضبة بالصمت.. كلنا أخذ يحدق فى الباب ويتذكرها.. كانت تمتد خلالنا عرقاً نبيلاً من الحنان والكبرياء.

منذ أسبوع حملت أعناق كثيرة جثمانها الكريم ووسدوها بالرمال، ملفوفة فى الأكفان البيضاء، مسبلة الأهداب هادئة كعهدها، واثقة من رحمة الله، تقبلت الموت ببسمة مشجعة.

حام الأطفال المساكين حولنا. من بعيد رأوا السلال الكبيرة فتقدموا.. مدوا أيديهم. فتحوا لزوجتى أكياسهم أسقطت فيها البلح و«الرحمة».

تأملتهم ابنتى فى دهشة، ثم تابعت عدوها، هنا وهناك، كفراشة منتشية بالصباح الطازج.

جاء المقرئ وتابعه، خلعا نعليهما. جلسا أمام القبر فى خشوع.. شرعا يرتلان القرآن فى عجلة.. لم يبلغ نفوسنا جلال الآيات، ولم تومض فى صدورنا المعانى الغالية.

ـ صدق الله العظيم.

قالها أبى ونفحهما بعض النقود، فلم يقاوما دفاعًا من الكلمات المقدسة.. اختفيا عن العيون فى لحظة.. جلس أبى مكانهما.. بدأ متحمساً متئداً يقرأ القرآن.. أدركنا الفارق بين القراءتين.

كان أبى حلو الصوت واضح النبرات.. تتدفق الآيات على لسانه فى سلاسة وجمال. تجلت المعانى القرآنية عمارة فنية أصيلة تصل ما بين السماء والأرض، تفتح فى الملكوت الربانى العظيم أبواباً فأبواباً، حتى الذى لا يفهم المعنى تأثر وشرب وارتوى، وما زال يصيخ السمع.

تدريجياً شرع صوته يتوتر ويختلج.. وبدأ يتعثر إلى أن سيطر النشيج المرتعد، وانهمرت الدموع بينما كان جسده يهتز فى عنف وقسوة حتى بدا كأن أرواحًا غريبة تكفلت به.

دعاه عمى وزوج خالتى والآخرون إلى التماسك والثبات، على الأقل من أجل المرحومة التى تطوف روحها الآن بنا وترقبنا. ألسنا نقرأ القرآن من أجلها؟!.

أكمل أبى السورة ثم دعا لها وغلبه النحيب مرة أخرى. فاضت دموعه وتبعناه، وقد فقدنا الإحساس بما حولنا.

جاءت وفود أخرى تضع الزهور على قبر أمى، وتكثف الحلقات المحيطة بها، تبادلت العيون النظر، فالبعض لا يعرف البعض.. كانت أماً لغير أبنائها.. ها هنا ترقد أمى.

تساءلت بينى وبين نفسى.. هل يا ترى حين ماتت أمى ماتت كل الأمهات، جفت الدموع واستقرت القلوب المفزعة كانت الأجساد قليلاً ترتعد.. ناديت ابنتى التى كانت تتقافز حول المقابر، لا تعبأ بالموتى ولا تحفل بالدموع.

ـ هيا اقرئى لجدتك سورة مما حفظت.

تضاءلت البنت بعد أن تراجعت من ملامحها كل علامات البهجة والفرح.

أخذت طريقها إلى القبر. تكورت وجلست. واجهت أمي التي كانت تحبها.. بدت الطفلة بردائها الأبيض وسط الكتلة المعتمة من النساء كوجه أمي في هذه الدنيا المتجهمة.

كانت الطفلة المضيئة تعلم أن جدتها خلف هذا الجدار نائمة.. حدقت في الجدار كأنها تود لو تنفذ منه إلى جدتها، ثم أحنت رأسها وبدأت تقرأ.

رائعة.. كانت رائعة.

استمع الجميع في انبهار إلى طفلة مدللة تحفظ القرآن وتنطقه نطقاً صحيحاً.. شاركوها التلاوة في صمت.. رددت قلوبهم ما تقول في سعادة.. تألقت فوق الوجوه وكنت أنا مخلوقاً آخر.. تمنيت أن تظل ماضية في تلاوتها إلى آخر العمر.

اختنقت فجأة، وانخرطت في البكاء.. اندفع الكل وراءها في نشيج محموم.. صرخت الدموع مذعورة.. كل واحد كان يفقد الآن أعز ما لديه، وكانت الطفلة تغترف من قلوبهم وترتل. تقتلع من آبارهم الصدئة جذور الملح..

اهتزت بعنف جدران الضلوع.. لم يعد هناك من يسمع أو يرى.. أفقت على أبي وهو يحتضن ابنتي كالمتألم،ويدفن فيها وجهه بحنان مسعور، بدت لي ابنتي عظيمة، لكنها يتيمة ومسكينة، إذ فقدت بأمي كل أهلها آه.. نهضنا.. آه..

توقفت مؤقتاً هذه السيمفونية من الحزن الأبدي على الإنسانة الراحلة.

هذا هو المستقر الأخير.. وها هنا تموت الثرثرة.

القسم الثانى

من هنا

حدث ساعة الغروب

تِكْ.. تُوكْ.. تِكْ.. تُوكْ..

ساعة الحائط الكبيرة تدق، بندولها يتحرك ذات اليمين وذات الشمال فى انتظام غريب، لا يتأثر بأى عوامل جوية أو حتى سياسية، ولا يتجاوز حدوده لمسافة سُمك شعرة جهة اليمين ولا جهة الشمال.

تِكْ.. تُوكْ.. تِكْ.. تُوكْ..

خطوات عسكرية أكثر دقة من نبضات قلب إنسان فى غاية الصحة البدنية والنفسية.

هذه ساعة أبى رحمه الله، أصر على شرائها، كما قال لى، بعد أن رأى مثلها فى بيت صديقه «الحاج عبد الجواد» كبير طهاة «مصطفى النحاس» باشا.. عمرها فوق الخمسين سنة. ،كلنا نعيش بحسها، ولا تعجبنا ساعات اليوم التى تعمل «بالحجارة»، فلا صوت لها ولا دق، وبعضها يدق بعد مرور كل ساعة فقط، لكن هذه الساعة تعمل بالحركة الذاتية الميكانيكية.. المهم أن تعلق باستقامة واتزان، وبدون انحراف عُشر ملليميتر جهة اليمين ولا مثله جهة اليسار.

عندما تعلن فوات ساعة من الزمن أو نصف ساعة، فإنها تدق دقات قوية لها رنين تردده أرجاء البيت كله، وعندما تبدأ الدق ينصت لها الجميع ويعدون معها الساعات التى

خطفها الزمن من الأعمار، هذا.. بالنهار، أما فى الليل، فلا يكاد يحس بها أحد، إلا أنا وفى السنوات الأخيرة فقط، بعدما خفّ نومى وقلّت ساعاته.

منذ أيام لاحظت أنها على مهل تسير، وعلى مهل تدق، وتأخذ أنفاسها بصعوبة بين دقة وأخرى، فأدركت أنها فارغة، ملأتها بالزمن الذى يخلو منها بسرعة.

جلست أمامها أتأمل ملامحها..الميناء دائرية بيضاء كبيرة، الأرقام فيها سوداء بارزة وكبيرة، خلف الميناء يقبع البرج وبيت العدة، يتدلى منه ذراع البندول الذى يبدو للعين خلال النصف السفلى.

تِكْ.. تُوكْ.. تِكْ.. تُوكْ..

عندما وقفت للمرة الأولى منذ عدة سنوات، كانت أم العيال قد عادت من مدرستها مبكرة على غير العادة، حسبتها جائعة، تقدمت منها قبل أن تفعل أى شىء وملأتها بالزنبرك، لكنها لم تستمر غير دقائق، فأصابها الذعر حتى اتصلت بى فى المكتب لتعلن لى أن الساعة توقفت.

دُهشت.. سكتُّ لحظة.. فى البيت ساعات يد كثيرة، هى وحدها لديها ساعتان.. ثمة إحساس بأهمية هذه الساعة، ليس لأنها ذكرى من الوالد ولكن لدورها فى تنظيم حياتنا، بل شعورنا بأنها تربطنا بالحياة.

إحساس غامض يجعلنا نحافظ عليها ونحترمها، وننظر إليها كلما مررنا أمامها، حتى الصغار يفعلون ذلك.

تِكْ.. تُوكْ.. تِكْ.. تُوكْ..

دعوت إخوتى بعد وفاة أبى لاجتماع. نبحث فيه توزيع حاجياته التى يضمها البيت الكبير تمهيداً للتصرف فيه.

تسابق الجميع فى عرض رغباتهم للاستحواذ على هذا وذاك وهذه وتلك، حتى الجلابيب القديمة والشباشب، قلت لهم:

ـ أنا خارج هذه اللعبة ولا آخذ إلا الساعة فقط إذا سمحتم..

وافق الجميع بسرعة وفى نفس واحد، لا احتراماً لى بصفتى كبيرهم، ولكن لأن عدد المتنافسين على الحاجيات سوف ينقص واحداً. فضلاً عن أن كل واحد منهم لديه فى بيته ساعة حائط حديثة، فما حاجته إلى القديمة.

قلت لزوجتى: لاتشغلى بالك.. عندما أحضر سوف أضبطها.

قالت: لن أحتمل توقفها حتى تعود.

تمهلت لحظة ثم قلت لها:

ـ فى يدى الآن بعض الأعمال المهمة. سأحضر فور فراغى منها دون انتظار نهاية الدوام.

عندما فتحت باب الشقة أحسست أنها كالقبر.. لا نبض فيها ولا حياة. لم تستقبلنى الساعة بطريقتها المعتادة، وكنت عندما تقع عليها عينى أراها تهز ذيلها إلى اليمين وإلى اليسار بصورة موقعة راقصة،أتصورها سيدة أنيقة ورشيقة تمسك بيديها طرفى فستانها الأبيض وتنحنى جهة اليمين وجهة اليسار محيية ومرحبة، وإلى جوارها عن يمين صورة أمى وعن يسارها صورة أبى، ومن فوقها لوحة عليها «واذكر ربك إذا نسيت» .. لا إله إلا الله.

أحمد الله وأمضى إلى حجرتى، وقد اطمأنت نفسى بأن كل شىء على ما يرام.

ميزان مرهف الحساسية، يسرى فى أجسادنا، ويتغلغل فى قلوبنا وعقولنا وأرواحنا.

كان أبى منذ صغرى، إذا ما وجدنى تأخرت فى عودتى من المدرسة خمس دقائق يقول وهو يمسك أذنى برفق:

ـ أعرف أنك شاطر ومجتهد، ولكنى أريدك أن تكون مثل هذه الساعة فاهم.. انظر إليها.. انظر.. دائماً انظر إليها.

أنظر إليها طاعةً له وخوفاً أن يفرك أذنى، لكنى تعودت أن أنظر إليها وأسمعها وأنا صاح، وأسمعها وأنا فى الحلم، وأسمعها حتى وأنا بعيد عنها جداً.

تِكْ.. تُوكْ...تِكْ.. تُوكْ..

بلغت الستين، وفى اليوم الأول من العام الواحد والستين طلع الصباح علينا فإذا البيت قبر.

بكت زوجتي ورفعت بذلك درجة حرارة أوهامي وضخمتها، دق قلبي دقات متتابعة.. مع ذلك هونت الأمر على زوجتي.. ذهبت إلى مدرستها. جلست أنا قبالة الساعة وأنا أحس أن عقلي به بندول يشبه بندولها ولكنه يعمل بحماس جهة اليمين وجهة اليسار، بندول مساحة حركته واسعة حتى ليصل إلى جدران عقلي ويخبطها في قسوة.

حاولت معها مثل ما أفعل كل مرة.. أعدل الصندوق بحيث يكون على العلامات التي حددتها على الحائط، وهي التي تمثل قمة الاعتدال في نظر الساعة. أدفع البندول، فيعمل لمدة دقائق ثم تنقطع أنفاسه ويتوقف، أعود فأجرب لها وضعاً يبتعد يميناً عن الوضع الأول نحو ملليمتر.

أدفع البندول دفعة واحدة لكنه يعمل لمدة دقائق قليلة ثم يخفت الصوت وتتوقف الحركة.. أخيراً وبعد تجربة كل الأوضاع.. تذكرت أنها يمكن أن تكون في حاجة إلى مسح.

أسرعت بارتداء ملابسي وحملتها في كيس بلاستيك أسود حتى لا تقع عليها عين، ومضيت بها إلى «عبد البصير» الساعاتي وصانع النظارات.

كان الدكان مغلقاً. تنبهت إلى قدومي المبكر، فاشتريت الجريدة وجلست على أقرب مقهى. لم أضع الساعة على الأرض ودعوت النادل كي يحضر لها كرسياً.. تعلل النادل بالزحام فوضعتها في حِجري، ووضعت إحدى يدي برفق عليها.

أخذت أطالع الجريدة، لكن نظراتي كانت تطير كل دقيقة إلى دكان الساعاتي.. في تمام العاشرة بالثانية لمحت «عبد البصير» قادماً نحو دكانه بخطواته الوئيدة التي تحمل سبعين عاماً ويزيد، وعلى رأسه لا يزال طربوشه القديم الطربوش الوحيد في بنها.

حملت ساعتي وتركت ثمن الحلبة وأسرعت إليه.. قلت:

ـ لقد توقفت.

قال بلا مبالاة: كتر خيرها.

هبط قلبي في قدمي.. التقطت أنفاسي بصعوبة كأني جريت عدة كيلو مترات.

ـ يا «عبد البصير» يا خويا.. الساعة بنت عشرين أو ثلاثين سنة.

تحوّل إلىّ وحدق فى وجهى من فوق نظارته.

ـ ثلاثون سنة!.. لقد تجاوزت الستين على الأقل يا «عبده» يا خويا.

تنهدت وسكت.

أحسست أن الساعة ثقيلة وأنا أيضاً.. أريد أن أعود إلى البيت.

بهدوء ممل بدأ يفتح الدكان، قفل جهة اليمين وقفل جهة اليسار، وقفل كبير فى الوسط، معلق بحلقة فى أسفل الباب فَك كل الأقفال وانحنى يرفع الباب الصاج بعد أن ضغط بقدمه على حرف الباب.. مددت يدى لأساعده، لكن الباب وحده التف حول نفسه وصعد إلى السقف متكوماً فى موضعه.

كان هناك باب خشبى آخر، فتحه «عبد البصير» وأغلق نصفه السفلى وراءه وفتح النصف العلوى، وبدا لى جسمه نحيلاً وهو يخلع المعطف ويعلقه.. التفت إلىّ وقال:

ـ اتركها يا سى عبده وتعال يوم الإثنين.

اندفعت أقول له:

ـ لا.. أرجوك.. أنا رجلى على رجلها.. لا أتركها أبداً، سأجلس هنا بجوارك ساكتاً أقرأ الجريدة.. على الأقل قل لى ماذا بها؟. مما تشكو.

أدرك أننى لن أتزحزح بدونها فقال:

ـ وأنت راجع إن شاء الله، أقول لك ماذا بها.

وأنا راجع!.. وهل سأرجع!..

قلت له: عندى اليوم أجازة.

قال: إذن بعد ساعة.. لن أبدأ قبل أن أكنس المحل وأرش أمامه.. أنت تعلم أثر التراب.

أومأت له برأسى موافقاً. وضعت الساعة على البنك، ولففت الكيس حولها جيداً حتى لا يدخل إليها التراب، وربتُّ عليها حتى تعلم أننى لن أنساها ولن أغيب طويلاً، وعليها ألاّ تخشى «عبد البصير».. ليتها تعلم أنى لم أكن لأتركها «بالساهل».. لكن..

دون أن أدرى حملتني خطواتى صوب المكتب فى مديرية الصحة.. درت حول المبنى أنظر إلى نوافذه من تحت لتحت، لم أحتمل رؤية الموظفين.. كان بعضهم يتسكع خارج المبنى والبعض الآخر يطل من النوافذ.

عدت إلى المقهى.. عينى على «عبد البصير»، طلبت سحلب.. كان يكنس ببطء شديد، ثم بدأ ينثر من دلوه الصاج حفنات من الماء هنا وهناك، ومضى يمسح الزجاج بأناة ويفتح الفاترينة ويعد ترتيب الساعات وإطارات النظارات.. أخيراً جلس وسحب الساعة وفتحها، قمت إليه.. كنت أحس أنى أنتظر منذ عام.

بعد لحظات قال: تحتاج فقط إلى تنظيف.

قلت: ولماذا تقول إنها تجاوزت الستين؟

قال بثقة: هذه حقيقة، أم تحب أن أضحك عليك؟

قلت: ولكنها تعمل بكفاءة.

قال: وهذه حقيقة أيضاً.. لكن هل بنفس مستواها عندما اشتراها الوالد الله يرحمه؟

لم أرد.

هذا الرجل لم يعد كما كان فى الماضى.. كان ماهراً وسريعاً.. هذه آخر مرة أصلحها عنده، وإن شاء الله هي لن تحتاج إلى إصلاح، ميزته الوحيدة أنه يرضى بالذى تدفعه، وليس مثل الآخرين الذين يطلبون أضعاف ما يطلب، ليصرفوا على الحشيش وزينة المحل. إلا أن «عبد البصير» أصبح موضة قديمة.

نظفها وأغلقها وشاهدتها مسروراً وهى تعمل.. قال:

ـ اتركها يومين حتى أتابع حالتها.. قلت له على الفور:

ـ سأتابعها أنا.

حملتها ومضيت إلى البيت. علقتها فى مكانها بالضبط.. ظلت تعمل وتدق وأنا أتأمل عقربيها النشيطين، أشاهد الكبير وهو يتحرك، لكنى لا أستطيع مشاهدة الصغير.. أحس بالزمن وهو يمضى معلقاً فى العقربين خارجاً من الماضى، عابراً الحاضر بسرعة وكأنه ممنوع من التوقف فى مثل هذه المحطات.

كان الكبير يجرى بسرعة، وكنت أدهش لذلك.. من الذى أعطى لنفسه الحق كى يجعل سرعة الساعة هى سرعة أعمارنا؟.. ولماذا لا يتفق قادة الأمم على تهدئة الساعة وتخفيض السرعة؟

أحضرت الجريدة التى لم أقرأها، وجلست أمام الساعة. شرعت فى القراءة، لكن نظراتى كانت تطير كل دقيقة إلى الساعة التى دب فيها النشاط.

تكْ.. تُوكْ.. تِكْ.. تُوكْ..

فَرِحت زوجتى.. لم أعد أفكر فى المكتب.. أيقنت أن هذه هى طبيعة الحياة.. قالت زوجتى فى اليوم التالى:

ـ اشتر لنا اليوم ملوخية، وقطفها، واغسلها وانشرها، ولما تجف خرّطها..

ـ ماذا!!

هذه أول مرة تقول لى فيها مثل هذا الكلام.. قلت لنفسى:

ـ لا بأس.. نمشى ونتفرج على خلق الله، ونعمل لأهلنا شيئاً مفيداً. ذهبت لشراء الملوخية، ولما عدت وجدت البيت قبراً.

حاولت مع الساعة عدة محاولات، ثم حملتها إلى «عبد البصير»، فتحها، ثم قال: لابد أن أحداً أوقعها.. ذراع الترس مكسور ويجب تغييره.. غيّره «عبد البصير» وعادت الساعة تعمل بنشاط. لكنها بعد عدة أيام توقفت.. توقفت الساعة.. تأكدت أن «عبد البصير» كبر.. هذا حكم الزمن، وحكم الساعة.. نعم.. كبر «عبد البصير» ولم يعد يعرف كيف يصلح الساعات.

١٩٨٨

المملوك

انطفأ النور.. عم الكون ظلام دامس وعنيف، بدا كما لو كانت قد اختفت تماماً مصادره ولن تعود لهذا العالم.. كان لابد ـ بأى شكل ـ أن أنتهى من كشوف المرتبات الليلة.

قرر المدير العام صرف مرتبات الهيئة غداً الرابع والعشرين من الشهر، لكم أعلن أنه ضد الإجراءات الاستثنائية. النظام نظام.. الأجور مقابل عمل فعلى ولابد أن تصرف آخر يوم فى الشهر، بل وفى آخر ساعة.. والأفضل والذى يرتاح له ضميره تماماً، أن تكون فى اليوم الأول من الشهر الجديد، فقد يهرب الموظف فى اليوم الأخير وتضيع على الدولة أموال طائلة أو خدمات هائلة كان يمكن أن يؤديها هذا الموظف.

ارتد هذا الصباح عن نظريته الشهيرة التى كانت جزءاً متسقاً تماماً مع شخصيته الصلبة والحاسمة، قرر سرعة إعداد الكشوف.. كلّف بالمهمة زميلنا الأستاذ «عطية».

ـ لا تتم الليلة يا «عطية» إلابعد أن تعد كل شىء، ولا يبقى للصباح إلا المراجعة واستخراج الشيك.

سرى الهمس فى الإدارات أن الوزير هو الذى طلب ذلك ومديرنا كما هو لم تهتز نظريته، لكنه لا يستطيع بالطبع أن يرفض أمراً يصدره الوزير.. بعد ساعة سرى همس جديد وصل طازجاً من خارج الهيئة أنه رئيس الوزراء وليس المدير ولا الوزير، إلا أن الهيئة قبل

الظهيرة كانت كلها تعرف ـ ولا أدرى كيف ـ أنها توجيهات من رئيس الجمهورية وقيل أن ذلك الإجراء مطلوب تنفيذه فوراً تخفيفاً للمعاناة عن العاملين الذين انتهت مرتباتهم الشهر الماضى بعد أسبوع من استلامها.

قبل انصرافنا بلحظات قرر المدير تكليفي بالمهمة.. مستحيل.. كنت أنوى الذهاب الليلة إلى الطبيب للكشف على عينى المحتقنة والتى ينوء جفنها بحمل كيس دهنى ظل يكبر ويكبر حتى أصبح كحبة الفول..

أنا بالذات غير قادر.. لابد أن أعرض حالتى على المدير الذى يشبه فى جسمه هيكل زجاجة الحبر.. ربما اقتنع إذا فهم وقدر.. ليس على أن أدفع ثمناً باهظاً لقاء طيبتى وإذعانى.. ليس علىّ أن أتهمه بالخسة تقليداً للآخرين حتى أجربه.. قررت ألا أسكت وأتقبل الأمر.. لابد أن يعرف هذا الرجل ظروفى.. أعلنته بعدم قدرتى.. أصر..

رفعت له النظارة عن عينى ليرى الكيس، انشغل بإدارة قرص التليفون وقال: بطل دلع.

حاولت مجدداً التنصل من المهمة، قال برقة ولكن بحزم بينما يحدق فىّ بعينيه الغائرتين المفعمتين بالغطرسة والعناد:

ـ أنت دقيق وسريع.. هيا.

استدار فأعطانى جانبه ومضى يتحدث بالتليفون.. ناديت عليه.. أشاح بيده فى وجهى طالباً الخروج بينما يحاول النفاذ داخل التليفون.. أكلت أسنانى وأنا أقسم أنه لا يتحدث إلى أحد..

ـ هذا القصير يتحكم فينا كما يشاء.. إنه يكاد يحدد مصير عائلاتنا.. سعيدة كانت أو تعيسة.. ويحدد شكل أيامنا.

نويت أن أتناول غدائى أولاً ثم أشرع فى العمل.. ألفيت زوجتى فى صحن الدار تجلس على الأرض وقد بسطت أوراق الكرنب الخضراء والصفراء المبتلة تغرف خلطة الأرز من الحلة وتحشوها.. ورقة.. ورقة.

نقضت زوجتى اتفاقنا بشأن إعداد اللوبيا الخضراء والأرز، رأت أن محشى الكرنب أفضل.. لكن الكرنب باله طويل وحكايته حكاية.. لم يكن ثمة بديل إلا أن أبدأ فى العمل حتى تنتهى أم العيال من مشروعها الغذائى.

بعد نحو الساعتين دعونى للطعام.افترشت زوجتى الأرض وحولها الأولاد يتحلقون حول الطبلية، يلفهم الدخان كأنهم فى حضرة ساحر.. تمتمت بكلمات ساخطة بلا جدوى.. كنت قد نبهت إلى عدم الجلوس إلى الطبلية وإلا فما الداعى أن أنفقنا على حجرة الطعام كل ما ادخرناه.. ردت زوجتى نفس ردها القديم:

ـ حتى يتمكن الصغار من تناول الطعام بأنفسهم.

وبينما كنت أحاول بحث العلاقة بين بدن زوجتى المتضخم وحبها للمحشى، قطعت تدفق أفكارى قائلة:

ـ وأنت تعلم أن المحشى لا يؤكل إلا فى صينية كبيرة تمتد إليها أيدينا جميعاً.

ـ إنها لا تدرى شيئاً عن العالم ولا عن مديرى العنيد.. إنها تتضخم كالكيس الدهنى وأصبح من الصعب الاقتراب منها.. سرى الخدر فى بدنى.. هكذا تفعل فىّ الأكلات الدسمة.. قمت إلى العمل فى غير حماس.. كانت عادتى النوم بعد العصر، لكن المهمة بما تحويه خاصة إلحاح المدير دفعتنى لمقاومة النوم، مضيت أعمل وأتثاءب.

جاءت زوجتى إلىّ تتبختر حاملة كوب الشاى وجلست إلى جوارى.. تنحنحت ثم قالت: لن تقبض الجمعية هذا الشهر، كما كان مقرراً وتأجل القبض إلى الشهر القادم.

سألتها: ولم؟

أجابتنى بنبرة محايدة لتؤكد لى عدم مسئوليتها:

ـ قالت «أم زكى» أن هناك من هو أكثر منا حاجة إليها، ضربت كفاً بكف وقلت:

ـ هل هى التى تصرف أمور العباد؟

سألتنى: هل هناك حل آخر؟

تنهدت فى شبه يأس:

ـ أمرنا لله.

انهمكت فى العمل. جرت يدى فى مهارة أدهشتنى.. استيقظت فى رأسى كل معلوماتى عن استحقاقات العاملين، وفى الحساب مضى عقلى يتقافز وينتج الأرقام كالآلة وربما أفضل.. شعرت ببعض الرضا لأنى أمضى بخطى حثيثة للخلاص من المهمة التعسة.

أنهيت أربعة كشوف ولم يبق غير ثلاثة.. تطلب إعدادها حوالى خمسمائة عملية حسابية بين جمع وطرح وقسمة وضرب.. صرخ جرس الباب.. فتحت «نبيلة» وبلغنى قولها:

- عم «شوقى» يا بابا.

- شوقى!..الحلاق!.. ماذا يريد «شوقى» ؟ موعدنا الخميس.

دون استئذان دخل «شوقى» يحمل حقيبته التى لا تفارقه.. جلس على كرسى وحطها أمامه على كرسى آخر، وهو يفتحها قال:

- أنا آسف يا أستاذ.. تذكرت أنى متفق على فرح يوم الخميس، وسأكون يوم الأربعاء فى منتهى الانشغال.. لذا قررت أن أجيىء.. الحمد لله أنى وجدتك.. هيا.

دون أن ينتظر رأيى نفض الفوطة البيضاء فى الهواء، فطرقعت.. ألبسنى إياها.. نادى على «نبيلة» التى تهم دائماً بفتح الباب وتلبية كل طلب.

- كوب ماء يا صبية لو سمحت.

ربط الفوطة حول رقبتى، ومر بإصبعه بين الرباط والرقبة.. أحنى رأسى وبدأ فى خفة يضرب المقص.. يأكل بعض الشعيرات ثم يطلقه فى الهواء فينهش فيه قليلاً، إلى أن يحدد الموضع الجديد الذى سينقض عليه، وهات يا قص.

جاءه الماء فشرب نصفه وأبقى النصف.. شرع فى عزف سيمفونية كلامية، لم يتوقف لحظة إلا بعد أن تأكد أنه حطم رأسى تماماً وأفرغه مما فيه.. كان يعرف كل شىء عن كل فرد فى الحى. رجلاً كان أو امرأة.. ويحكى كل ما جرى وما يمكن أن يجرى، ولا يغفل عن ذكر الأسباب التى أدت أو يمكن أن تؤدى إلى ذلك وإلى غيره.

بعد انصرافه اكتشفت أن المساء قد تغلغل، ولم أنتبه للمؤذن وهو ينادى لصلاة العشاء.. رأيت أن أقوم فأضع رأسى تحت صنبور الماء لمدة ربع ساعة على الأقل، لم أجد فى نفسى الشجاعة، للإقدام على هذه المغامرة.

عدت للعمل. وما أن أمسكت بالقلم حتى انقطعت الكهرباء لمدة دقائق ثم عادت.

كان الأولاد يتابعون المسلسل فى التليفزيون وكنت أراه معهم كل ليلة.. مسلسل جذاب.. ليس ثمة فرصة لمتابعته الآن.

فى نحو العاشرة ـ ولم يكن قد تبقى غير كشف واحد ـ انطفأ النور وأضأت مصباح الكيروسين.. ذهبت زوجتى لتنام بعد أن قالت لى:

ـ كنت أود أن أبقى معك.. لكن جسدى مهدود.. تصبح على خير.

مضت تدق الأرض، تحمل على صدرها ضرعين مترهلين يرهقان أنفاسها، وتجرجر خلفها ردفين ثقيلين يوقعان خطوها. تبعها الأولاد، حاول الصغار منهم الإحاطة بى لأنى المستيقظ الوحيد وهم يكرهون النوم.. قالت لهم:

ـ هيا.. دعوا بابا يتم عمله.

أصرت الصغيرة على أن تظل معى.. طلبت ورقة مثلى وقلماً. رفضت فاستعدت للبكاء.. أسرعت فقدمت لها الورقة والقلم.. عادت الكهرباء تضىء الغرفة إضاءة باهرة لا تتحملها العين.

نفخت مصباح الكيروسين.

رأيت أن أعد كوباً من الشاى ثم غيرت رأيى.. الأفضل أن أنام.. مضت الصغيرة معى إلى السرير.. غطيتها بإحكام وعانقتنى.. سألتها: هل تحبين بابا؟

قالت: نعم.

سألتها: هل تحبينه كثيراً؟

قالت: أحبه كثيراً جداً.

فرحت بكلامها الحنون وشعورها الطفولى الجميل.. بعد دقيقة واحدة تسللت هابطة من السرير.. قالت إنها ستنام مع أمها.

بقيت مدة طويلة وأنا مفتوح العينين فى الظلام، بلا نوم وبلا رغبة فى القيام، لماذا إذن كنت أتثاءب وأنا على المكتب؟!.. ماذا لو قمت فأكملت الكشف الباقى وانتهيت؟..

لم أستطع أن أقرر، كان البقاء فى السرير لذيذاً حيث السكينة والدفء والراحة وكنت أشعر بثقل كبير فى جفنى يصاحبه دبيب مؤلم.. نمل يأكل فى عينى. الآن يمر أمامى شريط طويل.. ها أنذا أستيقظ فى الصباح ويتراءى أمام عينى كل ما جرى فى حديقة البشر.. أرى قروداً بشرية وغزلاناً وديناصورات لها صور آدمية، وحمير وبغال، أسود وأفيال كلها تحمل على أكتافها رءوساً بشرية.. أخيراً ثقلت جفونى وسرعان ما اختفى الوجود أو اختفيت، ثم عاد إلىّ أوعدت إليه فإذا زوجتى ترجنى رجاً.. تدعونى كى أفيق والصباح من حولها يتربص بى واكتشفت أنى لا أبصر إلا بعين واحدة والكيس الدهنى يرقد على خدى ليضاعف إحساسى بالمصير المبتذل.

١٩٨٨

ابن الإشـــارة

ربما اندلع حريق فى الاسطبل.

دفع العشرات من الخيول الهائجة لتسرع بالفرار من النار المجتاحة.

لم تكن خيولاً حيوانية من لحم ودم، وإنما خيول من حديد، أشكال وألوان وأحجام، يتوالى اندفاعها المستعر لعبور الإشارة الخضراء. ثمة رعب فى عيون سائقيها الذين يخطفون النظرات من بعد للدائرة الضوئية.. يتمنى كل واحد وهو واجف القلب أن تظل خضراء حتى يتجاوزها، وبعدذلك فلتحمر إلى الأبد.

نهر يتدفق بهذه الآلات المجنونة لتتجمع بعد لحظات قليلة فى بحيرة الإشارة.. قفز العسكرى المايسترو نافخاً صفارته، مشيراً بالوقوف، بينما سمح لقوافل أخرى فى المقابل كى تجرى وتتزاحم وتصرخ وتتلاطم، وتنفث دخان غضبها من الانتظار الطويل، واللهفة لمبارحة مستنقع الوقوف المستفز.

كنت أتمنى الإفلات منها، لكنها اصفرت بغتة وما لبثت أن احمرت مكشرة عن نظراتها لتهدد من يفكر فى متابعة السير. لو كانت السيدة التى أمامى أسرع قليلاً لعبرت وعبرت فى إثرها.. لقد تعودت إذا اقتربت من هذه المساحة الحرجة أن أركب السيارة التى أمامى وأندفع كما تندفع كل السيارات.

نفض الفوطة الصفراء بيده ولد أصفر صغير. تقدم قافزاً إلى السيارات التى أوقفتها أمامه الإشارة. بعثر نظراته الخاطفة على الصف الأول. كان الشارع العريض يضم أربع

سيارات تتساقط وتتقاطع على زجاجها الأمامى ألواح من أشعة الشمس تنعكس على عينيه فتخفى عنه من بالداخل.

ترك الأولى فهى صغيرة وقذرة بدرجة لن يؤثر فيها مرور فوطته على زجاجها المبقع، ولا لحم هيكلها الخشن والمخبوط فى عدة مواضع مع احتمال أكيد بضآلة العائد.. الولد رغم صغره ومهما كان حديث العهد بهذا العمل لا يخلو من نظرة سديدة تعين عقله الأخضر على الاختيار. بعدها يندفع بسرعة توازى سرعة تغير الإشارة فى التقاط أكبر قدر من النقود من أيدى أصحاب السيارات.

أسرع إلى السيارة الفارهة التى تحتل مساحة كبيرة من عرض الشارع. دفع يده بالفوطة ليمسح زجاجها الأمامى، وفى نفس الوقت ألقى نظرة خاطفة على صاحب السيارة. لاحظ السيجار البنى الغليظ يتراقص على جانب فمه. جاءته الإشارة بأصبع واحد كى يبتعد.

أعاد الطلب بانحناءة من رأسه ونصف مسكنة وربع بسمة تتمنى وترجو أن يوافق على المسح. أشار له بيده السمينة أن يبتعد تماماً عن السيارة.

طار الولد فحط على السيارة التالية. بيضاء نظيفة جداً ولامعة، كأنها خرجت للتو من المصنع، تقودها سيدة حمراء لها شعر أصفر طليق تبدو عليها سيماء العز والرفاهية. تهز رأسها على إيقاع موسيقى. لم أتبين إذا كانت تصاحبها موسيقى تصدر عن مسجل السيارة أو أنها تدندن من تلقاء نفسها لتدفع عن روحها ملل الانتظار، أولعلها سعيدة، والروح من فرط الرضا تغنى.

كانت تقف أمامى مباشرة. الولد يمسح لها زجاجها وهى تدندن، ولم يحرم الصغير نفسه من النظر إلى وجه السيدة ولحمها الأرجوانى البض وعافيتها المتوهجة، إنها لابد مختلفة عن أمه وكل نساء الحى الذى يقيم فيه ومختلفة أيضاً عن كل من رأى من نساء.

مد يده فأعطته نصف جنيه، دسه فى جيبه وأسرع إلى السيارة الرابعة، أشار له صاحبها بإزدراء وقبل أن يصل إليه كى يبتعد.. فأسرع قافزاً إلى الصف الذى أقف وسطه. بدأ بالسيارة التى إلى يسارى. رأيته بوضوح وهو يدور حول السيارة. كان دقيق الملامح.. جميل الوجه لولا أنه كان متسخاً أشعث الشعر.. تغلغل فيه التراب والعرق والهباب.. كان

يلبس قميصاً أكبر من مقاسه، تحته بنطلون ممزق لا يبلغ نصف ساقيه، بينما أصابع قدميه تبرز من فروة حذاء أسود، شبع جرياً وركلاً فى الكرات والحجارة.. لم يزد عن الثامنة أو التاسعة.. يتقافز بخفة، ويهتز مع حركة يديه، وينفخ فى الزجاج بكل ما أوتى من أنفاس حتى يرى البقعة الضبابية الغائمة، فيمسحها ويلمع الزجاج ويعيد الكرة فى موضع آخر، وبعد كل مسحة يرسل نظرة إلى صاحب السيارة والسيدة التى تجلس إلى جواره، ليتأكد من أنهما راضيان عن عمله.

توقفت يده فجأة وتوقفت ملامحه وتيبست كل أعضاء بدنه الهزيل.. ما عاد فيه شيء يتحرك أو ينبض.. حى ميت.

استمر يصوب نظراته خلال الزجاج المغلق.. كان هناك ولدين وبنت، أكبرهم فى مثل عمره يلحسون الچيلاتى.. مضى يتابعهم بانبهار شديد وهم يلحسون ويبتلعون الچيلاتى الذائب.. بكل حواسه يلحس معهم ويحاول أن يستنفر مخيلته ليتصور الطعم.. لكنه فيما يبدو لم يفلح، فظل ينظر.

لم أستطع أن أسحب نظراتى لأتابع حركة الإشارة كنت مشدوداً إلى عينيه اللتين كانتا مسرحاً لروحه الهائمة، تطير فى فضائهما عصافير الحرمان ويتوالى التحديق.. هل كان يحسب أن طول التحديق سوف يسحب له الجيلاتى من قرطاس البسكويت.. ربما جال بخاطره أنه لو صبر قليلاً وتابع الچيلاتى الذى يتقطر فى الحلق جدولاً من حلاوة أسطورية لا قبل له بها ويتلقاها الأولاد بسعادة باللغة تتبدى على صفحات وجوههم. فتنقشها بالبهجة والصحة والامتلاء والفرح..

ربما جال بخاطره أنه لو صبر قليلاً قد يعطيه أحد الأولاد نصيبه أو تدعوه لذلك الآم أو الأب.

كانا مشغولين عنه، وأنا به مقيد، عيناى عليه لا تبرحانه أرمق بالإشفاق كل نظرة وحركة.. كان قد استولى علىَّ ولا أملك الفكاك وكانت عيناه بحيرتين من الرغبة الأسيانة والجوع، ولابد أن المرارة كانت تعتصره وتذيبه كما يذوب الچيلاتى فى حرارة الأفواه الصغيرة.

قرر أن يطور من أدواته فبسط كفيه على الزجاج ليشاركاه النظر، ووضع فمه على الزجاج علّه يستطيع أن يلمس هذا الچيلاتى، أو تسقط فى فيه خطأ نقطة من السائل المذاب.

نهض أحد الولدين وكان يرتدى قميصاً وبنطلوناً أخضر، وفوق رأسه قبعة حمراء. أخذ ينظر إلى الوجه المطل عليه من الخارج، من قلب النهار ذى الضوء الشاهق.

الولد الآخر فوق كرسيه الإسفنجى يتقافز، والبنت تواصل بلسانها الملون لحس الكتلة الملوّنة الذائبة، صاحب الفوطة الصفراء يحدق فى الجميع.. يتابع الكائنات اللاهية الفرحة، ويحدق فى ألسنتهم الملوّنة بلون المانجو ولون الشيكولاتة واللبن والفراولة، لا يكاد يشعر بأشعة الشمس المتقدة.. ينظر كالمنوم فى ثبات وذهول.

الأولاد بالداخل يمدون أيديهم بقراطيس الچيلاتى فى اتجاهه، يرقص عصفور قلبه النزق ويستعد للتحليق عبر الزجاج، يمد الولد لسانه ليرتوى بلحسة واحدة من الحلوى الملوّنة السائلة، لكن القراطيس قبيل أن تصل إلى الزجاج الفاصل بينهم تعود مسرعة إلى الأفواه المفتوحة والألسنة المسنونة وسرعان ما يضحكون.

كأن رصاصة أطلقها الصياد فطارت العصافير المطمئنة التى كانت تحلم بالفضاء الجميل والحب.. أفلتت السيارة من بين يديه. كان كالغائب عن الوعى فأوشك على الوقوع.. تماسك ومضى يحدق فيها ساخطاً، كأنها سرقت منه ما هو أعز من الروح.

فى لحظة اندماجه مع مشهد الچيلاتى المصيرى الرائع، خانته السيارة وتركته وحيداً لا يبقى له إلا طعم الأشياء المرة التى عاش منذ ولد لا يعرف لسانه وبدنه وروحه غيرها.

أفاق على صراخ السيارات التى يقف فى طريقها. حار كيف يهرب من أمامها، كان مشغولاً بحاله ومرعوباً من السيارات وآلات التنبيه التى هجمت عليه بقسوة لتفرى جسده وتدقه فى الأرض لتضاعف من حيرته وتزيد ضآلته وهوانه.

أخيراً قفز إلى الرصيف واستند إلى الحائط وعيونه لا تزال معلقة بالسيارة التى خطفت قلبه.

تنبهت إلى زئير آلات التنبيه القادم من ورائى يصك سمعى بعنف.. كنت قد غفلت تماماً عن الإشارة ونسيت أنى أنتظرها بحرارة، كان مشهد الولد يوقفنى بين عينيه.

انطلقت بسيارتي دون أن تفارق خيالي صورته، حاولت أن أتصور ماذا فعل بعد ذهابنا.. كنت أتمنى أن يصل إليّ كي أعوضه عن الچيلاتي الذي تعذب كثيراً من أجله.

هل ظل مستنداً إلى الحائط ثم ما لبث أن ثقلت على بدنه النحيل صورة الأولاد، فتساقط تدريجياً إلى الأرض وجلس مقرفصاً يبكي بلا دموع وبلا صوت يواصل التحديق في حنق إلى السيارة الهاربة؟ أم تراه تسلل إلى أقرب محل للچيلاتي بعد أن قاوم كل الأوامر المتشددة بألا ينفق مليماً مما يكسب وتجاسر فكسر الإشارة الحديدية ذات المخلب والضرب المبرح الذي من المتوقع أن يحطم عظمات جسده الضاوي، ومضى فاشترى الچيلاتي وأدار ظهره لكل سيارات العالم التي تود لو يمسح زجاجها الملطخ وعكف يلحس الچيلاتي ويلون لسانه بمختلف الألوان.. ماذا تراه بالضبط فعل؟

عقلي يحدثني أنه ترك كل هذا، ولم يفكر في أي شيء ولم ينتظر انتهاء نهر السيارات المتدفق في عنف وأسرع إلى السيارات التي تقف في الإشارة من الجهة الأخرى ليواصل مسح الزجاج، ويمد يده ليأخذ أتعابه وينفض التراب عن الفوطة الصفراء بعد كل مسحة.

١٩٩٠

•

زهـرة البسـتان

في حماس زائد تشرح المُعلّمة درس الجغرافيا، وأنا أنظر إلى «ياسمين».. وردة الفصل النضرة.

أتأمل وجهها الأبيض المرمرى ومعالمه الدقيقة المثالية.. بديعة التنسيق.. أتوقف عند عالم جميل وساحر ترسمه رموشها السوداء المشرعة.. عيناها مفتوحتان إلى اتساعهما تتابعان المعلمة التى تشرح على الخريطة مواقع الدول المتجاورة فى وسط أفريقيا وحدودها السياسية.

طارت يد «ياسمين» فجأة لتطرد ذبابة قدمت مع ضوء الشمس الدافىء حاولت أن تقترب من وجنتها الناعمة.

كانت النافذة تسمح بدخول أشعة الشمس فى مربع يلتف حول «ياسمين» وهى فى قلبه تكاد تضىء ضوء الشمس.

دارت الذبابة فى حجرة الدرس دورة ثم عادت مندفعة لتحط على خد «ياسمين» الوردى.

كيف ألفت انتباهها الآن.. يفصلنى عنها ولد وبنت.. المعلمة تنطلق فى حديثها بلا توقف.. تشرح وتوضح.. تشير وتمثل.. تسأل وتجيب أيضاً.. ثم تكتب على السبورة، وأنا أفكر فى أجمل بنات الفصل.. البنت هادئة ورزينة تلتفت إلى الدرس الممل، ومع ذلك

فشكلها يكاد يدل على أنها تبتسم.. عائلتها لاشك ثرية، لكنها معنا فى مدرسة حكومية.. ملابسها دائماً نظيفة، حتى لأحسب أنها تغير الزى كل يوم. البلوزة البيضاء وربطة العنق الحمراء.. الجونلة الزرقاء والجورب الأبيض والحذاء الأسود اللامع دائماً.. أمامها حقيبتها الجلدية الثمينة.. تفتحها بأناقة ولطف كأنها تفتح علبة مجوهرات.. تمد يداً بيضاء صغيرة لابد أنها طرية وناعمة وتسحب بأصابعها الرقيقة من قلب الحقيبة كتاب الجغرافيا مجلداً بغلاف ذهبى برّاق، عليه بطاقة جميلة تحمل اسمها واسم المدرسة، تحلق حولهما عصافير خضراء وصفراء لها مناقير حمراء فى سماء بحرها صافى الزرقة وفى قاع البطاقة قلوب صغيرة حمراء تخرج منها أيْدٍ تلوح للعصافير، ولعلها تلوح لاسم «ياسمين».

مثلما أخرجت كتابها أخرج كتابى.. أمد يدى الملوثة بالحبر والتراب ومسحوق الطباشير إلى حقيبتى الممزقة.. كان الأولاد يتقاذفونها ويتعاركون بها ولم أستطع أن أحدد من الذى بدأ استعمالها كسلاح ها هو كتابى الذى لم يعد يتبقى منه غير نصفه، أما الكراسة فلم أجدها.. لعلى نسيتها ولعلها ضاعت.. لم أجد القلم الحبر، كان معى منذ قليل.. وجدت بقايا قلم رصاص.. لا يهم..

إذا انتبهت جيداً للمدرسة سأفهم الدرس ولا أنساه.. ما الذى دفع بهذه الجملة إلى رأسى على غير انتظار؟. لا داعى لكتابة كلمة فى الكراسة القميئة التى التفت أطرافها وتلوت، وكتب الأولاد على غلافها الأخير تمنياتهم السيئة لى بالخيبة والفشل.

دخلت ذبابة ثانية وثالثة.. اجتمع الذباب على «ياسمين».. بالفصل عشرون بنتاً وعشرة من الأولاد.. أكثر الأسئلة تجيب عليها البنات، وأكثر الأولاد يحدقون فى البنات وقليلاً ما يجيبون أو حتى يسمعون شيئاً..

«ياسمين» وردة الفصل النضرة..كتابى الذى لا أذاكر غيره.. من يمتلكها وترضى أن تصاحبه فإنه يمتلك الدنيا.. سبحان الله.. هو الذى قال: زين للناس حب الشهوات من النساء.. أم تراه الرسول، أما أنا فأقول: زيّن لـ «مراد» حب «ياسمين» من دون كل النساء، خدود بمبية وفم قرمزى بطابع الحسن.. عينان سوداوان واسعتان.. شعر بنى كثيف وناعم، يتصاعد منه عبق مجنون.

هل يمكن أن يكون الشارع الذى تسكن فيه مثل شارعنا؟! مترب وضيق ومزدحم بعشرات الصغار القذرين المزعجين المهلهلى الثياب؟.. لا يمكن بالطبع أن يكون..

فكيف تدخل فيه السيارة التى تأتى فى نهاية اليوم الدراسى لتعيدها إلى البيت ويقودها سائق مخصوص؟ وينظر إليها البنات فى غيرة، لكنهن يلوحن لها مودعين.

هل يمكن أن يكون بيتها كبيتى؟.. بيتى عامر دائماً بكل المخلوقات الآدمية وغير الآدمية، وأكثر سكانه من الصراصير والقمل والنمل والبق والأبراص والذباب والناموس.

تتبعثر فى كل ركن فيه أشكال مختلفة من القمامة.. وأمر ذلك كله هين لأن الأقبح هو منظر الجدران المتهرئة وقد تساقط عنها الطلاء فى بعض المواضع ورَسَم خرائط لبلادٍ ووجوهٍ وأشكالٍ غريبة ومرعبة.

أبى ينام فى الصالة ويظل يكح ويسعل طيلة الليل، بسبب السجائر التى لا يكف عن امتصاصها برغم ما يعانيه ونعانيه معه.

يستفزنى شربه للسيجارة، حتى العُقب لا يتركه، وأجد صعوبة فى إشعاله والتقاط بعض الأنفاس. اضطر إلى غرز دبوس فى العقب حتى يمكننى الإمساك به.. لكننى سوف أتجاوز هذا جميعه، وأجد عملاً بعد أن أنهى هذه الدراسة اللعينة، عندئذ أتخلص من هذه المباءة البشعة، وأعيش حياة مختلفة.. سوف تكون مختلفة تماماً، أحاول فيها أن أنعم بكل شىء.. نعم سوف أفعل كل ما بدا لى وأحصل على كل ما أتمناه وأمتلك سيارة فارهة وفيلا تضيئها «ياسمين»، وأرض حولها كل ما هو جميل ورائع من الأشياء، سوف يختفى تماماً وإلى الأبد.. إلى الأبد كل ما ألقاه فى بيتنا وشارعنا المقزز.

لست أدرى كيف يقبل أبى وسكان الشارع جميعاً أن يعيشوا فى هذه الجحور؟! ويتركون النساء يجلسن أمام البيوت ويثرثرن ويرمين الفضلات المتعفنة والماء ذا الرائحة النتنة على جانبى الشارع.. الشارع تسده طبقات كثيفة من الذباب.. والذباب يحتل كل شبر فيه ويحط على كل شىء وكل مخلوق.. سوف أتخلص من كل هذا بعد أن أكسب الأموال وعندئذ تصبح الدنيا جميعها فى يمينى.. و«ياسمين» أمام عينى وبين أحضانى.. نائمة.. وأنا ماض فى النظر إليها.. أتأملها حيناً وأقبلها أحياناً وقطتى الوديعة بين أحضانى.

أفقت على رنين الجرس المزعج، اهتز بدنى، فإذا أنا فى حجرة الدرس.. شرعت المدرسة تخفف من جهادها فى سبيل إفهام الطلبة الذين لا يفهمون.. أظن أن المسألة لا تحتاج إلى ما تبذله من جهد وصراخ..

المسألة يسيرة.. المهم من يلتفت، وأنا لو كنت خالى البال لشرحته أفضل منها، ثم ما فائدة هذا الذى تقوله؟ ماذا سنفيد لو عرفنا شيئاً عن دول وسط أفريقيا أو وسط آسيا أو حتى أمريكا.

خرجت المعلمة، وهب الأولاد جميعاً واقفين يتنفسون بعمق ويطقطقون عظامهم التى كلّسها طول القعود، وكد الأذهان فى محاولة استدعاء الفهم الذى لا يجىء.. أخذت البنات يصففن شعورهن.. كان موعد الفسحة قد حل.

وقف «سليمان» وحاول كعادته إثارة الانتباه.. شاب ممل لا يكف عن اقتحام الآخرين، وهو غير متفوق، لكنه أكبرنا حجماً، وأقوانا جسماً. عضلاته بارزة بشكل واضح، يستطيع أن يضرب زميلين معاً، وأنا أتحاشاه طبعاً.. لقد ضقت به كثيراً لأنه يتصرف مع البنات بسخف، صعب علىَّ أن أفعل شيئاً، لأنى فى الحقيقة، لا أعرف ماذا أفعل على وجه التحديد.

يحاول أن يتحرش بـ «ياسمين» ويجذب انتباهها.. ليتنى أستطيع أن أمنعه وليحدث ما يحدث..

سمعته يقول بثقة: سننظم رحلة إلى (الهرم) يوم الجمعة القادم. من الذى يحب أن يشترك. قيمة الاشتراك عشرة جنيهات فقط، شاملة المواصلات والغذاء ورسم الدخول.. وعليهِ الدّى. چيه..

لم يتقدم غير ولدين وثلاث بنات. قال «سليمان» موجهاً حديثه إلى «ياسمين»: لماذا لاتأتى معنا يا «ياسمين»؟

قالت: ليس لدى وقت.

قال وهو يضحك ساخراً: كل الوقت للمذاكرة؟..

قالت: لا.. لكن الفرصة غير متاحة هذه الأيام.

قال: لماذا هى غير متاحة؟

سكتت لحظة ثم قالت:

ـ أنا أحفظ الأهرامات حجراً حجراً.

قال على الفور: ليست العبرة بمعرفة الأحجار.. المهم أن نقضى معاً وقتاً طيباً فى يوم الأجازة.

قالت متبرمة: لا أريد أن أشترك يا «سليمان».. هل الاشتراك بالقوة؟

قال وهو يدّعى خفة الظل: نعم بالقوة.

لم ترد:

عاد يقول: متحضرى يا «ياسمين».. سوف أدفع لك.

قالت له فى شبه سخرية: أنت.. تدفع لى؟..

وتبعها الطلبة والطالبات فجأة قائلين فى صوت واحد، مثل كورس فى فيلم غنائى أو أوبريت:

ـ أنت .. تدفع لها؟

بدا على «سليمان» فى لحظة أنه يعانى الحرج.. فلم يلبث أن قال: «ياسمين» لا تريد أن تخرج معنا.. لأن هناك من ستخرج معه.

كشّرت «ياسمين» فجأة وتغير لونها وبدت كقطة شرسة فقدت الكثير من رقتها وهى تقول:

ـ اخرس، ولا كلمة زيادة.

بسرعة الريح التقط «سليمان» طبشورة، لا أعرف كيف ومتى التقطها وأين كانت عندما عثرت عليها يده، وبدقة غريبة لا تتناسب مع التوتر المسيطر عليه وعلى الفصل صوّبها فى اتجاهها وهو يقول:

ـ أنا.. لا يقال لى اخرس.. يا شاطرة.

ارتطمت الطبشورة بعين «ياسمين» فصرخت وانحطت على الكرسى وهى تمسك عينها. سقطت عليها البنات.

ـ مالك يا «ياسمين».. مالك.. ردّى.

لم أشعر بنفسى ولا بالدنيا وأنا أصعد فوق الكرسى ومنه إلى الدرج وأطير لأقفز فوق «سليمان».. يقع على الأرض وأنا فوقه.. يحاول أن يزيحنى وأنا مستميت حتى لا أسمح له

بالوقوف، لأنه لو وقف سينتصر على، ثنى ساعده ودسه تحت فكى ليبعدنى عنه. سحبت فكى وقضمت ذراعه.. صرخ وثار وتحرك تحتى بقوة، لكنى حافظت على وجودى فوقه.. تمكنت من ضربه عدة لكمات فى وجهه. رد علىّ بضربة قوية فى خدى، أمسكت رسغيه بقبضتىّ وبسطت ذراعيه، وضربت جبهتى فى رأسه مرتين قبل أن يلحق بى «چوزيف» و«حسين» و«محمد» والباقون.

رفعونى عنه، ولما وقف حاول أن يهجم علىّ، لكن وكيل المدرسة حضر.. سأل بسرعة عما جرى، كانت أول جملة نفذت إلى سمعه هى القاطعة.. قالت البنات صارخات:

«سليمان» ضرب «ياسمين» فى عينها.

لم يسمع الوكيل الباقى.. وهو مثل الأساتذة والناظر.. الجملة الأولى هى المهمة. كان هذا العيب من حسن حظى. استدار الوكيل وضرب «سليمان» بالكف على وجهه وقال له:

ـ هيا.. غادر المدرسة فوراً ولا تعد إليها إلا مع ولى أمرك.

نظر إلىّ «سليمان» وهو يمسك ذقنه مهدداً، دفعه الوكيل فى صدره وأسمعه من جديد أمره، واستدعى البواب ليسحبه إلى خارج المدرسة.

بعد أن تحرك «سليمان» فى اتجاه الباب. تحول إلىّ الوكيل قائلاً:

ـ تحسب نفسك فتوة.. لو سمعت أنك تسببت فى أى مشكلة، فمصيرك الفصل النهائى.

أحنيت رأسى، مستشعراً الرضا عن نفسى، وشرعت فى تسوية ملابسى. نظرت إلى «ياسمين».. تفاحتى الجميلة.. كانت عينها اليسرى محمرة قليلاً.. وقد نفخت لها البنات فيها، لكنها بخير.. بحثت عن تصرفى فى عينيها.. كيف تنظر إلىّ الآن؟ لابد أنها راضية.. إنها لا شك سوف تحبنى.. كنت أتمنى أن يحدث هذا منذ زمن، لقد فكرت فى هذه الخطوة وهذا الهجوم الكاسح، لكنى كنت أشك فى إمكانية حدوثه.. ولعل المباغتة هى التى أثمرت هذه النتيجة.. أتقدم خطوات نحو «ياسمين» وأضرب «سليمان» ويطرد أيضاً، وتنتهى ولو مؤقتاً أسطورة الرعب التى يعيشها الجميع طالما كان بالفصل.. لقد كنا نخاف

حتى أن نشكوه إلى المدرس أو مشرف الدور أو الوكيل فضلاً عن المدير.. لكن ذلك كله انتهى في ضربة خاطفة ولعلها تمت دون وعى منى أو إرادة.

أعرف أنه سوف ينتظرنى خارج المدرسة، لكننا سنخرج جماعة فلا يتمكن منى، وسوف يتسم أداء الزملاء بالجسارة النسبية بعد أن شاهدوه منطرحاً على الأرض غير قادر على الإفلات من سيطرتى وضرباتى.

لاح لى كُم قميصى الممزق.. قال لى «چوزيف»: إن فى وجهك بعض الجروح و«الخرابيش».. هيا لنغسلها.

ذهبنا إلى دورة المياه.. غسلت وجهى، وجرنى الأولاد للعب فى الفناء.. استحسن بعضهم ما فعلت ولاذ الباقون بالصمت.. أعرف لماذا يصمتون.

لم أكن ألعب بإخلاص كاف واهتمام.. كنت لا أزال أفكر فى «ياسمين» وردة الفصل النضرة.. زهرة البستان إذا كان فصلنا بستاناً.. لاشك أنها راضية الآن عنى، وقد تُحدث قلبها بشأنى، فيقرها على ما تقول، ويدق دقات تشى بأنى أنا الأقرب إليه من الجميع.

تسللت تاركاً الأولاد.. بحثت عنها فى الأماكن التى تعودت الوقوف فيها أثناء الفسحة.. ذهبت إلى المقصف وحجرة الوكيلة وحجرة أبلة «وداد» التى تزورها أحياناً.. لم أعثر لها على أثر.. صعدت إلى الفصل.. وجدتها تغادر درجها هى و«سميرة».. سمعت «سميرة» تقول:

ـ باقى ربع ساعة.. هيا نخرج.. لا داعى للحبّسة.

تقدمت من «ياسمين».. قلت لها:

ـ كيف حالك الآن يا «ياسمين»؟

انفرجت ملامحها وأضاءت عيناها. قالت:

ـ بخير.. الحمد لله.. أنا شاكرة لك ما فعلت.

قلت بحماس: نحن زملاء ولابد أن يحمى بعضنا بعضاً، ونقف جميعاً يداً واحدة ضد السخافات والتطاول. فوجئت بـ «سميرة» تقول لها:

ـ سأسبقك إلى دورة المياه يا «ياسمين»، لا أستطيع الانتظار.

دق قلبى.. أنا و«ياسمين» وحدنا.. أحنت رأسها ولاذت بالصمت.. توزعت نظراتها هنا وهناك. التقطت فى مدارها قميصى.. قالت:

ـ أنا متأسفة.. تسببت لك فى مشاكل.

قلت لها: أنت لم تتسببى، «سليمان» يحسب نفسه ظريفاً، ولا يكف عن معاكسة الجميع.. وكان لابد أن يحدث ذلك يوماً ما..

لم ترد.. أحسست أنها لى وحدى.. بالضبط كما تمنيت.. شرع العالم يتلاشى.. بالضبط كما تمنيت.. رفعت رأسها إلىّ.. كان وجهها فى أبهى صورة.. يتألق بالرضا والبِشر.. يشع منه النور والجمال والرقة..

قالت بهمس: عن إذنك.. «سميرة» تنتظرنى.

تأملت وأنا ذاهل فمها الصغير وهو يشكل الكلمات ويصوغها بحيث ترن فى أذنى وتتمشى فى جسدى خدراً لذيذاً ولحناً ناعماً.. تأملت وجهها البديع الذى يشرق علىّ كالصباح الجميل.. تسللت إلى روحى رائحتها العطرة.. ليست رائحة الياسمين.. إنها رائحة خاصة أروع من كل الروائح.. كان يجب أن أقطع يده ولسانه ذلك الذى يفكر أن يلمس «ياسمينتى».

تحركت لتمضى.. دق قلبى.. كيف تذهب؟ ربما لن تتاح لى مثل تلك اللحظات مرة ثانية.. تبدو كأنها تميل إلىّ.. لابد أنها كذلك والبنات لا يُصرحن بسرعة ويؤثرن الدلال.. سوف تمضى ولن يسمح لنا الثلاثون طالباً وطالبة أن ننعم بهذه الوقفة الخاصة جداً.. قلبى يدق.. مِلت بسرعة عليها. أمسكت كتفيها.. خطفت قبلة من خدها الناعم.

أفلتت منى وصفعتنى بقوة غريبة.. كدت أفقد الوعى لحظة من هول المفاجأة. ظهرت «سميرة» لدى الباب..

قالت لـ «ياسمين»:

ـ هيا.. لقد.

لم أسمع حرفاً، ولعلها لم تنطق.. لابد أنها رأت كل شيء.. سوف تحكى.. كيف أواجهها بعد ذلك؟.. كيف أواجه الفصل؟

اندفعت إلى الخارج.. ركبتُ سور المدرسة وقد قررت ألا أبقى فيها دقيقة.. تذكرت وأنا أهبط إلى الأرض أن «سليمان» ينتظرنى.

لم أعبأ به ولا بغيره. سرت فى الشوارع على غير هدى، وقد خلّفْتُ حقيبتى فى الدرج.. حاولت أن أستحضر حلاوة خدها الناعم فى شفتى.. لكن الذى كان يحضر لاذعاً مراً هو حرارة الصفعة القوية على خدى.. كيف تستطيع هذه البنت الرقيقة أن تضرب هذه الضربة القوية بأصابعها النحيلة.. أسرعت أجرى والطريق يبدو غارقاً فى الضباب وأنا أتنفس بصعوبة.

١٩٩٤

فى حضرة النســـر

الموظفون فى الحظيرة الكبيرة يجلسون على المكاتب، وقد تغطوا بالطحالب.. عندما قُدمَت أوراقى لأحدهم. استدار جانباً ووضع ساقاً على ساق وأطل عبر النافذة إلى الفضاء. تعلقت عيناه بفتاة سمينة تنحنى على سور الشرفة وتوزع نظراتها على المارة.

حاول أن يحسب طول المسافة بينه وبين جبال صدرها الثقيل.

تنحنحت:

ألقى من فوق كتفه نظرة إلى الورقة المسجاة على مشرحة المكتب. عاد يختبىء فى النافذة.

تلفتُّ حولى. كانت الحجرة بلا ملامح. السكون ذو الرائحة المتعفنة يهطل وأنا مشدود الوتر. «صبرى» يمر على الأشخاص الفخارية يبحث عن أنيس. طرقت الأرض بقدمى.

آب من رحلته.. تأملنى من أعلى إلى أسفل..حاول أن يبحث فىَّ عما يجعلنى جديراً بصرف عشرة جنيهات. رسم على الورقة عنزة برية أصابها الجنون فمضت تقفز فوق الصخور. أحنيت رأسى للعنزة ممتناً وتحولت للمكتب الثانى.

كان صاحبه نسخة دقيقة من صاحب العنزة إلا أن بيده «ساندوتش».. أطل فى الورقة وهو يحشر فى فمه أكبر قضمة ممكنة. سحب القلم وكتب بثقة كلمتين.. قذف الورقة بقوة لتبتعد عنه إلى أقصى ما تستطيع. طارت فى الفضاء كعصفورة حائرة تحاصرها حلقات الصيادين.

تعقبتها يدى بعصبية زائدة حتى لا تسقط وتتهشم كلماتها النادرة. لحقت بها قبل أن تصل إلى الأرض. لكن اتزانى اختل بسبب ساقى الخشبية فسقطت، طالعتنى فى السقف كرنفالات العناكب ودولتهم المستقلة، وأجهزة التنصت التى تدلت حتى رءوس البشر.

كان كل خوفى أن تنقض على سيوف ضحكاتهم الشرسة. لكن أحداً لم يضحك فسكن قلبى المرتعد بين ضلوعى، صوّبوا إلى نظرات شاردة.

لاحظ أحدهم أنى أعانى للوقوف. تحرك نحوى. جاهدت قبل وصوله كى أقف.. أخذ الورقة منى. رسم عليها رمزاً من الرموز التى تفتح البوابة المسحورة.. انتقلت إلى الذى يليه. قلب الورقة على وجهها وأخذ يتمتم.. مددت يدى وعدلت له الورقة، فأعادها إلى وضعها المقلوب وصفعها حتى لا تتحرك أبداً من مكانها.

ـ له فى خلقه حكمة.

طفق يتمتم وهو يحدق فيها كأنه يقرأ عليها التعازيم ليخلصها من الشياطين والأرواح الشريرة. أخذ أنفاساً متلاحقة من سيجارة منهكة وأمسك كوب الشاى. رشف منه وامتعض ثم خبطه على المكتب، فتطايرت على الورقة قطرات من السائل الأحمر.

قال: تعال غداً.

فتحت فمى لأقول شيئاً. نهض واتجه صوب الباب وزعق:

ـ انت يا «بخيت».. تعال خد البارد اللى زيك.

دارت بى الدنيا.. دارت ودارت حتى أصبحت فى الشارع. جلستُ على الرصيف أمام المبنى الحكومى الذى يعلوه نسر له جناحان هائلان يظللان الحظائر الكبيرة ويدفعان عنها حرارة الشمس حتى لا تذيب الموظفين الطحالب.

تأملت السماء والأرض والعابرين.. كان كل شىء يجرى.

.. أرجأت مؤقتاً الفرار من الشمس التى تصب أشعتها بعناية خاصة فوق جسدى الملتهب.

١٩٩٠

لن تفلت

تدلى نصفى الأعلى من الدور الخامس عشر وربما العاشر.. لأدرى.. انخلع قلبى وتداخلت أعضائى رعباً عندما انكشف العالم فجأة،وأصبحت أمام المحيط السماوى وجهاً لوجه. تلاشت كل الأكوان، وبدا الفضاء هائل الاتساع وصالحاً لأن يكون هو الهاوية.

على ظهرى كنت، وبطنى فوق صدرى،ورأسى نحو الأرض، تصفع الشمس وجهى بالضوء الباهر والوهج المستعر.. ها أنذا موشك على الموت، وبعد لحظات قليلة سيندفع جسدى ليشق المسافة المتبقية بينى وبين الحياة.. عندئذ تسقط مقصلة النهاية فوق روحى، وتفقد الدنيا شاعراً وعدها بالكثير.

كل شيء الآن يختلط.. الحياة والموت. النور والظلمة.. الغابات تطلع من البحر، والسيارات تتساقط من السماء.. الجبال تدور والبشر تبتلعهم الأرض التى تفغر فاها العميق المعتم.. الكل يدور فى فلك مجنون.. واللحظة الأخيرة.. اه.. سوف يرتطم بخواء العدم.

كنت منذ سنوات أتوق لسُكنى عمارة فيها مصعد وبواب، أقف فى شرفتها فأرى الدنيا كلها تحت أقدامى، وأخيراً أصبحت أحد سكان عمارة عالية ومرموقة فى الحى الراقى، بعد أن دفعت فيها معظم ما أخذته من أبى وأمى.

أنفقت الباقى على زينتها. أعدت طلاء الجدران، اللون اللازوردى للصالة وغرفتى حمراء والحجرة الثانية رمادية بها جدار أزرق، كان هذا رأى مهندس الديكور.. نثرت فيها

الأثاث الذى اشتريته قطعة قطعة من المزادات ووزعت بينها النباتات والورود، أسقطت فوقها من الأركان أضواء خافتة لاتصل إلى وجوه العظماء الذين يجلسون فى صمت داخل صورهم المعلقة على الحيطان.

مضى زمان القرية القابعة فى جحرها المعتم.. لا أنكر أنى كتبت فى ظل أشجارها وبصحبة أطيارها أجمل قصائدى.. لكنى قررت تركها بأهلها وأرضها التى تجلس دائماً فى ملل تنتظر.. خلعت نفسى منها بصعوبة.. غادرت رحمها ذى الضوء الشاحب لأولد من جديد.. قلبى الآن وحياتى كلها للشعر وحده.. يمكننى أن أدعو الأصدقاء بلا خجل إلى كرمتى المبهرة.. لم أكتب فيها غير القصيدة الأخيرة، لكن باستطاعة التليفزيون أن يأتى إلى هنا ويصور بيت الإلهام.

فتحت عينى مع أول ضوء.. خامرنى إحساس عميق بأن اليوم بكر.. طازج وجميل، مضمخ بالعطر والندى والأمل.. سوف يشهد حدثاً مهماً.. الليلة ينعقد مهرجان الشعر، وقصيدتى الجديدة سوف تنهى عهداً من الكتابة وتبدأ عهداً. لم يضيع المجد وقتاً طويلاً ليضع على رأسى أكاليله.

بلغنى وأنا ممدد على السرير صوت انصفاق باب. لعله زوج جارتى الفرنسية باهرة الجمال. يخرج كل يوم فى السادسة إلى مترو الأنفاق، وتغادر هى فى السابعة إلى مدرسة الليسيه.

لم أستطع أن أتجاوز فى حوارى معها حدود التحية كلما التقينا أمام المصعد، ومنذ أن وقعت عينى على عودها الممشوق وملامحها الفاتنة، قررت أن أزود روحى الظمأى بنظرات مسترقة خلال عين بابى السحرية، وأحاول ضبط لحظة خروجى مع لحظة خروجها.

أقف قبالتها ننتظر معاً وصول أحد المصعدين، وأمارس هوايتى فى تأمل وجهها الوردى النضر، وخيوط شعرها النارى الذى يشبه خميلة من الثعابين الرفيعة، وشفتها القرمزية الدسمة. وجسدها المتوثب وحركاتها المقتحمة.

يصل المصعد متعجلاً. أفتح لها الباب. تدخل وأسرع وراءها.. تنطق بكلمات عربية بطريقة متعسرة، لكنها آسرة.. تعلمت من أجلها بضع كلمات فرنسية، وكلما نويت أن

أشاركها المصعد دربت لسانى على نطق الكلمات الجديدة، لا تفهمها فى البداية من سوء نطقى ولما تكتشفها تصححها لى وتبتسم.

السرير يهتز كما سريرالطفل. تصطك حبات كريستال النجفة.. يرتج الفراش بعنف.. ليس ثمة غيرى فى الشقة. من الذى يهز السرير على هذا النحو المجنون؟! الدولاب يوشك أن يسقط فوقى. قفزت إلى الأرض. تلفت حولى.. صرخت بأعماقى جميعاً.. إنه الزلزال.

الشقة تتمايل. الجدران أمام عينى تتحرك. سقطت الفازة الثمينة وسقطت بعض التماثيل الصغيرة من فوق أرفف المكتبة.. توالى السقوط وأنا أدور حول نفسى فى الصالة. فأر فى مصيدة.. كل الأشياء تقريباً تتداعى وتنهار لا أستطيع أن أحزم أمرى. لا زال عندى أمل أن يتوقف هذا الزلزال. انقطعت الكهرباء.. هل أهبط كل هذه الأدوار؟ هل سأموت؟ أنا لم أخلق كى أموت. العمارة ترتج كقَشة فى مهب ريح عاتية.. ماذا جرى للأرض.. لم نسمع من قبل عن زلازل إلا فى بلاد بعيدة.

أسرعت إلى باب الشقة. فتحته.. فوجئت بالفرنسية تخرج مسرعة من باب شقتها، عريانة تماماً إلا مثلثاً أصفر تحت صرتها.. كانت مبتلة ومضطربة ومرعوبة، تمسك بيديها المرتعشتين فوطة كبيرة بيضاء لا تستطيع لفها حول بدنها..تسمرت لحظة ثم أفقت على لسعات نظراتها الحائرة المفزعة. اندفعت نحوها. التقطت الفوطة ولففتها بسرعة حول جسمها.. أمسكت يدها وجذبتها إلى السلم لتهبط بأسرع ما تستطيع.. خلعت يدها من يى وأشارت إلى أعلى قائلة بضع كلمات فرنسية لم أفهمها. وانطلقت إلى الأدوار العليا. تبعتها.. كانت العمارة الشاهقة ترجنا رجاً. نخلة تطوحها العاصفة.

وددت أن أسألها لماذا نصعد إلى أعلى، لم تسعفنى فرنسيتى الفقيرة، ولم تسعفنى قدماى للحاق بها، دارت العمارة بعنف، وقفت ذاهلاً ضائعاً منتهياً.. الأمل فى الحياة كالخفاش يلطم الحيطان بجناحيه المذعورين.. هل هو كابوس فظيع؟ لابد إنه عملاق يصر أن يدمرنا، نسيت أن أذكر الله، لم أشعر بنفسى للحظات، وسرعان ما سقط كل شىء فى سراديب اللاوعى.

أه.. نار تتفجر من ساقي.. حاولت تحريكها فلم أستطع.. ظهرى يؤلمني.. ذراعى اليمنى إلى جانبى تسبح فى سائل لا أدرك بالضبط ما هو.. ثمة أشياء فوق صدرى.. تناهى إلى سمعى صراخ عنيف وأصوات زاعقة مختلطة نداءات بأسماء أشخاص استغاثات وبكاء عال وتأوهات.. الأشياء فوقى تستفزني.. فتحت عيني. لم أر شيئاً فى البداية. أزحت عن وجهى أوراقاً وملفات وأشرطة وزجاجاً مكسوراً، أصابتني شظاياه فأزحته بحذر، توالت الأصوات العالية.

فوقى دولاب باباه مفتوحان، منعته من السقوط درجتا سلم حجرى رأيتهما خلف رأسى. سنتيمترات قليلة، وكان يمكن أن تهشم هاتين الدرجتين رأسى تماماً، طويت عدة أوراق وحشرتها بين ضلفتى باب الدولاب الذى كان يستعد لابتلاعى. أغلقته.. ها أنذا أشهد اختلاج عالم بين أصابع تهوى المداهمة.. كانت حكمتى المتعفنة تردد فى غير مناسبة أن كل شيء يسير طبقاً للمنطق. والمنطق الوحيد لهذا العالم هوالجنون.. لا داعى للانزعاج، ربما كانت هذه العمارة وسكانها من النفايات، وكانت منطقة استقطاب للمطلوب دفنهم وتخليص الحياة من جنون أفكارهم أو عبقرية أدائهم أو فداحة ذنوبهم.. اختيار مقصود.. كل ما حولى لزج.. كل شيء مطلى بخليط مر من التراب والدموع والخيانة.

بصيص واهن من النور.. واصلت رفع الأشياء التى صبها الدولاب على جسدى. تنفست عميقاً.. هل كانت العمارة من ورق!.. لو عشت فأول عمل أقوم به هو أن أضرب صاحب العمارة الغشاش إلا لو كانت كل عمارات البلد قد وقعت. الكلب وأمثاله لابد من اجتثاثهم تماماً من حياتنا.. ماذا سيكون مصيرى إذا عشت؟.. تأوهات صراخ.. آلات تنبيه عديدة.. شرطة.. إسعاف.. حاولت التعرف على ما حولى.. عمود أسمنتي ضخم إلى يسارى، ومكتب إلى يمينى وجهاز كمبيوتر محطم.. دبابيس وأقلام.. طين وأصائص نباتات مسحوقة.. إنها فيما يبدو شقة الشركة التى فوقنا.. تزلزت الدنيا واختلط كل شيء.

نساء تولول.. كيف لى أن أغادر هذا القبر.. حاولت أن أحرك جسدى.. لم يكن ثمة قدرة لى على جره أو زحزحته. كنت تقريباً مفككاً.. ذراعى بالكاد أحركها.. لمحت رجلاً فى زى سعاة المكاتب منكفئاً على بطنه، ووجهه فى الدم غارق..

بلغنى صراخ رجل:

ـ نحن هنا.. أنقذونا.

هممت أن أقول مثل ما قال. لم يخرج صوتى، كان مجرد حمحمة وأنين مكتوم.. كدت أبكى.. صعبت نفسى عليَّ وأنا فى هذه المساحة الضيقة.

تذكرت الله.. طلبت إليه أن يفعل شيئاً.. أنا لن أستطيع تحمل هذا الوضع لأكثر من نصف ساعة.. كنت فى الدور الخامس عشر ولا أدرى أين أنا الآن.. النساء تولول، ولا زالت تتردد كالمدى فى جنبى ألوان شتى من الصراخ.. أرواح كثيرة مرعوبة ومصعوقة ومتوترة تتمزق بعنف وهى تخوض تجربة لاشك أنها أقل من واحد على بليون من يوم الحشر حسب ما يصوره رجال الدين.

حاولت أن أجد صوتى. لم يطاوعنى ـ الهواء موجود لكننى غير قادر على جذبه ورفعه إلى رئتى. كيف أشهد موتى على هذا النحو. باستطاعتى أن أتقبله بإطلاق الرصاص أو بالغرق. وممكن استساغته شنقاً أو خنقاً، وأقصاها أن يحدث حرقاً، لكنى أبداً لا أتصوره يأتينى متهادياً بطيئاً بشعاً وأنا محشور بين جدارين أو داخل ماسورة مجارى أو تحت الركام والأنقاض.

كم مرت عليَّ أوقات عصيبة،حلمت خلالها أنى محشور فى ماسورة ضيقة..تخيلوا.. أنا أعذركم إذا لم يكن بإمكانكم أن تتخيلوا.. كل شىء يمكن قبوله إلا هذا.. فى أحد الأيام كان عليَّ أن أجتاز نفقاً ضيقاً تحت الأرض.. كان هو المنفذ الوحيد إلى النور والنجاة.. نفق قطره يزيد عدة سنتيمترات فقط عن عرض جسمى.. يتقدمنى نحو عشرة أشخاص وورائى مثلهم.. صف من البشر، واحد يمر فى إثر الآخر، رأس كل شخص فى مؤخرة الذى يسبقه.. بكل أعصابى أحسب المسافة المتبقية لأبلغ النور وألحق الحياة.

بغتة أهيل التراب والصخور فانسدت الفتحة التى كان يتعين علينا أن نخرج منها.. كان قد خرج خمسة وأمامى لا يزال خمسة.. حاول من فى المقدمة أن يرفع الركام فلم يفلح.. ساعده التالى.. باءت كل المحاولات بالفشل، ارتد الجميع عليَّ وأنا كنت أتحمل بالكاد اعتماداً على النور الساقط من الفتحة، روحى معلقة به لا أكف عن حساب المسافة التى تقل تدريجياً ويزداد بتناقصها الأمل.

كان على الجميع أن يدوروا حول أنفسهم ويتحول الصف من التقدم إلى التقهقر.. لم أستطع أن أدور فى مكانى لتكون رأسى فى موضع مؤخرتى.. لم يستطع الذى ورائى أن يدور إذ كان سميناً، وبعد كفاح وعرق وتوتر عاد الجميع بمؤخراتهم بعد أن كاد يغشى علىّ..

حلم بشع.. لابد أن كثيراً من الناس يعانون ونحن لا نحس بهم. إننا ندفع كثيراً فى مقابل أن نعيش بينما الحياة تواصل عبثيتها وسخافاتها، هناك من كتب عليهم أن يعانوا عذاباً يومياً مقيتاً طوال أعمارهم، وغير مسموح لهم على الإطلاق أن يخلعوا ثوب الحياة.

من خلف رأسى بلغنى صوت رجل يبكى ثم ينادى:

ـ فادية.. فادية يا غالية.. ياعشرة العمر..

أثر فىّ نشيجه المحموم. هكذا ماتت أمى وبعدها أبى حزناً عليها.. كان غاضباً علىّ لأنى منذ قبضت ثمن الفدان الذى باعه لأجلى لم أره إلا قبل رحيله بساعات، ولا يزال أخى نافراً منى.. لم يستطع أن يتخيل أنى مختلف.

ـ هل هناك شىء مختلف!!

كان فوق درجتى السلم الحجرى عمود أسمنتى كبير وفوق العمود سقف مائل. سقطت فجأة أبواب ونوافذ..أمكننى رؤية المزيد من الدمار. استدرت قليلاً برأسى وقد مزق نياط قلبى بكاء الرجل. رفعت بصعوبة بالغة جسدى المفتت. كان المصعد المحطم على يمينه وإلى جواره مجموعة كبيرة من الأوانى وأطباق وصينية مهشمة، وإلى يساره سيدة يعانقها وطرف العمود المسلح على نصفها السفلى، حاولت ـ أن أتحدث إليه لأهون عليه وعلى فلم يتحرك لسانى بلغنى من جديد صوت ينادى بأقوى ما يملك صاحبه من قوة.

ـ أنقذونا.. نحن هنا.

كان المنادى قد وضع كفيه فى قوسين حول فمه ليحضن الصوت ويدفعه طوليا لبلوغ أبعد مسافة ممكنة:

ـ نحن هنا.. انقذونا.

لايزال الرجل يبكي.. لم أتصور أن رجلا يمكن أن يبكي كل هذه المدة على زوجته. أين الفرنسية الآن؟ لو كانت إلى جوارى ربما استطعت التحمل قليلا. يالتعاستى.. أأرحل دون تجربة حب صادقة تطهر هذا الكيان المتهافت من دون الموت، وتبث فى ولو لدقائق طعم الخلود.

سمعت صوت ارتطام، وزاد النور قليلا. انبثقت فى رأسى فجأة خطورة أن تعمل الآلات الضخمة فى المبنى لمحاولة إنقاذنا فتهدمه بالكامل علينا.. فكم لنا من تصرفات تشبه بالضبط ما فعلته الدبه لتحمى صاحبها من الذبابة.

أقنعت نفسى بأنهم ليسوا على هذه الدرجة من البلاهة.. لن يبدأوا العمل بالبلدوزرات والأوناش إلا بعد أن يستنقذوا جميع الأرواح ويخرجوا الجثث. اكتشفت بعد أن زاد النور أن السقف المائل خلف ظهرى سحق شخصين وما يزال فوقهما إلى جوار زوجة الرجل الباكى.

كنت حديث عهد بالعمائر العالية والدنيا الجديدة.. ولابد أن وضعى المهين على هذا النحو يحمل فى طياته مأساة مضاعفة، تتجاوز كثيراً مأساة غيرى. ففى الطريق الذى سرت فيه إلى هنا، فقدت أمى وأبى وأموالهما وكل ما منحاه من تضحية وما لقياه من شقاء،وإذا قدر لى أن أرحل عن هذا العالم فأكون قد فقدت «مجى» أيضاً وفقدت البشرية ما كنت سأهبها من شعر وحكمة.

ها أنذا أسقط فى وهدة الموت تنفيذاً لمخطط تآمرى لعين.. لست وحدى..الجميع صغار جداً وتافهون. إن حجم الإنسان غاية فى الضآلة، وإن حصاة فى حجم حبة الفول قادرة على قتله.. فما كل هذا الضجيج الذى يحدثه فى العالم.. لماذا كانت روحه بهذه الضخامة والقوة، وكان بدنه هزيلاً حقيراً؟.. ثمة سر.. كم هى عزيزة الآن أتفه العادات.. سيجارة، فنجان قهوة، قبلة، مكالمة صديق، نكتة قبيحة.. نظرة تجسس على الآخرين.. الدندنة فى الحمام.. قزقزة اللب..

سمحت لعضوى أن يتخلى عما يثقل مثانتى من البول.. ها هى الحقيقة القذرة تتربص بى. كان الحلم يصعد بى فى ثقة نحو القمة التى تليق بملكاتى، وها أنذا أتمدد مسحوقاً تحت الأشياء الغليظة فى انتظار الموت.. أشعر أننى هنا منذ زمان بعيد ولاقدرة لى على شىء إلا التأمل.

إننى هنا فى منطقة الترانزيت تمهيداً للقدوم المباغت لطائرة سوداء تُقلنا فى غمضة عين إلى عالم آخر.. من تراه الذى سيحضر ليحمل جثتى ويبكينى وينعينى ويضع قصيدة على قبرى. تعودت حياتنا الثقافية أن تفرح لرحيل أحد أبنائها لأنه سوف يخلى مكانه لعشرة قادرين على التناحر، يمتلكون أصواتاً عالية ومناكب ووجوه باردة.

ظل الرجل يبكى زوجته. لم يعد الأمر محتملاً. لابد أن يصمت.. إنه يثيرنى ويفسد خطتى للتحمل والصبر.. إننا فى وضع لا تستطيع فيه أموال الدنيا وقواتها وعلاقتنا الشخصية ولا الأمم المتحدة ولا حتى الكائن الغريب المسمى أمريكا أن ينفعنا.. الأمر كله لله، ومنه إلى رجال الإنقاذ.. أنت وحظك، ربما يكونون أغبياء غلاظ القلوب يتمتعون بالبلادة واللامبالاة، وربما يكون بينهم من يتكاسل قائلاً: إذا كان مكتوباً لشخص ما أن يعيش فسوف يعيش.. هذا صحيح للأسف أيها المخلوق التعس.. أمثالك عبء على البشرية وعلى الحياة، ومكانهم الطبيعى هومكانى الآن.

من ناحية الباكى تناهى إلىّ صوت سيدة:

ـ أظنك «رءوف بك حمدى».

أخيراً توقفت المناحة وقال الرجل بصوت تثقله الدموع والأسى: نعم.. ومن أنت؟ قالت:

ـ أنا جارتك.. الدكتورة «محاسن شعبان» حرم الدكتور «رمزى».

سكت الرجل.. فاستطردت:

ـ أنا جارتك هنا أيضاً بينى وبينك المصعد فقط.. سقط على مفرمة اللحم.. لولاها ما سمعتك.. قل الحمد لله.

عاد يبكى بحرقة، تتحدث إليه «الدكتورة» والنشيج يتعالى.. قالت:

ـ هل تشك فى أنه موعدها بالضبط؟

ظل يبكى، فصرخت فيه:

ـ «رءوف بك».. لا تنزعج. إنه موعدها بالثانية.. كل منا له موعد لا يعرفه.. أنا مثلاً كنت في المطبخ والحمد لله أنا ما أزال فيه. فوقي كمرة حديد.. قدر ولطف.. خذ.. مد يدك من تحت المصعد.. هذا عصير.. الثلاجة بجواري.

رفض واستأنف البكاء.. ألحت.. رفض.. دحرجتها.. سألها عن زوجها، قالت:

ـ في جامعة المنصورة منذ صباح أمس.. كان المفروض أن تزورني ابنتي وزوجها حتى ألعب مع ابنتهما «رنا»، اعتذر آخر الليل عن الحضور.. أشتاق إلى حفيدتي جداً جداً.. هل كنت نائماً؟

ـ نعم.

ـ أنا كنت في المطبخ استمع إلى الكاسيت وأرقص، فلم أنتبه إلا بعد أن اهتزالمسجل بقوة وتأهب للسقوط، وسرعان ما تزحزحت حلة اللحم وسقطت بما فيها من الحساء المغلي عليّ. لابد أن ساقيّ متهرئتان.. لا أحس بأي ألم.

ـ هل أنت طبيبة؟

ـ أنا أستاذ حشرات وكذلك زوجي. بالمناسبة حالة الحشرات في مثل هذه المواقف أفضل منا.. الهدوء مطلوب جداً وكذلك الرضا وانتظار فرج الله.

توالت أصوات القرقعة والنداءات..وعاد الرجل ينشج. رفعت رأسي إليه ومددت يدي لكي ألمس جسده وأربت عليه، كان صوته يدل على أنه مفعم بالهزيمة والتعاسة.

ـ أظن بعض أولادك ليسوا معك.

.. قال في نبرة زائغة: كلهم.. الكبير دكتور في أمريكا، الثاني مهندس في الكويت، والبنت متزوجة من رجل أعمال اسكندراني.

قالت: زوجي أيضاً اسكندراني.

قال بوهن: زوجك برّاوي، لا يحب جيرانه.

ـ بالعكس زوجي اجتماعي، يتعامل ويتعاون مع الجميع.

ـ لم يكن يرد السلام.

ـ أنت تعرف لماذا.

ـ لا.. لا أعرف.

ـ هل تحفظ شيئاً من القرآن؟

ـ لا.

ـ أنا أحفظ.. هل تحب أن تسمع؟

ـ ألم تشعر بالتعب من كثرة الثرثرة.. لم تنتظر رده.

ـ بسم الله الرحمن الرحيم.. «والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى، ألم يجدك يتيماً فآوى، ووجدك ضالاً فهدى، ووجدك عائلاً فأغنى، فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر وأما بنعمة ربك فحدث»، صدق الله العظيم.

قال الرجل: صوتك جميل جداً يا دكتورة.. قراءتك بديعة.. هل درست بالأزهر؟.

ـ لا.

كانت قراءتها رائعة.. فى البداية لم أكن متحمساً لتقرأ القرآن، وسرعان ما تسلل إلىّ جمال التلاوة، كان صوتها عذباً، ينساب كجدول ماء فى كرمة ظمآنة، أشعر مع تدفقه الحنون بجلال المعانى.. أحسست كأنى أسمعها لأول مرة.. يستولى علىّ عالمها الشعرى وتشكيله المقتدر.

شرع الرجل يبكى من جديد. قالت الدكتورة «محاسن»:

ـ إننى أحاول أن أسرى عنك فلماذا تبكى؟

ـ إننى أبكى لأنى لم أقرأ القرآن أبداً وأشعر بالذنب.

ـ ألم تكن تصلى؟

ـ كنت أصلى أحياناً فى المناسبات الرسمية، لكنى لم أكن أفكر فى الله ولا فيما أردد.

ـ عدنى ألا تبك ثانية.

ـ فقدت شريكة عمرى.

ـ ارتاحت.. وعلينا نحن أن نواجه قدرنا. نحن نحتاج إلى الدعاء والصبر وأن نشغل أنفسنا قدر الإمكان حتى لا ننهار ونحن فى هذا الموقف العصيب.

فتح علبة العصير ومضى يشرب بصوت عال أثار شهيتى وأشعرنى بالحرمان.. رفعت جسدى قليلاً حتى علت رأسى على درجتى السلم ومددت يدى إليه فلم تبلغه. خبطت الدرج، فتنبه وتطلع إليّه، أشرت إليه أن يتنازل عن الباقى.. ألقى فى فمه جرعة قبل أن يمدها إلىّ، ضبطت ميلها بحيث لا تسقط فى فمي دفعة واحدة. بلغنى صوت الدكتورة «محاسن» تغنى.. أراك عصى الدمع شيمتك الصبر.. كدت أضحك. وغنت أروح لمين وللصبر حدود.. صوت شجى.. لكن كيف تستطيع هذه السيدة العجيبة أن تغنى فى هذه الظروف.. إننا نتنفس بالكاد ومن حولنا الجثث، ومعظم أعضائنا محطمة، وربما لا نصلح بعد ذلك لشىء هذا إذا قُدّر لنا أن نعيش، وأن يعثر علينا رجال الإنقاذ.. إنهم لاشك لا زالوا فى الأدوار الأولى.

لم أستطع أن أتصور حالة السيدة الغريبة.. لابد أنها مجنونة.. إنها لا تحس بما نحن فيه. سألتها.. قالت: لقد مررت بتجارب كثيرة.. أوشكت على الموت أربع مرات. مرة عند انقلاب سيارتى. ومرة فى حجرة العمليات، ومرة عندما هجم علينا مجرم بسكينة فى أمريكا، ومرة.. نسيت.. المهم أننى لم أعد أخاف الموت، ولا أحب أن يجدنى مرعوبة، لابد أن أكون أقوى منه، طالما هناك أنفاس فسوف أعمل وأبتهج. لا تستسلم للموت ولا تنتظره.. قاومه فى قلبك.. وسوف يبتعد أو يجىء مرة واحدة بلا ألم.. دعه يشعر أنك غير مهتم.

توقفت لحظة ثم قالت: هيا يا «رءوف» بك.. الدور عليك.

ـ أى دور؟

ـ الغناء.. أم أنى سأغنى وحدى؟.

ـ لا تتعبى نفسك.

ـ لن أتركك لأحزانك.

ـ أرجوك.

ـ لابد أن تغنى.

ـ صوتى خشن ومزعج.

تمنيت أن يظل على رفضه حتى تعود الدكتورة إلى الغناء أو يلوذا بالصمت.. شرعت فى الغناء.. دخلك يا طير الوروار لفيروز وجارى يا حمودة للمطرب التونسى محمد حمزة ثم قالت له: خذ هذا البرقوق،كنت قد أحضرته من أجل زوجى ولم يأكله.

خبط الرجل على درجة السلم مددت يدى وأخذت البرقوق.

عادت تغنى بمزاج ورغبة.. تستمد صوتها من قلب قلبها.. جعلتنى هذه السيدة أنسى ما نحن فيه وأنسى رجال الإنقاذ وأنسى ـ مؤقتاً ـ الكلب صاحب العمارة.

قال لها الرجل:

ـ يكفى يا دكتورة. مؤكد تعبت.

ـ فعلاً.

ساد الصمت لحظات.. دق قلبى رعباً.. شعرت لأول مرة بفضل السيدة وتمنيت أن تتحدث، قال «رءوف»:

ـ لكنك لم تقولى لى لماذا كان زوجك يتجاهلنى؟

ـ قلت لك إنك تعرف.

ـ صدقينى لا أعرف، ولم أمسه بسوء.

ـ أنت مسست غيرنا.

ـ ماذ تقصدين؟

ـ تصرفاتك كمأمور سجن.

ـ لقد كنا نتعامل مع مجرمين.

ـ هل الصحفيون والشعراء والمفكرون مجرمون وهل الكتّاب وأساتذة الجامعة مجرمون؟

ـ كنت عبد المأمور.

ـ أى مأمور؟

تنهد الرجل وسكت، بحثت حولى عن قلم، تمنيت أن يتكلم، ها هو الورق والقلم.. ظل الصمت يشتمل المكان ويهددنا فى الصميم. شعرت بالحصار وعجزى عن التنفس.. كان الصمت المتوتر والصراخ والولولة.. شعر «رءوف» بالضياع والخوف.. عاد

يضم زوجته ويبكى.. يبكى بشدة، وراعنى أن الدكتورة أنشأت تبكى.. عندما سمعها «رءوف» توقف عن البكاء وقال: يا دكتورة لقد قررت إذا أراد الله لى النجاة أن أكتب مذكراتى وأسرد تفاصيل ما جرى.

توقفت الدكتورة لتسمعه بحماس، ثم قالت: وأسماء كل من أصدر أمراً أو شارك فى إيذاء أى إنسان.

قال: نعم أعدك.. هيا غنى!

قالت: لقد تعبت وأصبحت كالبطارية التى فقدت شحنتها. أريدك أن تقص بعض ما حدث.

أسرعت أمسك بالقلم وأكتب حريصاً على ألا تفوتنى أية كلمة، خامرنى شعور بأهمية ما أكتب، استولى علىّ إحساس غامر بأن حياتنا تخوض فى الوحل، وسماواتنا فيها الكثير من السحب وأيامنا -حافلة بالأخطاء وعلى كل منا أن يفعل أى شىء حتى يوقف هذا الانحدار، ويمنع القبح والدمامة من اجتياح عالمنا.

حكى عن أشياء غريبة وبشعة، والأغرب اعترافه أنه كان يتفنن فى أداء واجبه. يبدع فى التنكيل بأصحاب الرأى ويبتكر فى سبل العقاب، ويجدد فى عبارات السب والتحقير، وأنه كان يجد لذة فى أن يكسر عظماً أو يثقب عيناً و ينزع أكبر عدد من الأظافر.. لقد تيقنت أن قصيدتى التى كتبتها لتضعنى على قمة الشعراء، قصيدة تافهة، إنها محاولة لمعرفة الإنسان عن طريق التأويل أو التأمل المجرد، صحيح أنها انبثقت عنى، لكنها نبعت من ثقافتى لا من معاناتى.. هل كنت فى حاجة إلى زلزال لأكتشف ذلك؟

إن الجمهور فى أحيان كثيرة لا يبالى بنا ولا يعبأ ونحن لا نبالى به ولا نعبأ، يبدو كالتنين الذى يتثاءب ويحشو بطنه بالأطعمة، يتصاعد من وهجها البخار الذى يعتم عقله الذى يحشوه بالبلاهة، مستمرئًا دغدغات الغرائز المتلذذة، أو متسلياً بالإيقاعات الساذجة لبعض المطربين الأميين. برغم آلاف الشعراء والأنبياء فلا يزال قلب العالم يزداد بشاعة يوماً بعد يوم.

سمعت بغتة خبطاً قريباً مكتوماً وصوت تحطم وصراخ وولولة.. اشتعل المكان بالضوء.

اختفى تماماً كل ما وراء رأسى حتى السيدة الرائعة التى حاولت أن تدفع عن أرواحنا الساعات المسترخية وأجراس الموت المستبد. ارتعدت.. أحسست بالوحدة. انفجر داخلى

أسى فادح ومرير.. لقد ذهبت السيدة الأمل أجهشت بالبكاء.. لم أبك منذ كنت طفلاً.. كان البكاء مريحاً ومناسباً لحالتي.

معلق من عرقوبي في الدولاب.. كل حواسي وآمالي في قدمي، بل في أصابع قدمي التي نشبت بقاع الدولاب ورأسي مدلاة في الفضاء، بينما وجهي إلى السماء.. تداخلت أعضائي ودق قلبي بعنف. نصفي الأعلى في الفضاء اللانهائي وأنا على ظهري.. من فوقي ومن تحتي الخلاء العالي الفسيح. صعقني هدير الآلات التي ترج الأرض. خشيت أن أصرخ حتى لا يطوحني صوتي.

ـ ها هو الوقت يوشك أن ينتهي وسجادة الزمان انطوت.. ها هو اليأس يحط على دمي وروحي ثقيلاً.. لا شيء يستنهض الأمل إلا تذكري هذه السيدة التي كنت أود أن أرى وجهها.. لن يجدني الموت مرعوباً ولا خائفاً منه.

ها هي أظافر الضوء المدببة القاسية تحفر في وجهي وجسدي لتنير أعماقي رغماً عني.. لم تجد أعماقاً.. أغمضت عيني.. راعني أن أسمع بقوة عنف تداعي الأشياء في هذه المدينة الغول.. يا شاعرنا.. لن تفلت.. إنك أول العابرين من باب السقوط، ولن يكون أحد بانتظاري إلا الهاوية..

ليتني أعود إلى قريتي وأعانق أشجارها وأطيارها وأهلها، وأنفذ في الرحم القديم فأولد من جديد.. جسدي ثقيل جداً ومفكك وآيل للتلاشي.. لم تعد ذراعي قادرة على العناق ولا قلبي على الشوق، ولم تعد روحي قادرة على أن تحلق فوق أنفي.. لا حول لي، وبأي شيء أحتمي.. لابد أن الله كان يفكر في شيء غير الذي أفكر فيه، هل أجد لجسدي موطئاً. أم يا ترى يتبعثر كالزجاج ثم تذروه الرياح، ها هوالنهار ينزف الضوء بغزارة.. ثمة شخص غير مرئي على منضدة الورق يلعب وحده.

تخدر جسدي، لم أعد أشعر بأي قدرة على القبض، ولن تمضي لحظات حتى ينفلت الجسد، ويرتطم بكل شيء، مرت عليّ أطول ساعة في عمري، شهدت أكبر نداءاتي إلى الله.

لمّا أوشكت أن أفقد الوعي لمحت من بين ستائر رموشي رجلاً على رأسه خوذة لامعة يمشي في الفضاء ويتقدم مني.

١٩٩٣

فهرس الأعمال الكاملة

فؤاد قنديل

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٥٤١٩ / ٢٠٠٢

I.S.B.N 977 - 01 - 7773 -3